جامعة مؤتة

عمادة الدراسات العليا

الرسائل الفنيّة في العصر المملوكيّ الأوّل

(784/648هـ)

سلامة هليّل عيد الغريب

رسالة

مقدّمة إلى

عمادة الدراسات العليا

لمتطلّبات الحصول على درجة الدكتوراه

في الأدب – قسم اللغة العربية

جامعة مؤتة، 2003م

جامعة مؤته

اجازة رسائل جامعية

عمادة الدراسات العليا

تقرر اجازة الرسالة المقدمة من الطالب سلامه هليل عيد الغريب والموسومة بـ:

"الرسائل الفنية في العصر المملوكي الاول" .استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة في اللغة العربية .

القسم اللغة العربية

الاسم	التوقيع	التاريخ	
أ.د سمير الدروبي		٢٠٠٣/١١/١٢	مشرفا
أ.د رشدي الحسن		٢٠٠٣/١١/١٢	عضوا
أ.د جهاد المجالي		٢٠٠٣/١١/١٢	عضوا
أ.د شفيق الرقب		٢٠٠٣/١١/١٢	عضوا

عميد الدراسات العليا

د.ذياب البداينة

الإهداء

إلى والدتي العزيزة، ثمرة من ثمار صبرها،

إلى زوجتي الوفيّة.

سلامة الغريب

فهرست المحتويات

الملخّص

الرسائل الفنيّة في العصر المملوكي الأوّل

سلامة هليّل عيد الغريب

جامعة مؤتة، 2003م

يمثّل هذا العمل دراسة للرسائل الفنيّة في العصر المملوكي الأوّل، ويظهر في الوقت ذاته مدى تطوّر الرسائل الفنيّة في ذلك العصر، ويتألّف هذا العمل من تمهيد وأربعة أبواب لكل باب ثلاثة فصول إضافة إلى الخاتمة.

فقد تمّ في التمهيد مناقشة الأوضاع الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة لذلك العصر.

وخصّص الباب الأوّل للرسائل السياسيّة، إذ دُرست في الفصل الأول الرسائل ذات العلاقة المباشرة بالخلفاء والسلاطين، ودُرست في الفصل الثاني الرسائل الإداريّة والشؤون الداخليّة، وخُصّص الفصل الثالث لدراسة الرسائل الخاصة بالعلاقات الخارجيّة بين المماليك والممالك الأُخرى.

وتناول الباب الثاني الرسائل ذات الصبغة الإخوانيّة، فتمّت دراسة الرسائل ذات المظاهر الاجتماعيّة في الفصل الأول، بينما تكفّل الفصل الثاني بدراسة الرسائل ذات الصّفة الشخصيّة، وخُصّص الفصل الثالث لدراسة الرسائل ذات العلاقات التعليميّة.

وعُقد الباب الثالث للرسائل ذات الصبغة الأدبيّة التعبيريّة، فكان الفصل الأول حول رسائل الوصف، بينما تضمّن الفصل الثاني رسائل الطرد وقِدْمات البندق، واعتنى الفصل الثالث برسائل المفاخرات والأسئلة والأجوبة.

وكشف الباب الرابع عن الدراسة الفنيّة، إذ تناول الفصل الأول بناء الرسالة، واللغة والأُسلوب، والصورة والخيال. ويُعنى الفصل الثاني ببيان مدى تأثُّر الكتّاب بالمدرسة الفاضليّة في الفنون البديعيّة، ويهتمّ الفصل الثالث بالكشف عن مدى تغلغل بذور المناهج الحديثة؛ كالتّناص والشعرية في الرسالة الأدبيّة.

Abstract

Artistic Letters in the First Mamluki Period

Salameh Hlail Al-Ghareeb

Mu'tah University, 2003l

The present work studies the artistic letters in the first Mamluki period and their development. This work consists of an introduction and four chapters each of which consists of three divisions, in addition to the conclusion.

The introduction discusses the social, cultural and political circumstances in the Mamluki period. The first chapter is allocated to the study of political letters. The first division studies the letters that are directly related to Caliphs and Sultans. The second division describes letters relevant to administrative and internal matters while the third division is dedicated to the study of private letter that represents the external relationship between Mamlukis and others states.

The second chapter discusses letters of friendship. The first division of this chapter studies letters that pertain to social aspects of life while the second division studies letters relevant to personal attributes. The third division studies letters that pertain to learning.

The third chapter is dedicated to the study of literary and expressive letters. While the first division studies letters of description, the second division handles letters of hunting. The third division discusses letters of boasting, questions and answers.

The fourth and last chapter focuses on the artistic aspects of letters. Thus the division handles the structure of letters their language , style and image. The second division explicates the degree of influence of the Fadilite School of Rhetoric on writers of that period. Finally, the third division uncovers the penetration of m odern c urriculum i deas, s uch a s crowded ideas and being poetic, in artistic letters.

الفصل الأول

الرسائل السياسيّة

التمهيد

الحياة الاجتماعيّة:

تميّـزت الحـياة الاجتماعـيّة في العصر المملوكيّ بالطبقيّة، إذ برزت طبقتان: إحـداهما طبقة السّادة الذين تقلّبوا في نعيم الدّنيا وملذّاتها، والأُخرى طبقة العامّة الذين عاشـوا حـياة الكفـاف والعـوز، فقد ذكر المقريزي أنّ نظام الطبقيّة كان متفشّياً في العصـر المملوكي، وكان أساس الطبقية – في مجمله – ناشئاً عن الأحوال الاقتصادية، إذ جعل المجتمع في طبقات سبع: فـ "القسم الأول أهل الدولة، والقسم الثاني أهل اليسار من التجّار، وأولى النعمة من ذوي الرفاهيّة، والقسم الثالث الباعة، وهم متوسّطو الحال من التجّار، ويقال لهم أصحاب البز، ويلحق بهم أصحاب المعايش، وهم السوقة، والقسم الرابع أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث، سكان القُرى والرّيف، والقسم الخامس الفقـراء، وهـم جـلّ الفقهاء، وطلاّب العلم، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس أرباب الصنائع والأُجراء أصحاب المهن، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة، وهم السؤّال الذين يتكفّفون النّاس ويعيشون منهم"(1).

وقـد أحصـى ايـرا. لابـدوس المجتمع في العصر المملوكيّ في طبقات أربع تنحصـر فـي النُخـبة الحاكمـة، والأعيان أو الوجهاء، وعامّة الشعب، والجماهير البروليتارية(2)، بينما ترى حياة الحجيّ أنّ المجتمع المملوكيّ انحصر في طبقتين اثنتين حوَتْ الطبقات السابقة جميعها: طبقة المماليك من السلاطين والأمراء والأجناد، وطبقة

---

(1) المقريـزي، أحمـد بن علي (845هـ/1441م): إغاثة الأمّة بكشف الغُمّة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (1359هـ/ 1940م)، ص72-73.

(2) انظـر ايـرا. لابدوس: مُدن إسلاميّة في عهد المماليك، ترجمة علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيـروت، ط2، 1987م، ص136.

وينكرون عليهم ما هم يرتكبون أضعافه"[1]، لا بل يستكثرون عليهم الأرزاق، ويعيبون عليهم ركوب الخيل، ولبس الثياب الفاخرة، ولذا يرى السبكيّ أنّه يخشى على تلك الطبقة من الأُمراء زوال النّعمة عن قريب، فإنّها تتبختر في أنعم الله مع الجهل والمعصية[2].

وعلــيه فــإنّ تاجّ الدّين السبكيّ وضع إصبعه على الدّاء، وأدرك خطر أمراض اجتماعــيّة جمّة جمعها في مصنّفه معيد النعم ومبيد النقم، كما تابعه المقريزي في ذلك المجــال فصــنّف كتابه: إغاثة الأمّة بكشف الغمّة، وجعل فساد الأحوال كامناً في أمور ثلاثة لا رابع لها:

فأوّلهــا وهو أصل الفساد الرشوة، وثانيها غلاء الأطيان، وثالثها رواج الفلوس، فأصــبحت ولايــة الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة: كالوزارة، والقضاء، ونيابة الأقاليم، وولاية الحسبة، وسائر الأعمال، وهذا أدّى إلى تمكين كلّ جاهل ومفسد وظــالم وبــاغٍ إلى ما لم يكن يؤمّله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة، بينما أدّى غلاء الأطيان – وهو يرتكز على نظام الإقطاع – إثقال كاهل الفلاحين بارتفاع الأُجور والأســعار؛ ممّا أدّى إلى ترك العمل بالفلاحة، أمّا رواج الفلوس فيعني استحداثها دون الدراهم[3].

وقــد فشــت في المجتمع المملوكي مظاهر الظّلم والاضطهاد، وكثرة المكوس، ومصــادرة الأمــوال؛ ممّا دعا الشيخ شرف الدّين النوويّ (ت676هــ/1277م) يكثر المكاتــبات إلــى الســلطان الظّاهــر بيبرس (ت676هــ/1277م)، ويعظه في أُمور

---

(1) الســبكيّ، تــاجّ الدّين عبد الوهاب (ت771هــ/1369م): معيد النعم ومبيد النقم الإصلاح السياسي والإداري في الدولة العربية الإسلامية، دار الحداثة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، ص47.

(2) انظر المصدر نفسه، ص49.

(3) انظر المقريزيّ: إغاثة الأمّة، ص43-47.

المسلمين، فكتب إليه رسالة تتضمّن العدل في الرعيّة وإزالة المكوس، وكتب إليه أخرى لمّا احتيط على أملاك دمشق[1] *.

ولا شـــكّ أنّ هذه المكاتبات تكشف عن الأوضاع السائدة في المجتمع آنذاك، ولم تقتصـــر الأحـــوال الســـيئة علـــى الأوضـــاع الاقتصادية بل اجتمعت كوارث طبيعية وأمـــراض فتّاكة ساهمت في فتّ عضد المجتمع، وزادت من ويلاته، فانتشرت الأوبئة، وحـــدثت الزلازل؛ ممّا حدا بالكتّاب أن يصفوا تلك الأوضاع، فألّف ابن الورديّ (749 هـــ/ 1348م) رسالة أسماها "النبأ عن الوبا"، وأخرى في وصف زلزلة، وسوف يتمّ بحثهما في مكانهما من البحث.

ولا يمكـــن في صفحات قليلة استيعاب مظاهر حياة مجتمع زاخرة بالأحداث، إذ كـــان لـــه عـــادات وتقاليد في أفراحه وأتراحه، وفي مواسمه وأعياده، فضلاً عن أثر الأنظمة السياسيّة الموجّه لذلك المجتمع.

الحياة الثقافية:

تبوّأت القاهرة زعامة العالم الإسلاميّ بعد نكبة بغداد على يدّ المغول (656هـــ/ 1258م)، فأصبحت القاهرة محطّ أنظار العلماء وطلبة العلم، وقد تضافرت مجموعة من العـــوامل جعلتها حاضرة العالم الإسلاميّ وقتذاك، فأوّل هذه العوامل جوّها الآمن البعيد نســـبياً عـــن الأخطار الآتية من المشرق والمغرب، فلقد استفحل أمر التتار في مشرق العالم الإسلاميّ، بينما شدّد القوط الخناق على المسلمين في شبه جزيرة الأندلس؛ ومن هـــنا رأى العلمـــاء في القاهرة الملاذ الآمن، فهاجروا إليها من مشرق العالم الإسلامي ومغربه.

---

(1) انظـــر الســـيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـــ/1505م): حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبيّ وشركاه، ط1، 1387هـــ/1968م، 2/97-103.

* كـــتب الإمـــام الـــنوويّ أربـــع رســـائل في نصح السلطان الظاهر بيبرس، وقد قام سمير الدروبي بتحقيق تلك الرسائل. انظر الدوربـــي، ســـمير محمـــود: رسائل الإمام النوويّ إلى الظاهر بيبرس، المجلة الثقافية – تصدر عن الجامعة الأردنية، العدد الثالث، 1404هـــ/1984م، ص117-138.

وقـد ساهم انتقال الخلافة العباسيّة سنة (659هـ/1260م) إلى القاهرة في زيادة حظـوتها فـي الحياة الثقافيّة، إذ أصبحت الزعامة الدينيّة مرتبطة بها، كما أنّ تشجيع السـلاطين المماليـك للعلماء له أكبر الأثر في نشر العلم والثقافة، إضافة إلى اهتمامهم ببناء المدارس.

ومهمـا يكـن، فقد "ورثت مصر العراق في الزعامتين الدينيّة والسياسيّة للعالم الإسـلامي والعربي، كما عقد لها لواء الزعامة الفكرية والحضارية، وصارت القاهرة خليفة بغداد منذ منتصف القرن السابع وطوال قرون طويلة تالية"(1).

وقـد أظهر بعض السلاطين المماليك جانباً من اللّين والعطف العلماء، وكنُوا لهم التقديـر محاولـين رفع شأنهم، فكانت معاملة السلاطين تشي بذلك، وهذا الأمر أعطى ثماره في تقدّم الحياة الثقافيّة، ورفع سويتها، فمن ذلك ما حدث للقاضي ابن بنت الأعزّ (ت695هـ/1295م)، فقد حضر إليه الملك الظّاهر بيبرس في دار العدل لكي يتحاكم مـع أحـد الأُمراء في بئر، فلمّا وصل السلطان وقف النّاس إلاّ القاضي، فقد أشار إليه السلطان بعدم القيام(2).

ومـن ذلـك احتـرام السـلطان حسام الدّين لاجين (698هـ/1298م) للعلماء وتوقيـرهم، فروى الصفديّ (764هـ/1362م) في حقّ ابن سيّد النّاس اليعمريّ (734 هـ/1333م) – الذي قصد القاهرة من الأندلس برفقة والده – إذ "كان الأمير علم الدين الـدواداري يحـبّه كثيـراً، ويقضـي أشغال الناس عنده، ودخل به إلى السلطان الملك المنصـور حسام الدين لاجين، وقد امتدحه بقصيدة، وقال: أحضرت لك هذا، وهو كبير من أهل العلم، فلم يدعه السلطان يبوس الأرض، وأجلسه معه على الطرّاحة"(3).

(1) سلام، محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي (الدولة الأولى 648/783هـ)، دار المعارف، القاهرة، 1979م، س106.

(2) انظر السيوطي: حُسن المحاضرة، 95/2.

(3) الصـفديّ، صـلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/1362م): أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبي زيد وآخرون، دار الفكر، دمشق، ط1، 1998م، 207/5.

وهذا الخبر أورده ابن تغرّي برديّ (874هـ/1469م) بصورة أكثر إشراقاً حيث قال: "أهل العلم منزّهون عن هذا، وأجلسه عنده"(1).

ففـي تلك العبارة توقيرٌ للعلماء وأهل العلم؛ لأنّ إعفاءهم من تقبيل الأرض بين يـديّ السـلطان ممّـا كـان يفعله خاصّة السلطان يصوّر مدى احترام السلاطين للعلم وأهلـه، فكان السلطان لاجين ينزل عن سريره ويقبّل يدّ القاضي ابـن دقيـق العيـد (712هـ/1312م)(2).

والحـوادث في مثل هذه المواقف كثيرة، وربّما كان دافعها كسب ودّ العلماء في توطـيد أركـان الحكم، إذ كان العلماء المتنفّس الوحيد لهموم العامّة، وهم الطبقة التي تثـق بها الجماهير، ففي كسب ودّهم تهدئة لخواطر النّاس.

ومـن مظاهـر الاهتمام بالثقافة تسابق السلاطين في بناء المدارس، وتخصيص الأموال الطائلة لها، وإقامة الاحتفالات عند الانتهاء من بنائها، فروى العينيّ (855هـ/ 1451م) خبـر الانتهاء من بناء المدرسة الظاهريّة في القاهرة سنة (662هـ/1263م) قـائلاً: "وفـي أول السّنة كملت المدرسة الظاهريّة التي بين القصرين، ورتّب لتدريس الشّافعيّة بها القاضي تقيّ الدّين محمد بن الحسن بن رزين، ولتدريس الحنفيّة مجدّ الدّين عـبد الـرحمن بـن كمـال عمر بن العديم، ولمشيخة الحديث بها الشيخ شرف الدّين الدمياطـي عبد المؤمن بن خلف الحافظ، وكان الإجلاس بها في الخامس من صفر في هـذه السّنة، واجتمع بها أهل العلم والأدب والفقهاء، ودرّس المدرّسون، واندفع الشعراء يمتدحون"(3).

(1) ابـن تغـرّي بـردي، جمـال الدين أبو المحاسن يوسف (874هـ/1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصوّرة عن نسخة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1935م، 108/8.

(2) انظـر ابـن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (852هـ/1448م): الدُرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيّد جاد الحقّ، ط2، (1385هـ/1966م)، مطبعة المدني، القاهرة، 212/4.

(3) العينـي، بـدر الدّين محمد (855هـ/1451م): عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1407هـ/1987م، ج1، ص382.

فأنشد السرّاج عمر الورّاق في هذا الحفل يشيد بالملك الظّاهر، ويثمّن له بناء هذه المدرسة التي تُشدُّ الرحال لها من مختلف بلدان العالم الإسلامي آنذاك:

مَلِيكٌ لَهُ فِي العِلْمِ حُبٌّ وأهْلِهِ فَلِلَّهِ حُبٌّ لَيْسَ فِيهِ مَلاَمُ
فَشَيَّدَهَا لِلْعِلْمِ مَدْرَسَةً غَدَاً عِرَاقٌ إِلَيها شَيِّقٌ وَشَآمُ
فَلاَ تَذْكُرَنْ يَوْمَاً نِظَامِيَّةً لَهَا فَلَيسَ يُضَاهِي ذَا النِّظَامِ نِظَامُ
وَلاَ تَذْكُرَنْ مَلْكَاً وَبَيْبَرْسُ مَالِكٌ وكُلُّ مَلِيكٍ فِي يَدَيْهِ غُلاَمُ
وَقَدْ بَرَزَتْ كَالرَّوْضِ فِي الحُسْنِ أَنْبَأَتْ بِأَنَّ يَدَيهِ فِي النَّوَالِ غَمَامُ(1)

كما أنشد الأديب أبو الحسين الجزّار في المناسبة ذاتها مشيداً بالملك الظّاهر، ومقدِّراً له إنجاز ذلك الصّرح العلمي:

ألاَ هَكَذَا يَبْنِي المَدَارِس مَنْ بَنَى ومَنْ يَتَغَالَى فِي الثَّوابِ وفي الثَّنا
لَقَدْ ظَهَرَتْ لِلْظَّاهِرِ المَلْكِ هِمَّةٌ بِهَا اليَوْمَ فِي الدَّارَيْنِ قَدْ بَلِغَ المُنَا
تَجَمَّعَ فِيها كُلُّ حُسْنٍ مُفَرَّقٍ فَرَاقَتْ قُلُوبَاً للأَنَامِ وأعْيُنا
وَقَدْ جَاوَزَت قَبْرَ الشَّهِيْدِ فَنَفْسُهُ النَّفِيسَةُ فِيها فِي سرُورٍ وفي هَنَا
ومَا هِيَ إلاَّ جَنَّةُ الخُلْدِ أُزْلِفَتْ لَهُ فِي غَدٍ فاخْتَارَ تَعْجِيلَهَا هُنَا(2)

والحقيقة أنّ أغلب السلاطين المماليك شيَّدوا مدارس وسمِّيت بأسمائهم، فبنى الظاهر المدرسة الظّاهرية، وبنى المنصور قلاوون المدرسة المنصورية، وبنى الناصر محمد بن قلاوون المدرسة الناصرية، كما بنى الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون المدرسة العظمى، وبنى الأشرف شعبان بن حسين المدرسة الأشرفية(3).

(1) المصدر السابق، 383/1.

(2) المصدر نفسه، 383/1-384.

(3) انظر القلقشندي، أحمد بن علي (821هـ/1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1383هـ/1963م، 363/3.

ولـــم يقتصر بناء المدارس على السلاطين بل تعدّى ذلك إلى الوزراء والأمراء والأغنياء والعلماء والمقتدرين[1]، فبنى الأمير شيخون المدرسة الشيخونية "وهي مدرسة هائلة، جمع فيها المذاهب الأربعة، ودارًا للحديث، وخانقاة للصوفيّة، وقف عليها كثيراً، وقرّر فيها معاليم وقراءة ودار"[2]، كما بنى ناصر الدين محمد بن مسلم البالسي الأصل كبير التجّار المدرسة المسلميّة في مصر سنة ست وسبعين وسبعمائة[3].

وقـــد كان للمساجد دورٌ مهمٌ في حلقات الدرس إلى جانب الوظيفة الدينية، فكانت تلقـــى فيها الدروس، وخاصة العلوم الدينية، كما أسهمت البيمارستانات في نشر الثقافة الطبية، إذ كانت إلى جانب الخدمات الطبية وتقديم العلاج للناس تدرّس الطبّ[4].

كمـــا راجـــت أســـواق الكـــتب، فكانت تلك الأسواق عامرة بما يصل إليها من مخطـــوطات ممـــا جعلهـــا مصـــدراً للعلماء الراغبين في اقتناء الكتب[5]، وقد ساهمت الإجـــازات العلمية بأنواعها في تنظيم الحركة العلمية وإثرائها، إضافة إلى سنّة تقريض المصـــنّفات جلـــيلة الشأن، وسيتمُّ تناول الإجازات والتقاريض في فصل خاص من هذا البحث.

ونتـــيجة للعـــوامل الســـابقة مجتمعة ازدهرت العلوم بشتّى ألوانها، وفي الحقول المخـــتلفة، فظهـــرت المؤلّفات الموسوعيّة التي أصبحت سمة غالبة لذلك العصر، فهو

(1) انظـــر الحجيّ، حياة ناصر: السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1403هـــ/ 1983م، ص107.

(2) ابـــن كثير، أبو الفداء الحافظ الدمشقيّ (774هـــ/1372م): البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1407هـــ/1987م، جزء 14، ص258.

(3) انظر المقريزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط المقريزية، دار صادر، بيروت، طبعة جديدة بالأوفست، 401/2.

(4) انظر الحداد، محمد حمزة إسماعيل: السلطان المنصور قلاوون، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1413هـــ/1993م، ص55-56.

(5) انظـــر الدروبـــي، سمير محمود: ظاهرة التعدّد والكثرة في مؤلّفات السيوطي، مجلة المنارة، جامعة آل البيت، مجلد 4، عدد3، 1420هـــ/1999م، ص628.

عصر الموسوعات الكبرى والمتون العلميّة المنظومة، وكتب التاريخ والطبقات الشهيرة، والشروح المبسوطة على النصوص التراثيّة المهمّة(1).

الحياة السياسيّة:

كانـــت وفاة السلطان صلاح الدّين الأيّوبيّ (589هـ/1193م) بعد تقسيمه البلاد بين أبنائه وإخوته(2) البداية الممهّدة لظهور دولة المماليك، إذ اجتمعت عدّة عوامل أدّت إلـــى أفول نجم الأيوبيّين، فكان أشهرها الاستكثار من العنصر المملوكي، بالإضافة إلى النـــزاع القائم بين الحكام أنفسهم، فقد أفرط الصالح نجم الدّين في اقتناء المماليك، فذكر المقريـــزي أنّ "الملك الصالح هو الذي أنشأ المماليك البحريّة بديار مصر، وذلك أنّه لمّا مـــرّ به ما تقدّم ذكره في الليلة التي زال عنه ملكه بتفرّق الأكراد وغيرهم من العسكر عـــنه حتـــى لم يثبت معه سوى مماليكه رعى لهم ذلك، فلمّا استولى على مملكة مصر أكثـــر مـــن شـــراء المماليـــك، وجعلهم معظم عسكره ... فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه، وسمّاهم بالبحريّة لسكناهم معه في قلعة الروضة على بحر النيل"(3).

والحقيقة أنّ شراء هؤلاء المماليك ساهمت فيه أسباب كثيرة، أبرزها فرار سكّان الـــبلاد الشـــمالية الشرقية من الزحف المغوليّ، إضافة إلى رغبة الحكّام الأيّوبيّين في توطـــيد أركان حكمهم فاستكثروا منهم، وقد تمّ تدريبهم على فنون القتال والحرب حتى أصبحوا عمدة الجيش الأيّوبي في مصر.

وقد أحسّ هؤلاء الجند بنفوذهم في ذلك الزمن فواتتهم الفرصة في تلبية رغبتهم باستلام زمام الأُمور، فبعد أن توفي الملك الصالح نجم الدّين أيّوب (647هـ/ 1249م)

---

(1) انظـــر ناجـــي، هلال: سمات العطاء الأدبي والفكري في القرن الثامن الهجري، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 63، السنة 26، (1423هـ/2002م)، ص196.

(2) انظـــر أبـــا الفداء، الملك المؤيّد إسماعيل بن علي (732هـ/1331م): تاريخ أبي الفداء المسمّى المختصـــر في أخبار البشر، علّـــق علـــيه ووضع حواشيه محمود ديّوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417هـ/ 1997م، 2/174-175؛ انظر ابن كثير: البداية والنهاية، 7/13.

(3) المقريـــزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، مطبعـــة دار الكتـــب المصـــرية، 1355هـ/1936م، 1/339.

تولّـــى الأمـــر بعده ابنه توران شاه سنة (648هـ/1250م)، وقد كانت البلاد في أزمة حقيقيّة حيث الصليبيون في حالة كرٍّ وفرٍّ مع الجيش المملوكي، وقد استطاع المماليك أن يحقّقـــوا انتصـــارات كبيرة، وهذا الأمر زاد الرغبة لديهم في استلام الحكم، وقد شعر تـــوران شـــاة بهـــذه الـــرغبة فقلب لهم ظهر المجنّ "وسيطر عليه شعور بأنّ المماليك يـــزاحمونه الحكم، ويقاسمونه سلطانه، ولم يلبث أن أضمر توران شاه للمماليك البحريّة أمراً"[1]، وقد تجاوز في إفراطه وشعوره العدواني إلى تهديد أرملة أبيه، و "بدت منـــه أسباب نفّرت القلوب عنه فاتّفقوا على قتله، وكان فيه نوع خفّة"[2].

ولمّـــا أدركت شجرة الدُرّ خطر ذلك الملك "خافت منه فكاتبت فيه فاتّفق الجميع عـــند ذلك على قتله"[3]، وبمقتل توران شاه (648هـ/1250م) انتهى حكم الأيّوبيّين في مصـــر، وتحقّقت رغبة المماليك الكامنة في نفوسهم، فسوّدوا عليهم أرملة سيدهم شجرة الدُرّ حتى تتّضح الأُمور وتنجلي، ويختاروا من يتولّى الأمر.

ولـــم تكـــن توليـــتهم لتلك المرأة لحُسنها وتدبيرها وحزمها كما ذكر ابن تغرّي بـــــرديّ فإنّهم "اتّفقوا على ولايتها لحسن سيرتها، وغزير عقلها، وجودة تدبيرها"[4] لا بـــل لتكون لهم ذريعة في عدم وجود رجل من بني أيّوب يشغل ذلك المنصب، وعندئذ يتـــزوّجها أحد الأمراء ويحكم باسمها، ولذا "جعلوا المعزّ أيبك التركماني أتابكاً لها"[5]، وذكـــر ابن خلدون (808هـ/1405م) أنّهم "نصّبوا للملك شجرة الدُرّ أمّ خليل، وخُطب لهـــا على المنابر ونقش اسمها على السكّة، ووضعت علاماتها على المراسم ونصّها أمّ خليل"[6].

---

(1) عاشور: العصر المماليكي في مصر والشّام، ط2، 1976م، دار النهضة العربية، القاهرة، ص9.

(2) ابن تغرّي برديّ: النجوم الزاهرة، 371/6.

(3) المصدر نفسه، 371/6.

(4) المصدر نفسه، 373/4.

(5) المصدر نفسه، 373/6.

(6) ابن خلدون، عبد الرحمن (808هـ/1405م): تاريخ ابن خلدون، ضبط خليل شحادة، دار الفكر، 430/5.

وقـد أحدث توليتها للحكم ثورة من الغضب في أوساط الأيوبيّين في بلاد الشّام، كما عاب الخليفة المستعصم على الأمراء موقفهم، وأرسل لهم كتاباً جاء فيه: "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتّى نسيّر إليكم رجلاً"(1).

والحقيقة تكمن في تولية شجرة الدُرّ الحكم، فقد خطّط المماليك لتلبية رغبتهم في الحكـم بالزّواج منها، فكان زواج عزّ الدّين أيبك منها البداية الفعلية لحكم المماليك "ولم يكن أيبك أكبر المماليك سنّاً أو أقدمهم خدمة أو أقدرهم مكانة ونفوذاً، إذ كان يوجد من هـو أكبر وأقدم وأقدر منه مثل فارس الدّين أقطاي، والظّاهر بيبرس، ممّا جعل بعض المؤرّخين مثل أبي المحاسن يتّهمه بضعف النفوذ والشوكة، وأنّ الأمراء لم ينتخبوه إلاّ لكي يتمكّنوا من عزله متى شاءوا"(2).

وأحسّت شجرة الدُرّ بالأطماع المحيطة بها و "تزايدت الوحشة بين الملك المعـزّ أيبك، وشجرة الدُرّ، فعزم على قتلها"(3)، فلم تمهله بل أعدّت له من يقتله وأشاعت الخبر بأنّه مات فجأة في الليل، فلم تصدّق مماليكه بذلك(4).

وقد اتّخذ مماليكه من قتله ذريعة بأن ولّوا ابنه علي بن المعزّ، وعندئذٍ نقل شجرة الـدُرّ إلـى أمّـه "فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت"(5) سنة 655هـ/1257م، وعندئذٍ آلت الأُمور كليّة إلى المماليك.

ولكـنّ النّاس لم يرضوا عن الملك علي بن المعزّ لطيشه، ولم يظفر بثقة الرعيّة "لكثـرة لعبه بالحمام، ومناقرته بالديوك، ومعالجته بالحجارة، وركوبه الحمير الغرّة في القلعـة، ومناطحته الكباش"(6)، كما تعرّض مشرق العالم العربي ودار الخلافة في عهده

---

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ق2/ ص368.
(2) عبد الدايم، عبد العزيز محمود: مصر في عصر المماليك والعثمانيين، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، 1996م، ص43.
(3) المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص401.
(4) انظر المصدر نفسه، ج1، ق2/ ص403.
(5) المصدر نفسه، ج1، ق2، ص404.
(6) ابن العماد، عبد الحيّ الحنبليّ (1089هـ/1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة جديدة دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، 271/5.

إلى أكبر هجمة همجيّة تمثّلت في تدمير بغداد على يد المغول 656هـ/1358م، فأحسَّ المماليك بالخطر وفقدوا الثقة بالملك لطيشه وخفّته، فوثب قطز على السلطنة (657هـ/1259م)، وأودع الملك المنصور وأفراد أسرته السجن.

وأعـدَّ السـلطان المظفّر قطز العدّة لمواجهة الخطر وملاقاة العدوّ، كما أنّه أثار الحمـية فـي الأمراء والجند، وهبَّ مواجهاً الخطر المغولي، فانتصر عليهم في معركة عين جالوت (658هـ/1259م)، فمكّنت تلك الوقعة العالم العربي والإسلامي من تمالك أنفاسـه بعـد أن أنهكه الزحف المغوليّ، كما أنها أعادت للعالم الإسلامي هيبته، لا بل جرّعت المغول درساً قاسياً ما عرفوا مثله منذ خروجهم من ديارهم.

وكـان أشهر سلاطين المماليك على الإطلاق الملك الظّاهر بيبرس، فقد حَسُنت سـيرته، وذاع صيته، فكان في حكمه فتوحات كثيرة، ومن أكبر إسهاماته نقل الخلافة العباسـيّة إلى القاهرة، فبايع المستنصر بالله خليفة، وتابعه الأُمراء وعامّة النّاس، ونقش اسمه على السكّة وخطب له على المنابر، وكان ذلك سنة (659هـ/1260م).

ومـن آثاره الحسنة الاهتمام بالعلماء والتعليم، وكما أمر في أيّامه بإراقة الخمور وإبطـال المفسـدات والخواطـئ وإسـقاط المكوس المرتبة عليها[1]. وقد بلغت الدولة المملوكية أوج عزّها في زمنه، وبعد وفاته آلت الدولة لابنه سلامش ابن الملك الظّاهر، ولـم تـدم سلطته طويلاً حتى خُلع وانتقل الحكم إلى البيت القلاووني الذي استأثر بهذه الدولـة ردحـاً مـن الـزّمن، فقد "استمرَّ قلاوون في السلطنة فكانت له مشاهد حسنة، وفتوحات منها طرابلس ... وهو الذي أحدث وظيفة كاتب السرّ، وأحدث اللعب بالرّمح

(1) انظر السيوطي: حُسن المحاضرة، 96/2.

أيـــام إدارة المحمل•، وكسوة الكعبة، وغيَّر ملابس الدّولة عمّا كانوا عليه في دولة بني أيّوب"[1].

وخلفه في الحكم ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل، وكانت له إنجازات منها فـــتح آخـــر معاقل الصيليبيّين في عكّا 690هـ/1291م، ثمّ قتل سنة 693هـ/1293م، فخلفه في السلطنة أخوه أبو الفتوح الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقد انتهى به الأمر في المرّة الأولى أن خُلع وتسلطن زين الدّين كتبغا المنصوريّ، وقد تمَّ قتله (696هـ/ 1296م)، وتولّى الحكم السلطان حسام الدين لاجين (696هـ/1296م). وبعد مقتله عاد الملك الناصر محمد مرّة ثانية للحكم سنة (698هـ/1298م)، وقد أجبر على ترك الحكم فتظاهـــر بقصد الحجّ وتسلطن الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري، وقد تمّ قتله (709هـ/1309م)، وأُعيد الناصر محمد للحكم مرّة ثالثة حتى وفاته سنة 741هـ/ 1340م.

وقـــد ظهـــر المماليك أمام شعوب البلاد في صورة المجاهدين في سبيل الإسلام والمســـلمين فنالوا التأييد والتعضيد[2]، إلاّ أنّ الأُمور ساءت واهتزّت صورة السلاطين بعـــد الملك النّاصر محمد بن قلاوون لصغر سنّهم وكثرة اغتيالاتهم، فكانت تلك الفترة سلســـلة حوادث بؤس وشقاء، فالسلاطين كانوا أطفالاً لم يبلغوا الحلم ، يولّون ويعزلون على حسب إرادة مماليك ذلك العهد[3].

• هي عبارة عن محفّة شبه الهودج ذات قمّة هرميّة كُسيت بثوب مزخرف يصحب ركب الحاج إلى مكّة زادها الله تشريفاً. انظر ابن بطوطة، شمس الدين أبا عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي (779هـ/ 1377م): رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث (1417هـ/1997م)، ص221.

(1) السيوطي: حُسن المحاضرة، 110/2.

(2) انظـــر الحجّي، حياة ناصر: أنماط من الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين، 1995، ذات السلاسل، الكويت، ص8.

(3) انظـــر موليـــر، السير وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1415هـ/1995م، ص104.

واســتمرّ الملــك يسوسه بنو قلاوون وأحفاده حتّى نهاية الدولة المملوكيّة الأولى التي تعرف بالبحريّة، فقد حكم ثمانية من أبنائه حتى عام 762هـ/1360م؛ أي ما يقرب مــن عشــرين عامــاً وهم[1]: الملك المنصور سيف الدين أبو بكر (741- 742هـ)، والملك الأشرف علاء الدين كجك (742هـ)، والملك الناصر شهاب الدين أحمد (742 هـ)، والملــك الصالح عماد الدين إسماعيل (743-746هـ)، والملك الكامل زيــن الــدّين شعبان (746هـ)، والملك المظفّر زين الدين حاجي (747-748هـ)، والملك الناصر ناصر الدين أبو المحاسن حسن (748-752هـ)، والملك الناصح صالح (752 -755هـ)، وأُعيد الملك الناصر حسن مرّة ثانية (755-762هـ).

وبعــد مقتل الناصر حسن انتقل الحكم إلى أحفاد الناصر محمد بن قلاوون حتّى نهايــة الدولــة البحــرية (784هـ/1382م)، وهم[2]: الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد بن المظفّر حاجي (762-764هـ)، والملك الأشرف أبو المفاخر شعبان (764-778هـ)، والملك المنصور علاء الدين علي (778-783هـ)، والملك الصالح صلاح الدين حاجي (783-784هـ).

وهكذا انتهت فترة الدّولة المملوكيّة الأولى، وانتقل الحكم إلى المماليك الجراكسة وكان أوّلهم السلطان الملك الظاهر برقوق في رمضان سنة 784هـ/1382م[3].

---

(1) انظر السيوطي: حُسن المحاضرة، 2/116-118.

(2) انظر المصدر نفسه، 2/118-120.

(3) انظر المصدر نفسه، 2/120.

أولاً: شؤون الخلفاء والسلاطين

احــتلّت الرسائل السياسيّة في العصر المملوكيّ مكانة عالية، ومنزلة رفيعة، إذ أصبحت الوجه الحضاري الذي يحمل فكر الدّولة، والرموز السياسيّة في تلك الحقبة من الــزمن. وقــد اســتأثرت تلــك الرسائل بالاهتمام البالغ، والعناية الفائقة، حيث حظيت بطائفـــــة مـــن الكتّاب الذين كرّسوا مواهبهم في خدمتها، وإخراجها بالوجه الذي يليق بالمهمّة التي نهضت بها تلك الرسائل.

وقــد تــنوّعت المهمّــات التي أُلقيت أعباؤها على هذا اللون من المكاتبات، فقد أصــبحت المنبر الحرّ الذي يُخاطب به الجمهور والخاصة في الأُمور التي تخصّ القادة والساسة في أمر تعيينهم وعزلهم، كما كان لها دور في بيان سياسة الدولة تجاه الرعية.

وقــد نشــأت تلــك الرســائل في حضانة ديوان الإنشاء الذي نظّم أمرها حسب الأغراض التي استخدمت من أجلها، وقد رُتّبت تلك المكاتبات على حسب ما حمّلت من أغــراض، فكانت تلك الرسائل الموجّه الحقيقي الذي يكشف عن السياسة المملوكيّة تجاه الخاصّة والعامّة.

فمــن هــذه الرسائل ما ينظّم علاقة الخلفاء بالخاصّة والعامّة من خلال البيعات والعهود التي تكفل سيادة أمر الخليفة، ونفاذ أحكامه وأوامره ونواهيه في جوٍّ من الأمن والاستسلام؛ فضلاً عن كونها السند الذي يحمي ظهره، ويؤكّد شرعيته في أداء واجبه.

وبعض هذه الرسائل ما يهتمّ بحياة الأفراد والجماعات في حالات الحروب والفتن والخصـومات، ككـتب الأمان التي تدبّج لتأمين الخائف على نفسه وخواصه، وبعضها تكون لحفظ الأمن وتجنُب الدمار؛ كرسائل الهدن بين الدولة ومناوئيها.

المبايعات:

تُعدُ رسائل المبايعات من الكتب ذات الحضور البارز في أذهان الخاصّة والعامّة حـال تنصـيب الخليفة الجديد، وقد أخذت هذه الرسائل أهميتها من القضية الدينيّة التي تمـسّ العقيدة الكامنة في نفس كل فرد من المسلمين، لذا كانت المبايعة من أهم ركائز الحكم الإسلامي في عصر الخلفاء الراشدين، والعصور التالية له.

والمـبايعة نـوعان: خاصّة *، وتكون بين الخليفة وخاصّته ولا تقوم إلاّ برضى هـؤلاء الأشخاص، ولا تنعقد إلاّ بعد أخذ رأيهم، فإذا اجتمع أهل العقد والحلّ للاختيار تصفّحوا أحوال أهل الإمامة الموجودة فيهم شروطها**، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً وأكملهم شروطاً[1]، وعامّة***، وهي التي نحن الآن بصددها، فهي من تسميتها توجّه إلى العامّـة؛ ولمّـا كـان من الصعب أن يبايع الخليفة كل العامّة درجت العادة بأن تكتب الرسائل، وتقرأ على مسامع العامّة في المساجد، والأماكن المأهولة بالأفراد حتى يتسنّى للنّاس كافة أن يسمعوا بالبيعة.

• البيعة الخاصّة تعني مبايعة أهل الحلّ والعقد للخليفة وإقراره، وهم العلماء والرؤساء وسائر وجوه الناس. انظر القلقشندي: أحمد ابـن علـي (821هـ/1418م): مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستّار أحمد فرج، ط1، 1964، عالم الكتب – بيروت، ج1/ص42.

•• شـروط الإمامـة تنحصر في : العدالة والعلم وسلامة الحواس، وسلامة الأعضاء، وصحّة الرأي، والشجاعة، والنسب. انظر المـاوردي: أبـو الحسن علي (450هـ/1058م): الأحكام السلطانيّة والـولايات الدينيّة، دار الكتب العلميّة – بيروت، د.ت، ص6.

(1) انظر المصدر نفسه، ص8.

••• البيعة العامّة: موافقة الأمّة على اختيار الخليفة ومعاهدته على الطّاعة له والانصياع لأوامره. انظر آل محمود؛ أحمد محمود: البيعة في الإسلام (تاريخها وأقسامها بين النظريّة والتطبيق)، دار البيارق – البحرين، ص22.

وتشتمل رسائل المبايعات على عناصر أساسيّة ينبّه الكتّاب على أهميتها، ومراعاة وجودها في كتابة المبايعات؛ كبراعة الاستهلال: من ذكرٍ لاسم الخليفة وألقابه، وأهميّة حاجة الأمّة له دون غيره؛ لاستيعابه لشروط الإمامة التي اجتمعت فيه، ويظهر فيها حصافة العقل عند المختارين لصاحب البيعة من العلماء والرؤساء، ومنبّهاً على قضية الطّاعة والانقياد وتفويض الأُمور إليه جميعها فيما يوافق الأحكام الشرعيّة[1].

وقد حفظت لنا جملة من المصادر التاريخيّة والأدبيّة[2] نصّاً كاملاً لبيعة أحد الخلفاء العباسيين في مصر، وهو الخليفة الحاكم العباسيّ (741هـ) بعد عزل الخليفة الواثق بالله، وكان منشئ هذه المبايعة ابن فضل الله العمري.

وقد تمثّلت الأُسس السابقة في تلك المبايعة، حيث ركّز الكاتب في خطبة الرسالة على أهميّة شرعيّة البيعة، فبدأ تلك الرسالة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُوْنَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرَاً عَظِيماً﴾ [3].

وهذه الآية الكريمة تبيِّن مدى أهميّة البيعة وشرعيتها وتوطيد أركانها، فلذا نرى الكاتب يتبع هذه الآية بقضيّة الرضوان والإحسان والطّاعة المطلقة، والرضا التّام من قِبَل الخاصّة والعامّة، فـ "هذه بيعة رضوان وبيعة إحسان وبيعة رضا تشهدها الجماعة ويشهد عليها الرحمن"[4]. فالكاتب يبيّن أهميّة البيعة من خلال رضا العامّة والخاصّة، ويؤكّد كذلك صحّتها وشرعيتها، ويلحّ على مسألة إجماع الأمّة حيث لا منازع لها ولا خصم، فالاتّفاق عليها حاصل بإجماع الأمّة، حيث يشير إلى ذلك بقوله: "أجمع على هذه البيعة أرباب العقد والحلّ وأصحاب الكلام فيما قلّ وجلّ وولاة الأُمور والأحكام وأرباب

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 9/276-277.

(2) ينظر المصدر نفسه، 9/3؛ السيوطي، ج2/70-79؛ تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، د.ت، ص491-499.؛ حمادة محمد ماهر: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكيّ، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط2، 1403هـ/1983م، ص95-105.

(3) سورة الفتح، آية 10.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 9/320.

المناصب والحكّام وحملة العلم والأعلام وحُماة السُّيوف والأقلام وأكابر بني عبد مناف ومن انخفض قدره وأناف، وسروات قريش ووجوه بني هاشم، والبقية الطاهرة من بني العبّاس وخاصّة الأئمّة وعامّة النّاس"(1).

فالبيعة نالت حظّاً وافراً من قبول أصحاب الأمر والنهي في الدّولة، وقد تعدّت ذلك إلى أن نالت قَبول طبقات العامّة. ويمكن أن يجمل القول في هذه المسألة بأنّ مشروعيّة البيعة وقوة مصدرها تكمن في رضا الخاصّة والعامّة عنها، فلذا يؤكّد الكاتب في ثنايا مكاتبته ذكر أطياف الخاصّة والعامّة مستهدفاً أولاً أرباب العقد والحلّ: وهم أصحاب البيعة الخاصّة، متبعاً هؤلاء بالعامّة ذاكراً طبقاتهم وأجناسهم ومهنهم، وكل ما يميّزهم، محاولاً حصرهم، حيث يقول: "ولا باد ولا حاضر، ولا مقيم ولا سائر، ولا أول ولا آخر ولا مسرّ في باطن، ولا معلن في ظاهر، ولا عرب ولا عجم، ولا راعي إبل ولا غنم، ولا صاحب أناة ولا إبدار، ولا ساكن في حضر وبادية بدار، ولا صاحب عمد ولا جدار"(2).

والمتتبّع لهذه المبايعة يجد الكاتب يذكر أطيافاً وأصنافاً من العامّة كثيرة، وهذا الأمر يلفت النظر إلى أهميّة العامّة في قبول البيعة، والرضا عنها والوثوق بالمبايع، ويجعل الكاتب من ذكر هذه الأطياف حجّة بالغة على خاصّة الأُمّة وعامّتها، حيث إنّ ورود ذكرهم يعني إقرارهم بالبيعة، ورضاهم عنها وشهادتهم على صحّتها، فبعد أن سرد فئات العامّة أردف ذلك بقوله: "حتى آمن بهذه البيعة، وأمّن عليها، ومنّ الله عليه وهداه إليها، وأقرّ بها وصدّق، وغضّ لها بصره خاشعاً وأطرق ومدّ يده بالمبايعة ومعتقده بالمتابعة، رضي بها وارتضاها، وأجاز حكمها على نفسه وأمضاها، ودخلت تحت طاعتها وعمل بمقتضاها"(3).

(1) المصدر السابق، 321/9.
(2) المصدر نفسه، 322/9.
(3) المصدر نفسه، 322/9.

أمّـــا الأمـــر الثاني الذي يلتفت إليه كاتب المبايعة بالاهتمام فهو ذكر اسم الخليفة المـــبايع وألقابه، والإتيان بالصّفات التي تليق بالمقام، والتي تنسجم مع براعة الاستهلال التي نبّه القلقشندي عليها عند ذكر ما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة البيعة(1).

فالكاتب يحمد الله على تنصيب الحاكم ليحكم بين العباد بالعدل، فيقول: "والحمد لله الذي نصّب الحاكم ليحكم بين عباده، وهو أحكم الحاكمين، والحمد لله الذي أخذ حقّ آل بيت نبيّه من أيدي الظالمين والحمد لله ربّ العالمين ثمّ الحمد لله رب العالمين"(2).

ويسهب الكاتب في تعداد خصاله الحميدة، من عراقة نسبه وعلوّ مكانته، وقداسة ســـريرته: فـــــ "لم يكن في النسب العباسيّ ولا في جميع ما في الوجود، لا في البيت المسترشـــدي، ولا في غيره من بيوت الخلفاء بقاياهم جدود، ولا من تلده أخرى الليالي وهـــي عاقـــر غير ولود من تسلّم إليه أمّة محمّد ﷺعقد نيّاتها، وسرّ طويّاتها إلاّ واحد، وأين ذلك الواحد؟"(3).

فالخلـــيفة المـــبايع فرد لا ندّ له في زمانه؛ ولذلك لم يكن غيره مؤهّلاً لأن يسدّ مكانه، فاختياره للمبايعة ناجم عن حاجة الأمّة إليه، وقد جاء إجماع الأمّة نتيجة للقناعة التي تولّدت عندهم بأنّ غيره لا يملك شروط الإمامة التي اجتمعت فيه دون سواه، فيرى الكاتـــب أنّه "فرد الأيّام، وواحدٌ وهكذا في الوجود الإمام، وإنّه الحائز لما زُرِّرت عليه جيوب المشارق والمغارب، والفائز بملك ما بين الشارق والغارب المجتمع فيه شروط الإمامة"(4).

وبعد سرد صفاته التي ندر وجودها عند غيره استحقّ التقدمة على أبناء خاصّته، فيذكـــر الكاتب ألقابه تلميحاً من خلال عبارات مدحه فيقول في حقّه: "والذي ما ارتقى صــــهوة المنبـــر بحضرة سلطان زمانه إلاّ قال ناصره وقام قائمه، ولا قعد على سرير

(1) المصدر السابق، 276/9.
(2) المصدر نفسه، 323/9-324.
(3) المصدر نفسه، 323/9.
(4) المصدر نفسه، 323/9-324.

الخلافة إلاّ وعرف بأنّه ما خاب مستكفيه ولا غاب حاكمه، نائب الله في أرضه، والقائم بمقـام رسـول الله ﷺ وخليفـته وابن عمّه وتابع عمله الصالح ووارث علمه، سيدنا ومولانا عبد الله ووليه أحمد أبو العبّاس الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين"[1].

ويؤكّد الكاتب صفاته التي توارثها عن بيت النبوّة، والتي لم تنبغ لأحد غيره؛ ولذا فهـو حـاكم بأمر الله، ونائبه في أرضه، وقائم بمقام رسول الله ﷺ وخليفته، ووارث علمـه، وبعد سرد تلك الخصال يفصّل الكاتب في ذكر الأعمال التي تعينه على خلافة الأرض ونصرة الأمّة، وعزّة الدّين ونشر العدل بين الرعيّة، فقد: "أيّد الله تعالى ببقائـه الدّين، وطوّق بسيفه رقاب الملحدين، وكبت تحت لوائه المعتدين، وكتب له النصر يوم الدّين، وكفَّ بجهاده طوائف المفسدين ونصر أنصاره، وقدّر اقتداره، وأسكن في قلوب الرعيّة سكينته ووقاره، ومكّن له في الوجود وجمع له أقطاره"[2].

ويرمـي الكاتب من وراء ذكر خصاله إلى أهداف كثيرة أهمّها استحقاقه للتقدمة علـى من سواه، وجلب رضا الخاصّة من أصحاب الرأي والمشورة، وطمأنة نفوسهم، وقبولهم لأحكامه التي خوّلتها له سلطته الدينيّة، كما يطمح الكاتب إلى إرضاء الجمهور عـن المبايع، من خلال سرد تلك الصفات التي حصرها الكاتب في شخصه، فالخاصّة والعامّـة أمام هذا الرجل المتميّز سواء، فقد بهرتهم تلك الشخصيّة المتمثّلة في الرسالة، ولهـذا أصبحت قلوبهم مطمئنة وجوارحهم ساكنة لسيادة عدله في رعيّته، وإنصافه في أحكامه ونصرته لخاصّته وعامّته. فالكاتب جعل منه شخصيّة نموذجيّة يندر وجودها في عالم الأفراد، وهذا الأمر يحتمل وجوهاً من التأويل والتفسير، فالمبالغة هنا لا يمكن أن نحملها على إظهار براعة الكاتب بل تتعدّى ذلك إلى الحالة التي وصل إليها الخلفاء في مصـر مـن سـلب سلطتهم من قِبَل السلاطين الّذين استبدّوا بالمُلْك، فالقارئ للرسالة والمطّلِع على سياسة السلاطين مع الخلفاء يشعر بأنّه أمام أُضحوكة يصعب تعليلها.

---

(1) المصدر السابق، 324/9.

(2) المصدر نفسه، 324/9

وممّــا يزيد في خيوط تلك الأُضحوكة ذكر السبب الموجب لتلك البيعة، فقد ترك مــوت الخليفة سليمان أبي الربيع الإمام المستكفي بالله أمير المؤمنين فراغاً وأثراً بالغاً، وثغــرة لا تســدّ ولا بــدّ من استدراك الأُمور، وتنصيب خليفة يمسك ما بقي من آثار الخلافــة ولا بدّ لنا من الإشارة عن إعراض الكاتب عن ذكر سبب عزل الخليفة الواثق بــالله وإغفال دوره، وتجاهل فترة خلافته وجعل موت سليمان المستكفي السابق للواثق فــي الحكم سبباً موجباً لمبايعة الحاكم بأمر الله. فقد "خلا العصر من إمام يمسك ما بقي مــن نهــاره، وخلــيفة يغالب مربد الليل بأنواره، ووارث نبي بمثله ومثل أبيه استغنى الوجود بعد ابن عمّه خاتم الأنبياء ﷺ"[1].

ويشير الكاتب إلى قضيّة لها الحضور البارز في أُمور الخلافة، وهي مسألة العهد الــذي يعهــد فيه الخليفة السابق إلى الخليفة اللاحق، ويرى ابن فضل الله العمريّ وهو كاتب الرسالة أنّ البيعة تكون واجبة إذا لم يعهد الخليفة لمن بعده وذلك ظاهر من خلال قــولــه: "فأمّا من قام من الخلفاء بغير عهد ممّن تقدّم فإنّما يكتب له مبايعة"[2]، وحينئذ يصبح من المحتّم أخذ البيعة بالإجماع، ويشير إلى ذلك قوله: "ونسي ولم يعهد، فلم يبقَ إذ لــم يــوجد الــنصّ إلاّ الإجماع، وعليه كانت الخلافة بعد رسول الله ﷺ بلا نزاع، اقتضــت المصــلحة الجامعــة عقــد مجلس كل طرف به معقود، وعقد بيعة عليها الله والملائكة شهود"[3].

واللافــت للنظــر أنّ الكاتــب أخذ كثيراً من العهود، والذمم على المبايعين حتى يُلزِمهم بالوفاء، فليس من الأمر اليسير الإخلال بتلك البيعة، فقد تحوَّط الكاتب بعبارات كثيــرة ملــزمة لا يستطيع الشخص أن ينسلخ منها، وهذه الصيغ مرتبطة بعقيدة الفرد؛ ولــذلك لا يجد المرء بدّاً من التمسُّك بتلك البيعة الكاملة غير منقوصة، وهذا يتجلّى من

---

(1) المصدر السابق، 325/9.

(2) العمــري، أحمد بن يحيى (749هـ/1348م): التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق ودراسة سمير الدروبي، منشورات جامعة مؤتة، ط1، 1413هـ/1993م، ص112.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، 325/9.

خلال قوله: "وجمع النّاس له ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾* فحضر من لم يعبأ بعده بمن تخلّف، ولم يربأ معه وقد مدّ يده طائعاً بمن مدّها وقد تكلّف، واجتمعوا على رأي واحد، واستخاروا الله تعالى فيه فخار ... حتى تقلّد كل من حضر في عنقه هذه الأمانة، وحطّ يده على المصحف الكريم، وحلف بالله العظيم، وأتمّ إيمانه ..."(1)، وقد أسهب الكاتب في العبارات الملزمة بحقّ الوفاء فلم يترك عذراً لفرد يحول دون إعطاء البيعة.

ويحرص الكاتب على أنّ هذه البيعة جاءت عن رضا واستخارة، وليس فيها إجبار وتسلّط، وعليه فإنّ شروطها تامّة على عادة غيرها من البيعات، ويظهر ذلك بوضوح من قوله: "وقد نوى كلُّ من حلف أنّ النيّة نيّة من عقدت هذه البيعة له ونيّة من حلف له وتذمّم بالوفاء في ذمّته وتكفّله على عادة أيمان البيعة بشروطها وأحكامها المردّدة، وأقسامها المؤكّدة"(2).

وبعد وثوقه من وجوب الطاعة والأخذ بأحكام هذه البيعة والتسليم لشروطها، أخذ الكاتب يبيّن مهام أمير المؤمنين كما تقتضيها المصلحة العامّة، فيبدأ بإقرار كل والٍ على ولايته وحاله ويشرع في بيان أولئك الولاة من الكبير إلى الصغير حتى يتبيّن الصالح فيقرّه والطالح فيقيله، كما يصدر أوامره بأن يلهج الخطباء بذكره وذكر سلطانه على مختلف المنابر وهذه القضية تعيدنا إلى أُضحوكة ترسيمه حيث الأمر والنهي والكلمة القاطعة للسلطان، ويأمر بأن يضرب اسمه على النقود؛ والخطباء والنقود في ذلك الزمن لسان الأمّة، فالخطباء ناطقو إعلام والنقود تدخل جيوب الكبير والصغير، فالغاية من تلك المهمّة نشر الذكر.

---

* سورة هود: آية 103.

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، 325/9.

(2) المصدر نفسه، 325/9.

ويعلّـل الكاتـب الجمع بين الذهب والخطب بأنّ "معناهما واحد وبهما يذكر الله قـيماء المسـاجد، ولـولا الأعمال ما بذلت الأموال، ولولا الأموال ما ولّيت الأعمال، ولأجـل مـا بيـنهما من هذه النسبة قيل إنّ الملك له السّكّة والخطبة، وقد أسمع أمير المؤمنين في هذا الجمع المشهود ما يتناقله كل خطيب ويتداوله كل بعيد وقريب"[1].

ومن المهام التي يوليها الخليفة الجديد اهتماماً خاصّاً إقامة فروض الحجّ والجهاد، ونشر العدل بين الأنام، وقد أكّد بالجملة والتفصيل فريضة الجهاد "وقد قدّم الوصيّة بأن يوالـي غـزو العـدو المخـذول بـرّاً وبحـراً، ولا يكفّ عمّن يظفر به منهم قتـلاً وأسـراً..."[2]. وقد تكفّل برعاية الممالك والقلاع والحصون والثغور، ونبّه على توفير مـا يحـتاجه الجند من الآلات فهو "يحمي الممالك ممّن يحوز أطرافها بإقدام، ويتخوّل أكـنافها الأقدام وينظر في مصالح القلاع والحصون والثغور، وما يحتاج إليه من آلات القتال ..."[3].

ويهـدف من وراء بيان سياسة الخليفة إلى نيل ثقة النّاس وطمأنتهم على أنفسهم وأمـوالهم وأوطـانهم وأعراضهم ومراتبهم، حيث أقرّ كل والٍ على ولايته وإقطاعه، وتكفّل برفع راية الجهاد لحماية الأوطان والأعراض والأموال، وضمن لهم إقامة موسم الحجّ والحرص على سلامة الحجيج.

ويخـتم الكاتـب المـبايعة بإلزام الخاصّة والعامّة بها، بعد أن كشف عن سياسة الخليفة في اتّباع الشرع وأداء الأمانة، فالكلّ عنده وديعة على اختلاف مقاديرهم، وبعد ذلك رسم الكاتب واجبات الرعية تجاه الخليفة، فله عليهم أداء النصيحة، وإبداء الطّاعة بسريرة صحيحة.

---

(1) المصدر السابق، 328/9.

(2) المصدر نفسه، 329/9.

(3) المصدر نفسه، 330/9.

العهود:

تُعـدُّ رسـائل العهـود من أكثر الرسائل السياسيّة انتشاراً لما لها من ذُيوع في الأوساط الحاكمة، حيث جبلت النفوس على حبّ المُلْك والسيادة، وبقاء الذكر والسمعة؛ ولذا كثر من يكتب العهد لابنه أو أحد خواصّه المقرّبين، والعهد يقصد به الوصية، ومنه قوله تعالى: : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾(1)، فالخليفة أو السلطان عندما ينشئ هـذه الرقعة، يقصد من ورائها الوصيّة لمن ارتضى ورأى فيه قرّة عينه، وسلو همّه، وبقاء ذكره، وصون مُلْكِه.

ورسـالة العهـد لا تتـباين كثيراً عن سابقتها رسالة المبايعة، حيث تتضمّن من الأفكار والمضامين ما تتضمنه رسالة المبايعة، إلاّ أنّ هناك خصوصيّات تتماز بها كُلٌّ مـنهما عـن الأُخرى، والعهد يكون مصدره الخليفة أو السلطان قبل موته؛ ولذلك يمثّل قـراره سنداً قويّاً للمعهود له، وذريعة لا يمكن التحايل عليها والخلاص منها، والإفلات مـن سـلطانها. فهو يقوم على مبدأ توريث الخلافة أو السلطنة، حيث يعهد الخليفة أو السـلطان إلـى ابـنه أو أخيه أو أحد أقربائه، وفي هذا الأمر يتمثّل التمسّك بالمنصب والاستئثار به والتشبّث بأسبابه.

ورسالة العهد سواء أكانت صادرة عن خليفة أم سلطان تتضمّن أفكاراً ومضامين مـتوارثة، وتتمثّل هذه المضامين في تعظيم شأن الخلافة أو السلطنة، وحاجة الأمّة إلى من يسوسها، وتزكية من عهد له بالخلافة أو السلطنة، وبيان خصاله الحميدة، والإكثار مـن عبارات المدح والثناء، وتوضّح سياسته في إقامة العدل بين الرعية، وحماية الدّين والدنـيا، وحمـل رايـة الجهـاد، وتنبـيه الأمّة على وجوب السمع والطاقة، وإعطاء النصيحـة.

(1) سورة طه، آية 115.

وقبل أن نبدأ بدراسة بعض هذه الرسائل لا بُدّ من الإشارة إلى أنّ هناك خلطاً واضحاً بين العهد والتقليد، حيث تُعَنْوَن بعض العهود بالتقاليد، علماً أنّ العمريّ في كتابه التعريف بالمصطلح الشريف قد فرّق بينهما حين قال: "فمنها عهود ولا تكون إلاّ للخلفاء عن الخلفاء أو للملوك ولا تكون إلاّ عن الخلفاء أو الملوك"(1). وسوف يرد مفهوم التقليد في مكانه من الدراسة، وقد نبّه سابقاً محمود رزق سليم إلى ذلك الخلط، ونسبه إلى المؤرّخين الذين لم يتحرّوا الدقّة تماماً في تسمية كل نوع باسمه، وسمّوا أحدهما باسم الآخر(2). ومهما يكن من أمر، فإنّ هذه المسمّيات تحمل خصوصيّة تنبع من الوظيفة التي تحملها كل رسالة، فالبناء الداخلي كفيل بالتفريق بينها.

وقد تعدّدت رسائل العهود في ذلك العصر لتعدّد دواعيها، ومن تلك العهود عهد الخليفة الحاكم بأمر الله لابنه المستكفي سنة (701هـ/1301م)، زمن السلطان المنصور لاجين، وقد بدأه الكاتب بالحمد والثناء والشكر على النعمة التي خوّلت إلى وليّ العهد الجديد، ونبّه فيه على شرف الخلافة، ومكانة قريش في زعامة الأمّة الإسلاميّة، وقد حرص الكاتب على اصطياد عبارات الاستهلال الحسنة المناسبة للحدث حيث قال: "الحمد لله الذي رفع المستكفي به لما انتصب بشرف همّته للمحل الأسمى ... وأدام الأئمة في قريش ... وجعل النّاس تبعاً لهم في هذا الأمر، فغيرهم بالخلافة المعظّمة لا يرعى ولا يسمى"(3).

وجعل الكاتب الأهميّة للنسب الشريف حيث الخلافة محصورة في قريش، ولذا كان لزاماً على الخليفة أن يعهد لابنه بالخلافة حتّى تبقى الخلافة في قريش ولا تتجاوزها إلى غيرها، فالمسوّغ الشرعي حاجة الأمّة إلى خليفة من قريش "فغيرهم

(1) العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص112.

(2) انظر سليم: محمود رزق: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية، 1374هـ/1955م، مجلد 5، ق1، جزء 3، ص133.

(3) السيوطي: حسن المحاضرة، 63/2.

بالخلافـــة المعظّمة لا يُدعى ولا يسمى"[1]، ويؤكّد كاتب العهد قضية شرعيّة تظهر من خـــلال قـــوله: "استودع الخلافة في بني العبّاس الذي كان لنبيّه الكريم عمّاً، وفرّج عنه بلـيلة العقـبة بمبايعة الأنصار كربة وغمّاً، فبشّره بأنّ الخلافة في عقبه فعمّه السُّرور عمّـــاً"[2]. ولمّا كانت الخلافة محصورة في قريش آلت إلى وليّ العهد حفاظاً على تلك الخصوصيّة "فلمّا انتهى ذلك السرّ في العوالم إلى الحاكم، قيل وقد أمسكت هيبة الخلافة علـــى معـــرفة حقـــوقها العظيمة من كل عظيم فماً ﴿فَفَهمنَاهَا سُلَيْمَان وَكلاً آتَيْنَا حُكْمَاً وعِلْمَـــــاً﴾[3] "[4]، ويجعل الكاتب من مسوّغات الخلافة في قريش ذلك السرّ الذي ينتقل فـــي أصـــلاب قريش، ولا يكون في النّاس مثله، وهذا السرّ يؤهّلهم إلى سياسة النّاس وتولـية أمـــرهم، وإقامة حكم الله فيهم، ولا أكون مجانباً للحقيقة إذا ما قرنت ذلك السرّ بالحقيقة المحمّدية التي تؤمن بها بعض الفرق الإسلاميّة•.

ويلـــحّ الكاتب على قضيّة الطاعة والامتثال والتسليم لأمر ذلك الخليفة، حيث إنّ طاعـــته واجـــبة محتّمة، وتتجلّى تلك الحقيقة من خلال قوله: "فإنّ الملك السلام منذ أن أســـجد لآدم ملائكـــته الكِرام في سالف الزمان، جعل طاعة خلفائه في بلاده على سائر عـــباده حـــتماً"[5]، ويعلّـــل هذه الطّاعة بالوظيفة التي يرعاها الخلفاء في البلاد والعباد ((كـــيف لا؟ وبهم يعمر الوجود وتقام الحدود وتهدم أركان الجحود هدماً، فبحياتهم تأمن البـــلاد"[6].

---

(1) المصدر السابق، 63/2.

(2) السيوطي: حسن المحاضرة، 63/2.

(3) سورة الأنبياء، آية 79.

(4) السيوطي: حسن المحاضرة، 63/2.

• حقـــيقة النّور المحمّديّ تعني أنّ النور الذي خلقه الله قبل خلق البشر ما زال يتنقّل من ناطق إلى ناطق إلى وصي حتى اتّصل بالإمـــام. انظر المؤيّد في الدّين داعي الدعاة (470هـ/1077م): الديوان، تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، ط1، 1949، دار الكتاب المصري، ص152.

وجـــاء في المجالس المؤيّدية: ((نحن نور من نور الله وشيعتنا منّا)). المؤيّد في الدين داعي الدعاة: المجالس المؤيّدية، تحقيق وتقديم مصطفى غالب، 1974، دار الأندلس للطباعة والنشر – بيروت، ص147.

(5) السيوطي: حسن المحاضرة، 63/2.

(6) المصدر السابق، 63/2.

ومن شروط صحّة تلك الرسائل إشهاد الخليفة على نفسه واتّخاذ المواثيق الغليظة، ويذكر اسمه وألقابه حتى يأخذ العهد شرعيّته ويستمدّ من ذلك قوّة سلطانه ونفوذه "ولمّا كان سنة من تقدم من الأئمة الخلفاء-إذا خاف أن يهجم الحمام هجماً ... تفويض الأمر بولاية العهد على الخلف لخير ذويه وبنيه نجدة وحزماً، أشهد على نفسه الشريفة مولانا الإمام الحاكم-والحاكم عليه تقواه- المراقب لله في سرّه ونجواه ... وهو في حالة يسوّغ معها الشهادة عليه، ويرجع في الأمور المنوطة للخلافة الشريفة إليه، أنّه عهد إلى ولده لصلبه الإمام المستكفي بالله أبي الربيع سليمان"(1).

ومن الرسوم الهامّة في العهد، تركيز الكاتب على ذكر تزكية الخليفة ولي العهد، حيث يُكْثِر الخليفة من ذكر خصال الفضيلة المتمثّلة في شخص وليّ العهد، والتي بسببها نال رتبة الخلافة، وتتمثّل هذه الخصال في "أهليته، وعدالته وكفالته وصلاحه لذلك، وكفايته وشخصه لشهود هذا المكتوب الشريف"(2). فوليّ العهد أهلٌ لأن يرقى في مراتب الخلافة نظراً لأهليته إلى تلك الرتبة، فاختياره لم يكن عبثاً من بين أقرانه، بل كان نتيجة لخصال رآها الخليفة فيه أهّلته لأن يعهد إليه بالخلافة، وقد اطمأنّ الخليفة إلى كفاية وليّ عهده ولموالته، وإقامة حكم الله وشرعه في رعيّته، ونشر عدله بين خاصّته وعامّته، وجاء في عهد الخليفة المعتضد إلى ولده المتوكّل بالخلافة سنة 763هـ أنّ من لوازم الخلافة "أن لا يؤتى تقليدها إلاّ من اتّصف بصفاتها المرضية، وتحلّى بحلاها المرعية، ورقى بجميل سيرته إلى مراتبها العليّة"(3). وقد تحلّى ذلك المعهود له بتلك الصفات التي تؤهّله لأن يرتقي في سلّم الخلافة، وقد حقّق شرطها ووافق لوازمها التي لا تنبغي لأحدٍ غيره "وهو حقيق بها لا محاله، وجدير بها يبلغه حسن الظنّ منها آماله، إذ كان متّصفاً بصفاتها الحميدة مقتدياً بآرائها السديدة"(4). وهذه الخصال تظهر على

(1) المصدر السابق، 2/63-64.
(2) المصدر نفسه، 2/64.
(3) المصدر نفسه، 2/82.
(4) المصدر نفسه، 2/82.

المعهود له لتميّزه عن غيره من أبناء عترته، وتمكّن الخليفة من اختياره لهذا المنصب، فالخلافة لها صفات مخصوصة يُخص بها الفرد دون غيره، ولا يلحظها إلاّ من ارتقى سلّمها "وقد لاحت عليه آثار الخلافة، وظهرت وذاعت محامده واشتهرت، وقد قامت الأدلّة بأهليته لتقليدها، وأنّه كفء لتناول طريفها وتالدها"[1].

ولا بُدَّ للخليفة أن يبيّن أنّ اختياره لولي عهده لم يكن عشوائياً، بل كان فيه رويّة وحزم واستخارة لله سبحانه وتعالى؛ لأنّ منصب الخلافة "أشرف ملابس أهل الديانة، وأزهى حلل الصيانة، وهي أصل كل سيادة يتوصّل إليها، ورياسة جلّ الاعتماد عليها، إذ هي أجلّ المناصب وأنماها، وأشرفها وأرفعها وأسناها وأنفسها وأعلاها وأغلاها"[2]. ولمّا كانت هذه مزايا الخلافة، فلا بُدَّ من أن يكدّ الذهن في اختيار من يُناسبها، ويؤدّي حقّ الله فيها؛ ولذا تكون عملية اختيار وليّ العهد غير ميسورة بل تحتاج إلى استخارة.

ولا ينسى الخليفة التنبيه على صحّة العهد نظراً لاستيفائه شروط الإمامة، فقد عهد إليه "عهداً صحيحاً شرعياً، تامّاً معتبراً مرضياً، وفوّض إليه أمر الخلافة تفويضاً صريحاً وعقد له ولاية العهد على الرعية عقداً صحيحاً"[3]، ولا يغفل الكاتب عن شروط صحّة العقد الذي لا يتمّ إلاّ بقبول الطرف المعهود إليه، فقد "قَبِلَ ذلك قبولاً شرعيّاً"[4]، وقد ختم الخليفة الحاكم عهده لابنه المستكفي بالشهود "وشهد عليه بذلك أربعة شهود، ورسموا خطوطهم تحت نسخة العهد بما نصّه: أشهدني مولانا الإمام جامع كلمة الإيمان ... وهو على الحالة التي يسوّغ معها تحمّل الشهادة عليه ... وشخص إلى مولانا وسيدنا الإمام المستكفي بالله"[5]، واكتفى كاتب نصّ عهد المعتضد لابنه بعبارةٍ تفي

(1) المصدر السابق، 82/2.
(2) المصدر نفسه، 82/2.
(3) المصدر نفسه، 83/2.
(4) المصدر نفسه، 83/2.
(5) المصدر نفسه، 65/2.

بالغـــرض المقصـــود، وهـــو وجود الشهود دون أن يصرِّح بنصّ الشهادة، حيث قال: "وصدر الإشهاد بذلك"(1).

ومـــن مستلزمات صحّة العهد كذلك التصريح بالتاريخ المعهود فيه لوليّ العهد، فجـــاء في عهد المستكفي "وهم يستمعون لذلك في اليوم المبارك من العشر الأخير من جمـــادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة، أحسن الله تقضيها في خير وعافية"(2)، بينما جاء فـــي عهد المعتضد لابنه المتوكّل: "وصدر الإشهاد بذلك في اليوم المبارك يوم الثلاثاء الثالث عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وسبعمائة"(3).

وبعد الحديث عن عهود الخلفاء لولاة العهد، لا بُدَّ من الحديث عن عهود الخلفاء للســـلاطين، ويكـــاد أن يـــتطابق عهد الخليفة لولي عهده مع عهد الخليفة للسلطان في الخطـــوط العريضة التي ترسم سياسة كلٍّ منهما، إلاّ أنّ هناك أُموراً وفروقات آتية من طبيعة المنصب المراد إشغاله، فالسلطان أو الملك يتطلّب شغل منصبه قضايا خاصّة لا يكلّف بها الخليفة، ومن هنا تأتي خصوصيّة عهد السلطان، فهناك أمورٌ تكون من براعة الاستهلال في ثنايا رقعة العهد، منها التنبيه على شرف السلطنة، وعلوّ رتبتها، ووجوب القـــيام بأمـــر الرعيّة، وذكر اسم السلطان، وألقابه والإشارة إلى اجتهاد الخليفة وإعمال فكـــره فـــيمن يقـــوم بأمر الرعيّة، وأنّه لا يجد بذلك أحقّ من المعهود إليه، ولا بدّ من الوصيّة بحسب ما يقتضيه الحال(4).

وقـــد كثرت عهود السلاطين نظراً لكثرتهم، وحاجة الأمّة إليه، فقد عهد الخليفة المستنصـــر بـــالله بالسلطنة إلى الملك الظاهر بيبرس سنة (659هـــ/1260م) ، وعهد الخلـــيفة الحـــاكم بتقلـــيد قلاوون السلطنة سنة (678هـــ/1279م)، وعهد الحاكم كذلك بالســـلطنة إلـــى الملك العادل كتبغا سنة (694هـــ/1292م)، وعهد كذلك إلى المنصور

(1) المصدر السابق، 83/2.
(2) المصدر نفسه، 67/2.
(3) المصدر نفسه، 83/2.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 405/9.

لاجين سنة (696هـ/1296م)، وعهد كذلك إلى الناصر محمد سنة (698هـ/1299م). ومن الجدير بالذكر، أنّ هذه العهود صوريّة في مجملها تملى على الخليفة إملاءً ، وهي كثيرة في هذا الباب[1].

واللافت للنظر في هذه العهود طول الخطبة، حيث يحشد الكاتب من عبارات الحمد والثناء والشكر الجمّ الغفير، ولا أكون مجانباً للحقيقة إذا ما قلت بأنّ عهد السلطنة يستهوي الكاتب، ويعصر فكره، ويشحذ همّته أكثر من عهود الخلفاء، وربّما يعود السبب إلى تقرُّب الكتّاب من السلاطين، حيث السلطنة الفعلية في إدارة الشؤون السياسية والإدارية في أيدي السلاطين دون الخلفاء؛ ولذا نجد الكتّاب تجود قرائحهم في مدح الملوك والسلاطين أكثر من الخلفاء، فكاتب العهد يلهج بمدح السلطان الذي كان له الفضل في إعادة الخلافة العباسيّة بعد أن عفت رسومها "وكيف لا وقد أقام الدعوة العباسيّة بعد أن أقعدتها زمانة الزمان، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان، وعتب دهرها المسيء لها فأعتب وأرضى عنها زمنها"[2]، فالفضل يعود للسلطان الظاهر بيبرس في عود الخلافة بعد نكستها (659هـ/1260م)؛ ولذا استحقّ أن يتولّى أمر السلطنة، فالسلطان الظاهر أسدى إلى الخلافة من المكرمات ما أهّله لأن يفوّض إليه أمر السلطنة ((فهذه منقبة أبى الله إلاّ أن يخلّدها في صحيفة صنعه، ومكرمة تضمّنت لهذا البيت الشريف بجمعه بعد أن حصل الأياس من جمعه))[3].

وجاء عهده ذاك جزاء صنيعه مع العباسيّين، فلذا استحقّ أن يعهد له بالحكم في جميع أملاك الخلافة برّاً وبحراً وغوراً ونجداً "وقد قلّدك الديار المصرية والبلاد الشاميّة والديار البكريّة والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدّد من الفتوحات غوراً ونجداً وفوّض أمر جندها ورعاياها إليك حيث أصبحت بالمكارم فرداً"[4].

(1) حمادة: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، ص114-150.
(2) السيوطي: حسن المحاضرة، 2/54-55.
(3) المصدر السابق، 2/55.
(4) المصدر نفسه، 2/55.

ويشـــتمل عهـــد الخلـــيفة للســـلطان مضامين أساسيّة من أهمّها الأخذ بنصيحة الخليفـــة، والامتثال لأوامره، والنصح له في الرعية وإقامة علَم الجهاد خافقاً، والحفاظ علـــى حمايـــة الثغور والحصون ونشر العدل بين الرعية والنصح لها، فمن أهم أعمال السلطان التي وكّل بها رفع المظالم، ومحي سيئ السنن، ونشر العدل، وإنصاف وإغاثة الملهوف، وحفظ حقوق الرعية والنصح لها، وسياسة الخَلْق بالأناة والرفق والحلم[1].

والمحـــور الأساســـي الآخـــر في رسالة العهد، التأكيد على شرف الجهاد ودور الســـلطان فـــي رفع رايته "فقد تقدّمت لك في الجهاد يدٌ بيضاء ... وبكَ صان الله حمى الإســـلام عـــن أن يبتذل، وبعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدولة"[2]. ومن عهد بســـلطنة قـــلاوون "وجيوش الإسلام وكماته وأمراؤه وحماته، فمنهم من قد علمت قدم هجـــرته، وعظـــم نصرته، وشدّة بأسه وقوة مراسه ... والحصون والثغور فهي ذخائر الشدّة وخزائن العديد والعدّة"[3].

ومن المحاور الأساسيّة كذلك التنبيه على اختيار الولاة والحكّام الذين يتوسّم فيهم الخيـــر والصـــلاح، ويرشـــدهم إلى "مخالفة الهوى إذا ظهرت أدلّة الحقّ، وأن يقابلوا الضعفاء في حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق"[4]. ومن عهد سلطنة قلاوون "ونوّاب الملـــك ونـــوّاب الأمصـــار فأحســـن لهـــم الاختـــيار، وأجمل لهم الاختبار، وتفقّد لهم الأخبـــار"[5].

وهـــذه المحاور تكشف لنا عن سياسة السلاطين المماليك في حكمهم للبلاد، كما تكشـــف كـــذلك عن سياستهم الخارجيّة المتمثّلة في التوسّع والفتوحات واسترداد معاقل المسلمين من الصليبيين والتتار.

---

(1) انظر: المصدر السابق، 56/2.
(2) المصدر نفسه، 57/2.
(3) المصدر نفسه، 109/2.
(4) المصدر نفسه، 56/2.
(5) المصدر نفسه، 110/2.

ولا يفــوت الكاتــب في رسالة العهد أن يذكر خصال الخليفة من بُعْد للنظر، فلا يخــتار سلطاناً إلاّ بعد امتحان فكره، وشحذ ذهنه، فجاء في عهد الخليفة الحاكم العادل كتــبغا "وعصــم آراءه ببركة آبائه من الخلل، وجعل سهم اجتهاده هو المصيب أبداً في القول والعمل"[1].

ومن عهد آخر له في حقّ المنصور لاجين "وأنّ أمير المؤمنين لما اختصّه الله به مــن البــرّ المودع في قلبه، والنُّور الذي أصبح فيه على بينة ربّه، والتأييد المنتقل إليه عمّن شرف بقربه، والنصّ الذي أسرّه رسول الله ﷺ إلى جدّه العبّاس من بقاء هذا الأمر فــي ورثــته دون أقاربــه وصحبه"[2]، ومن هنا نلحظ إطراء الخليفة من جانب نسبه الشريف، وإنّ خصاله تلك لم تؤت لأحدٍ غيره، بل استأثر بها دون سواه، فهذه السمات تنقّلت في الأصلاب حتى حلّت فيه، ومنحته بُعْد النظر وإصابة الحقيقة.

ويمكن أن يلحظ قارئ هذه العهود أنّ الوصايا فيها أكثر من وصايا الخلفاء لولاة عهــودهم، كمـــا يشهد الخليفة على نفسه عند منحه لولي عهده، ويفعل الأمر ذاته عند مــنحه العهد للسلطان، ويظهر ذلك جليّاً في العهود السابقة، فمن عهد الحاكم للمنصور لاجــين "وأشهد الله وملائكته ومن حضره من المؤمنين على نفسه بما تضمّنه هذا العهد الكــريم، وحكــم علــى الأمّــة بمقتضاه ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فإنَّمَا إثْمهُ على الّذيْنَ يُبَدِّلُوْنَــهُ إنَّ اللهَ سَمِيْعٌ عَلِيْم﴾[3] "[4].

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 48/10.
(2) المصدر نفسه، 55/10.
(3) سورة البقرة، آية 181.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 58/10.

الأمانات:

تُعــدُ رسائل الأمان من المكاتبات الشائعة في أغلب العصور لحاجة النّاس إليها أفــراداً وجماعـــات، ويكثــر تداولها في الحروب والنزاعات والفتن لِمَا فيها من بعث الأمــن والطمأنينة والسكينة، وحفظ النُفوس.

ورســـائل الأمان توجّه للمسلم ولغير المسلم، ولكن يشترط أن تكون صادرة عن مســلم "فالعاقــد للأمان من المسلمين"[1]، ويجب فيها كذلك قبول المؤمَّن، وأن لا يشكِّل عقدها ضرراً للمسلمين[2].

والأمان قد يكون من فرد إلى فرد، وقد يكون لجماعة كأهل مدينة أو بلد، وربَّما مُــنِحَ الأمـــان مـــن غيــر طلب من المؤمَّن، وقد يكون بطلب مسبق من الراغب في الأمان[3]، وفي الأمرين كليهما تكون المصلحة في منحه أو عدم منحه بتقدير من المانح سواء بطلب أو بدون طلب، وأن لا تتجاوز مدّته السّنة الواحدة بخلاف الهدنة[4].

ويتعهّد مانح الأمان بحفظ النُفوس والأموال، وكافة تبعات المؤمَّن، وتأمينهم على أنفســهم وأهليهم، وسائر أملاكهم[5]، ولمّا كانت كتب الأمان تحمي الأفراد والجماعات مـــن غوائل الدهر وتمنحهم لذّة التمتّع بالحياة بعد شموسها، فإنَّ كاتبها يعيد النظر فيها مـــرّة بعد أخرى، متفحّصاً كل عبارة شُكِّل منها ذلك الأمان؛ لأنّ أمن ذلك الفرد يتوقّف على صياغة عباراته، وقد ذاع في الأفاق ذكر الأمان الذي منحه المنصور لعمّه عبد الله بن علي بسبب تشدّد ابن المقفّع في صياغة عباراته.

---

(1) المصدر السابق، 322/13.

(2) انظر المصدر نفسه، 322/13.

(3) انظــر بــيوض، حسين: الرسائل السياسية في العصر العبّاسي الأول، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، 1996، ص101.

(4) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 322/13-323.

(5) الدروبـــي، محمـــد محمود: الرسائل الفنيّة في العصر العبّاسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الفكـــر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 1420هـ/1999م، ص47.

وقـــد كثـــرت هذه الرسائل في العصر المملوكي، واقتضت جملة من الظروف رواجهـــا فمـــنحت للمســـلمين وغيـــرهم، ولذا تعارف كتّاب ديوان الإنشاء على صيغ مخصوصـــة تكـــتب بها تلك الرسائل مع ترك الحريّة الفرديّة تأخذ مجراها على حسب طاقة الكاتب وقدرته الفنيّة المميّزة له عن غيره.

وكـــتب الأمـــان فـــي العصـــر المملوكي على ضربين: أولهما ما يخصّ غير المسلمين، ومن هذه الأمانات ما منحه السلطان محمد بن قلاوون لأحد ملوك النصارى وزوجـــته، ومن معهما من الأتباع لزيارة القدس، وقد كتبه عنه الشهاب محمود الحلبي، والنّاظر في ذلك الأمان تتجلّى له أبعادٌ كثيرة هدف الكاتب إليها، وتتمثّل هذه الأبعاد في إظهار عزّة دولة المماليك، وعلوّ شأنها وسلطانها، وقوّة شوكتها، ويظهر ذلك من خلال مقدّمة الأمان حيث أغدق الكاتب عبارات المدح والثناء والتعظيم والتبجيل لسلطان تلك الدولـــة، فهي تمنح الأمان لما لها من عزّة ومهابة ورهبة، فجاء في مقدّمة الأمان: "أمّا بعـــد: حمـــدٌ لله الذي أمّن بمهابتنا المناهج والمسالك ومكّن لكلمتنا الطّاعة في الأقطار والآفاق والممالك، وأعان على لساننا بدعوة الحقّ التي تقي كل كرب حاكٍ، وتكفي كل كرب حالك"(1).

ويشـــير الكاتب كذلك إلى حريّة السلطان في منح الأمان أو منعه –حيث جعلت أمـــاكن حـــجّ النصـــارى في الممالك الشّاميّة سيفاً بيد السلاطين يسلطونها على رقاب النصـــارى مـــن خـــارج دولـــتهم– فهذا الأمان أعطي لذلك الملك بعد تضرّع ورجاء واعتراف مطلق بسيادة المماليك على تلك المدينة المقدّسة "فليس آملٌ عن أبواب سماحنا بمـــردود، ولا متوسّل إلينا بضراعة إلاّ ويرجع بالمرام ويعود"(2) ، وهو هنا أي الكاتب يجـــد فرصـــة فـــي مدح أخلاق سلاطين المماليك من حفظهم للذمم وحمايتهم للحقوق،

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 327/13.

(2) المصدر السابق، 327/13.

ويقتضـــي منح الأمان أن يؤمَّن صاحبه وما يتبع له من أهل وخواص وأموال؛ ولــذا جاء فيه "وأن يمكّن من الحضور هو وزوجته ومن معهما من أتباعهما إلى زيارة القــدس الشريف، وإزالة الأعراض عنهم وإكرامهم ورعايتهم، واستصحاب العناية بهم إلى أن يعودوا إلى بلادهم آمنين على أنفسهم وأموالهم"(1).

كمـــا أنّ النّاصـــر محمد بن قلاوون منح أماناً لرعايا البندقيّة، فجاء في الأمان "ويمكنهم الحضور إلى ممتلكاته في أمن تام لأشخاصهم وأموالهم، وأنّه إذا أراد البنادقة أن يــزوروا قبـــر السيِّد المسيح فإنّه يزوّدهم بحرس يرافقهم يذهبون ويعودون معه في أمـــان، وإذا كـــان منهم من يريد الاستقرار في إقليمه؛ فإنّه يكفل له الحماية والمعاملة الكريمة"(2).

وعـــند الانتقال إلى الشقّ الآخر من كُتب الأمان؛ وهي الممنوحة للمسلمين، نجد العـــبارات تأخذ منحى آخر، وتظهر رسوم الأمان بوضوح، وتتجلّى فيه حاجة المؤمَّن للأمـــان، حتـــى ليظهـــر أنّ القســـم السابق –الموجّه لأهل الكفر– رسائل جلب منفعة وإغـــــراء بـــزيارة بـــلاد المســـلمين، بينما يشعر القارئ بحقيقة الأمان عندما يتصفّح الأمانـــين اللذين وجّه أولهما إلى أمير مكّة أسد الدين رميثة(3)* سنة (731هـ/1330م) من السلطان النّاصر محمد بن قلاوون، فذلك الأمان مطابق لرسائل الأمان التي درجت فـــي العصور السابقة، من اتّخاذ ديباجة شكليّة خاصّة ممّا حدا بالقلقشندي أن يقول في حقّه "هذا الأمان إنشاء مبتكر مطابق للواقع، وهكذا يجب أن يكون كل أمان يكتب"(4).

---

(1) المصدر السابق، 328/13.

(2) ف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج2، ص271.

(3) انظـــر ابـــن الوردي، عمر بن المظفّر (749هـ/1348م): تاريخ ابن الوردي، ط1، 1417هـ/1996م)، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2، ص286.

* رميـــثة بـــن أبي نمي الشريف أسد الدين الحسني أمير مكّة، ولّي مكة نحو ثلاثين سنة كان في بعض تلك السنوات شريكاً لأخيه حميضـــة وقـــع له مع إخوته وغيرهم حروب وحوادث إلى أن مات سنة (746هـ/ 1345م). انظر ابن تغرّي برديّ: المنهل الصـــافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين وسعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهـــرة (1405هـ/1984م)، 356/5.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 346/13.

وتطابق عبارات هذا الأمان الصيغة التي أنشأها العمريّ لنصّ الأمان في كتابه التعـريف[1]، علماً أنّ منشئ هذا الأمان القاضي تاج الدّين البارنباري*، وتتّضح معالم الأمـان من بدايته حيث يقول الكاتب "هذا أمان الله سبحانه وتعالى، وأمان رسوله سيدنا محمـد ﷺ، وأماننا الشريف"[2] ، ويتمحور في هذا المقطع القصير أمر جليل حيث يلزم مـانح الأمـان نفسه أغلظ الصيغ القسميّة عندما يجعل هذا الأمان أمانَ الله ورسوله ثمّ يقـرن نفسه بهذا الميثاق، وفي هذه الصيغة طمأنة للمؤمَّن عندما يشعر أنّه في أمان الله ورسـوله وسلطان المسلمين، فإلزام السلطان نفسه بهذه الصيغ دلالة على حُسن نواياه، وصـدق عفوه، وينصّ الكاتب على ذكر اسم المؤمَّن صراحة مقروناً بعظيم ألقابه أخذاً بـتهدئة نفسـه وتطييب خاطره "للمجلس العالي الأسدي رميثة ابن الشريف نجم الدين محمـد بـن أبي نمي"[3]. وزيادة في طمأنته، ومنحه الثّقة بهذا الأمان يجهّز له موكب لجلبه إلى حضرة السلطان، مع توفير الأمان لجميع تبعاته من ماله وأهله وولده، ويظهر ذلـك من خلال قوله: "بأن يحضر إلى خدمة السنجق* الشريف صحبة الجناب السيفي، أيـتمشَ الناصري آمناً على نفسه وماله وولده، وما يتعلّق به، ولا يخشى حلول سطوة قاصـمة، ولا يخاف مؤاخذة حاسمة، ولا يتوقّع خديعة ولا مكراً"[4] ، ويلحّ الكاتب في تأمـين المـؤمَّن مـن خلال كثرة التراكيب الموجبة للوفاء بالأمان، فهذا الأمان مؤكّد الشروط، صحيح العقد "بل يحضر إلى خدمة السنجق آمناً على نفسه وماله وآله مطمئناً واثقـاً بـالله وبرسوله، وبهذا الأمان الشريف المؤكّد الأسباب، المبيّض للوجوه الكريمة والأحساب"[5].

---

(1) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص234.

* ينظر ترجمته: الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، 170/5.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 345/13.

(3) المصدر نفسه، 345/13.

* وهي رايات صفر صغار تربط بطرف الرماح ويحملها السنجقدار. ينظر المصدر السابق، 8/4.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 345/13.

(5) المصدر نفسه، 345/13.

ويحــرص الكاتــب كذلك على إظهار حُسن النوايا، وصدق العهد وتجاوز كل موجـبات الغضــب، فيقول "وكلّ ما يخطر بباله أنّا نؤاخذه به فهو مغفور، ولله عاقبة الأمور، وله منّا الإقبال والتأمير والتقديم، وقد صفحنا الصفح الجميل"[1].

وفي القسم الأخير من الأمان يجمل الكاتب بعض الوصايا التي تعزّز من صدق الــنوايا، وتــؤكّد صــحّة هذا الأمان، وتحثّ صاحب الأمان على حُسن النيّة، وصفاء الســريرة، وإخلاص الأمر إلى السلطان، وتقديم الظنّ الحسن على سوء النيّة وإضمار الغدر.

ومثل هذا الأمان يؤكّد إحكام قبضة المماليك على الحجاز والتحكّم في سياستها، وهذا الأمر سيناقش في الفصل الثالث من هذا البحث.

أمّا ثاني هذين الأمانين، فهو الأمان الذي منحه نائب السلطنة في حلب في الدولة الأشــرفيّة "شــعبان بــن حسين" لبعض من أراد تأمينه[2]. والناظر في هذا الأمان يجد تطابقــاً كبيــراً في مضمونه مع الأمان السابق من حيث العبارات والصيغ، والاختلاف الوحــيد بينهما في مانح الأمان حيث الأول السلطان والثاني نائب السلطان وترتّب على ذلــك عــدم ورود ألقــاب الســلطان فــي الأول بل اكتفى الكاتب بعبــارة "وأماننــا الشــريــف"[3]؛ لأنّ كاتــب الأمـــان أنشأه على لسان السلطان، بينما نجد كثرة الألقاب الســلطانيّة في مقدّمة الثاني، ويمكن تعليل هذه الكثرة نظراً لحاجة مانح الأمان لسلطة السلطان في إنفاذ تأمينــه لمن أراد تأمينه.

ومــن رسائل الأمان ما منحه السلطان قلاوون للتجّار المسلمين من غير حدود دولته من الصّين والهند والسند واليمن، والعراق وبلاد الرُّوم[4]، وهذا الأمان لا يجد فيه

---

(1) المصدر السابق، 346/13.

(2) ينظر نصّ الأمان في المصدر نفسه، 350/13-351.

(3) المصدر نفسه، 345/13.

(4) ينظر المصدر نفسه، 340/13-342.

القـــارئ روح الأمان كما مرّت في الأمانين السابقين، بل هو أشبه ببروتوكول تجاري، ففيه حثٌ ورغبة أكيدة للتعامل مع الدول الأخرى لجلب المصالح الاقتصاديّة، والاستفادة من الموقع الجغرافي لدولة المماليك، وجاء في هذا الأمان "فمن وقف على مرسومنا هذا مــن التجّار المقيمين باليمن والهند والصّين والسند وغيرهم، فليأخذ الأهبة في الارتحال إلـــيها، والقدوم عليها؛ ليجد الفعال من المقال أكبر، ويرى إحساناً يقابل في الوفاء بهذه العهــود بالأكثـــر، ويحلّ منها في بلدة طيّبة وربّ غفور، ولهم منّا كل ما يؤثرونه من معدلةٍ نجيب داعيها وتحمد عيشتهم دواعيها، وتبقى أموالهم على مخلّفيهم ..."(1).

والقـــارئ لهذا الأمان يجد فيه وثيقة سياسيّة مهمّة، حيث إنّ وصول هذا النصّ إلـــى آفـــاق تلـــك الممالك المذكورة في غرّة ذلك الأمان لدليل على هيبة دولة المماليك وامتداد سلطانها، ومن ناحية أُخرى يفصح هذا الأمان عن حاجة الدولة المملوكيّة لإقامة علاقـــات وثـــيقة مع تلك الممالك، وهل التجّار إلاّ رُسل بلادهم ولسان حالهم؟! والأمان كذلك يؤكّد رغبة المماليك في التبادل التجاري مع تجّار تلك الأقطار، وخاصّة أنّ بعض تلـــك الســـلع تشـــكّل عمادة الجيش المملوكي، فهؤلاء التجّار يحضرون معهم الجواري والغلمـــان، ويـــنصّ الأمان صراحةً على رغبة المماليك في شرائهم "ومن أحضر معه مـــنهم ممالـــيك وجواري فله في قيمتهم ما يزيد على ما يريد والمسامحة بما يتعوّضه بثمـــنهم على المعتاد في أمر من يجلبهم من البلد القريب، فكيف من البعيد؟ لأنّ رغبتنا مصروفة إلى تكثير الجنود، ومن جلب هؤلاء فقد أوجب حقاً على الجود، فليستكثر من يقدر على جلبهم، ويعلم أن تكثير جيوش الإسلام هو الحاثّ على طلبهم"(2).

ومهمـــا يكـــن من أمر، فإنّ وثائق الأمان في العصر المملوكي اتّخذت منحيين رئيســـين، وتبعاً لذلك جاءت صياغتهما متباينة، فالأمانات التي يؤمَّن بها أفراد الرعيّة، ومـــن هـــم تحت سلطة الدولة حال خروجهم عن نظامها وإثارتهم القلاقل، فإنّ رسائل

---

(1) المصدر السابق، 341/13.

(2) المصدر نفسه، 341/13.

الأمان التي تمنح لهم تشبه في سمتها رسائل الأمان التي تؤمّن الخائف وتذهب عنه سوء النيّة من الغدر به، كما في رسائل الأمان في العصور السابقة لعصر المماليك، بينما نجد منحـــى آخـــر عـــند قـــراءة كتب الأمان الموجّهة لغير المسلمين أو المسلمين الذين لا يخضــــعون لسلطان دولة المماليك، فهذه الأمانات أشبه بالمعاهدات السياسيّة والتجاريّة، فـــلا يظهـــر فيها حاجة المؤمّن للأمان بقدر حاجة المماليك لهؤلاء المؤمَّنين، والتقرُّب منهم، والرغبة في إقامة علاقة معهم.

الهدن:

رســـائل الهدن من الرسائل التي ذاعت ذيوعاً واسعاً في الدولة المملوكيّة نظراً لحاجـــتهم إليها؛ وذلك لمجاورتهم لمعاقل الصليبيين المتحفّزين للغدر بالمسلمين. والهدنة رسالة تكون بين ملك المسلمين وملك آخر، أو من ينوب عن أحدهما، يتكفّل فيها أحدهما للآخـــر بحفـــظ النفوس والذّمم، وكل ما يجب حفظه خلال المدّة المضروبة لتلك الهدنة وبالشروط التي تمّ الاتفاق عليها.

وهـــناك محـــاور أساسيّة تتضمّنها رسائل الهدن القائمة بين المسلمين وغيرهم، ومن هذه المحاور تقديم اسم السلطان المسلم على الملك الكافر "استقرّت الهدنة المباركة المـــيمونة بين مولانا السلطان الملك الظّاهر ركن الدّين بيبرس الصالحيّ النجميّ وبين المقدّم الكبير الهمام فلان مقدّم بين الاستبار الفلاني بعكّا والبلاد الساحليّة"[1]. وجاء من هدنـــة أُخرى بين السلطان الظّاهر وملكة بيروت "استقرّت الهدنة المباركة بين السلطان الملـــك الظّاهـــر ركـــن الـــدّين بيبرس وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة فلانة ابنة فـــلان"[2]. وعلى غرار ذلك درجت جميع الهدن بين الدولة المملوكيّة ومن هادنتهم من ملوك، ويستشف من هذه الصيغة إظهار عزّة المسلمين، ونفوذ سلطانهم، وتأكيد قدرتهم

(1) المصدر السابق، 31/14.

(2) المصدر نفسه، 40/14.

علـــى إمــــلاء شـــروطهم على من يهادنونهم، وتؤكّد كذلك حاجة المهادنين لهذه الهدن، واعترافهم الضمني بسطوة المسلمين وشدّة بأسهم.

ومن المحاور الأساسيّة كذلك في كتابة رسائل الهدن حفظ حقوق المسلمين بحيث لا تخـــلّ أو تضيّع حقّاً من حقوقهم بل تكفل لهم حفظ نفوسهم وتبعاتهم، لا بل تكون في مصـــلحتهم، ولـــذلك جاءت رسائل الهدن متضمّنة حقوقاً كثيرة للمسلمين. فالمطّلع على تلـــك الهـــدن يجـــد المســـتفيد الأول منها المسلمين قبل الطرف الآخر، فنبرة الخطاب صـــادرة عن المسلمين إلى من يهادنونهم، فالشروط لهم، والقبول على الطرف الآخر، وهذا يؤكّد الهدف الذي من أجله عُقدت الهدنة وهو الأخذ بمصلحة المسلمين.

وهـــناك محـــور آخر في كتابة الهدنة، ويتمثّل هذا الأساس في بيان البلاد التي تشـــملها الهدنـــة بدقّة بالغة، ويقودنا هذا المحور إلى رغبة المماليك في زيادة الحيطة والحذر من غدر الصليبيين والفرنجة، ومن جهة أُخرى الرغبة في تحديد الأماكن التي ينالها سلطان المسلمين ليتسنّى للتجّار القادمين لدولة المماليك من المرور بها.

ومن المحاور التي يلتفت إليها كاتب الهدنة، ويُعدّها غاية في الأهميّة مدّة الهدنة، حـــيث يشـــير إلـــى بدئها باليوم وإلى آخر مدّتها مشيراً إلى التاريخ القمري والشمسي، ومتعرّضـــاً للأيّـــام التـــي تعقب انتهاء الهدنة، فقد جاء في الهدنة الواقعة بين السلطان الظّاهـــر والاســـتبارية على قلعة لُدّ بالشّام "المدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات وعشـــرة أشهر أولها مستهلّ رمضان سنة تسع وستين وستمائة للهجرة النبويّة المحمّديّة الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة واثنتين وثمانين للإسكندر بن فيلبس اليوناني"[1].

وتتضـــمّن رســـائل الهدن كذلك شروطاً يتّفق عليها الطرفان كمنع الفرنجة من التوسُّع خارج حدود ممالكهم "وعلى أن لا يجدّدوا في غير عكّا وعثليت وصيدا مما هو

---

(1) المصدر السابق، 43/14.

خـــارج عــن أســـوار هذه الجهات الثلاث المذكورات لا قلعة ولا برجاً ولا حُصناً ولا مســتجدّاً"[1] ، وكذلك حماية أمن التجّار الذين يمرّون بهذه الممالك الواقعة ضمن الهدنة مـــن غيـــر أهلها، والحفاظ على نفوسهم وأموالهم "ويكون التجّار والسفّار والمتردّدون آمنـــين مطمئنين مخفّرين من الجهتين في حالتي سفرهم وإقامتهم، وصدورهم وورودهم بما صحبتهم من الأصناف والبضائع التي هي غير ممنوعة"[2].

وتـــتعدّى شروط تلك الهدن إلى تحمّل أهل تلك الممالك الدفاع عن المسلمين إذا حصـــل لهـــم ما يروّعهم من عدوٍّ، ويظهر ذلك من خلال ما نُصَّ عليه في هدنة الملك المنصـــور قـــلاوون وحكّـــام الفـــرنج "وإن حصل جفلٌ من البلاد الإسلامية إلى البلاد الســـاحليّة الداخلة في هذه الهدنة فيلزم كفيل المملكة بعكّا والمقدمين بها حفظهم والدفع عـــنهم، ومـــنع مـــن يقصدهم بضرر، ويكونون آمنين مطمئنين بما معهم"[3]. ولا تقف شروط تلك الهدن عند هذا الحدّ، بل تتعدّاها إلى شروط كثيرة يحشدها الكتّاب ويصعب حصرها هنا.

وينـــبّه هـــؤلاء الكـــتّاب إلـــى اســـتمرار ســـريان هذه الهدن حتى نهاية مدّتها المضـــروبـــة بالأيّام والشهور والسنين، فهي لا تنتهي بموت أحد قطبيها أو كليهما بل تبقـــى ســـارية المفعول، فـــ "هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادهما وأولاد أولادهـــم، وبـــين الحكـــام بمملكـــة عكّا وصيدا وعثليت ... لا تتغيّر بموت ملوك أحد الجهتـــين، ولا يتغيّـــر مقدم وتولية غيره، بل تستمر على حالها إلى آخرها وانقضائها، بشـــروطها المحدّدة، وقواعدها المقرّرة"[4] ، وزيادة في الحرص على أهميّة تلك الهدن ودرء الخطـــر الذي يشكّله غيابها، يحرص المتهادنون على منح مدّة زمنيّة إضافيّة في حـــال فســـخ تلك الهدنة أو انقضائها، ويؤكّد ذلك قول الكاتب "ومتى انقضت هذه الهدنة

(1) المصدر السابق، 56/14.
(2) المصدر نفسه، 61/14.
(3) المصدر نفسه، 60/14.
(4) المصدر نفسه، 61/14.

المـــباركة أو وقـــع –والعياذ بالله– فسخ كانت المهلة في ذلك أربعين يوماً من الجهتين، ويـــنادى بـــرجوع كـــل أحـــد إلى وطنه بعد الإشهاد؛ ليعود النّاس إلى مواطنهم آمنين مطمئنين، ولا يمنعون من السفر من الجهتيـــن"[1].

وبعـــد كـــتابة نصـــوص تلك الهدن والاتفاق عليها يأتي دور القسم؛ ولذا اهتمّ المماليـــيك بنســـخ الأيمـــان أيّمـــا اهتمام، ولذلك عقد العمريّ لها قسماً خاصّاً في كتابه التعريف تحدّث فيه عن أيمان المسلمين وأهل الكتاب والمجوس وأهل البدع[2].

ونســـخ الأيمـــان لا تخصّ رسائل الهدن بل يلزم وجودها في البيعات والعهود وتولية المناصب الإدارية والقضائية والمالية في الدولة المملوكيّة، ولكنّ الهدن أكثر تلك الرســـائل حاجة إلى نسخ الأيمان؛ لما فيها من حفظ للنفوس والممتلكات، والحاجة إلى اليمـــين فيها ماسّة لا يستغنى عنها، ولا يكتفى بتحليف أحد المتهادنين دون الآخر، بل يحلف الطرفان على ما في شروط تلك الهدنة، فجاء في الهدنة السالفة الذكر "ويفي كلٌّ مـــنهم بمـــا حلف به من الأيمان المؤكّدة؛ من أنّه يفي بجميع ما في هذه الهدنة على ما حلفـــوا بـــه"[3] ، ولأهمـــيّة تلك اليمين تقرن برسائل الهدن، ويشير إلى ذلك القلقشندي صراحة بقوله: "وأعلم أنّه قد جرت العادة أنّه إذا كُتبت الهدنة، كُتب قرينها يمين يحلف بهـــا السلطان أو نائبه القائم بعقد الهدنة على التوفية بفصولها وشروطها، ويمين يحلف عليها القائم عن الملك الكافر بعقد الهدنة، ممّن يأذن له في عقدها عنه بكتاب يصدر عنه بـــذلك أو تجهّـــز نسختها إلى الملك الكافر ليحلف عليها، ويكتب خطّه بذلك، وتعاد إلى الأبواب السلطانيّة"[4].

---

(1) المصدر السابق، 63/14.

(2) انظر العمريّ: التعريف، القسم الثالث، ص202-245.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 62/14.

(4) المصدر نفسه، 71/14.

ونسخة اليمين عبارة عن صيغة تُثقل بألوان القسم المفخّمة كلٌّ حسب دينه، فإن كـــان المقسم مسلماً حشد الكاتب فيها ألوان القسم الإسلاميّة، وحسب المذهب الذي يدين به، وإن كان من غير المسلمين راعى الكاتب الملّة التي يعتقد بها ذلك المحلَّف.

وقـــد قُـــرن بالهدنة السابقة يمينان أُولاهما اليمين التي أقسم بها الملك المنصور قلاوون، ونجتزئ منها للتمثيل عليها:

"أقول وأنا فلان: والله والله وبالله وبالله وبالله وتالله وتالله وتالله والله العظيم، الطالـــب، الغالب، الضّار، النافع ..."[1] ، فيكثر كاتب النصّ من ألوان القسم المتضمّنة لأسماء الله وصفاته، ويقرن ذلك بالقرآن الكريم، ومكانته في النفوس "وحقّ القرآن ومن أنـــزله ومن أنزل عليه ..."[2] ، وبعد ذلك القسم يفضي الكاتب إلى الوفاء بشروط تلك الهدنة تامّة غير منقوصة "إنّني أفي بحفظ هذه الهدنة المباركة ... إلى مدّتها"[3] ، ويختم هذا اليمين بقوله "والله على ما نقول وكيل"[4].

وثانـــيهما اليمين التي حلف عليها الفرنج المتعاقدون على تلك الهدنة، ونجتزئ كذلك منها للغاية ذاتها:

"والله والله، وبـــالله وبالله وبالله، وتالله وتالله وتالله، وحقّ المسيح ... وحقّ الصـــليب، وحـــقّ الأقانـــيم الثلاثة من جوهر واحد المكنّى بها عن الأب والابن وروح القُدس إله واحد"[5].

(1) المصدر السابق، 312/13.

(2) المصدر نفسه، 312/13.

(3) المصدر نفسه، 312/13.

(4) المصدر نفسه، 312/13.

(5) المصدر نفسه، 313/13.

ويأخذ الكاتب في حشد عقائد النصارى التي يدينون بها، والطقوس التي يمارسونها في عبادتهم على شتّى أنواعها، ثمّ بعد ذلك يذكر شرط الوفاء بتلك الهدنة بجميع فصولها وشروطها حتّى انقضائها.

ثانياً: الشؤون الإداريّة والماليّة

اهـتمّ المماليك أيّما اهتمام بالأُمور الإدارية والماليّة، وقد حرصوا على اختيار الأكفاء من نوّابهم لإشغال المناصب السياسيّة في ممالكهم على امتداد بلاد الشّام ومصر، وقـد كان ذلك الحرص ظاهراً من خلال رسائل التقاليد التي تنسّب تعيينهم، وقد يكون ذلك الاهتمام مظهراً من مظاهر إدّعاء العدالة والنزاهة حيث لا يعيَّن إلاّ من كان كفؤاً.

وقـد تكفّلت رسائل التقاليد والتواقيع والمراسيم بتعيين النوّاب والوزراء وكافلي الملك، واهتمّت بأرباب السيوف والأقلام، وبيّنت السياسة التي ينبغي أن ينتهجها المعيَّن في منصبه.

وعلـى الـرغم من تشابه تلك الرسائل إلاّ أنّ هناك خصائص سنشير إليها في مواضـعها، وهـذه الخصائص تدلُّ على مدى الدقّة في تنظيم الهرم الإنشائي في ذلك الزمن.

وكمـا اهتمّ المماليك بالشؤون الإدارية، فقد أولوا الأُمور الماليّة اهتماماً خاصّاً، وقـد خصّصت المناشير لتخدم هذه القضية، بالإضافة إلى الوظائف الخاصّة ببيت مال المسلمين ونظر الجوالي*، وقد مهّد السلاطين المماليك السُبل لإنماء الحركة التجاريّة من خلال تأمين التجّار الوافدين ومسامحة بعض البضائع من المكوس والضرائب، وتمثّلت هذه الإعفاءات في رسائل المسامحات.

* نظر الجوالي: هي ما يُؤخذ من أهل الذمّة عن الجزية المقرّرة على رقابهم في كل سنة. (القلقشندي: صبح الأعشى، 458/3).

التقاليد:

إنّ مـــن أكثـــر رســـائل ديـــوان الإنشاء المملوكيّ دوراناً تلك الرسائل المسمّاة بالتقالـــيد، وقد كثُر تداولها لحاجة الدولة إليها، حيث تكتب للوظائف العسكريّة والمدنيّة علـــى حـــدٍّ سواء، ولكن يشترط فيها أن تكون لكبار موظفي الدولة ونوّابها، فيرى ابن فضل الله العمريّ أنها "لا تكون إلاّ لكفلاء الملك كأكابر النوّاب والوزراء، ومن كان في معناهما، وقد يكون لأكابر قضاة القضاة"[1].

"والتقاليد جمع تقليد، يُقال قلّدته أمر كذا إذا وليته إيّاه"[2]، وهي عبارة عن رسائل يتولّـــى كتّاب ديوان الإنشاء تدبيجها بأمرٍ من الخلفاء أو السلاطين أو نوّاب الممالك في الدولة المملوكيّة لأغراض إداريّة ودينيّة وعسكريّة، فهذه التقاليد تصدر لأرباب السُيوف والأقـــلام والمناصـــب الدينـــيّة، وهي تتّخذ طابعاً خاصّاً يميّزها عن الرسائل الديوانيّة الأُخـــرى الصـــادرة عـــن الديوان، وهذا التمييز يقودنا إلى القول بالدقّة المتناهية التي يتّصف بها ديوان الإنشاء في ذلك العصر.

ويـــرى الشهاب الحلبيّ أنّ التقاليد في جملتها لا تخرج عن أربعة أقسام متقاربة فـــي المقاديـــر "فالربع الأول الخطبة، والثاني ذكر موقع الإنعام في حقّ المقلَّد، وذكر الـــرتبة وتفخيم أمرها، والثالث في أوصاف المقلَّد، وذكر ما يناسب تلك الرتبة"[3]، ونبّه الحلبـــيّ كـــذلك علـــى بـــراعة الاســـتهلال في تلك الرسائل، ومراعاة أحوال المقلَّدين والمقلِّدين، وذكر الأُمور التي تُناسب ذلك الشخص، فإن كان نائباً فيناسب حاله في عدل وسياسة ومهابة وبُعد صيت أو سمعة وشجاعة، وإن كان وزيراً يوصف بالعدل وحُسن

---

(1) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، ص112.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 101/11.

(3) الحلبـــي: شـــهاب الدين محمود (725هـ/1324م): حسن التوسّل في صناعة الترسّل، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1980، ص368.

التدبير والمعرفة: بوجدة الأموال، وعمارة البلاد، وصلاح الأحوال، وكذلك في كل رتبة بحسبها[1].

والقسم الرابع وهو الأهمّ حيث ترسم فيه سياسة المولّى مشفوعة بالوصايا، وهي شـــرط في كتابة التقاليد "وهذه هي القاعدة في مثل ذلك، ومنها أن يراعي المناسبة، وما تقتضيه الحال فلا يعطي أحداً فوق حقّه، ولا يصفه بأكثر ممّا يراد من مثله"[2].

ويـــبدي العمـــريّ اعتراضاً على شيخه الحلبيّ في مقدار خطبة التقليد وتقسيمه بقـــوله: "واعلم أنّ شيخنا شهاب الدّين محمود الحلبي –رحمه الله– قسّم مقدار التقليد أو التوقيع تقسيماً لا أرضاه، والذي أراه اختصار مقدار التحميدة التي في الخطبة والخطبة مطلقاً، وإطالة ما بعد ذلك"[3].

ويمكـــن تعليل هذا الاعتراض بالتطوّر الذي أصاب رقع التقاليد زمن العمريّ، ولعلّ ذلك راجع إلى التنافس بين التلميذ وشيخه، أو بين العائلتين، ومهما يكن من أمر، فـــإنّ ذلك يقودنا إلى منتهى الدقّة التي تحكم عمل كتّاب الإنشاء، ونظرة لأغلب التقاليد تـــؤكّد ما ذهب إليه الحلبي، حيث إنّ أغلب التقاليد تحمل خطباً طويلة، وتخضع للتقسيم ذاته.

والتقالـــيد مـــن الرسائل التي تهتمّ بالجانب الداخلي للشؤون الإدارية، وإن كان بعضـــها يـــتمّ فـــيها تنصيب بعض كفلاء الملك في السلطنة، لكنّ هذا الأمر يبقى شأناً داخليّاً. فالتقاليد ترسم الخطوط الأساسيّة التي يجب أن يتّبعها المقلّد فيما قُلِّد من أمور.

ومـــن التقاليد التي جاءت لتبيّن المنهج الذي يجب أن يكون عليه المقلَّد في بيان سياســـته تجـــاه مـــا قلِّـــد من أمور تلك الرسالة التي وجّهت إلى شمس الدّين قراسنقر المنصـــوريّ (ت728هـ/1327م) بنيابة دمشق، فجاء فيها –بعد التحميدة الطويلة التي

(1) المصدر السابق، 368.

(2) المصدر نفسه، 368.

(3) العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، 117.

تتلاءم وكلام الحلبي حول تقسيم التقليد– قوله: "فإنّ الممالك أولى من قام بنصرها، وقعد بالمصلحة في أمرها، وأقيمت له دعوتها، وعزّت بعزمه ذروتها ..."(1).

إنّ النّاظر في ذلك التقليد يلمس براعة الاستهلال من خلال رسم الخطوط العريضة للمقلَّد في سياسته الواجب اتّباعها، فالممالك أولى بها من قام بنصرتها، وجعل مصلحتها فوق كل اعتبار، وتحرّى لها العزّة، وصانها من كل سوء وحماها من عثرات الدهر، فكاتب التقليد يفصح عن السياسة التي ينبغي أن تكون حاضرة في ذهن المقلَّد، فهو المؤتمن عليها وعليه أن يكون واضح السياسة، مصيب الرأي، نافذ البصيرة، مقدماً في مواطن الإقدام، محجماً في مواطن الإحجام، متبصّراً بالأمور.

وتظهر سياسة المقلَّد جليّة من خلال التوجيهات والوصايا التي يرسمها له المقلِّد في القسم الرابع من التقليد، حيث يرسم الخطوط الأساسيّة له من عدل وحُسن نيّة "فليمضِ على رسله فيما رتّبناه فيها وقرّرنا، ويتحقّق حُسن النيّة فيما أعلنّا من أمره وأسررنا، ويدأب في بسط المعدلة والسيرة المجملة، والعمل بالعدل فإنّه الطريق المسلوك ويشمل الرعايا بنظره"(2).

ومن تقليد آخر بكفالة السلطنة بالشّام –من إنشاء العمريّ– تظهر سياسة الحكم من خلال الوصايا والتوجيهات، حيث جاء فيه "ويمعن النظر في مصالح هذه المملكة الشّاميّة المحروسة، ويعتمد على حُسن تدبيره ما تغدو ربوعها بحسن ملاحظته عامرة مأنوسة، وهو يعلم أنّ العدل من شيم دولتنا الشريفة ... ويعلم أنّ عدل سنّة خير من عبادة ستّين سنة، ولينشر على الرعايا ملابسه الحسنة ..."(3)، وجاء في تقليد لم يسمِ كاتبه بكفالة السلطنة بالشّام "فليمهّد بالعدل أكناف البلاد والنظر بعين الرعاية والسّداد، ولينشر لواء الإنصاف ... وليدرّ الأرزاق من الأخلاق، وليأمر بإقامة الحدود على

---

(1) الصفديّ: أعيان العصر وأعوان النصر، 334/4.

(2) المصدر نفسه، 336/4.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 21/12.

شـــارب السـلاف أو علـــى الســـارقين بالقطع من خلاف، وليسترهف عزائم العساكر المنصورة في القتال والجهاد"[1].

ومـــن خـــلال دراسة التقاليد التي مرَّ ذكرها، التي تخصّ كفالة السلطنة ونوّابها يتبيّن للنّاظر فيها أنّ سياسة الحكم والشؤون الإدارية ترسمها الدولة لا المقلَّد، وما على الـــنائب إلاّ تنفيذ تلك السياسة التي تولّت الدولة رسمها له، والتي أُسديت له على شكل نصـــائح وتوجيهات، وهي في ظاهرها نصائح، لكن وجوب وجودها في كل تقليد يقود إلى القول بوجوب العمل بها، والالتزام بحدودها وعدم تجاوز رسومها.

وقـــد تنوّعت التقاليد بتنوّع أغراضها التي أشرنا إليها سابقاً ولكنّها حافظت على رســـومها الأصـــيلة فـــي بنائها، فمن الموضوعات التي تدبّج من أجلها التقاليد وظائف القضاء، وخاصّة قضاة القضاة، وهنا يركّز كتّاب التقاليد على تقوى الله والالتزام بحدود الشـــرع، ونـــبذ البدع والخرافات والأساطير، فمن تقليد أنشأه الصفديّ في قضاء قضاة الشّـــام حثّ فيه المقلَّد القاضي على كثير من الأُمور الواجب اتّباعها في سياسة إشغال ذلـــك المنصب؛ فعليه الأخذ بحقّ المظلوم، والتسوية بين المتخاصمين، ورعاية الأيتام، وتـــزويج الأيامى، والحفاظ على بيت أموال المسلمين، ويتحرّى الصدق والأمانة فيمن يولّيه أُمور القضاء[2].

وجـــاء فـــي وصـــيّة تقليدٍ لقضاء قضاة الشافعيّة من إنشاء محيي الدّين بن عبد الظاهر "فليستصحب من الحقّ ما هو مليء باستصحابه، وليستمرّ على إقامة منار الحقّ الـــذي هو موثق عراه، مؤكّد أسبابه، وليحتلب من أخلاق الإنصاف ما حفّله اجتهاده ليد احـــتلابه ..."[3]. ومـــن تقلـــيد قضـــاء قضاة الحنفيّة "وليسوِّ بين الخصمين في مجلسه

(1) المصدر السابق، 12/23-24.
(2) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، 5/602.
(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 11/177.

ولحظه، ويعدل بينهما في إنصاته ولفظه ... ولا ينتقض حكماً لم يخالف نصّاً ولا سنّة ولا إجماعاً"[1].

والنّاظر في التقاليد التي تناولت وظيفة القضاء يجدها لا تخرج في مجملها عن جملــة من الوصايا التي يوجّهها المقلّد للقاضي، وتجري تلك النصائح في سلك التقوى والعــدل والالتــزام بحــدود الشّــرع، والتسوية بين الخصوم والحفاظ على بيت مال المسلمين، ونشر روح المساواة بينهم، وردع الظالم، وإنصاف المظلوم، وتدل كثرة تلك الوصايا على تهاون بعض القضاة في الأحكام.

وقــد تأتي التقاليد بأمر الوزارة، وحينئذ تنصبُ الوصايا التي تمثّل بيان السياسة المتّبعة في وزارته في إقامة المصالح العامّة للدولة ونشر العدل، وعمارة البلاد، وتثمير الأمــوال، ومــن ذلك تقليد بوزارة من إنشاء شهاب الدّين الحلبيّ، جاء في بيان سياسة المولّــى "فلتجرِ أقلامه في مصالح دولتنا الشريفة على أفضل عادتها، ويرسلها في نشر العــدل علــى سجيّتها، وفي إجراء الجود على جادّتها، ويكفُ بها أكفً الحوادث؛ فإنّما تــزال أسباب الظلم بحسم مادّتها ... ويطلقها في عمارة البلاد ... وكذلك الخزائن التي هي معاقل الإسلام وحصونه ... وليلاحظ من مصالح كلّ إقليم ما كأنّه ينظر إليه بعين قلبه"[2].

والمطّلِــع على تلك التقاليد التي تدبّج في الوظائف السالفة الذكر؛ يلحظ عنصر الإطناب في إنشائها، ويعلّل هذه الظاهرة محمود رزق سليم بقوله: "وهذا النسق الكتابي يتّسق وروح العصر، ومنطق حوادثه، وسياق حياته، إذ هو عصر تموج فيه المبالغات والتهاويل وإراعة الجماهير بادّعاء العدالة، وحماية الدّين، واختيار الأكفاء النزاه لولاية الشؤون العامّة"[3].

---

(1) المصدر السابق، 181/11.

(2) المصدر نفسه، 283/1.

(3) سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مجلد 5، ق1، جزء 3، ص133.

ويمكــن الــركون إلى هذا الرأي إلاّ أنّه يمكن الميل إلى عزو تلك الظاهرة إلى القــدرة الفائقة التي تحلّى بها نفر من كتّاب ديوان الإنشاء، ممّا حدا بهم إلى نقل وظيفة النثر من الإخبار إلى الأدبيّة، وربما التنافس بينهم قاد إلى تلك الظاهرة.

ومهما يكن من أمر، فإنّنا نميل إلى تعليل آخر لمحمود رزق سليم لهذه الظاهرة، حــيث عدّ تلك المبالغة من أجل جلب الصلات الوديّة التي تربط رجال الإنشاء برجال القضاء والوزارة[1].

المناشير:

أخــذت المناشــير اسمها من الوظيفة التي كفلت بها حيث يتمّ نشرها بين النّاس ليعلموا بها ويعملوا بمقتضاها، إلاّ أنّ المناشير في العصر المملوكيّ اختصّت بنوعٍ واحدٍ خــاص، يتمــثّل بالاهتمام بإقطاع الأمراء والجند، وبما يجري في أرزاقهم من ديوان الإقطــاع[2]، وبذلك التحديد لغرض المنشور، وخصّه بهذا الجانب يخرج المنشور عن مفهومه العام المتمثّل "بأنّه بيان إعلامي يُذاع بين النّاس ليتسنّى لهم العلم بمضمونه"[3]، إلاّ أنّ بقــاء المنشور يختصّ بأرزاق الأمراء والجند ليدلّ على كثرة تداوله بين النّاس، ولا ســيّما أنّ الأمراء والجند من أكبر الشرائح الاجتماعيّة في العصر المملوكيّ، وأنّ الاهتمام بأمرهم من أولى أولويات الدولة.

وتشــبه رســوم المناشير التقاليد "إلاّ أنّ المناشير أخصر ولا وصايا فيها، ولا إطــناب فــي مقاصد للكاتب يستوفيها"[4]، وهذا يقودنا إلى تفسير الإطالة والإطناب في التقالــيد، حــيث يعود ذلك إلى بيان أهميّة أمر التقليد وخاصّة بيان سياسة المولّى التي ينتهجها.

(1) المرجع ذاته، 133/5.

(2) انظر العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص117.

(3) الدروبي: الرسائل الفنيّة في العصر العبّاسي، ص14.

(4) العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص117.

وهـــناك طبقات معيّنة من الأمراء والجند تختصّ بتلك المناشير فتكتب لمقدّمي الألـــوف*، ولـــذوي الطـــبلخانات**، ولذوي العشرات***، ولمقدّمي الحلقة**** وجندها***** ولأمـــراء العربان، ولهذا يختصّ المنشور بالمناصب العسكرية من جهة الإنفاق عليهم وتوزيع أرزاقهم المعلومة.

ويذكـــر القلقشندي أنّه "قد اصطلح كتّاب الزمان على تسمية جميع ما يكتب في الاقطاعات من عاليها ودانيها للأمراء والجند والعربان والتركمان وغيرهم مناشير جمع منشـــور"(1)، ويلفـــت القلقشندي النظر إلى استحداث تلك التسمية وخصّها بذلك الجانب، وهـــذا يفـــيد الباحثـــين في تحديد تاريخ تلك المصطلحات ودلالاتها، فيقول: "واعلم أنّ تخصـــيص ما يكتب في الاقطاعات باسم المناشير ممّا حدث الاصطلاح عليه في الدولة التركية، أمّا الزمن المتقدّم فقد كانوا يطلقون اسم المناشير على ما هو أعمّ من ذلك ممّا لا يحتاج إلى ختم)"(2).

ولذا أصبحت المناشير إذا أطلقت لا تدلّ إلاّ على تلك الإقطاعات للفئات السالفة الذكـــر، ولكل فئة من هذه الطبقات مناشير خاصّة تميّزها عن غيرها، ومن هنا قسّمت المناشـــير أربعـــة أقســـام: القســـم الأول يخصّ مقدّمي الألوف من أولاد السلطان أو

---

* مقدّمـــي الألوف: هم أعلى مراتب الأمراء، ومنهم يكون أرباب الوظائف والنوّاب وعِدّة كل منهم مائة فارس. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 14/4.

** أمراء الطبلخانات: وهي الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف بالأعمال وأكابر الولاة. وعدّه كل منهم في الغالب أربعون فارساً. انظر المصدر نفسه، 15/4.

*** أمراء العشرات: ومنهم يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف وعدّه كل منهم عشرة فوارس. انظر المصدر نفسه، 15/4.

**** مقدّمي الحلقة: وهم أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً. المصدر نفسه، 15/4.

***** جند الحلقة: وهم عدد جمّ وخلق كثير، وربّما دخل فيهم من ليس بصفة الجند. انظر المصدر نفسه، 16/4.

(1) المصدر نفسه، 157/13.

(2) المصدر نفسه، 157/13.

الخاصكية* أو غيرهم، وكذلك جميع النوّاب الأكابر بالممالك الإسلاميّة والمقدمون بدمشق(1).

والقسم الثاني ما يكتب فيه لأمراء الطبلخانات بمصر والشّام، سواءٌ في ذلك الخاصكية وغيرهم، وكذلك الأمراء المقدمون، من نوّاب القلاع الشّامية، وفي معناهم المقدمون بحلب وغيرها(2).

والقسم الثالث ما يكتب فيه لأمراء العشرات مطلقاً بسائر الممالك الإسلاميّة(3).

والقسم الرابع ما يكتب فيه للمماليك السلطانيّة ومقدمي الحلقة ورجال الحلقة(4).

وللكتّاب أفانين في تدبيج تلك المناشير، يظهرون من خلالها قدرتهم الفائقة على امتلاك زمام البلاغة والبيان، حيث يبدون مهاراتهم في براعة الاستهلال، ومن المناشير التي عنيت بهذا الجانب ذلك المنشور الذي أنشأه القاضي محي الدّين بن عبد الظاهر للناصر محمد في سلطنة أبيه الملك المنصور، حيث بدأه بقوله: "الحمد لله الذي زيّن سماء الملك بأنوار كوكب بزغ، وأعزّ ملك نبغ، وأشرف سلطان بلغ إلى ما بلغ ذوو الاكتهال من اختيار شرف الخلال وما بلغ"(5). ففي تلك التحميدة القصيرة نرى الكاتب يشرع في الثناء والمدح لذلك الأمير بعبارات تؤمّل طلعة الخير بطلعته، ولو لم يكن صاحب المنشور ابن السلطان لعدّت تلك التحميدة هجاءً للسلطان؛ لما فيها من مبالغة، فهو الذي أنار الظلام، وهو الكوكب الوحيد الذي بزغ، وهو أعزّ ملك نبغ، وأشرف

---

* هم الذين يلازمون السلطان في خلوته ويسوقون المحمل الشريف والمتعيّنون للإمرة والمتقرّبون في المملكة. انظر غرس الدين الظاهري: خليل بن شاهين (873هـ/1468م): زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، صحّحه بولس داوبس، طبع في مدينة باريس 1312هـ/1894م، ص115-116.

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 158/13.

(2) انظر المصدر نفسه، 158/13.

(3) انظر المصدر نفسه، 158/13.

(4) انظر المصدر نفسه، 159/13.

(5) المصدر نفسه، 168/13.

سـلطان بلغ، فما الذي تبقّى لأبيه من الشرف والريادة؟ ولا أحسب أنّ محي الدّين قصد إلى ما ذهبنا إليه.

وقـد انـتقل الكاتب من التحميد إلى غرض المنشور، لكنه بقي أسيراً لعبارات المـدح والثـناء حتـى لتظنّ أنّ المنشور رسالة مدح، فقد أكثر إلى حدٍّ كبير في تلك العـبارات: "وبعـد فـإنّ الهواتف أبين ما تشدوا إذا حفّت الرياض بها من كل جانب، والسماء أحسن ما تبدو إذا تزيّنت بالكواكب السيّارة والشُّهب الثواقب، والسعادة أحمد ما تحدو إذا خصّصت بمن إليه ..."[1].

إنّ كثـرة تلـك العبارات التي تتموّج بأصناف المدح والثناء لتقودنا إلى القول بطمـع الكاتب في مودّة ذلك الأمير والتقرّب منه، والحصول على صلاته، فالمنشور قد تحـوّل مـن رسالة إقطاع إلى غرض آخر مشحون بعبارات الإعجاب والمدح وفنون البلاغة، ولا نجد تفسيراً لذلك إلاّ ما أشير إليه من طلب المودّة والطمع في الصّلات.

ولـه من منشور آخر في الأمير بدر الدّين بيدرا استادار الملك المنصور "فهو المجاهـد للكفّار، وهو المتهجّد في الأسحار، وهو حاكم الفقراء، وإن كان سلطانه جعله أسـتاذ الدار، وهو صاحب العصا التي أصبح بحملها مضافة إلى السيف يتشرّف 000 وهـو الـذي تحمد الكشوف والسُّيوف فتوحه وفتحه، والذي يشكر يده عنان كل سابح، وزمام كل سُبحه"[2].

فالكاتـب يمـزج بـين عبارات الثناء وطبيعة عمل ذلك الأمير، فجعل الأعمال الجليلة التي يقوم بعبئها ذلك الأمير في السّلم والحرب سلّماً استحقّ به ذلك الإقطاع الذي يحمل الفيء بعد الفيء والعطاء الجزيل والحظوة لدى السلطان.

والـدّارِس لـتلك المناشـير يجدها لا تخرج عن تلك الميزة من خصّ صاحب المنشـور بالمدح والثناء، وبيان ذكره العطر، والتذكير بحاجة الدولة إليه، والتأكيد على

---

(1) المصدر السابق، 168/13.

(2) المصدر نفسه، 170/13.

أهمـــية مـــوقعه الذي يشغله، والتنويه بالأعمال التي يقوم بعبئها، والمحامد التي ما زال يفـــتّق أستارها، والكتّاب في ذلك الشأن يتسابقون في حيز قصب السبق، فما تلك الكثرة من هذه الصيغ والعبارات إلاّ من تنافس ذلك النفر من الكتّاب.

فالناظـــر في هذه الفقرة وهي من منشور أنشأه ابن فضل الله العمريّ لمن لقّب بســـيف الـــدّين: "كم له من همّة تترقّى به إلى المعالي، كم له من عزمة يروى حديثها المسند من العوالي، كم به أمور تناط، كم جهود يحاط، كم له من احتفاء واحتفال، وكم له من قبول وإقبال، وكم له من مناقب تصحب وتمسي، وكم له من معارف لمّا علم بها ملَكـــه –خلّـــد الله ملكـــه– قال الملك ﴿أئتوني به استخلصه لنفسي﴾[1]" [2]، ليتأكّد له أنّ الكـــتّاب يجـــدون في تلك المناشير الفرصة المواتية لتحقيق مآربهم على شتّى أنواعها، ســـواء أكانـــت التقرّب من الأمراء، أم إظهار مهاراتهم البلاغيّة، ومحاولة التفوّق على بعضـــهم. فالمتأمّل في الفقرة السابقة والمنشور بعامّة لا يجد فيه إلاّ الكيل من عبارات التبجيل والتفخيم والتنويه، ونشر إحسانه حتى ليخيّل إلى القرّاء أنّ صاحب المنشور لم يكتب له الدهر سيئة أو عثرة.

ومهمـــا حشـــدنا مـــن الأمـــثلة على تلك المبالغات لا نخلص إلاّ إلى القول بأنّ المناشـــير بشـــتّى أقسامها الآنفة، لا تكاد تخرج عن فكرة واحدة، ألاّ وهي بيان صفات صاحب الإقطاع العطرة، وسيرته المحمودة التي خولّته ذلك الإقطاع، وربّما تعود تسمية هذه الإقطاعات بالمناشير إلى نشر ذكر صفات وخصال صاحبها بين الناس.

التواقيع:

تُطلق التواقيع في العصر المملوكي على الرسائل الديوانية التي تُعنى بالوظائف الإدارية فيما دون النيابة والوزارة، ولذلك يبتعد التوقيع عن المعنى الذي يطلق عليه في

---

(1) سورة يوسف، آية 54.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 172/13.

العصور السابقة من كونه "عبارة موجزة إنشاءً أو اقتباساً في حاشية الرسالة المرفوعة إلى الرئيس في أمرٍ ما، فتكون هذا العبارة جواباً يعمل بمقتضاه"(1).

والتوقيع في أصل اللغة الإصابة وخفّة الأثر(2)، ولكن التطوّر الدلالي نال ذلك التوقيع حتّى أصبح يطلق على الرسائل التي يكتب فيها "لعامّة أرباب الوظائف: جليلها وحقيرها، وكبيرها وصغيرها، حتّى النواب اللاحقين بشأو الكبار فمن دونهم"(3).

ومن الجدير ذكره، أنّ التواقيع أخذت تتخصّص بأرباب الوظائف الدينيّة والديوانيّة، ولا يكتب بها لأرباب السيوف إلاّ القليل(4)، وقد أخذ الكتّاب في ديوان الإنشاء يضعون لها رسوماً خاصّة تميّز كل توقيع حسب رتبة صاحبه، وقد تنوّعت كذلك الوظائف التي يكتب لأربابها التواقيع فمنها: كاتب السرّ، والقضاة، وناظر الجيش، وناظر الدولة، وناظر البيمارستان، ووكلاء بيت المال، وإفتاء دار العدل، والمحتسبين، وكتّاب الدست، ونظّار الأحباس، ومشيخة الخانقاة، وتقدمة الأكراد والتركمان(5)*.

ومن مظاهر الدقّة في كتابة تلك التواقيع تمييزها عن بعضها من خلال الطرة، حيث تكون الألقاب وبعض التراكيب مختلفة حسب اختلاف الجهات الموجّهة إليها

---

(1) الدروبي: الرسائل الفنيّة في العصر العباسيّ، ص69.

(2) ابن منظور، جمال الدين (711هـ/1311م)، لسان العرب، دار صادر، (وقع).

(3) العمريّ، التعريف بالمصطلح الشريف، ص112.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 114/11.

(5) انظر المصدر نفسه، 116/11-121.

* نظّار: جمع ناظر وهم كبار الموظّفين ورؤساء الدواوين الذين شاركوا الوزير في تصريف أعماله، فمنهم: ناظر الدولة: وهو من يتحدّث مع الوزير في كل ما يتحدّث فيه ويشاركه في الكتابة في كل ما يكتب فيه. ومنهم ناظر البيمارستان: وهو المتحدّث عن أحوال المستشفيات ومعالجة المرضى - - وإقامتهم، ومنهم ناظر خزانة السلاح: وهم المتحدّث عن السلاح السلطاني وكيفية استعماله وإعادته إلى الخزائن، ومنهم نظّار الأحباس: وهم المتحدّثون في رزق الجوامع والمساجد والربط 000 .انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 29/4، 32، 38. نقيب الأشراف: وهم المتحدّثون عن ولد علي وفاطمة رضي الله عنهما، والتحدّث عن أنسابهم وأقاربهم. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 38/4. إفتاء دار العدل: وهم القضاة الأربعة: المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية. القلقشندي: صبح الأعشى، 36/4. المحتسبون: وهم القائمون بالأمر والنهي، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصّلاح. القلقشندي: صبح الأعشى، 37/4. كتّاب الدست: وهم الذين يجلسون مع كاتب السرّ بمجلس السلطان بدار العدل، ويقرأون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم. القلقشندي: صبح الأعشى، 137/1. مشيخة الخانقاه: وهم المتحدّثون عن أمر الخوانق وهي البيوت الخاصة بالانقطاع للعبادة. القلقشندي: صبح الأعشى، 193/4.

التواقيع، مراعين بذلك براعة الاستهلال فيما يختارون من ألفاظ وعبارات تناسب الحال التي يكتبون فيها لأرباب تلك الوظائف.

وتشـــبه التواقيع التقاليد إلى حدٍّ كبير في المضامين التي تحملها ولا تفترق عنها إلاّ في الجهات التي تُرسل إليها، فهي تحوي الخطبة، وصفات المولِّي والمولّى والوصايا ولكن كل حسب مقداره.

ومـــن توقـــيع بخطابة من إنشاء الحلبيّ "فإنّ أولى المنابر أن يرتاد له من أئمة العلمـــاء علاّمـــة عصـــره، أو رحلة مصره، وإمام وقته 000"[1]. ففي هذه الفقرة التي اجتـــزأناها من التوقيع نرى الحلبيّ ينبّه على أهمية الخطابة والخطباء، ويرى ضرورة الصـــدع بالحقّ والشكر لله، وتذكير عباده بآلائه، والتنويه بشرف الجهاد في سبيل الله، ورفـــع رايّـــة الـــدّين عالية، وهذه الأمور تحتاج إلى من يقوم بأعبائها طائعاً راغباً لا مستكرهاً؛ ولذا ينبغي أن توجد فيه خِصال تؤهّله لأن يحتلّ تلك المكانة "ولمّا كان فلان هـــو تعيّن لرقي هذه الرتبة فخطب لخطابتها، وبيّن أنّه كفؤها الذي تتشوّق النُفوس إلى مواعظه، فترغب في إطالتها لإطابتها"[2].

فوضع الكاتب مبرّرات ومسوّغات لبلوغ هذه الرتبة، حيث استحقّها لما حازه من الشـــرف وحُسن التدبير، وجميل الخصال، وكما مرَّ في التقاليد والمناشير، فإنّ الكتّاب مولعون بعبارات المدح والثناء، حتى ليتوهّم القارئ أنّ تلك الوظائف لا يشغلها إلاّ ذاك النفر الذين تحلّوا بتلك الخصال التي اجتمعت فيهم دون سواهم، والإغداق بهذه الخصال عليهم لتدلّ دلالة قاطعة على مقدار الاهتمام بتلك الوظائف، ولو من الجانب الإعلامي، حـــيث لا يتولّى تلك المناصب إلاّ من استحقّ ذلك عن جدارة واقتدار، ونحّى مصالحه ومآربه الشخصيّة جانباً، فجاء في توقيع للصفديّ بنظر الجوالي "وخُلِقَ ما له من مُشاكل

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 223/11.

(2) المصدر نفسه، 223/11.

ولا ضـــريب، وثـــناءٌ هـــو في الذكر أبو الطيب، ووجهٌ إلى القلوب حبيب، فكأنّه كعبة قصاد، ومنزل روّاد، ومنهل ورّاد ... وقد تودَّع عن المناصب الدنيويّة"(1).

والقـــارئ لـــتلك التواقيع يجدها متطابقة من ناحية مثاليّة المولّى، وتنزيهه عن النوايا الخبيثة، والعنايات المريبة، فالمولًى كأنَّما خُلق لتلك الوظيفة حيث لا تليق إلاّ به ولا يســـتحقّها إلاّ هـــو، ويـــرمون من وصف هؤلاء الأشخاص بالصّفات المثاليّة إلى الشـــفافيّة التـــي يتعامل بها أصحاب النفوذ في الدولة المملوكيّة، فكل من ينال إعجابهم ويتفانـــى في عمله، ويخلص في وظيفته يغدقون عليه عبارات الشكر والثناء، وينشرون خصـــاله لـــيوهموا العامّـــة بحسن فعاله وكريم صنيعه، ليركنوا إلى موادعته والثّقة به وبمـــن عيّنه في ذلك المنصب.

فمثل هذه المجاملات والمبالغات لا يراد بها فقط التقرّب من المولًى، بل الهدف أكبر من ذلك وأسمى، فالمولّي يسعى لكسب ثقة العامّة، حيث لا يعيّن في المناصب إلاّ من اتّصف بصفات نادرة بل تكاد تكون معجزة، ولذا تطمئن نفوسهم ويركنون إلى من تولّـــى تلـــك المناصب، وهنا يجد الكتّاب فرصة مزدوجة حيث ينالون إعجاب المعيّنين والسلاطين والنوّاب، فالمعيّن تسمو نفسه بالمدح والثناء، والسلطان أو النائب يزداد ثقة في ميزان العامّة.

وكمـــا تُرسم السياسة الواجب اتّباعها في التقاليد من خلال الوصايا، نجد الأمر ذاته في التواقيع، ومن يقرأ صفات ذلك المولّى ويدرك مثاليتها لا يجد مبرّراً لوجود تلك الوصايا، حيث عُرِف بحصافة العقل وسرعة البديهة، والدراية بأمور منصبه، ولهذا لا تفسّر هذه الوصايا إلاّ ببيان سياسة المعيَّن كما يريدها السلطان أو النائب.

فمـــن وصية محتسب "وقد ولّى أمر هذه الرتبة، ووكّل بعينه النظر في مصالح المســـلمين لله تعالـــى حســـبه، فلينظر في الدقيق والجليل، والكثير والقليل، وما يحصر

(1) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، 619/5.

بالمقاديـــر ولا يحصر، ... وليعمل لديه معولاً لكل عمل ... وليتعرّف الأسعار ويستعلم الأخبار"[1]. فيظهر من تلك الوصية رسم السياسة الواجب عليه اتّباعها، حيث نبّهه على دقائق الأُمور وجليلها، وأراد له الوجهة السليمة في التعامل مع تلك الأمور، وهو كذلك يذكّــره كلمـــا أرعــوى ونســـي بما وكّل إليه من أُمور تلك الحسبة، وتختلف الوصية باخـــتلاف المنصب الذي يشغله المولّى، وقد استوفى العمريّ في كتابه التعريف طرفاً كبيراً من تلك الوصايا[2].

المراسيم:

هي جنس من رسائل التقاليد المتقدّمة الذّكر، فهي رسائل ديوانيّة تخصّ طبقة أو فـــئة من فئات أرباب الوظائف في الدولة المملوكيّة، ووجود مثل هذه الرسائل له دلالة واضـــحة، حـــيث يشير إلى مقدار الدقّة التي يتّصف بها ديوان الإنشاء المملوكيّ، فما الفروق الضئيلة بين تلك الرسائل إلاّ دليلٌ على مبلغ عنايتهم بها.

وقـــد لاحـــظ كتّاب ذلك العصر مدى مطابقتها للتقاليد، ولذا لم يتعرّض العمريّ لذكر المراسيم المكبّرة، وعلّل القلقشندي عدم ذكرها لتأخّر استحداثها عن عصره، ومن الـــراجح أنّها كانت في زمانه تُعدُّ جنساً من التقاليد، وقد وردت المراسيم المصغّرة في كـــتابه التعـــريف عرضـــاً ولـــم يعلّـــق عليها كما هو الحال بالنسبة للتقاليد والتواقيع والمناشير[3].

وقد نقل القلقشندي عن التثقيف أنّ المراسيم على نمط التقاليد ليس بينهما اختلاف إلاّ فـــي أمـــرين: أحدهما –أنّه لا يكتب شيء من المراسيم في قطع الثلثين بل في قطع النصف أو الثلث، والثاني أنّه لا يقال فيها "تقليد شريف" بل "مرسوم شريف"، ولم يكتفِ ناقـــل هذا الرأي بهذين الفرقين بل جعلها أربعة أُمور، وكل هذه الأُمور تتعلّق ببنائه –

(1) المصدر السابق، 619/5.

(2) العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف / قسم الوصايا، 121-207.

(3) انظر المصدر السابق، 120-121.

علماً أنّ البناء من مستلزمات وجوه استخدامه- فقد ارتأى أنّ المرسوم يقتصر في طرته علـى الأميـري دون الكبيري بخلاف التقاليد؛ فإنّه يُقال فيها "الأميري الكبيري" وهذا الاخـتلاف ناشـئ عن الجهة التي يوجّه إليها المرسوم، حيث يشير ذلك إلى دنو درجة المرسوم عن التقليد، والأمر الثاني يُقال في المرسوم أنّ يستقرّ ولا يُقال أن يفوّض ولا أن يقلّد، وهذا الفرق كذلك ناتج عن طبيعة المنصب المراد شغله. والفارق الثالث: يقال على عادة من تقدّمه وقاعدته، ولا يُقال على أجمل العوائد وأتمّ القواعد، وهذا الاختلاف كذلك يردّ إلى موقع المعيَّن، والرابع: يقال في صدره وبعد ولا يقال أمّا بعد[1].

وهـذه الفـروق تعـود في مجملها إلى بنية المرسوم سواء ما قال بها صاحب التثقيف أو القلقشندي، ولكن هذه الفروق تحمل معنىً ومضموناً، فهي تعني للموجّهة إليه أمـراً وليسـت كالمـوجّهة لصـاحب التقليد، فالمبنى ينعكس على المعنى، ولذا تكون المراسيم في درجة أدنى من التقاليد.

والمراسيم على خلاف التقاليد والمناشير والتواقيع، تتدرج في قسمين حسب رتبة مـن تـوجّه إلـيه، فمنها المراسيم المكبّرة ويكتب بها لنوّاب القلاع من مقدّمي الألوف والطبلخانات وبعض أمراء العربان وشادّي البريد[2]، وأمّا المراسيم المصغّرة فيكتب بها لأرباب السيوف بالولايات الصغيرة، مثل نظر الأوقاف ونحوه[3].

ومـن الملاحظ أنّ المراسيم في مجملها تكتب في الشؤون العسكريّة وما والاها، وطبـيعة تلـك المناصـب تُناسبها هذه التسمية، حيث "المراسيم جمع مرسوم أخذاً من قـولهم: رسمت له كذا فارتسمته إذا امتثلته، أو قولهم: رسم عليَّ كذا إذا كتب أو يحتمل أن يكون منهما جميعاً"[4]، والمناصب العسكريّة تستوجب امتثال الأوامر والأخذ بالطّاعة

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 110/11.
(2) المصدر نفسه، 108/11.
(3) انظر المصدر نفسه، 110/11.
(4) المصدر نفسه، 107/11.

والالتــزام؛ ولــذا نرى تناسب المسمّى مع غرضه، وهذا أمر غاية في الحصافة، حيث يقصد من اللفظ معناه ومن المبنى مدلوله.

وللتدلــيل على الشبه الكبير بين المراسيم والتقاليد نجتزئ بعض الفقرات الممثّلة لأقســام المرسوم من مرسوم أنشأه المقرّ الشهابيّ ابن فضل الله بنيابة قلعة دمشق، وقد راعــى العمريّ في خطبته براعة الاستهلال، حيث مزج عبارات التحميد بألفاظ تخصّ القــلاع ووصــفها، فجــاء فيه "الحمد لله مشرّف القلاع ومصرّف رجالها في الامتناع، ومعرّف من جاد لها أنّ الشمس عالية الارتفاع، ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك لــه شــهادة نرجو بها لما بقي من قلاع الكفر الاقتلاع، واستعادة ما قرّ معهم من قرى وضاع من ضياع"[1].

يستشــفّ مــن تلك الخطبة رغبة المماليك في ضمّ قلاع الصليبيين إلى قلاعهم، وفــي الخطــبة كــذلك إشارة إلى استيلاء الصليبيين والتتار على بعض قرى وضياع المســلمين حتــى زمــن ذلك المرسوم، ولمّا كان المرسوم بشأن نيابة قلعة، فقد أسهب العمريّ في ذكر فضائل القلاع والحصون، وحاجة المسلمين إليها، فيرى "أنّ للحصون حواضر كما للبلاد، وحواضن تضم بقاياها ضمّ الأمّهات للأولاد، أو معاقل يُرجع إليها إذا نابت النوب الشّداد، ومعاقد يعتصم من منعتها بجبال ويتمسك بأطواد"[2].

ولعلّ اهتمامه بوصفها وتفانيه في جلب كل عبارة مستملحة، ونكتة بلاغيّة يعود إلى رغبة مكبوتة في نفسه وربّما في نفوس معاصريه، فالاهتمام الكبير الذي يظهر في خطــبة ذلــك المرسوم ليدلّ دلالة قاطعة على شعور صادق، نابع من إدراك أهمية تلك القلاع ودورها في حفظ ديار المسلمين من الطامعين.

ويتّفق كذلك المرسوم مع التقليد في بيان صفات المولّي والمولّى، فقد أغدق عليه أجمل الصّفات وأفضل الخلال، فقال: "وكان فلان هو حامي هذا الحِمى، ومانع ما يحلو

---

(1) المصدر السابق، 26/12.

(2) المصدر نفسه، 26/12.

فـي الثغور من موارد اللُمى، وغيور الحيّ فلا تبرز له إلاّ من عقائل المعاقل قاصرات الطـرف كالدُمى، وحافظ ما استودع من مصون واستجمع من حصون، واستجهر من مـوارد تـردها مـن زرد الـدُروع عـيون، ويفـرّق منها المجانيق سحائب ممطرة بالمنـون"(1).

وتماثـل المراسيم التقاليد في الوصايا إلاّ أنّ الوصايا في المراسيم غالباً ما تكون بصـيغة الأمر؛ لما في المراسيم من صيغة الأمر، فالقارئ لجملة الوصايا في المرسوم سـابق الذكر يجدها تبدأ بصيغة الوجوب "فعليك بحفظها ليلاً ونهاراً، وتفقّد أحوال من فيها سرّاً وجهاراً، وفتح بابها وغلقها مع الشمس، وتصفّح ما بها من لبس وتتبّع أسبابها كمـا فـي النفس ... وخذ بقلوبهم وأوصل إليهم حقوقهم، واجمع على طاعتنا الشريفة متفرّقهم"(2).

فالمـتأمّل لتلك الوصايا يجدها تزخر بأفعال الأمر الموجبة للامتثال بها، ولعظم أهمـيّة تلك الوظيفة يفصّل العمريّ أدقّ الأمور التي تخصّ تلك القلعة حتى لتقترب تلك الوصايا من التقرير.

ومـن وصـية مرسـوم آخر أنشأه المقرّ الشهابيّ بإمرة آل علي* "ونحن نأمرك بـتقوى الله، فـيها صـلاح كل فريق وإصلاح كل رفيق، ونجاح كل سالك في طريق، والحكـم فليكن بما وافق الشّرع الشريف، والحقوق فحصّلها على وجه الحقّ من القويّ والضعيف"(3).

---

(1) المصدر السابق، 28/12.

(2) المصدر نفسه، 28/12-29.

* وهم من آل فضل الذين ينتسبون إلى طيء، وهم يزعمون أنّهم من ولد عليّ بن جعفر بن يحيى البرمكيّ ونزلوا غوطة دمشق. انظـر العمـري: التعريف بالمصطلح الشريف، 104؛ انظر القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط2، 1400هـ/1980م، دار الكتاب المصري – القاهرة، ص107.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 127/12.

والذي يُنعم النظر في تلك الوصيّة يجدها تفيض بأفعال الأمر الموجبة للأخذ بها، وهــذه الميــزة تفــرّق وصايا التقليد عن المرسوم، حيث تعتمد وصايا التقاليد النصح والإرشـــاد، بيــنما المراســـيم تتميّز باللغة الآمرة. فالمولّي يريد من المعيّن امتثال تلك الوصايا على وجه الخصوص لا على سبيل إسداء النصيحة.

المسامحات:

تُعدُّ المسامحات لوناً من ألوان المراسيم، ولكنها أخذت تسميتها من الغرض الذي أُنشــئت من أجله، وتمثِّل تلك الرسائل مدى التسامح الذي ينعم به قطاع الاقتصاد جرّاء سياســة الســلاطين المماليــيك فــي تنشــيط حــركة الاقتصاد، وإعفائها من المكوس والضرائــب.

والمســامحات جمع مسامحة، وهي "الجود والموافقة على ما أُريد منه، والمُراد المســامحة بما جرت به عادة الدواوين السلطانيّة من المقرّرات واللوازم السلطانيّة"[1]. وتــنال تلــك المســامحات الأُمــور العظيمة كالإعفاء من المكوس، أو تخفيض بعض الضرائب المفروضة على البضائع جزئيّاً.

وأيّــاً كــان هذا الإعفاء، فإنّ السلاطين يبتغون من ورائه أُموراً ظاهرة وأخرى خافــية، فهــم يســتميلون قلوب العامّة بما يعفونهم من تلك المكوس، ومن جهة أُخرى ينشّــطون الحركة التجاريّة، كما يسهمون في تشجيع التجارة الخارجيّة التي تعود على الدولــة بالأموال الطائلة، وتشكّل تلك المسامحات أجواءً لطيفة تصقل العلاقة بين كبار التجّار وسلاطين المماليك. فضلاً عن شعور الرعيّة باهتمام الدولة بهم ومساعدتهم على تجاوز المحن الاقتصاديّة.

ومن الناحية الفنيّة تتطابق رسالة المسامحة مع المرسوم، فتبدأ بالتحميدة الطويلة التي تمتزج فيها عبارات الحمد بالمسامحة بما يتماشى وحسن الاستهلال، فمن مسامحة ببواقــي دمشق وأعمالها من إنشاء الشهاب الحلبيّ: "الحمد لله الرؤوف بخلقة، المتجاوز لعــباده عمّا قصّروا فيه من حقّه، المسامح البريّة بما أهملوه من شكر ما بسط لهم من رزقه ... نحمده على نعمه التي عمّت الرعايا بتوالي الإحسان إليهم، وأنامتهم في مهاد الأمــن بما وضعت عنهم مسامحتنا من إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وأنالتهم ما

(1) المصدر السابق، 23/13.

ورسالة المسامحة لا بُدَّ لها من الدّعاء لإظهار أثر النعمة التي أسداها ذلك المسامح لتلك الشريحة من النّاس، فمن المسامحة بالأغنام السالفة "فرسم بالأمر الشريف -لا زالت مواهبه تشمل الآفاق، وتزيد على الإنفاق، وتقدّم ما ينفد إلى ما هو عند الله باق"[1]، ومن المسامحة ببواقي دمشق "فرسم بالأمر الشريف -زاده الله تعالى علوّاً وتشريفاً وأمضاه بما يعمّ الآمال رفقاً بالرعايا وتخفيفاً، وأجراه من العدل والإحسان بما يعمّ البلاد، ويجير العباد"[2].

ولقد وجد كتّاب الديوان في رسائل المسامحات فرصة سانحة للثّناء على السلاطين والنوّاب من أجل كسب ثقتهم، فأصبحت تلك المسامحات طريقاً ممهّداً لنيل رضا الملوك والسلاطين والنوّاب، حيث ينالون أعطياتهم وصلاتهم.

ومهما يكن من أمر، فإنّ رسائل المسامحات تمثّل طرفاً من العلاقة التي تربط الطبقة الحاكمة بباقي طبقات المجتمع، حيث تمثّل تلك المسامحات همزة الوصل بين الطبقتين، وتُعدُّ تلك الرسائل نافذة خير لما فيها من سماحة السلاطين والنوّاب، فيجد الشّعب فيها متنفّساً يخفّف أعباءهم، فتلهج ألسنتهم بعبارات الثناء والشكر، وهذا ما يبتغيه أصحاب السلطنة، ولذا لا تختم رسالة المسامحة إلاّ بمثل تلك العبارات "فليتلقّوا هذه النعمة بباع الشكر المديد، ويستقبلوا هذه المنّة بحمد الله تعالى، فإنّ الحمد يستدعي المزيد"[3]. ومن مسامحة أُخرى ((والمسارعة إلى العمل بهذه المسامحة التي تستدعي مسارّ القلوب وثناء الألسنة"[4].

وهذه المسامحات تكون منّة من السلاطين لا واجباً مفروضاً عليهم، وهذا يزيد من العلاقة التي تبتغيها الطبقة الحاكمة، وتستغلّ مثل هذه المسامحات في ظروف معيّنة

(1) المصدر السابق، 37/13.
(2) المصدر نفسه، 27/13.
(3) المصدر نفسه، 30/13.
(4) المصدر نفسه، 27/13.

لترأب الصدع بين الطبقة الحاكمة وعامّة الشعب، خاصة وأنّ المكوس والضرائب أثقلت كواهل النّاس.

البشارات والتّهاني:

إنّ رسـائل البشارات والتّهاني من الرسائل العامّة التي توجَّه إلى مختلف طبقات المجـتمع؛ ليعبّروا عن بالغ سرورهم؛ ولهذا فإنّها تقرأ على المنابر، وتُذاع في أوساط الخاصّة والعامّة ليتسنّى لهم المشاركة في الفرحة وإظهار مدى السرور الذي أحدثته في نفوسهم.

وكُـتب التّهانـي من الكتب التي تفصح عن مواهب الكتّاب وتبيّن مقدرتهم على ارتقاء صهوة البلاغة وضُروب الكتابة "فهي من ضروب الكتابة الجليلة النفيسة لِمَا في التهنـئة البلـيغة مـن الإفصـاح بقدر النعمة، والإبانة عن موقع الموهبة، وتضاعف السُّرور"[1]، ولذا يَعدُّها محمود رزق سليم من أطرف رسائل الديوان معلّلاً ذلك بما يُتاح فـيها للمنشـئ من ألوان الوصف والمبالغة، وكأنّه فيها حرّ الزمام طليق اللجام يسرح ويمـرح كمـا لذَّ لقمه وطاب[2]، فهذه الرسائل يتعيّن فيها تخيّر العبارات كما لو كانت قطعة فسيفسائية أو لوحة فنيّة؛ لأنّ النفس تألف الزخارف والألوان، ورسالة التهنئة أشبه بتلك الفقرات الموسيقيّة التي تشنّف السمع.

وقد تشعّبت الموضوعات التي عالجتها رسائل البشارات والتهاني، وقد كان أجلّها قـدراً، وأعمّهـا سروراً تلك البشارات التي تحمل أنباء الفتوح والانتصارات، وفي هذا الموضـوع يـرى الشـهاب الحلبيّ أنّ كتب التهاني بالفتوح لا يناسبها إلاّ بسط الكلام

---

(1) المصدر السابق، 9/5.

(2) انظر سليم، محمود رزق: العصر المملوكي ونتاجه العلمي والأدبي، 143/5.

والإطـناب في شكر نعم الله والتبرّي من الحول والقوة، ووصف شجاعة الملك وجيشه، وكثرة عدّة الأعداء وعددهم؛ ليكون ذلك شاهداً على استبسال المسلمين وتضحياتهم[1].

وفي بيان عظم هذه الانتصارات والفرحة الغامرة التي تعمّ أرجاء الدولة يحرص المماليك علـى إبلاغ خبرها للدّول الصديقة من أجل مشاركتهم في الفرح والابتهاج، والـدول العدوّة من أجل التهكّم والسخرية منهم، ولهذا يخبرنا ابن تغرّي برديّ عن نبأ فـتح طرابلس زمن الملك المنصور قلاوون سنة (678هـ)، مصوّراً الأجواء السعيدة قـائلاً: "وكتبت البشائر إلى الآفاق بهذا النّصر العظيم، ودقّت البشائر والتهاني، وزيّنت المُدن، وعُملت القلاع في الشوارع، وسرّ النّاس بهذا النصر غاية السُرور"[2]، ومثل هذه الأخبار تضعنا في الأجواء السعيدة الغامرة بنشوة النّصر والشعور بالعزّة، بعد استرجاع مديـنة إلـى معاقل المسلمين، ومثل هذه الانتصارات تقوّي العلاقة بين العامّة والطبقة الحاكمـة، حـيث يشعر العوام بالعزّة ونشوة النصّر؛ ومن أجل ذلك يحرص السلاطين علـى تعمـيم البشـائر والتّهانـي لتغطّـي فئات المجتمع، فترتفع أكفّهم بالدّعاء للقادة والجيوش، وألسنتهم بالضّراعة والثّناء والشّكر.

وتـدبج تلك الرسائل كذلك عندما ينوي السلطان الخروج مع الجنود إلى ساحات الوغـى وملاقـاة الأعـداء، وهم بذلك يصوّرون مدى شجاعة السلطان وسطوته على أعدائـه، وقـوة بأسـه، ويبسطون الكلام في مدح قادته وجنوده؛ مسجّلين أنباء الفتوح والحصـار والمعارك والغنائم والسبي، واصفين أعداءهم بالجبن والغدر والمكر والذلّ والتواطؤ، ومن الجدير ذكره أنّ هذه الأوصاف للأعداء تكون عندما يهبّ السلطان إلى ملاقـاة الأعـداء "وفـي أوقـات حركات العدوّ إلى أهل الثغور يعلمهم بالحركة للقاء عـدوّهم"[3]، ويكـون وصف العدوّ بعد إنجلاء المعركة وحصول النصر على غير تلك

---

(1) انظر الحلبي: حسن التوسّل، ص335.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 322/7.

(3) الحلبي: حُسن التوسّل، ص332.

الصـــورة، حـــيث يهوّل أمره بوصفه بالكثرة والإقدام؛ لأنّ تصغير أمره تحقيرٌ للجهود الذي بُذلت للظفر به(1).

ومـــن رســـائل البشارات بالفتوح تلك الرسالة التي كتب بها إلى قاضي القضاة بدمشق شهاب الدّين بن الخويي بفتح السلطان الأشرف خليل قلعة الرُّوم سنة 691هـ، وقد تضمّنت تلك الرسالة البشائر والتهاني العظيمة، وصوّرت الحالة النفسيّة التي عمّت أرجـــاء العالم الإسلامي لهذا الفتح العظيم، حيث طارت الأخبار في الآفاق "ومن أحسن قصـــص هـــذا الفتح المبين والمنح الذي تباشر به سائر المؤمنين، وتعادل في الإعلان والإعـــلام به كل من قرَّ عيناً من الأبعدين والأقربين، ويخصّ بمسرى مبشّراته الحكام، ليعمّوا ببشرها عامّة النّاس"(2).

وتتضـــمّن تلـــك التهانـــي وصف السير إلى المعركة والصعوبات التي واجهت الجنود والقادة، وقد تنبئ العبارات وجمال التصوير عن مدى الفرح والسُّرور "وما زلنا نصـــل الســـرى بالســـير، ونرســـل الأعنّة إلى نحوها فتمدّ الجياد أعناقها إليها مدّاً ... وحاصـــرناها حصـــاراً ألحقهـــا بعكّـــا وأخواتها ... ونصبنا عليها عدّة مجانيق تنقضّ حجارتهـــا انقضـــاض النُّسور، وتقبض الأرواح من الأجسام، وإن ضرب بينها وبينهم بسور، وتفترس أبراجها بصقور صخور افتراس الأسد الهصور"(3).

ويعـــزون هذه الانتصارات إلى تأييد الله سبحانه لهم، بسبب رفعهم راية الجهاد، وتبني الدفاع عن حمى المسلمين، وهم بذلك يطمحون إلى إبراز مكانة دولتهم بين الدول الإسلاميّة الأخرى وإظهار هيبتهم في نفوس القريب والبعيد، ولعلّهم ببعث البشارات إلى الدول الإسلاميّة يهدفون إلى التعريض بهم ومن ذلك البشارة التي بعثت إلى اليمن تبثّ أخبار فتح طرابلس، حيث جاء منها "وكانت الخلفاء والملوك من ذلك الوقت ما فيهم إلاّ

---

(1) المصدر السابق، ص335.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، 1/1005-1006.

(3) المصدر نفسه، 1/1006.

من هو مشغول بنفسه، مكبّ على مجلس أُنسه، يرى السلامة غنيمة، وإذا عنّ له وصف الحرب لم يسأل منها إلاّ عن طريق الهزيمة، وقد بلغ أمله من الرتبة، وقنع من ملكه – كما يقال– بالسكة والخطبة، أموال تنهب، وممالك تذهب، لا يبالون بما سُلبوا، وهم كما قيل:

إنْ قاتلوا قُتلوا أو طاردوا طُردوا أو حاربوا حُربوا أو غالبوا غُلبوا

إلى أن أوجد الله من ينصر دينه، وأذلّ الكفر وشياطينه"(1).

ومن الأغراض التي تسطّر من أجلها رسائل البشارات المواسم الدينيّة: كالأعياد والعودة من الحجّ، ويحرص الكتّاب في تلك الرسائل على ذكر فضائل تلك الأيّام وتشريفها على ما سواها من أيّام، وإظهار البهجة، والدعاء للخليفة والسلطان بالتمكين والعزّة، والظفر بالأعداء، فمن ذلك رسالة كتب بها الشّهاب الحلبيّ بمناسبة عيد الفطر، جاء فيها: "وسائر الأيّام أجساد، وسائر الأعياد هي الأرواح؟ فإذا كان المولى قد زُهيَ على أبناء جنسه، ويوم العيد على غده وأمسه، فقد صار كلٌّ منكما إلى صاحبه يتقرّب... وهو أحق النّاس بأن يبهجه مقدمه، وأن يهنّى بيومه الذي هو مجمع السُّرور وموسمه"(2).

ومن تهنئة بعيد الأضحى للشّهاب الحلبيّ "جعله الله أبرك الأعياد، وأسعدها، وأيمن الأيّام وأمجدها، وأجمل الأوقات وألذّها وأرغدها"(3)، ومن مستلزمات تلك الرسائل الدعوة للمهنّأ بالسّلامة، وتمام العافية، وإعادة تلك المناسبة عليه باليُمن والتمكين، فمن تلك الرسالة: "وأعاده الله على المولى في صحّة دائمة، وسلامة ملازمة، وصار عبده مطيعاً لأوامره كسائر العبيد ... ومتّعنا بدوام حياته واستجلاء جميل صفاته"(4).

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، 323/7.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 44/9.
(3) المصدر نفسه، 46/9.
(4) المصدر نفسه، 46/9.

ورســـائل تلـــك المواســـم لا تخرج عن فكرة وصف البهجة والسُّرور والدعة، والأمـــن والطمأنيـــنة، والدعوة للمهنّأ بالصحّة والعافية، ودوام السّلامة على مرّ الأعياد والمواسم.

ومـــن دواعي كتابة التهنئة كذلك النهوض من المرض، وفيها يشرع الكاتب في حمـــد الله وشكره على ذهاب المرض وقدوم العافية، مصوّراً الحالة التي أصابت الأمّة جرّاء مرضه، والحُزن الذي أنتابها، فلم تهدأ النُّفوس ويذهب حُزنها إلاّ بشفاء ذلك المهنّأ وزوال المـــرض، فاستبشرت الممالك والأُمم بشفائه، فمن رسالة أنشأها جمال الدين بن نـــباته: "تمّ لطف الله تعالى وعجّل خير العافية المأمولة، والصحّة المقبلة عقب الدعوات المقبولة، فيا لها من مسرّة شملت، ومبرّة كملت، وتهنئة جمعت قلوب الأودّاء وجملت... فهنيئاً له بهذه الصحّة المتوافرة الوافية"(1).

والمناســـبات التـــي تســـتوجب هذه الرقاع كثيرة، فمنها التهنئة بميلاد الأولاد، والعـــودة مـــن الصَّيد، والزواج، وقرب المزار والقدوم من السفر، ولأنّ هذه المناسبات يشترك فيها العامّة مع الخاصّة نُؤَخِّر الحديث عنها إلى الباب اللاحق الخاصّ بالمظاهر الاجتماعيّة عند الحديث عن كتب التهنئة.

---

(1) المصدر السابق، 68/9.

ثالثاً: العلاقات الخارجيّة

- العلاقة مع الدول الإسلاميّة:

حرصت الدّولة المملوكيّة على إقامة علاقات طيّبة مع الدّول الإسلاميّة في ذلك الزمن، وحكمت هذه العلاقة المصالح السياسيّة والاقتصاديّة، ولسنا بصدد البحث في تاريخ أو أسباب وأهداف تلك العلاقات، بقدر ما نهدف إليه من دراسة تلك الوثائق، وبيان دور الأدب النثري في تصوير الحياة السياسيّة والاقتصاديّة لدولة المماليك.

العلاقة مع الممالك الإسلامية الشرقية:

كان الهدف الأهمّ في إيجاد العلاقات الوديّة مع تلك الممالك الوقوف في وجه زحف التتار، وتأمين طريق التجارة الآتية من الشرق الأقصى، فقد ربطت المماليك على طول فترة حكمهم علاقة حسنة مع ممالك القفجاق•، والممالك الإيرانيّة، فقد عقد العمريّ في كتابه التعريف بالمصطلح الشريف حيّزاً لا بأس به لبيان كيفيّة الكتابة لهؤلاء الملوك[1]، وهذا دليل على كثرة الرسائل المتبادلة بين المماليك وتلك الممالك، وقد توطّدت تلك العلاقات حتّى بلغت درجة المصاهرة، فقد تزوّج السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من ابنة السلطان أزبك خان "وقد خطب إليه السلطان فزوّجه بنتاً تقرُّباً إليه"[2].

• القفجاق أو القبيلة الذهبية، وهم فرع من المغول ومملكتهم متّسعة الجوانب طولاً وعرضاً، كبيرة الصحراء، قليلة المدن، بها عالم كثير لا يدخل تحت حدّ، وتُعرف بالذهبية نسبة لسرير الذهب الذي يجلس عليه ملوكها. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 451/4؛ انظر كاهن، كلود: الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، ط1، 1995، سيا للنشر – القاهرة، ص257.

(1) انظر العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص56-73.

(2) المصدر نفسه، ص62.

وقد بيّن العمريّ أواصر تلك العلاقة بقوله: "وما زال بين ملوك هذه المملكة وبين ملوكنا قديم اتّحاد، وصدق وداد، ومن أول أيّام الظّاهر بيبرس وإلى آخر وقت"[(1)]، ويؤكّد هذا الرأي التبادل الدبلوماسي الذي جرى بين الظّاهر بيبرس والملك بركة خان، فقد جاء في ذكر إنفاذ الرُسل إلى الملك بركة أنّ الظّاهر "كتب على أيدي الرُسل كتاباً فيه شيء عظيم من الاستمالة، والحثّ على الجهاد، ووصف العساكر الإسلاميّة وكثرتهم"[(2)]، وقد ورَدَ كذلك أنّ الملك بركة خان قد بعث بالرُسل إلى الملك الظّاهر "وحمل إلى الرسل من الأنعام ما لا يحصى، ورسم بتجهيز الهديّة إلى الملك بركة من كل شيءٍ على اختلافه"[(3)]. ولا شكّ أنّ مثل هذه الهدايا المتبادلة ساهمت في توطيد العلاقة، ورصّ الصُفوف في وجه الخطر القاتل آنذاك وهم التتار.

وقد بيّنت الرسائل المتبادلة بين هاتين المملكتين المصالح السياسيّة التي تخصّ شؤون الحرب والسِّلم، والحثّ على الجهاد، والوقوف في وجه الغزو التتريّ، وصدّ عدوانه، وكذلك اهتمّت بالمصالح الاقتصاديّة وخاصة أُمور التجارة، والتبادل الاقتصادي الآمن. فقد عزا بيرتولد شبولير الاتّفاق الذي جرى بين القفجاق والمماليك إلى أسباب جغرافيّة، ومصالح تجارية، إضافة إلى تشابه الدولتين في الظّروف السياسيّة وعنصر الدّين[(4)]. وحملت كذلك البشارات بأنباء الانتصارات، وخذلان العدوّ، وفي ذلك إشارة إلى قوّة دولة المماليك وسطوتها؛ لتبقى مرهوبة الجانب من قِبَل تلك الممالك الإسلاميّة.

فمن رسالة بُعثتْ إلى محمد أزبك خان سنة (776هـ/1374م) أيّام السلطان شعبان من إنشاء القلقشندي: "فإنّ قلوب الأولياء وإن تناءت الأجسام متعارفة بالائتلاف، متقاربة على بُعد الدّيار، حيث لا تناكر بينها ولا اختلاف، ولا سيّما ملوك الإسلام الذين

---

(1) المصدر السابق، ص62.

(2) عبد الظاهر، محيّ الدّين (ت692هـ/1292م): الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط1، 1396هـ/1976م، ص139.

(3) المصدر نفسه، ص171.

(4) انظر شبولير، بيرتولد: المغول في التاريخ، ترجمة يوسف شلب الشّام، ط1، 1989، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ص53.

هـم متّحدون بالمصافاة والاستسلام"[1]، فقد كان مطمح المماليك من تلك الرسائل كسب ودّ تلك الممالك، والوقوف إلى جانبهم "وأردنا بداءته بهذه المخاطبة؛ ليعلم ما نحن عليه من صحيح الوداد، وأكيد الاتّحاد، وجميل الاعتقاد، وحُسن الموالاة الخالصة من شوائب الانـتقاد"[2]، فالواضـح مـن الرسالة أنّ المماليك هم البادئون في تسطير تلك الرسائل لحاجـتهم إلى خطب ولاء هذه الممالك، وجعلهم في صفّهم؛ لترجح كفتهم على مناوئيهم من المسلمين وغيرهم.

وتحفـل كذلك الرسالة بالمحافظة على تلك العلاقة الوديّة، وتجنيبها كل العوائق والشـوائب "وتسـتدني ولاءه الـذي أحكـم عقده؛ لتؤكّد المصافاة بين هاتين الدولتين، والمخالصة من كلتا الجهتين، والموالاة بين المملكتين"[3].

وظاهر من هذه الرسالة مدى العلاقة الوديّة التي تربطهم بتلك المملكة المشرقيّة، ولا حاجـة لهـم في كسب ودّها إلاّ ما أشير إليه كما تقدّم من الوقوف إلى جانبهم في مـواجهة التـتار، وتأمـين الأمن والطمأنينة لتجارهم والتجّار الوافدين إلى دولتهم من الشرق، وقد اعتنت تلك الرسالة بذكر التجّار وبضائعهم، وحمايتهم، وتوفير الأمان لهم، فقد جاء فيها "ويأمر المقام العالي لا زال عالياً بتردّد التجّار من تلكم الدّيار، والمواصلة بالأخبار على حسب الاختيار، ومتابعة الرُسل والقصاد، على أجمل وجه معتـاد"[4].

فالمصلحة التجاريّة في مثل إقامة تلك العلاقات بارزة أيما بروز، حيث مواصلة المودّات مع مثل هذه الممالك ضمانٌ لحريّة التجارة، وزيادة العائدات الاقتصاديّة، حيث تكثر البضائع، وتتنوّع في البلاد الشرقيّة كبلاد الصّين والهند؛ ولذا مرَّ في فصل سابق رسالة الأمان التي أمّن فيها الملك المنصور قلاوون التجّار الوافدين من بلاد المشرق.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 297/7.
(2) المصدر نفسه، 298/7.
(3) المصدر نفسه، 298/7.
(4) المصدر نفسه، 298/7.

ومــن أجــل إعــلان هيــبة دولــة المماليك؛ حملت تلك الرسائل البشارات بالانتصارات، وخذل العدو، وغالباً ما تأتي مثل هذه البشارات عرضاً في الرسائل فمن ذلك – معتذراً عن عدم بعث الرُسل– "وقد تأخّرت رسلنا عن حضرته، ولم تصدر من جهتــنا الشريفة كذلك ولا وردت رسل من جهته، ولم يشغلنا عن ذلك إلاّ مواقعة الفرنج المخذولــين أعــداء الدّين، ومقارعتهم في سائر السواحل بشدّة البأس والتمكين، إلى أن أمكن الله عزّ وجلّ من نواصيهم وصياصيهم بنصرٍ من عنده"[1].

وتُضــمَّن مــثل تلــك السفارات عادة الهدايا؛ لأنّ فيها حفظاً للصّلات، وإدامة المودّات، وكسب الثقات، فجاء في تلك الرسالة "وقد وجّهنا إلى المقام العالي –أعلى الله شــأنه– صــحبة رســلنا المذكورين من الأقشمة السكندري وغيرها على سبيل الهديّة، والمواهب السنيّة"[2].

وقــد حفظت لنا بعض المصادر التاريخيّة أخبار تلك السفارات بين المملكتين، مشــيرة إلى الحفاوة التي ينعم به الرُسل القادمون من تلك الدّيار، ففي أحداث سنة 704 هـــ قال بيبرس المنصوريّ "وفيها وصل من جهة الملك طقطا ملك التتار رسول إلى الأبواب العالية اسمه قرقجي، فأُكرم غاية الإكرام، وأُنزل بمنظرة الكبش في خير مقام، ووُصِل بكثيرٍ من الإنعام، وتفرّج في الجيزة والأهرام، وأُعيد جوابه، وجهّز إلى مرسله بأنواع التُحف، والهدايا واللُطف"[3].

ومن خلال هذا الخبر يتأكّد لنا مدى الحفاوة والاحترام الذي يقدَّم للرُسل القادمين مــن الدّيار القفجاقية، فقد بقيت العلاقة طيّبة بين المماليك وهذه المملكة من أيّام الظّاهر بيبرس، حتى أواخر الحكم القلاووني، والدليل على صفاء العلاقة ما ذكره القلقشندي في رسالته السابقة.

---

(1) المصدر السابق، 297/7.

(2) المصدر نفسه، 298/7.

(3) المنصــوري، ركن الدّين بيبرس (ت725هـ/1325م): زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالد س. ريتشاردز، بيــروت، ط1، 1419هـ/1998م، ص381؛ انظر العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان، ج4، ص345.

العلاقة مع الحجاز:

رغبت الدولة المملوكيّة في بسط نفوذها الدينيّ والسياسيّ على الممالك الإسلاميّة المجاورة، فأخذت على عاتقها حماية الحرمين الشريفين، وهذا جعلها تتدخّل في الشؤون الداخليّة لأمراء الحجاز، تعزل من تشاء وتؤمّن من تشاء بحجّة فضّ الخصام بين أولئك الأمــراء، فقد حدث خلاف سنة (667هــ/1268م) في مكّة بين الشريف نجم الدّين أبي نمــي وعمّه وشريكه في إمارة مكّة، الشريف بهاء الدّين إدريس فوجد السلطان الظّاهر بيبــرس فرصـــة في ذلك للتدخّل في الشؤون الداخليّة لتلك الدّيار بحجّة التسوية بينهما مشترطاً عليهما أن يخطبا باسمه في الحرم والمشاعر، وأن تُضْرَب السكّة باسمه[1].

وقد استمرّ هذا التدخّل حتى أيّام النّاصر محمد بن قلاوون، حيث علت الشكوى مــن الأخوين حميضة وأسد الدّين رميثة ممّا جعل السلطان النّاصر محمد يُرسل حملة سنة (714هــ/1314م) لينصّب أخاهما أبا الغيث محلهما في الحكم[2].

وكمـــا تقدّم، فقد أبدى أُمراء مكّة الطّاعة والامتثال لأوامر السلاطين المماليك، وقـــد ثبت ذلك جليّاً من خلال اليمين التي حُلِّف بها الأمير نجم الدّين أبو نمي أمير مكّة المشرّفة في الدّولة المنصوريّة قلاوون الصالحيّ، وقد جاءت تلك اليمين ضامنة لسلطة المماليــك كل عناوين الطّاعة والانقياد، فقد تكفّل نصّ اليمين للسلطة المملوكية بالسيادة التّامّة على الدّيار الحجازيّة، وممّا جاء في تلك اليمين: "وإنّني ألتزم ما اشترطته لمولانا الســلطان ولولده في أمر الكسوة الشريفة المنصورية... وأن أقدم علمه المنصور على كل علم... وإنّني والله استمرّ بتفرّد الخطبة والسكّة بالاسم الشريف المنصوري... وإنّني والله والله أمتثل مراسيمه امتثال النائب للمستنيب"[3].

---

(1) انظر المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص579؛ انظر عاشور: العصر المماليكي في مصر والشّام، ص238.

(2) المرجع نفسه، ص239.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 13/318-319.

ويمـــثّل هـــذا النصّ وثيقة بالغة الأهميّة في العلاقة الرسميّة التي تربط المماليك بالـــدّيار المقدّســـة، حـــيث لا يعـــدو أميرها عن كونه نائباً من نوّابهم، منفّذاً رغباتهم ومراسيمهم في تلك الدّيار.

وقد مرَّ في مبحث الأمانات الأمان الذي منحه السلطان الناصر محمد لأسد الدين رميثة، وهذا يدلّ على مدى إحكام سلاطين المماليك قبضتهم على أُمراء الحجاز[1].

وقـــد بلـــغ هـــذا التدخّل السافر إلى أن أصبح السلاطين المماليك يقلّدون أمراء الحجاز ويعزلونهم، حسب ما يتمشّى ومصلحتهم، فقد قام السلطان محمد بعزل أمير مكّة عطيفة، وتقليد أخيه أسد الدين رميثة، وقد ظهرت السياسة المملوكيّة واضحة في الخلع والتقليد من خلال تلك الرسالة –الأمان– فقد جاء فيها "فمن صلح منهم أقمناه، ومن حاد عـــن الطاعة، وجحد النعمة أزلناه، ومن أخاف فيه السبيل لم نجعل له إلى الخير سبيلا، ومن استقام على الطريقة توكّلنا على الله وولّيناه"[2].

وهكـــذا حصـــل للمماليك ما أرادوا من طي الدّيار المقدّسة تحت جناح سياستهم؛ لكي يظهروا أمام المسلمين في كل بقاع الدّنيا أنهم أصحاب الكلمة الأُولى والأخيرة في حمايـــة وكسوة الكعبة المشرّفة، وإنّه لا يأتي حاجٌّ من أيّ بلدٍ إلى تلك الدّيار إلاّ ويشعر بهيبة المماليك وسعة نفوذهم، وكثرة إحسانهم.

العلاقة مع اليمن:

ســـعت الدولة المملوكيّة لإقامة علاقة وديّة مع حكّام اليمن، فوجدت في الخلافات الداخلـــيّة بـــين حكّامهـــا ســـبيلاً إلى فرض هيمنتها على تلك البلاد، وقد بودلت بينهما السفارات، وصفت الأجواء، وجُلبت الهدايا، ولكنّها في هذه المرّة من جانب واحد، حيث

---

(1) انظر المصدر السابق، 345/13.

(2) المصدر نفسه، 235/12.

تأتـــي تلـــك الهـــدايا من جهة اليمن، فأصبحت لذلك شبه أتاوة أو ضريبة، ذات مقدار مخصّص.

ومهمـــا يكن من أمر، فإنّ العلاقة بين المماليك وحكّام اليمن بني رسول تذبذبت بـــين الصّفاء والتوتّر، ولكن أيّام الوفاق كانت غالبة، ولم يشعر المماليك بتوتّر العلاقات إلاّ زمـــن المؤيّد هزبر الدّين داود (ت721هـــ/1321م) الذي لم يتبع أسلافه من ملوك الـــيمن فـــي التودُّد إلى سلاطين المماليك، بل قام بأعمال أخلّت بتلك المودّة، ورأى في الهدايا التي كانت مقرّرة إلى سلاطين المماليك ضريبة يدفعها مرغماً، فامتنع عن ذلك، وقد تحقّقت نبوءته في هذه القضية، حيث أحسّ المماليك بأنّ هيبتهم قد خدشت من جانب حكّام اليمن، ولذلك أرسل الخليفة المستكفي بالله زمن السلطان النّاصر محمد رسالة إلى ذلـــك الملك، يهدّده فيها جرّاء فعلته تلك فجاء منها: "ولو أوضحنا لك ما اتّصل بنا من أمـــرك لطـــال، ولاتّسعت فيه دائرة المقال، رسمنا بها والسيف يودّ لو سبق القلم حدّه، والعلم المنصور يودّ لو فات العلم واهتزّ بتلك الروابي قدّه..."[(1)].

وقـــد جعل الخليفة من تلك الرسالة مناورة عسكريّة، حيث عرض فيها قطاعاته العسكريّة، موضّحاً الرغبة الأكيدة في إرغامه بالإذعان إلى أخذ عصا الطّاعة، والانقياد إلـــى تنفـــيذ كـــل أوامـــره على عادة من سبقوه من حكّام اليمن، فجاء فيها "والكتائب المنصـــورة تخـــتار لـــو بدرت عنوان الكتاب، وأهل العزم والحزم يودّون إليك إعمال الـــرّكاب، والجواري المنشآت قد تكوّنت من ليل ونهار، وبرزت كصور الأفيلة، لكنّها على وجه الماء كالأطيار"[(2)].

واتّســـمت نبرة خطاب تلك الرسالة بالتهديد والوعيد، وعدّت تلك الرسالة إنذاراً لـــذلك الملك من أجل أن يسلك سبيل أسلافه، ويمتثل سُنّة آبائه التي رسمها لهم سلاطين المماليـــك، وظهـــر ذلك من خلال قول الخليفة في الرسالة: "وما عمدنا إلى مكاتبك إلاّ

(1) المصدر السابق، 425/6.
(2) المصدر نفسه، 425/6.

للإنــذار، ولا احتجــنا إلـــى مخاطبتك إلاّ للإعذار، فأقلع عمّا أنت بصدده من الخيلاء والإعجــاب، وانتظم في سلك من استخلفناه فأخذ بيمينه من أعطي من كتاب"[1]، وينهي رســالته تلك بالتقريع والتخويف، محذِّراً من العواقب السيئة التي سوف تلحق به، وبمن هم في طاعته، وتحت رايته إذا استمرّ في معاندته، وتمثّل ذلك الوعيد بقوله: "وإن أبى حالــك إلاّ أن استمرّيت على غيّك، واستمريت مرعى بغيك، فقد منعناك التصرّف في الــبلاد، والنظــر في أحكام العباد، حتى تطأ خيلنا العناق مشمخرات حصونك، وتعجّل حينئذٍ ساعة منونك"[2].

وظاهــر من هذه الرسالة أنّ سلاطين المماليك يرسمون السياسة في اليمن على حسب ما تقتضيه مصلحتهم، وهم بذلك أصحاب اليد الطُولى في تسيير الأمور، وترتيب أحوال البلاد والعباد، وقد كانت أطماعهم أبعد من ذلك، فهم يرغبون في ضمّ تلك الدّيار إلى مملكتهم، سيراً على نهج سادتهم الأيوبيين.

وفــي الواقع الملموس لا تشكّل هذه الرسالة إلاّ حلقة ناتئة في عقد انتظم، مشكّلاً علاقة طيّبة تقوم على المصافاة والصّلات والمودّات بين السلطتين، فقد كثرت السفارات بين هاتين الدولتين، وحملت الدولة المملوكيّة على عاتقها إبلاغ اليمن بأنباء الفتوح، من خـــلال كـــتب البشارات التي بعث بها السلطان المنصور قلاوون أثناء فتحه طرابلس، وابنه السلطان الناصر محمد بدخول جنوده بلاد الأرمن، وقد جاءت تلك البشارات مغلّفة بالـــتهديد من جانب، وبالحثّ على الجهادِ والإنفاق من جانب آخر، فجاء فيها من جهة التهديد والحثّ على الجهاد قول الشهاب الحلبيّ على لسان السلطان النّاصر محمد "اللهم إلاّ أن تلبـــي دعــوة الجهـــاد مـــن تلك الجهة بألسنة النفير، وتعبّي صفوف الجلاد في

(1) المصدر الساق، 425/6.

(2) المصدر نفسه، 426/6.

الجـواري التي تكاد بأجنحة القلوع تطير، أو تنوب عنها خزائن الأموال التي تنفق في سبيل الله تعالى"[1].

والواضـــح مـــن هذه الرسائل أنّ المماليك يطمحون في ضمّ اليمن إلى مملكتهم لأجـــل أمـــوالها، وخيراتها، فقد جاء في تلك الرسالة: "وهذه المملكة قد اجتمع فيها من الأموال ما يُربى على الحصر والحدّ، ويزيد على الإحصاء والعدّ..."[2].

والقـــارئ لمـــثل تلـــك البشارات التي وجّهت لحكّام اليمن يشمُّ من طيّاتها روح الإنكـــار لتصرّفاتهم من تركهم الجهاد، وجلوسهم عنه، وارتيادهم اللهوّ والمسرّات، ففي العتاب المغلّف بالتهديد والإنكار يبيّن السلطان سياسة حكّام اليمن، حيث تركوا الجهاد، ولم ينفقوا الأموال في سبيل الله، بل أُبيحت تلك الأموال لمن ترك الجهاد جانباً، ورضي باللهـــوّ صـــاحباً، واقتنى السّلاح لغير يوم البأس، واعتنى بارتباط الجياد بطراً ورئاء النّاس[3].

وعلـــى كـــلّ حـــال، فـــإنّ المماليك أبقوا تلك الشعرة من العلاقة مع اليمن ولم يقطعـــوها، متّبعين دبلوماسيّة تحقيق المصالح التي تعود على خزينتهم بالأموال الوفيرة أثـــناء صـــعود أمـــواج تلـــك الخلافات، وقد ركّزنا في بيان تلك العلاقة على الجوانب الخلافيّة حتى لا يُفهم أنّ العلاقة بين الدولتين كانت على وتيرة واحدة، بل تخلّلتها بعض العوائق التي مثّلتها تلك الرسالة سالفة الذكر، وحفظت المصادر التاريخيّة والأدبيّة كثيراً من الرسائل التي تحمل الودّ والصّفاء بين الدولتين[4].

---

(1) المصدر السابق، 351/7.

(2) المصدر نفسه، 350/7.

(3) انظر المصدر نفسه، 350/7.

(4) انظر المصدر نفسه، 353/7-370.

العلاقة مع الممالك الإسلاميّة في شمال أفريقيا:

طمحت الدولة المملوكيّة في إقامة علاقات مع دول شمال أفريقيا، فأقامت علاقات طيّبة مع حكام تونس وتلمسان والمغرب، وكان الهدف من إيجاد تلك الرابطة يعود في مجملــه إلـــى رابطـــة الجـــوار والإسلام والخلافة، والخطر المشترك الذي يهدّد العالم الإســـلامي من جانب الغرب الأوروبي، إضافة إلى الحجّ، كون المماليك يهيمنون على الطريق الوحيد لحجّاج تلك الممالك[1].

والنّاظـــر في الرسائل المتبادلة بين المماليك وحكّام تلك الممالك وخاصّة مملكتي تلمســـان وفأس يلمس مدى الرغبة الجامحة في كسب ودّ المماليك، حيث العلاقات بين بنـــي زيّان وبني مرين لم تكن صافية، بل كانت مكدّرة ومتناحرة، وكلا الطرفين يطمح في ضمّ المماليك إلى صفّه.

ولـــبعد نظر سلاطين المماليك واستشرافهم لأطر المستقبل، وتقديمهم لمصالحهم في تلك البقاع لم يظهروا انحيازهم بشكل علنيّ إلى فئة دون أُخرى، بل أقاموا علاقاتهم مـــع النظامين مستخدمين سياسة شحن الأعصاب، حيث يستميلون أحد الطرفين؛ ليقدّم الآخـــر الودّ والصّلات؛ من أجل استمالتهم إلى جانبه، فكانت تلك العلاقة تشبه لعبة شدّ الحبل ولكن دون قطعه.

فمن رسالة بعث بها صاحب تلمسان إلى السلطان النّاصر محمد يشرح فيها مدى ولائـــه له وطاعته "سلام عليكم ورحمة الله وبركاته من أخيكم البرّ بكم، الحريص على تصـــافيكم"[2]، وقد جاءت هذه الرسالة ردّاً على رسالة بعث بها الناصر محمد لصاحب تلمسان: ولذا وجب الشُكر والثّناء، وإعلامه بوصول رسالته، ولكن الغرض الأهمّ الذي تحمله الرسالة موافقة السلطان المملوكيّ للحجّاج القادمين من تلمسان بالعُبور إلى الديار

---

(1) انظر عاشور: العصر المماليكي في مصر الشّام، ص243.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 86/8.

المقدّسة، فجاء في الرسالة "ومن أعظم ذلك أذنكم لنا في أداء فرض الحجّ المبرور، وزيارة سيد البشر، والشفيع في المحشر"(1).

وقد تضمّنت الرسالة عتاباً ظاهراً للسلطان الناصر من صاحب تلك المملكة جرّاء تحسين علاقته مع مملكة المرينيين بفاس حيث العداء بين حكّامها وحكّام تلمسان مستحكم. فقد جاء التعريض بهم واضحاً من خلال قوله: "وقد وجب شكركم علينا من كل الجهات، واتّصلت المحبّة والمودّة طول الحياة، غير أنّ في قلوبنا شيئاً من ميلكم إلى غيرنا واستئناسكم، ونحن والحمد لله أعلم النّاس بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف، ولنا القدرة على القيام بواجبكم، والوفاء بكريم حقكّم..."(2)، والظّاهر من ذلك الخطاب مدى حرص حكّام تلمسان على احتكار صلة المماليك بهم دون جيرانهم بني مرين في فاس، وقد ظهر ذلك جليّاً من خلال السفارة التي بعث بها بنو مرين إلى السلطان الناصر محمد، حيث بعث برسالة شرح فيها موقفه صريحاً من حكّام تلمسان، مبيّناً خيانتهم للمسلمين وخذلهم لأهل الأندلس، ومعاضدتهم لأهل الكفر، محاولاً إفساد علاقتهم مع المماليك، فجاء من تلك الرسالة "وأمّا تشوّق ذلكم الإخاء لمواصلة الكتب بسارّ الأنباء؛ فإنّ من أقربها عهداً وأعذبها حديثاً يهادى ويهدى ما كان من أمر العاقّ قاتل أبيه، الحال من إقليم تلمسان، وممالكها في سالف الزمان، ولم يزل بينهم وبين أسلافي المحتوين على ملك المغرب الأقصى وقائع توردهم الحمام، وتذيقهم الموت الزؤام، فيدعون إلى المنازعة ويعودون للموادعة ثمّ لم يلبثوا أن ينكثوا..."(3). وقد جاء في تلك الرسالة تقرير عامّ حول سيرة حاكم تلمسان السيئة وطريقتهم معه في سحق جيوشه والانتصار عليهم، وتأمين طريق حجيجهم.

---

(1) المصدر السابق، 8/86.
(2) المصدر نفسه، 8/86.
(3) المصدر نفسه، 8/91.

والنّاظـــر في تلك الرسائل يجد الفائز الوحيد في تلك الخصومات المماليك، فكلا الطـــرفين يخطب ودّهم ويصلهم بالأعطيات، ويحاول احتكار صداقتهم، مع أنّ المماليك لم يقطعوا سفاراتهم عن كلا الجانبين، فالمستفيد في عالم المصالح المماليك لا غيرهم.

والمـــنعم النظر في تلك العلاقة يجدها أوثق عُرىً مع بني مرين من بني زيان، ولعـــلّ السبب يعود لغلبتهم وكثرة صلاتهم ودوامها، إذ كان أبرز المواضيع التي تغذي تاريخ بني مرين السياسيّ موضوع صلاتهم ببلاد المشرق وخاصة ملوك مصر والشّام والحجاز والعراق، وكانت لهم مراسلات وسفارات ومناصرات ومهاداة[1]، وخير شاهد على ذلك ما أرسله الحسن المريني إلى السلطان الناصر محمد من سفارة محمّلة بالتُحف والهـــدايا "وهكـــذا سيَّرنا من تحف هذه البلاد إليكم ما تيسّر في الوقت تسييره"[2]، وفي موقع آخر من الرسالة: "وقد عيّنّا بيد محلٍّ الوالدة المذكورة فيه من المال ما يشترى به في تلكم البلاد المُحوطة من المستغلاّت ما يكون وقفاً للقرأة فيه"[3].

وأمّـــا علاقة المماليك مع بني حفص في تونس فقد بقيت فاترة، ويُعلّل فتور تلك العلاقـــة لادّعائهم الخلافة في تونس، فوجود مثل تلك الخلافة لا تروق لخلفاء العباسيّين في مصر[4].

العلاقة مع الأندلس:

لم تتجاوز علاقة المماليك مع صاحب غرناطة حدود التعبئة النفسيّة، حيث بقيت العلاقـــة بين الدولتين في أسر المجاملات، واكتفت العلاقة بينهما بالسفارات التي تبلّغ أخبار الفتوح والانتصارات من جهة المماليك، ومن جهة المملكة الغرناطية بالإخبار عن مدى السُّرور بهذه البشارات.

(1) انظـــر الـــتازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم (عهد بني مرين)، (1408هـ/1988م)، مطابع فضالة – المحمدية، ص8.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 102/8.

(3) المصدر نفسه، 102/8.

(4) انظر العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص32؛ انظر عاشور: العصر المماليكي، ص243.

واتّخـذت الرسـائل بيـنهما سمة التبادل الدبلوماسيّ، حيث يقدّم حاكم غرناطة تفاصيل أمر الجهاد في مملكته، فيردّ المماليك عليه الجواب بالتشمير لمساعدته لولا بُعْد الشـقّة بيـنهما، فمن ذلك رسالة بعث بها صاحب غرناطة إلى الملك الأشرف شعبان، مـبدياً لـه فيها مشاعره تجاه المماليك إثر إغارة الصليبيين على ثغر الإسكندرية فجاء فيها: "وإلى هذا فإنّنا اتصل بنا ما رامت الرّوم من المكيدة التي كان دفاع الله دونها سدّاً والملائكـة جنداً، والعصمة سوراً، والروح الأمين مدداً منصوراً، وأنّها استنفدت الوسع في احتشادها، حتى ضاقت اللجج عن أعوادها..."[1]، وأخذ يعدّد دوافع الصليبيين لأخذ ثغـر الإسكندرية، ولكن العسكر المنصور قطع شأفتهم "فخرج العدو الخاسر عمّا حازه والسُيوف ترهقه حيث تلفيه"[2].

والناظـر في هذه الرسالة يجد فيها كثرة المجاملات والمبالغات في وصف تلك الـوقعة، حـيث يعجـز عـن وصـفها بهذه التفاصيل من عاينها، فكيف يصفها بهذه الأوصـاف؟ لا بل لم يكتفِ بذلك بل تمنّى لو أنّ السُبل ممهّدة للاشتراك في تلك الوقعة "ولـولا العوائـق التـي لا تبرح، والموانع التي وضحتِ حتى لا تشرح، ومكايدة هذا العـدوّ الـذي يأسـو به الدهر ويجرح، لم نجتز بإعلام القلم عن إعمال القدم، حتّى نتشرّف بالورود على تلك المثابة الشريفة، ونمتاز بزيارة الأبواب المنيفة..."[3].

ولمّـا كانـت هـذه الأعـذار والحجج دامغة، حيث العدوّ يتبرّص بهم الدوائر، والمسـافات بعيدة، اكتفى بالتهنئة بهذا الانتصار "فبادرنا عند تعرّف الخبر، المختال من أثـواب المسـرّة فـي أبهـى الحبر، المهدى أعظم العبر، إلى تهنئتكم تطير بنا أجنحة الارتياح، مبارية للرياح..."[4].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 111/8.
(2) المصدر نفسه، 112/8.
(3) المصدر نفسه، 113/8-114.
(4) المصدر نفسه، 113/8.

وكانت الرُسل المملوكيّة كذلك تفد إلى صاحب غرناطة تحمل بعض الرسائل التي تكــون غالباً أجوبة عن كتب بُعِثَ بها أولاً، فمن ذلك جواب صاحب غرناطة بُعث به ســنة 765هـــــ، وكان قد تضمّن كتاب صاحب غرناطة أخبار الجهاد، وبعض القلاقل السياسيّة الداخليّة في مملكته، فجاء في ذلك الردّ:

"فوقفــنا علــى مضمونه جميعه... من استمراره على عادة سلفه من القيام بأمر الجهاد، وقطع دابر الكفرة ذوي الشقاق والعناد، وتوطيد ما لديه من تلك البلاد، وتطمين ما بها من العباد"[1].

وقــد تضــمّنت الرسالة كذلك إخبار المماليك عن استيلاء أحد أقاربه على ملكه، وكيفــية استرجاعه، وقتل ذلك المستبدّ: "وما اتّفق من قريبه في الصورة لا في المعنى، وكيف أساء إليه فعلاً وقد أحسن به ظنّاً"[2].

ومهما يكن، فإنّ تلك السفارات المتبادلة بين المملكتين تؤكّد عُمق الروابط بينهما، فالهــدف الــذي تظهره تلك الرسائل يكمُن في نقل أنباء الفتوح والانتصارات والتهاني والمسرّات، ولكنها في الوقت ذاته تعبّر عن صفاء العلاقة ودوام المودّات.

(1) المصدر السابق، 114/7.

(2) المصدر نفسه، 114/7.

- العلاقة مع الدول غير الإسلامية:

العلاقة مع التتار:

اتّســمت العلاقة بين المماليك والتتار بالعداوة المستحكمة، وقد مثّلت تلك العداوة المراسلات بين الطرفين، حيث شكّلت تلك المراسلات ما يسمّى بأدب الحرب، فقد اتّخذ التــتار من رسائلهم لسلاطين المماليك وسيلة للوعيد والترهيب، وحرق الأعصاب، وقد قُــوبلت تلــك الرســائل بالغضب والتهديد من جانب المماليك، والاستهزاء والسخرية أحيانــاً.

ومن الجدير ذكره، أنّ المماليك تولّدت علاقتهم تلك بالتتار منذ وقت مبكّر، حيث طمــح التتار إلى ضمّ دولة المماليك في مصر والشّام إلى باقي ممالكهم، فكان من أولى المراسلات بين المماليك والتتار الرسالة التي بعث بها الملك هولاكو إلى السلطان قطز، مــبدياً فــيها صنوفاً من التهديد والوعيد، فجاء فيها: "فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرقّ لمــن شــكى، وقد سمعتم أنّنا قد فتحنا البلاد، وطهّرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأيّ أرض تأويكم، وأيّ طريق تنجيكم، وأيّ بلاد تحمــيكم، فمــا مــن سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال"[1].

والنّاظر في تلك الرسالة يجد غلظة الحرب ومكرها، فهذه الرسالة تمثّل طرفاً من سياسة الحرب البادرة، فاستعراض القوى العسكريّة، وخشونة التعامل، والتهديد والوعيد تضعف قوى الخصم، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للمماليك، حيث أثارت هذه الرسالة ثائــرة قطز، وحفّزته إلى أن يحفز النّاس فما لثبوا أن هبّوا عن بكرة أبيهم يدفعون شرّ التتار عن بلادهم، وقد جمع الأمراء واتّفقوا على قتل الرُسل، وحثّ النّاس على الجهاد،

---

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، القسم الثاني، الجزء الأول، ص428.

ورغّــبهم فيه، وعزم على ملاقاة التتار خارج حدود مصر[1]، على الرغم من أنّه وجد معارضـــة مــن بعــض الأُمراء في خوض تلك الحرب، فقد أبدى بعضهم الخوف من التــتار، وهرب بعض ضعاف النفوس من مصر إلى المغرب واليمن والحجاز، إلاّ أنّ معظم الأمراء رأوا الدفاع عن مصر[2].

وتمــثّل تلك الرسالة طرفاً من سياسة التتار في نشر مظاهر الخوف والفزع بين طــبقات الــنّاس، ســيما وإنّ أفعالهم قد ظهرت في البلاد التي تمّ اجتياحها واستيلاؤهم عليها، فأفعالهم مطابقة لقولهم.

فهــذه الرســالة تمــثّل استفزازاً للأمّة الإسلاميّة، وقد ظهر ذلك جليّاً من خلال مصــاهرة هولاكــو للصــليبيين، وتمذهب بمذهبهم، فأحكم ذلك الاعتقاد في نفسه كره المســلمين، وضرورة الانتقام منهم، فجاء في الرسالة: "وقد ثبت عندكم أنّ نحن الكفرة، وقــد ثــبت عندنا أنكم الفجرة"[3]. فهذه العبارة تمثّل سياسة الحرب العقدية لديهم، حيث يوجّه الاعتقاد الديني مسيرة العلاقة وطبيعتها.

وقــد اكتفى قطز بالردّ على تلك الرسالة بالفعل لا بالقول، فبعد أخذ رأي أُمرائه قام بقتل رُسل هولاكو جميعاً، مقدّماً السيف على اللسان.

وبقيت علاقة التتار مع السلطان الظاهر بيبرس تدور في فلك الحرب والمطاردة، حيث تابع فلولهم حتّى ضفاف الفُرات، وقد بعث أبغا برسالة إلى السلطان الظّاهر يهدّده فيها، مذكّراً إيّاه بمقتل الرُسل، متوعّداً له بسوء العاقبة، فجاء في تلك الرسالة المشوّشة التــرجمة: "بقوة الله تعالى بإقبال قاآن فرمان أباقا يعلم السلطان ركن الدّين أنّه لأجل أن

(1) انظر المصدر السابق، ج1، ق2، ص429.

(2) انظــر عاشــور، فايد: العلاقات السياسيّة بين المماليك والمغول في الدولة المملوكيّة الأولى، 1975، دار المعارف – القاهرة، ص49.

(3) انظر المقريزي: السلوك، ج1، ق2، ص428.

عـرض علــى رأينا كُتب إلى عند التكفور أنّ الرسل الذين أنفذهم أيلخان ما قتلهم إلاّ قطز، والملوك يطلبون التوسُّط حتّى يصيروا إيل"[1].

وقـد جــاء في تلك الرسالة تأنيب للسلطان الظّاهر لعدم إرساله في تلك السفارة لأحــد أبنائه أو إخوانه، وقد زعم أبغا سلامة هؤلاء الرُسل وأنّه لن يغدر بهم، فقد كفل قانــون شريعتهم ذلك، فالابن لا يؤخذ بذنب أبيه ولا أخ بذنب أخيه[2]، ولعلّه يرمي إلى طمأنة الظّاهر بإرسال أحد أبنائه أو إخوانه ليقتصّ منهم.

وتظهر الرسالة إلى جانب ذلك اللّين لوناً من الوعيد والتهديد، حيث يدلّ على ذلك قـولــه فــي الرسالة: "فمن مطلع الشّمس إلى مغيبها في جميع العالم من الذي استقبل وأطـــاع ودخــل فـــي العبودية"[3]، فهذه العبارة لا تدلّ إلاّ على منطق القوة والسطوة والتقـريع، حيث لا مفرّ لكم إلاّ إلى ملجأ العبودية، فجاء ردّ السلطان على تلك الرسالة أكثر حزماً وقوة، مفنّداً تلك المزاعم، فجاء في ردّه: "وقد أعطانا الله ملك أربعين ملكاً، وأمّــا ذكــره من أنّه من مطلع الشّمس إلى مغيبها أطاعوه، فأي شيءٍ جرى على كتبغا نوين؟ وكيف كان دماره"[4]، وقد أظهر السلطان كذلك زيف زعمه، وسوء نيّته، حيث لم يـبعث إلى السلطان أحد خواصّه، وهذا ما دعا السلطان إلى عدم بعث أحد أقربائه في تلك الوفادة[5].

---

(1) عبد الظّاهر، محي الدين: الروض الزاهر، ص340.

(2) المصدر نفسه، ص340.

(3) المصدر نفسه، ص340.

(4) المصدر نفسه، ص341.

(5) المصدر نفسه، ص342.

وقــد توالت رسائل التهديد من الملك أبغا بن هولاكو (680هـ/1281م) للظاهر بيبــرس، إلاّ أنّــه لم يتمكّن من تنفيذ تهديداته في هذه الآونة لوقوع الخلاف بينه وبين مغول القفجاق وانشغلوا بأنفسهم[1].

ومهمــا يكــن مــن أمر، فإنّ تلك السفارات بين التتار والملك الظاهر استمرّت، ولكنها بقيت في إطار الوعيد والتهديد، فقد أرسل أبغا وفداً إلى نائب السلطنة في حلب، وكــان لديهم رسالة شفويّة مضمونها يتمثّل في "الصلح أي شيء جاء منه من المضرّة، والعداوة أي شيء جاء منها من الفائدة"[2]، وكانت وفادتهم تلك تتمثّل في إخبار السلطان الظاهــر بــأنّ أوامر أبغا تقتضي ذهاب السلطان أو نائبه إلى الملك أبغا لأجل الصّلح، فكــان الــردّ من السلطان بأنّ أبغا إذا قصد الصلح يمشي فيه هو أو أحد من إخوته[3]. وتمــثّل تلــك المراسلات نوعاً من المناكفات، إذ يملي كل من الزعيمين أوامره، مبدياً قوّته وشجاعته وسطوته.

وبعــد أن اعتنق التتار الدين الإسلامي اتّخذت العلاقة مع البيت القلاووني طابعاً آخر، يتمثّل في الخداع حيناً والتهديد حيناً آخر، فهم لم يتركوا الحرب والنضال والفساد فــي الأرض[4]. فقد اتّخذ التتار من الإسلام غطاءً لتنفيذ مآربهم، وبسط سيطرتهم على ممالــك المســلمين، وخاصّــة دولة المماليك، وقد كانت أُولى تلك المراسلات ما بعثها الســلطان أحمد أحد أبناء هولاكو- إلى السلطان المنصور قلاوون مبشّراً إيّاه باعتناقه الإســلام، وموضّــحاً له السياسة الجديدة في ظلّ الإسلام، طالباً منه الانقياد والطّاعة، وتــرك الحرب والقتال، فجاء في تلك الرسالة: "فإن وفّق الله سلطان مصر إلى ما فيه صــلاح العالم، وانتظام أُمور بني آدم، فقد وجب عليه التمسّك بالعروة الوثقى، وسلوك

(1) انظر عاشور، فايد: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، ط1، 1995، جرّوس برس – طرابلس – لبنان، ص280.

(2) عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص404.

(3) انظر المصدر نفسه، ص404.

(4) انظر أبا زهرة، محمد: الدعوة إلى الإسلام، ط جديدة، 1992، دار الفكر العربي- القاهرة، ص62-63.

الطريقة المثلى، بفتح أبواب الطّاعة والاتحاد، وبذل الإخلاص بحيث تعمر تلك الممالك، وتـيك البلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف الباترة، وتحلّ العامة أرض الهوينى وروض الهـدون، وتخلـص رقاب المسلمين من أغلال الذلّ والهوان، وإن غلب سوء الظـنّ بمـا تفضّل به واهب الرحمة، ومنع معرفة هذه النعمة، فقد شكر الله مساعينا، وأبلى عذرنا"[1].

والمطّلـع علـى تلك التفاصيل التي تضمّنتها الرسالة يخلص إلى مجموعة من المحاور الأساسيّة، حيث تتضمّن خبر إسلام تلك الأمّة، وتغيير سياسة حكّامها، وتحولّهم إلـى نـبذ الفتن والقتال، ولكن المآرب التوسّعيّة لم تزل تحدوهم حيث ما زال أُسلوب التقـريع والتهديد والوعيد ينتظم سلك تلك الرسالة، وقد قابل السلطان المنصور قلاوون تلك الرسالة برسالة أبدى فيها حذره الشديد من نبأ إسلام تلك الملّة، ومدى صدق نيّاتهم، وأخـذ في تفنيد آراء السلطان التتريّ الواردة في تلك الرسالة السابقة الذكر، متهكّماً في كثيـر من الأحيان، ومهدّداً أحياناً أُخرى، فمن محاور رسالته "ومن المشافهة إذا كانت رغبتـنا غير ممتدّة إلى ما في يده من أرض ومال، فلا حاجة إلى إنقاذ المغيرين الذين يُـؤذون المسلمين بغير فائدة تعود، فالجواب أنّه لو كُفَّ كَفُّ العدوان من هنالك أو خلّى لملوك المسلمين ما لهم من ممالك سكنت الدهماء، وحقنت الدّماء، وما أحقّه بأن لا ينهى عن خلق ويأتي مثله، ولا يأمر بشيءٍ وينسى فعله"[2].

ولا شـكّ أنّ العداوة ظلّت بين الدولتين مستحكمة والأحقاد ظاهرة وباطنة، وقد بقـيت هـذه المراسلات بين الطرفين، تحمل طابع التهديد والوعيد والكشف عن سوء النـيّات، وقد أخذت تلك الرسائل لوناً آخر في أدب الحرب، حيث نهج السلطان غازان مـنهجاً آخـر يتمثّل في كتب الأمان والفرمانات، إذ كان له مآرب من اعتناقه الإسلام، فهـو يـريد أن يـتفوّق علـى الأُمراء الأقوياء، وأن يكتسب الكثير من الأعوان؛ لأنّ

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 68/8.
(2) المصدر نفسه، 241/7.

المسلمين حينئذٍ سيقفون إلى جانبه وتزداد قوّته باعتناقه للإسلام[1]، حيث أخذ يبعث في تلك الكُتب إلى حواضر الشّام، والتي لا تعني إلاّ أمراً واحداً يتمثّل في الاستسلام، والانقياد لأوامره، وقد سوّغ اجتياحه لتلك الحواضر بالظلم الواقع عليهم من نوّاب السلطنة فيها، وعدّهم خارجين عن الطّاعة، وأمر الجماعة، فجاء في أحد فرماناته لأهل دمشق "ولمّا سمعنا أنّ حكّام مصر والشّام خارجون عن طرائق الدّين، غير متمثّلين بأحكام الإسلام، ناقضون لعهودهم، مخالفون لمعبودهم، حالفون بالأيمان الفاجرة، ظالمون في أحكامهم المتغايرة، ليس لديهم وفاء ولا ذمام، ولا لأمورهم التئام، ولا انتظام"[2].

وتنطوي تلك الرسالة على ألوان من التهديد والتقريع، وتمثّل كذلك سياسة الخداع والمكر والتستّر تحت ذرائع العقدية لتسويغ نهبهم وسلبهم، واجتياحهم لممالك المسلمين، فهم على بطشهم وقتلهم وترويعهم الآمنين، يدّعون أنّهم جاءوا لنصرة الدّين، ورفع الظلم عن المظلومين، فقد "حملتنا الحميّة الدينيّة، والحفيظة الإسلاميّة على أن توجهنا إلى هذه البلاد، لإزالة العدوان والفساد"[3].

وقد كشفت هذه الرسالة بما انطوت عليه من فكر حاقد عن سياسة التتار الدمويّة، القائمة على القتل والسلب والنهب، حيث وصف الصفديّ رحيل غازان عن دمشق بعد اجتياحه لها وقد أخذ أموالاً كثيرة، فدقّت البشائر لذلك"[4].

وتبادل غازان والسلطان النّاصر محمد (700هـ/703هـ) رسائل التهديد والترهيب، ولم تتغيّر سياسته بل ظلّت أسيرة الخطاب الآمر، الذي ينظر إلى المماليك من أعلى، ويعدّهم طغمة خارجة على الدين، ظالمة للنّاس، متسلّطة على حقوقهم، ولم يكن هذا الوصف خاصاً بالطبقة الحاكمة، بل كل من رضي بطاعتهم يُعدُّ مفسداً، عاصياً

---

(1) انظر إقبال، عبّاس: تاريخ المغول، ترجمة عبد الوهاب علّوب، (1420هـ/2000م)، المجمع الثقافي – أبو ظبي، ص264.

(2) الصفديّ: أعيان العصر، 15/4-16.

(3) المصدر نفسه، 16/4.

(4) انظر المصدر نفسه، 18/4.

لله. وقــد جـــاء هذا الوصف في رسالة بعثها غازان للنّاصر محمد يهدّده فيها، ويتوعّده جــرّاء مـــا قام به عسكره، فجاء في تلك الرسالة: "ليعلم السلطان الملك النّاصر أنّه في العـــام الماضـــي بعض عساكرهم المفسدة دخلوا أطراف بلادنا، وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا كماردين ونواحيها، وجاهروا الله بالمعاصي، فيمن ظفروا به من أهلها، وأقدموا علـــى أُمور بديعة، وارتكبوا آثاماً شنيعة، من محاربة الله، وخرق ناموس الشريعة" [1]. وقـــد تـــناولت الرســـالة صـــنوفاً من التهديد، بل تعدّت ذلك إلى أُسلوب الشتم المباشر للســـلطان، والتقلـــيل من شأنه، فجاء في هذا المعنى قوله: "وخالفتم سنن الملوك وحسن السلوك، وصبرنا على تماديكم في غيكم، وخلودكم إلى بغيكم"[2].

وبلـــغ بـــه التحدّي والاستخفاف بالسلطان النّاصر أن يعدّ له الهدايا والتحف مع حامـــل تلك الرسالة على ما هي عليه من التهديد والتقريع والتوبيخ[3]. وأجاب النّاصر عن تلك الرسالة بأُخرى نقض فيها مزاعم غازان، وبيّن فيها سوء نيّته، وفساد عقيدته، فجـــاء في تلك الرسالة: "لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفّقة على اختلاف الأديان، وتطئوا البقاع الطاهرة بعبدة الصلبان، وتنتهكوا حرمة البيت المقدّس الذي هو ثاني بيت الله الحرام"[4].

وتمثّل تلك المراسلات لوناً جديداً في تاريخ العلاقة بين التتار والمماليك،فمثل هذه الرسائل تعدّ وثائق حربيّة مهمّة لدراسة تاريخ الغزو المغوليّ للبلاد العربيّة إبّان الحكم المملوكي.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 69/8.
(2) المصدر نفسه، 69/8.
(3) المصدر نفسه، 70/8.
(4) المصدر نفسه، 244/7.

العلاقة مع الصليبيين:

شـكّلت الحمـلات الصليبية خطراً عظيماً على العالم الإسلامي، حيث تضافرت مجمـوعة من العوامل أدّت إلى زيادة رغبة الصليبيين في ضمّ الكنائس في ممالك بلاد الشّـام ومصـر إلـى البابوية في أوروبا[1]، وقد تميّزت علاقة المماليك مع الصليبيين بالجانب الدينيّ العقديّ، حيث نظر المماليك إلى تلك الحملات على أنّها غزوّ يهدف إلى اقـتلاع جـذور المسـلمين مـن تلـك الممالك، ولذا أخذت الحرب معهم صفة الجهاد المقـدّس.

وقـد وقـع العـالم الإسـلامي حينذاك بين خطرين داهمين: التتار من الشرق والصـليبيين مـن الغرب، وهذا الأمر جعل سلاطين المماليك يفكّرون في إقامة بعض الهـدن ليتسنّى لهم الخلاص من أذى التتار الفتّاك. فبعد أن تمّ للمماليك الانتصار على التـتار في عين جالوت، وجّه السلطان الظّاهر نظره لتحرير البلاد من الصليبيين، "وقد بدأت الحرب الشّاملة التي شنّها بيبرس على الصليبيين بعدّة محاولات من جانبهم لطلب الصـلح"[2]، وقد تمّ للسلطان بيبرس اجتياح أكثر معاقلهم مثل: قيسارية ويافا، وعثليث وأرسـوف، وكانـت له محاولات جريئة في عكّا، وقد استمرّت محاولات المماليك في القضـاء علـى الوجود الصليبي في بلاد الشام ومصر في فترة حكم السلطان الظاهر والبيت القلاووني.

وقـد مثّلت تلك المحاولات الرسائل السياسيّة ككتب الهدن والبشارات، وقد تميّز الخطـاب السياسي في تلك الرسائل باللغة الفوقيّة من جانب المماليك، ممّا يدلّ على قوّة قبضتهم على زمام الأمور، وقد اتّسمَ ذلك الخطاب بالسخرية والتهكّم.

---

(1) انظر زقلمة، أنور: المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، ط1، 1415هـ/1995م، ص38-39.

(2) عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص60.

فمن تلك الرسائل التي حملت ذلك الطابع السّاخر، الرسالة التي بعث بها السلطان بيبرس إلى بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس بعد فتح أنطاكية سنة 667هـ، فقد جاء فيها: "قد علم القومص المبجّل المعزّز الأسد الضرغام... ما كان من قصدنا طرابلس، وغزونا له في عقر الدّار، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر، وهدم الأعمار، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر؟ وكيف قتلت الرّجال، واستخدمت الأولاد، وتملّكت الحرائر... وكيف استغنَ الفقير، وتأهّل العازب واستخدم الخديم، وركب الماشي"[1].

وقد فصّل السلطان القول في هذه الرسالة التي تشبه بياناً عسكرياً يصدره الجانب المنصور؛ لزيادة النكاية بالمخذول، وقد بلغت قمّة السخرية والتهكّم مداها عندما جعل تلك الرسالة بشارة تلامس مسمعه، فجاء فيها "وكتابنا هذا يتضمّن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر بكونك لم يكن له في أنطاكية في هذه المدّة إقامة، وكونك ما كنت بها فتكون إما قتيلاً، وإمّا أسيراً، وإمّا جريحاً، وإمّا كسيراً، وسلامة النّفس هي التي يفرح بها الحيّ إذا شاهد الأموات"[2]، وقد اتّخذت تلك الرسائل التي بعث بها السلطان الظاهر إلى بوهمند السادس طابع التهكّم والسخرية والتهديد في آن معاً، وتشير مثل تلك الرسائل إلى غلبة كفّة المماليك في تلك الحروب، فقد بعث السلطان الظاهر رسالة إلى صاحب طرابلس بوهمند السادس مبشّراً إياه على سبيل السخرية والتحقير بفتح عكّار*، وطرد عسكره منها، وإحلال علم المسلمين مكان أعلامه "وكتابنا هذا يبشّرك بأنّ علمنا الأصفر نصب مكان علمك الأحمر، وأنّ صوت الناقوس صار

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق3، ص966.

(2) المصدر نفسه، ج1، ق3، ص968.

* وحصن عكّار وهو أحد الحصون في مملكة طرابلس في بلاد الشام، وهو حصن منيع من بناء الإسلام وينصبّ إليه ماء من الجبل المطلّ عليه. انظر شيخ الربوة الدمشقي، شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري (727هـ/1327م): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في مدينة بطربورغ في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، 1281هـ/1865م، ص208.

عوضه "الله أكبر"، ومن بقي من رجالك أطلقوا ولكن جرحى القلوب والجوارح، وسلموا ولكن من ندب السُيوف إلى بكاء النوائح، وأطلقناهم ليحدّثوا القومص بما جرى"[1].

وتحمـــل هـــذه الرســـائل مضـــموناً آخـــر، وهو تصوير قوّة الجيش المملوكي، وشجاعته، وقوة شكيمته وشدّة بأسه، فمن تلك الرسالة: "وكيف نقلنا المنجنيقات إليها في جبال تستصعبها الطُيور لاختيار الأوكار، وكيف صبرنا في حرّها في مناكدة الأوحال، ومكابـــدة الأمطـــار، وكـــيف نصـــبنا المنجنـــيقات علـــى أمكنة يزلق عنها النمل إذا مشـــى..."[2].

فقـــد أوغل الكاتب في وصف عزيمة السلطان وقوة سطوته وصبره على تحمّل الأذى فـــي سبيل تحرير البلاد من أولئك الأوغاد، وفي ذلك إشارة إليهم من أجل تركها والرحيل عنها؛ لأنّ عزيمته لا يثنيها ثانٍ دون تحقيق ما تسمو إليه نفسه.

ولـــم ينتقل الحكم إلى البيت القلاووني إلاّ بعد نهنهة أركان معاقل الصليبيين في بـــلاد الشّـــام، ولـــم يـــبقَ لهم سوى طرابلس وعكّا وبعض المعاقل الداخلية في هاتين المملكتـــين، وقد استمرّ الملك المنصور قلاوون في سياسة تقويض الكيان الصليبي، فقد وجـــد الفرصـــة ســـانحة فـــي الإغـــارة على طرابلس سنة 689هـــ وتمّ له فتحها بعد محاصـــرتها، ولم يلبث الصليبيون أن أخلوا ما لهم من مراكز ومُدن في إمارة طرابلس مـــثل بيـــروت وجـــبلة فاحتلّها المماليك في سهولة[3]، وقد أنهى الأشرف خليل الوجود الصـــليبي فـــي بلاد الشّام بعد تحريره عكّا وصور وحيفا، وبذلك لم يبقَ للصليبيين في الشّـــام ســـوى انطـــرطوس وعثليت فاستسلمتا، وبذلك تكاملت بهذه الفتوح جميع البلاد الساحليّة للإسلام[4].

(1) المصدر السابق، ج1، ق3، ص972.

(2) المصدر نفسه، ج1، ق3، ص972.

(3) عاشور: العصر المماليكي، ص71.

(4) انظر المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق3، ص765-766.

وقــد كشــفت رســائل الهدن والبشارات بأنباء الفتوح عن العلاقة بين المماليك والصــليبيين، فقــد تناولــنا طرفاً من تلك الهدن في مبحث سابق، حيث وضّحت تلك الرســائل موقف المماليك الحازم من الوجود الصليبي، وقد أظهرت تلك الرسائل بطولة الممالــيك، وشدّة أسرهم، وكشفت من جانب آخر قوة الخطاب السياسي للمماليك، حيث كانت الشروط تملى-كما أشرنا سابقا- من المماليك لا الصليبيين، وهذا يدلّ على إحكام قبضتهم على السّاحة العسكريّة والسياسيّة، وقد ساهمت رسائل البشارات التي بُعثت إلى العالم الإسلامي آنذاك في تزيين صورة المماليك، حيث أصبحوا القوة الضاربة المدافعة عن حِمى المسلمين ومقدّساتهم، كما بيّنت سياستهم في كشف تخاذل بعض دول الإسلام في تركهم للجهاد والخلود إلى الدعة والرّاحة، وتجنّباً للتكرار نشير إلى التمثيل على تلك الظاهرة في المبحث الخاص بالتهاني والبشارات.

علاقة المماليك بالنوبة:

اتّصــفت العلاقة بين المماليك وأهل النوبة بالنزاعات التي كان الرابح فيها دائماً الممالــيك، ولــم تهدأ تلك النزاعات حتى وقعت مصر تحت الفتح العثماني وطول حكم الممالــيك كانت النوبة تدفع الجزية لسلاطين المماليك، وهذه الإتاوة كانت مقرّرة عليهم مــن زمــن الفــتح في إمارة عمرو بن العاص رضي الله عنه، ثمّ صارت تنقطع تارة وتحمــل أُخرى، بحسب الطّاعة والعصيان[1]. وقد ساهم موقعها المتاخم لدولة المماليك أن تقــع تحــت سيطرتهم، ولذا أجبر حكّامها على أن يحلفوا الأيمان بالطّاعة لسلاطين الممالــيك، فمــن هذه الأيمان اليمين التي حلف بها مشكد ملك النوبة للسلطان الظاهر بيبرس، مُظْهِراً فيها الولاء والطّاعة، فجاء من تلك اليمين: "إنّني أخلصت نيّتي وطويتي مــن وقتــي هذا، وساعتي هذه للسلطان الظاهر ركن الدّنيا والدين بيبرس، وإنّني أبذل جهدي وطاقتي في تحصيل مرضاته، وإنّني ما دمت نائبه لا أقطع ما قرّر عليّ في كل

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 8/6.

سنة تمضي، وهو ما تفضل عن مشاطرة البلاد على ما كان يحصل لمن تقدّم من ملوك النوبة"[1].

وفي هذا الجزء من اليمين يتّضح مدى تدخّل المماليك في شؤون النوبة حيث يعدّ ملكهم نائباً للسلطان يقوم بتعيينه، ويبقيه ما دام موفياً باليمين، وعند الإخلال بها يخلعه، ويستبدله بآخر.

وقـد فصّـلت تلك الرسالة الجزية المفروضة على أهل النوبة، وهي "من الأفيلة ثلاثـة، ومن الزرافات ثلاث، ومن إناث الفهود خمس، ومن الصهب الجياد مائة، ومن الأبقـار الجياد المنتجة أربعمائة، وإنّني أقرّر على كل نفر من الرعية الذين تحت يدي في البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عيناً"[2].

وتظهـر هـذه الرسالة مدى تحكّم المماليك، وإحكام قبضتهم على ملوك النوبة، حـيث تملـى الشروط عليهم ولا سبيل إلاّ إلى تنفيذها. وقد استمرّت العلاقة على هذه الشـاكلة طـوال حكم البيت القلاووني، حيث رُقَع الأيمان التي ترجح كفّتها لصالحهم، فهـناك يمين حلف بها ملك النوبة للسلطان المنصور عندما استقرّ نائباً لقلاوون، وهذه اليمـين لا تخـرج فـي مضمونها عن اليمين السالفة الذكر، حيث قرّرت الولاء التّام للسلطان، وحدّدت الجزية المفروضة، وقد تجاوزت هذه الأيمان إلى إعلام السلطان بكل نبأ يرد إلى ملك النوبة جهراً أو سرّاً، نافعاً أو ضاراً[3].

---

(1) ابـن الفـرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت807هـ/1405م): تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية – بيروت، 1942، ج7، ص47-48.

(2) المصدر نفسه، 48/7.

(3) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 291/13-292.

علاقة المماليك مع الحبشة:

تمثّلت العلاقة بين المماليك والحبشة بحاجة الأحباش إلى مطران من الكنيسة المرقسية في الإسكندرية، فقد جرت العادة "بأن تستورد الحبشة مطارنتها من مصر، فإذا خلا منصب مطران الحبشة أرسل ملكها رسالتين، إحداهما لحاكم مصر والأخرى لبطرك الإسكندرية طالباً تعيين من يشغل كرسي المطرانية في الحبشة"[1]. وقد شعر سلاطين المماليك بهذه الميزة، حيث مكّنتهم حاجة الأحباش للمطارنة من فرض إرادتهم على ملوك الأحباش.

وقد اقتصرت العلاقة بين تلك الدولتين على أُمور الكنيسة، ولم تتعدّها إلى علاقات سياسيّة وحربيّة، فقد ورد السلطان الظاهر كتابٌ من ملك الحبشة يريد الغرض ذاته، وهو طلب مطران يشغل منصب الكنيسة في بلاده، وقد جاءت الرسالة عن طريق ملك اليمن، وقد حملت الرسالة ألواناً من التوسّل والضراعة والاعتذار عن بعث الرسل إلى دولة المماليك، والناظر في تلك الرسالة يدرك مدى حاجة الحبشة إلى دولة المماليك، فجاء في تلك الرسالة "فنحن ما جاءنا مطران مولانا السّلطان ونحن عبيده، فيرسم مولانا السلطان للبطريرك أن يجهّز لنا مطراناً رجلاً جيداً عالماً، لا يجني ذهباً وفضّة"[2].

فيظهر في هذه الفقرة من الرسالة عدّة أمور، حيث التضرّع والتوسّل والانقياد إلى الطاعة حتى درجة العبودية، يتلو ذلك البحث عن مطران زاهد في الدنيا، وهذه إشارة خطيرة، فيها طعن لمن سبقه من المطارنة، حيث لا يفهم إلاّ معنى واحدٌ مفاده تكالب مطارنة مصر على المال عند وصولهم إلى الحبشة، وتحمل كذلك اعتذاراً

---

(1) عاشور: الحكم المماليكي، ص254.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 120/8.

للسلطان عن تأخّر رسل ملك الحبشة وسفارته. فقد حالت أمور وعوائق أخّرت البعوث والسفارات[1].

وتكشــف الرســالة كــذلك عــن حال المسلمين في الحبشة، حيث يعيشون مع النصارى مشكّلين جيشاً واحداً، إلاّ أنّه يفهم منها مدى اهتمام المماليك بأمورهم والحفاظ علــى أرواحهــم، وممتلكاتهم ومعتقداتهم، فجاء في الرسالة ما يدلُ على ذلك من خلال إخبار ملك الحبشة بحفظهم ورعايتهم[2].

ولا تخلــو الرســالة من نبرة تهديد خفيّة متمثّلة في ذكره عدد جيشه، واصفاً له بالكثــرة، ومــردفاً ذلك بالوخم الذي يقتل كل من قَدِمَ إلى الحبشة، وقد أدرك السلطان الظّاهــر تلك النبرة، فأرسل كتاباً مقتضباً من إنشاء القاضي محي الدّين بن عبد الظاهر يــردّ فــيه جوابه متجاهلاً طلب إرسال المطران، ومكتفياً بقوله: "وأمّا ذكره من كثرة عساكره، وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين، فالله تعالى يكثر في عساكر الإسلام، وأمــا وخم بلاده فالآجال مقدّرة من الله تعالى، ولا يموت أحد إلاّ بأجله ومن فرغ أجله مات"[3].

ولا تخفــى علــى القارئ لغة الظاهر القاسية تجاه صاحب الحبشة، حيث رفض إرسال المطران.

وقــد انحصــرت العلاقــة بين الحبشة والبيت القلاووني كذلك في إطار العلاقة الكنسية، فقد أرسل ملك الحبشة كتاباً إلى الملك المنصور يستعطفه فيه ويستميله بإرسال مطــران إليهم، ويطلب منه السماح لرهبانه بالدخول إلى بيت المقدس، مبدياً رغبته في الصلح والموادعة، متأمّلاً في علاقة أفضل معه بعد أن كانت العلاقة تشوبها الريبة في

---

(1) المصدر السابق، 120/8.

(2) المصدر نفسه، 120/8.

(3) عــبد الظاهــر، محــي الــدين (692هــ/1292م): تشريف الأيّام والصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، ط1، 1381هــ/1961م، الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ص268.

زمـن الملـك الظاهـر بيبرس، وقد أردف تلك الرسالة بالهدايا الكثيرة، فجاء في تلك الرسـالة: "وإنّني أحفظ المسلمين في جميع مملكتي، ومولانا يحفظ النصارى في بلاده، حتـى نصير مشورة واحدة، ويداً واحدة، وتتواصل الرسل بين الجهتين... وأشتهي أن تُحضر المطران المطلوب صحبة رسول السلطان، وصحبة رسولي، وأنا أنتظر جواب السلطان بما يصلح المسلمين والنصارى حتى تنصلح بلاد الحبشة"[1].

ومـن خلال تلك الرسالة نجد خطاب ملك الحبشة يظهر الطمع في إقامة علاقة أكثـر صـفاءً مع المماليك، والدافع لمثل هذا الخطاب السلس حاجتهم للكنيسة المرقسية والحجّ إلى بيت المقدس، حيث لا طريق لهم إلاّ من خلال دولة المماليك.

وقـد كشفت هذه الرسالة عن مدى تعلّق نصارى الحبشة بنصارى مصر، حيث أبدوا ضيقهم وضجرهم من أساقفة السريان الذين أجبروا على جلبهم من بلاد الشّام بعد أن مـنع الملك الظاهر إرسال المطارنة من مصر إليهم، فلذا نجد ملك الحبشة يجدّ في طلبه مطارنة من مصر، وظهر ذلك الأمر جليّاً من خلال رسالته التي بعث بها إلى أحد بطاركة الإسكندرية، فجاء فيها: "اسمع كلامي، واقضِ حاجتي، وابعث لي مطراناً أسقفاً جـيّداً صـالحاً يعلّمني كل شيء جيد، يكون مثل ما ضرب داود عليه السلام المثل في الـزبور من شأننا، وقال: خلوا رجالاً جياداً من قبط مصر يحضرون إلى بلاد الحبشة يعلّمونكم العبادة والزّهد، وقال في وصيته لا تخلٍ يا بني خروفك يأكله الذئب، وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حببناهم، ولأجل محبّتنا في بطركية مصر ما خليناهم عندما أساقفة وطردناهم"[2].

ومـن الجدير ذكره، أنّ العلاقة مع الحبشة كانت علاقة إجبارية طرفها الأضعف ملـوك الحبشة نظراً لحاجتهم إلى مطارنة من الكنيسة المرقسية في الإسكندرية، وكذلك تأمين طريق الحجّ الآمن إلى بيت المقدس.

---

(1) المصدر السابق، ص171.

(2) المصدر نفسه، ص173.

وقــد شــكّلت علاقة الحبشة بالنصارى في مصر والشّام هاجساً مقلقاً لسلاطين المماليك، حـيث خشي السلاطين من تحالف الحبشة مع نصارى الصليبيين في القلاع المنتشــرة في سواحل بلاد الشام، ولذا حرص السلاطين على قطع تلك الوسيلة، وأخذ أســباب بتــر تلــك العلاقة، فشُدّدَت الرقابة على تلك الرسائل، ومنعت المراسلات مع الــبطاركة مباشــرة بل يجب أن تمرّ الرسالة أولاً على السلطان ثمّ يرسم بالإيجاب أو الرفض لذلك البطريك[1].

العلاقة مع الدولة البيزنطية:

استغلّت الدولة المملوكيّة الصراع القائم بين الدولة البيزنطية والحملات الصليبية لتَحسّــن علاقاتهــا مع تلك الدولة. فقد احتدم ذلك الخلاف وأبدت بعض القوى الصليبية اســتياءها إزاء شعور العداء السائد ضدّ اللاتين، ويضاف إلى ذلك ما شاعَ وتأصّل في نفوسهم من أنّ البيزنطيين مسئولون عن الإخفاق الذي لازم الحملات الصليبية[2].

وقــد تــوثّقت العلاقــة بين الملك الظاهر والأشكري حاكم بيزنطة مبكّرة، حيث ضــمن الملــك الظاهــر جَعْلَ دولة بيزنطة إلى جانبه، وظهر ذلك جليّاً من خلال قَسَم الأشــكري للملــك الظاهر، حيث جاء فيه: "إنّه متى احتاجت سلطنة الملك الظاهر إلى مساعدة ساعدت بكل ما تقدر سلطنتي عليه"[3]، وبناءً على ذلك سيّر السلطان هديّة إلى الأشــكري من جملتها الزراف وجماعة من التتار الأسارى بخيولهم التتريّة وعدّتهم[4]، ولا شــكّ أنّ هــذه الهدية الطريفة تحمل معاني كبيرة، فهي تشير بكل وضوحٍ إلى قوة دولة المماليك، وسعة نفوذها، حيث الهدايا أسارى.

---

(1) انظر عاشور: العصر المماليكي، ص258.
(2) انظر هسي. ج.م: العالم البيزنطي، ترجمة وتقديم وتعليق د. رأفت عبد الحميد، دار المعارف، ط3، 1984، ص208.
(3) عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص88.
(4) انظر المصدر نفسه، ص88.

وقــد تــوطّدت تلــك العلاقــة بسبب حاجة البيزنطيين إلى بطاركة من المذهب الملكانـــي، فكانت الحاجة ماسّة إلى الحصول على أولئك البطاريك من سلطنة المماليك "فقــد ســيّر الأشكري إلى السلطان يلتمس منه بطركاً للنصارى الملكيين"[1]، وقد أكرم السلطان ذلك الرسول ومن معه من الأساقفة[2].

وقــد تجاوزت العلاقة ذلك إلى أن بنى المسلمون في القسطنطينية مسجداً، وكان بناء هذا المسجد ثمرة الصلح الذي عقد بين تلك الدولة والسلطان الظاهر. وقد تقرّر في ذلــك الصلح أن يُبْنى مسجدٌ قدر جلد بعير، وتقرّر العهود على ذلك، فلمّا استقرّ الحال عمد المسلمون إلى جلد بعير فقدّوه سيوراً ومدّوها، فأنكر الروم ذلك فقال المسلمون: إنّ هذا جلد بعير ما زدنا عليه شيئاً، وعليه كان الاتفاق[3].

كما أنّه برز عاملٌ مهمٌ استدعى إقامة علاقة صداقة مع الدولة البيزنطية تمثّل في الصـــداقة القائمة بين المماليك والقفجاق، وهذه الصداقة دعت إلى تأمين سُبُل السفارات والرُســل بين المملكتين، "ونظراً لأنّه تعذّر على دولة المماليك الاتّصال بمغول القفجاق في جنوب روسيا برّاً؛ لسيطرة مغول فارس على الطريق البريّ الذي يربط بينهما، وفي نفــس الــوقت لم تكن الاتصالات البحرية بين مصر وجنوب روسيا ممكنة سوى عن طريق مضيقيّ البوسفور والدردنيل، وهما تحت سيطرة الأمبراطور البيزنطي ميخائيل بالــيولوجوس (660هـــ/1261م 681هــ/1282م)، لذلك أصبح المماليك في أمسّ الحاجة إلى الحصول على تصريح خاص بالعبور"[4].

وقــد كانت تلك الدولة محطة استراحة للرُسل الوافدين على الدولة المملوكية من الجهـــة الشرقية، وخاصة رسل الملك بركة خان حاكم القفجاق، وقد تخلّلت تلك العلاقة

---

(1) المصدر السابق، ص129.

(2) انظر المصدر نفسه، ص129.

(3) انظر المصدر نفسه، ص129-130.

(4) عبد الجواد، ليلى: علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية (659-784هــ/1261-1382م)، مجلة كلية الأداب، العدد 46، 47 لسنة 1986، القاهرة، 1988، ص60.

الــوديّة بعض الشوائب والمكدرات، حيث اعترض الأشكري رسل السلطان إلى الملك بــركة، وقــد أغضب ذلك التصرّف السلطان الظاهر، وأخرج اليمين التي أقسم عليها الأشــكري، وأشــهد عليها مجموعة من البطاركة والأساقفة، وكتب في إثر تلك الحادثة كتاباً إلى الأشكري، وأغلظ فيه القول حيث جاء فيه... إن كان سبب إمساك رسلي فساد حالــك مــع الملــك بــركة، وكــون عساكره أفسدت في بلادك فأنا أصلح الحال بينك وبيــنه..."[1]، وقــد اعتذر الأشكري عن تلك الحادثة، وأقسم للسلطان بالطّاعة، وأنّه لم يؤخِّر أولئك الرسل إلاّ لموت بركة خان، وجلوس ولد أخيه بعده[2].

وقــد اســتمرت تلــك المودّات في زمن السلطان المنصور، وتبودلت السفارات بينهما[3]، وكان سلاطين المماليك لا يثقون بحكّام البيزنطيين، بل كانوا يحلفونهم الأيمان المغلّظــة لكــي يأمنوا غدرهم، فقد كتبت عدّة نسخ أيمان حلف بها الأشكري في زمان الملــك الظاهــر والســلطان المنصور قلاوون وابنه النّاصر، وقد تضمّنت تلك الأيمان معاهدات وهدناً، فقد كفلت الأيمان التي حلف بها الأشكري للسلاطين المماليك استمرار علاقات المحبّة والمودّة، كما مهّدت الطريق أمام المماليك للوقوف ضدّ الغزو الصليبي، وتحييد قوة بيزنطة جانباً، كما وسّعت أُفق التجارة المملوكية، وأمّنت العمق الاستراتيجي لدولــة المماليك، حــيث تعدّ مملكة بيزنطة الطريق الآمن لسفارات الدولة المملوكية لأصدقائها في الممالك الشرقية.

العلاقة مع القوى الأوروبية:

لا شــكّ أنّ خطــر الصــليبيين أدمــى المماليك، وجعلهم ينظرون إلى الممالك الأوروبــية المــتاخمة لحدودهم نظرة عداء وحذر؛ ممّا حدا بهم إلى التيقُّظ والاحتياط، والتنبُّه إلى مثل ذلك الخطر، ولكن المصالح الاقتصادية جعلتهم أكثر اعتدالاً، حيث لا بدَّ

(1) المصدر السابق، ص203.

(2) المصدر نفسه، ص234.

(3) انظر عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص73.

من إقامة بعض الروابط مع تلك الممالك لتأمين مسالك تجارتهم، إذ تهيمن دولة المماليك على الطريق الهام للتجارة، فتشكّلت العلاقة بينهما وأخذت طابع التناقض حيث الغارات والهدن؛ ولذا اتّسمت الرسائل السياسية بطابع الإصلاح والهدن، وقد تمثّلت هذه الممالك فـــي مملكـــة جنوة وصقلية والبندقية والبلغار والسرب وردوس والممالك الإسبانية، ولم تحـــدث بـــين هـــذه الممالك والدولة المملوكية صدامات مباشرة، بل كانت هناك بعض الإغـــارات علـــى مراكب الصّيد في البحر المتوسط، ومثل ذلك ما حدث لمراكب صيد المماليـــيك من غارة أحد قراصنة جنوة ومصادرتها، فاستدرك حكام جنوة ذلك الخطر، وألحّـــوا في طلب الهدنة من السلطان المنصور قلاوون[1]، وسُطِّرت تلك الهدنة مملية شـــروط الســـلطان التي كفلت حرية انتقال التجّار إلى تلك المملكة الجنوية آمنين على أنفسهم وأهليهم وأموالهم بنصّ الهدنة[2].

وقد كتبت هدنة[3] كذلك بطلب من الريدراكون البرشلوني وأخيه صاحب صقلية، وقـــد ماثلـــت ســـابقتها في إملاء الشروط من جانب الملك المنصور، وتقودنا مثل هذه المهادنـــات[4] إلى حاجة تلك الممالك لإقامة علاقات مع الدولة المملوكية نظراً لموقعها المتوسّط بين الشرق والغرب، وإحكام سيطرتها على الطريق التجاريّ الهام بين الشرق الأسيوي والغرب الأوروبي.

وقـــد تكوّنت الحاجة كذلك إلى تأمين طريق الحاجّ إلى بيت المقدس، ولذا أخلص إلى القول بأنّ العلاقة بين القوى الأوروبية ودولة المماليك كان يحكمها عاملان مهمّان يتمثّلان في تأمين طريق التجارة، وطريق الحاجّ إلى بيت المقدس، وقد تقدم في دراسة مـــبحث الأمان نصّ الأمان الذي منحه السلطان الناصر محمد إلى ملك السرب فراكس وتمكينه من زيارة بيت المقدس، ولا شكّ أنّ المماليك يجنُون من هؤلاء الحجيج مصالح

(1) انظر حماد: الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، ص480.

(2) انظر عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص165-169.

(3) انظر المصدر نفسه، ص156.

(4) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 63/14.

سياسيّة ومالية، حيث تفرض عليهم "ضريبة يؤدّيها الحجاج عند دخولهم الموانئ الإسلامية المخصّصة للحجاج كيافا وصور وعكّا وصيدا والإسكندرية وغيرها"[1].

ويحرص السلاطين المماليك على أن تتضمّن مثل هذه المهادنات الصلح الثابت والمودّة الخالصة واعتبار ما جرى ووقع من الأذى والضرر والخسارة في الأرواح والأموال والممتلكات والاعتداءات من الطرفين في عداد النسيان[2].

---

(1) الدروبي، سمير محمود: حركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء المملوكي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، سنة 26، عدد 62، 1422هـ/2002م، ص31-32.

(2) انظر الحجي، حياة ناصر: العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية في القرنين الثامن والتاسع الهجري، الرابع والخامس عشر الميلادي، دراسة وثائقية، ط1، الكويت، 1980، ص266.

الفصل الثّاني

الرسائل الإخوانيّة

أولاً: المظاهر الاجتماعيّة

تمثّل الحياة الاجتماعيّة مسرحاً رحباً وفضاءً شاسعاً للمناسبات اليوميّة والشهريّة والسنويّة والموسميّة، وهذه المناسبات تتطلّب تفاعلاً معها، والإنسان كما هو في أي مكانٍ وزمانٍ وثيق الصّلة بالأحداث التي تحيط به، ولذا فإنّه مرهون بهذه الأحداث سلباً أو إيجاباً، وعلى هذا فإنّ الأفراد الأكثر معايشة لتلك المناسبات من يعبّرون عنها، ويتفاعلون معها، ونتيجة ذلك التعايش نشأت روابط وعلاقات بين الأفراد وتلك المناسبات، وتمثّلت تلك الروابط في الإنتاج الأدبيّ.

ومن هنا يمكن القول إنّ مظاهر الإنتاج الأدبيّ قد تعدّدت، وخاصّة النثر منها؛ لتعدّد المناسبات والدواعي التي دعت إليه، ولمّا كانت أكثر طبقات المجتمع تفاعلاً مع تلك المناسبات فئة الأدباء وخاصة الكتّاب، زاد ذلك في ثراء الإنتاج وتنوّعه.

وقد أسهمت مجموعة من العوامل في تنوُّع ذلك الإنتاج وكثرته، فقد أسهمت الحياة الوظيفيّة في توطيد أواصر المحبّة والصداقة بين الكتّاب؛ ممّا حدا بهم إلى تصيُّد المناسبات لكتابة الرسائل المناسبة وبعثها إلى بعضهم، وقد يكون الهدف الأهم من كتابتها الإفصاح عن جودة القريحة وسلامتها، وقد كان للثراء الفكريّ دورٌ مهمّ في إنشاء تلك الرسائل، فالموضوعات التي تكتب فيها تلك الرسائل قد لا تستوجب هذا الأمر من التطويل والتزويق والتنميق.

ومهما يكن فإنّ الحياة الاجتماعيّة في العصر المملوكيّ الأول شهدت أطيافاً وألواناً من العلاقات الإنسانيّة الممزوجة بالمسرّات والآلام، وقد عبّر الكتّاب عن تلك

المتناقضــات بــأقلامهم مــن خــلال رسائل التهنئة والتعزية، والمدح والذمّ، والإهداء والشكر، والشفاعات والعنايات والصدقات.

رسائل التهنئة:

مضى الحديث عن التهاني والبشارات في مبحث سابق، وقد تناول البحث في تلك القضــيّة الجانــب العسكريّ والانتصارات وما يخصُّ الخلفاء والسلاطين من التهنئات، ونأتــي هــنا لنعــيد الحديث عن ذلك الموضوع، ولكن من الجانب الذي يخصُّ الطبقة الاجتماعيّة العامّة، ونخصُّ منها فئة الكتّاب والشعراء وأرباب الوظائف بشتّى أصنافها.

ورسائل التهنئة من الرسائل الإخوانيّة التي تعمّق الصّلات بين أفراد المجتمع لما فــيها من بثٍّ لمشاعر الفرح والسُّرور، ومشاركة المهنأ بالأفراح والمسرّات "وهي من ضُروب الكتابة الجليلة النفيسة؛ لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، والإبانة عن موقع الموهبة، وتضاعف السُّرور بالعطية"(1).

وهــي مــن الرسائل التي يكثر تداولها بين الأصدقاء والأحباب، وهذا راجعٌ إلى كثرة الدواعي التي تتطلّبها، فالحياة الاجتماعيّة ملأى بالمناسبات اليوميّة والموسميّة ممّا يســتدعي كتابــتها، فهــناك أغراض ومعانٍ متشعّبة لا تقف عند حد(2)، فمنها التهاني بالمناصــب الجديــدة، والأعياد، والرجوع من الأسفار، والنهوض من المرض، وولادة الأبناء، إلى غير ذلك من مناسبات.

ويحــرص الكــتّاب فــي أثناء إنشاء تهنئاتهم على أن يظهروا قدراً من السُّرور والفرح والبهجة، ومشاركة المهنّأ أفراحه، وتمنّي دوام النعمة.

وقد تعدّدت الأحوال التي تدبّج من أجلها رسائل التهنئة، فمن ذلك تولية المناصب سيما وإنّ تلك الرسائل هي من النظير إلى النظير.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 5/9.

(2) انظر المصدر نفسه، 7/9.

فمـــن رســـائل التهنئة في هذا الموضوع ما بعث بها صلاح الدّين الصفديّ إلى إبراهيم بن محمود الحلبيّ بعد عودته إلى كتابة السرّ الشريف بحلب سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، فقد أبدى فيها مشاعر مرهفة، وشعوراً مثيراً للعواطف، وإحساسات مشحونة بعبارات غمرها الفرح والسُّرور فجاء منها "يقبّل الأرض، ويهني نفسه والأنام والأيّام، ومـــن خـــط الطروس، ووسع برودها بالأقلام، ومن كتب الإنشاء فآخى من كلامه بين الجواهر في النظام، ومن نظم قريضه فأخمل في الخمائل ساجعات الحمام"[1].

فالعـــبارات تنبـــئ عـــن فحواها، فالسُّرور ينبعث من خلال سجعاتها، والمهنّئ يجعـــــل نفسه مكان المهنّأ، فالتهنئة ما إن لامست سمعه حتى قابلها بالفرح والابتهاج، وقد شاركه في التهنئة الأنام والأيام، والشعراء والناثرون، والصفديّ بذلك يلحّ في جعل التهنئة عامّة لا تخصّ المهنأ وحده بل تعدّت شخصه إلى المجتمع كلّه، وهذا دليل على مكانته المرموقة وفرحة النّاس بعودته إلى ذلك المنصب، ويعلّل الكاتب ذلك بقوله: "لأنّ مولانا ـ بسط الله ظلّه- بركة هذا الوجود، ومن هباته النسيمة ينشق النّاس عرف الهبات والجود"[2]، ويحرص الكاتب على مدح المهنأ ووصفه بصفات تكاد تكون عزيزة نادرة حتـــى يبـــرّر شيوع تلك التهنئة بين النّاس، ويعلّل سرّ ذيوعها، فالمهنّأ حقيق بأن يفرح القاصي والداني لفرحته؛ لفرط جوده، وطيب ذكره بين النّاس.

ويخـــتم التهنئة بالإخبار عن نفسه إثر تلك الحادثة، حيث غمره الفرح والسُّرور "وينهـــي مـــا حصل له من الابتهاج والسُّرور، والهناء الذي التحف منه بالتحف، وحباه الحـــبور، فالله تعالى يديم أيام مولانا التي هي أمان من الحوادث والغير، وجمال الكتب والسير بمنه وكرمه"[3].

(1) الصفدي: ألحان السواجع بين البادي والمراجع، نسخة مخطوط، مكتبة جامعة مؤتة، رقم التزويد 107421، ج1، ص6.
(2) المصدر نفسه، ج1، ص6.
(3) المصدر نفسه، 1/6-7.

فالكاتب يظهر مشاعره وعواطفه وأحاسيسه من خلال تلك التهنئة، ولا يفوته في ذلك المقام مشاركة المهنأ أفراحه ومسرّاته، فالأفراح والتهاني والمسرّات غمرت الأنام إلـــى جانـــب المهنّأ، ولكن النصيب الأكبر من الابتهاج ناله الكاتب، وهذا ما دفعه إلى كـــتابة تلك التهنئة، فهي نابعة من عواطف ومشاعر ملأها الفرح والسُّرور؛ ولذا جاءت عـــباراتها مؤدّية الغرض الذي كتبت من أجله، فهي أشبه بلوحة فنيّة. ولا ينسى كاتب التهنـــئة التذكيـــر بشكر تلك النعمة والدعوة بدوامها دوام الأيّام، والدّعاء للمهنّأ بالأمن والسّلامة على مرّ الدهور.

ومـــن تهنـــئة بعث بها الصفديّ كذلك إلى أحمد بن علي السبكي يهنئه بإفتاء دار العـــدل الشـــريف، جعل الصفديّ من تلك التهنئة نصيباً وافراً لشخصه حيث قال: "يقبّل الأرض ويهنـــئ نفسه أولاً بهذه الوظيفة السنيّة والأيّام ثانياً"[1]، فالكاتب يلحّ دائماً على مشاركة المهنّأ في أفراحه ومسرّاته، بل يشرك الأنام جميعاً في تلك المسرّات والأفراح، وهـــذا الأمر لافت للنّظر، فقد يقود ذلك إلى القول بأهميّة المنصب الجديد، فلأهميّة هذا المنصـــب شملت التهنئة كاتب الرسالة والنّاس، ولم تعد الفرحة والتهنئة مقصورة على المهنّأ، وهذا يزيد من مسرّاته وأفراحه.

وكعـــادة كـــتّاب التهنئات يجعل الصفديّ تلك التهنئة تحدث له الابتهاج وانشراح الصدر فيقول:

"ومن العجيب أنّني هنّأتـــــه وأنا المُهَنّأ فيه بالنعمـــاء

وينهـــي مـــا حصل له من السُّرور الذي نفّس عن كرب الشّوق والفرح الذي أبهجه"[2]. وجعل الصفديّ من دواعي تلك التهنئة رؤية ذلك المهنّأ حيث ضمن له وجوده في ذلك المنصب رؤيته في كل وقت.

(1) المصدر السابق، 30/1.
(2) المصدر نفسه، 30/1.

ورسـائل التهنـئة فـي هذا الباب كثيرة، فمن تلك الرسائل ما بعث بها الشهاب محمود الحلبيّ إلى عبد الله بن تاج الرئاسة عند تولّيه الوزارة، فقد عبَّر فيها الحلبيّ عن مدى سروره بتلك الحادثة، معدِّداً مظاهر تلك الفرحة قائلاً: "ويتمنّى لو قام لديها بغرض التهنـئة منشداً أو مثّل بها بين الأولياء منبِّهاً لهم على تكرار السجود لله تعالى ومرشداً، وينهـي ورود البُشرى التي كانت الآمال تترقّب ورودها، والتهاني التي كانت الأماني تنجز من الدهر وعودها، والنِعَم التي كانت الأولياء تخشى أن تجود بأنفسها قبل أن ترى وجودها"[1].

فالمـتأمّل لـتلك الفقرة من الرسالة يستشعر مدى الجوّ الغامر بالفرح والابتهاج، ويدرك مدى لهفة المهنّئ ورغبته لو كان معايناً للحدث، مباشراً له، وممّا زاد تألُّق تلك الرقعة بُعد الكاتب عن المهنأ، فجعل من تلك العبارات رسولاً عن شخصه، فلذا أودعها ما يمكن أن ينوب عنه، ويشفي غليله في سفارته تلك.

والحلبـيّ يضع نفسه موضعاً يكاد يمتزج بشخص المهنّأ، حيث ما فتيء يترقّب ذلـك الحدث ويتمنّاه للمهنّأ لا لنفسه، ويمدّ يديه مقدِّراً النّعمة، شاكراً الله سبحانه، ويؤكّد ذلـك قولـه: "والمملوك فقد اجتنى ثمر دعائه الصالح، وأخذ من هذه التهنئة حظ المقيم الملازم للأبواب العالية، مع أنّه النائي النازح"[2].

وينهي تلك الرقعة بالدعاء للمهنّأ بالاستمرار في تلك المسرّات والترقّي في سلك هذه المبرّات.

والحـديث يطول في التهنئات بهذه المناصب حيث الأعناق تشرئب إلى اعتلائها فـإذا ما ارتقى أحدٌ إلى عليائها بادر الآخر إلى التهنئة مشاركاً له في أفراحه، ومبدياً له مسرّاته وابتهاجه، وهذا ديدنهم دائماً.

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 2/699-670.

(2) المصدر نفسه، 2/670.

ومــن الصور الأخرى لرسائل التهنئة، التهنئة بالرُّجوع من الحجّ، حيث تُعدُّ تلك العبادة غاية في المشقّة والتعب، ناهيك عن بُعد الشقة، وطول السفر، ومخاطر الطريق، فهــم يجدون في تلك المناسبة فرصة مؤاتية للتعبير عمّا في نفوسهم من فرحة وسرور بــرجوع أصدقائهم من تلك الرحلة سالمين، فمن تلك الرسائل ما بعث بها ابن الورديّ إلـــى أحــد أصدقائه يهنئه بعد عودته من الحجّ، وقد تركّزت تلك المقاطع المجتزأة من الرســالة علـــى المــباركة بإتمام شعائر الحجّ، فجاء فيها "فقد طافت كعبة الجود بكعبة الوجود، وسعى ذو الصّفا والمروّة بين الصّفا والمروة، وكان وادي محسّر مفتوح السين لرؤياه، فتأرّج بالذكيين من قلبه وريّاه، وأصبح أعداؤه محصّرين، وأمسى إلى العلى من المحلقين، وحسّاده من المقصّرين"[1].

وقد مزج ابن الوردي عبارات التهنئة بالمدح، فالمهنأ فاز بالحجّ المبرور وخذل حسّــاده، وقــد استبشــرت وابــتهجت شعائر الحجّ لابتهاجه، وشاركته الفرحة ونشوة العبــادة.

ومــن التهنــئات كــذلك التهنئة بعد الرُّجوع من السفر، حيث يلاقي المسافر من وعــثاء السفر الجمّ الغفير، فيجد الكتّاب بغيتهم في التعبير عن مشاعرهم إثر عودة ذلك المسافر، وقد تكون تلك الرسائل مفتاحاً لإعادة الصّداقة بعد انقطاعها طول مدّة السّفر، فيــتحدّث الكاتب عن متاعب السفر ومشاقّه، وينفذ من ذلك إلى تصوير الجوّ الانفعالي الــذي أحدثــه رجــوع ذلك الصّديق من الأسفار، وما اكتنفه من آلام وهموم طيلة أيّام غيبــته، مصوّراً أيّام الوحشة والفُراق التي طالت لياليها، فمن ذلك ما بعث به ابن نباتة إلـــى القاضـــي علاء الدّين بن فضل الله كاتب السرّ الشريف بعد عودته من الكرك إلى الـــدّيار المصـــريّة[2]، فمـــن تلك الرسالة قوله: "وينهي ما وصل إليه وإلى الأولياء من

---

(1) ابــن الورديّ، عمر بن المظفّر (749هـ/1348م): الديوان، تحقيق أحمد فوزي الهيب، دار القلم للنشر والتوزيع – الكويت، ط 1، 1407هـ/1986م، ص62.

(2) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 36/9.

السـرُور، ومـا رفع بينهم وبين الابتهاج من الشُرور، وما طولع في أخبار المسرّة من السُـطور، بوصول مولانا ومن معه إلى مساكن العزّ ساكنين، ودخولهم كدخول يوسف علـيه السلام ومن معه إلى مصر آمنين"(1). فالجوّ الانفعالي المشحون بعبارات الفرح والسُـرور تـتموّج بـه ثنايا الرسالة، فقد قرّت العُيون برجوعه بعد أن فارقها الكرَى، وانشرحت الصُدور لأوبته، واستبشر السرّ الشريف بمقدمه.

ولـم يجد الكاتب بدّاً من رفع أكفّ الضراعة والشُكر والثناء لله سبحانه "وقد أخذ المملوك حظّه من هذه البشرى، ووالى السجود لله شكراً"(2).

ومـن هـذا القبـيل ما بعث به الشهاب الحلبيّ إلى من قدم من سفر، مهنّئاً إيّاه بالـرجوع إلـى أهلـه وذويـه معافىً سالماً، ومخبراً عن نفسه بما اكتنفها من سرور وانشراح صدر، وإزالة للهموم قائلاً: "المملوك ينهي بعد تقبيل الأرض، والقيام بما يجب مـن سـننه والفرض، علمه بحلول ركابه العالي بمغناه، واستقرار خاطره الشريف في محلّـه ومـثواه، وجمع الشّمل بالأهل بعد طول الغيبة، وبعد القفول والأوبة، فتضاعف لذلك فرحهُ وسروره، وزال عن قلبه قليل الهمّ وكثيره"(3).

ولا مفرّ في تلك الرسائل من ختمها بالدُعاء والتوسُّل والتضرُّع إلى الله سبحانه، بحفـظ تلك النعمة، ودوامها أيّاً كان نوعها، ولذلك ختم الحلبيّ رسالته بقوله: "فالله يمنح المولـى أطيب المنازل، وأسر الرواحل، ويجعل تجارة مجده رابحة، وأوامر دوام عزّه لائحة"(4).

ومـن المظاهـر الاجتماعـيّة التـي يجد الكتّاب فيها فرصة لإبداء مشاعرهم، ومشـاركة أصـدقائهم أفراحهم فيها المناسبات الأُسريّة كالزّواج وولادة الأبناء، وهذه

---

(1) المصدر السابق، 36/9.

(2) المصدر نفسه، 37/9.

(3) المصدر نفسه، 38/9.

(4) المصدر نفسه، 38/9.

المناسـبات، لا شـكّ أنّها من المظاهر التي تبعث السُّرور والابتهاج إلى نفوس النّاس، فيغتـنم الكتّاب تلك المناسبات لصقل الصداقات ودوامها فيما بينهم، فمن ذلك ما سطّره الحلبـيّ مهنّـئاً أحـدهم بـواقعة زواج، ومركّزاً حديثه على عبارات الفرح والسُّرور والابـتهاج، وما يثيره ذلك الزواج من أعمال الخير والبركات على ذلك المهنّأ، فيقول فـيها: "صـدرت هذه الخدمة معربة عن ثناء تأرّج عَرْفه، وولاء أعجز الألسنة سرحه ووصفه، وتهنئة بهذه الوصلة المباركة جعلها الله للاتصال بالسّعادة سبباً، ومحصّلة من الخيرات مراماً وافراً وأرباً، وعرّفه بركة هذا العرس الذي أصبح الخير بفنائه معرّساً، ونور الشّمس من ضياء بهجته مقتبساً"[1].

ويحرص الكاتب في تسطير تلك التهنئة على بثّ روح البُشرى والسّعادة في ذوي العـرس وأصـدقائهم، ممّا يدفعهم إلى مشاركته أفراحه تلك، معبّرين عن ذلك بشكرهم المتّصـل، ودعـائهم العريض في السرّ والجهر، والخفاء والعلَن، والكاتب كذلك يستبق الأُمـور داعـياً للمهنّأ بالسعادة الأبديّة التي اتّخذت من السعد نسباً وصهراً "ونشكره أن جعـل بينه وبين السعد نسباً وصهراً، منح الله المولى الرِفاء والبنين، والعمر الذي يفني الأيّـام والسـنين ورزقـه إسعافاً دائماً وإسعاداً، وأراه أولاد أولاده آباءً بل أجداداً"[2]. والكاتـب بـذلك ينوّه بأهميّة ذلك الحدث في حياة المهنّأ، حيث الزواج وإنجاب الأبناء مـن أسـباب سعادة المرء وشقائه، فهو يدعو الله سبحانه أن تكون تلك الواقعة جالبة للسعادة الأبدية التي يجني ثمارها على مرّ الأيّام والأعوام.

وينضوي تحت إطار سعادة الأُسر إنجاب الأبناء، فالأبناء سببٌ من أسباب سعادة الأُسرة والتئام شملها، والكتّاب عندما ينشئون تلك الرسائل يلحّون فيها على دوام الذكر والصـيت؛ لأنّ الفتى يحفظ ذكر أبيه، فهو قرّة عين، ومحطّ أمل، فمن رسالة بعث بها الحلبـيّ إلى أحد أصدقائه، وقد ولد له ابن ذكر "المملوك يخدم المولى ويهنيه، ويشكره

---

(1) المصدر السابق، 55/9.

(2) المصدر نفسه، 55/9.

ويطلعه على ما حصل له من الابتهاج، للسبب الذي ينهيه ويذكره"[1]، فالقضية هنا اللافتة للنظر التي لا أكون مجانباً للصواب فيها إذا ما قلت بأنّ هدف بعث تلك الرقاع ليس تهنئة المهنّأ بقدر ما هي كشف عن نوايا المهنئ، فالكاتب يصرح بأن هدف تلك الرسالة الأول إعلانه عن مدى الابتهاج الذي غمره إثر تلك البشارة، فالتهنئة تنبع من أعماق باعثها، ملبّية لشعوره وعواطفه وإن كانت تلك العواطف مصطنعة، فهو يريد أن يقول إنّ تلك الرسالة هي الأثر الذي أحدثته فيه تلك البشارة.

وبعد أن يطمئن الكاتب من أنّ رسالته قد عبّرت عن مدى سعادته وابتهاجه، وأوصلت تلك العواطف المشحونة إلى المهنّأ، يعاود الحديث عن تلك المناسبة بما يناسبها من عبارات وألفاظ، فالمولود لا شكّ أنّه سائر على نهجِ أبيه، وشبل من ذاك الأسد، وقرّة عين لوالده، ولعامة المسلمين "وهو الولد العزيز الموفّق النجيب... أبقاه الله تعالى ليحيا مشكوراً، محموداً، منصوراً بسيف مجده، وسنان سعده مسعوداً... وأرانا منه ما أرانا من السعادة في أبيه"[2].

ولا ينسى الكاتب في الختام أن يدعو لذلك الولد بأن يوفّقه الله لكل خير ورفعة، ويشكر الله على تلك المنّة، ويجعل من ذلك الولد قرّة عين لأبيه، ومصدراً للسعادة والسُّرور، وأن يمدّ في عمره حتى يرى أبناءه وأحفاده.

والحقيقة أنّ التهنئات كثيرة في هذا الجانب، ولا سبيل لحصرها، والمظاهر الاجتماعيّة حبلى وكل يوم تلد، ورسائل التهنئة في مجملها لا تخرج عن أُمور واضحة جليّة، تتمثّل في بيان أثر تلك البشارة في مرسل التهنئة، حيث إنّ تلك البشارة أحدثت له من السُّرور وانشراح الصدر ما حفزه على كتابة تلك الرسالة، ولو لم يتمكّن من كتابتها لأحدثت له المتاعب، وعنّت نفسه، ولزم شدُّ الرحال وتهنئة المهنّأ بالحضور لا الغياب. والأمر الآخر الذي تتضمّنه رسالة التهنئة مشاركة المهنّأ أفراحه

---

(1) المصدر السابق، 59/9.

(2) المصدر نفسه، 59/9.

ومســرّاته، وتعمــيم تلك البشارة والتهنئة بين الأوساط الاجتماعيّة المختلفة، وفي هذه الرسائل الحاصل على النصيب الأكبر من التهنئة الباعث لها، فهو المهنّأ أولاً، وفي هذا مجاملة لطيفة للمهنّأ، وجلب للمودّة ودوام الصّداقة.

وهــناك أمــر غاية في الأهمية، وهو قرن تلك التهنئة بالمناسبة، وبيان أهميتها، وطول انتظارها، والدّعاء والتضرُّع بدوامها، وشكر الله على منحها وضمان بقائها.

ومهمــا يكــن مــن أمر، فإنّ تلك الرقاع تشبه لوحة فنيّة مزوّقة بألوان ووشي، فالسُّــرور والسعادة والمسرّات تشيع من أطرافها، فالرسائل مصبوغة بصبغة الابتهاج، وملــوّنة بأطياف سرور باعثها، ومعطّرة بأريج عبق أنفاس مسطِّرها، فهي أشبه بقطعة من نفسه نابت عنه حال غيابه عن مباشرة المهنّأ حضوريّاً.

رسائل التعزية:

تكاد رسائل التعزية تضاهي رسائل التهنئة في شيوعها بين النّاس، وهذه الرسائل يبعــثها الكتّاب إلى ذوي المتوفّين لمشاركتهم الأحزان؛ لِمَا في ذلك من تخفيف عليهم، وكثيراً ما يبعث الكاتب تلك التعزية معزّياً نفسه أولاً بفقد ذلك الصَّديق، ومخفّفاً من تلك الــرزية عــن ذويه، وقد تعمّد الكتّاب في مثل هذا اللون من الرسائل إشاعة جوّ الحزن والكآبة والبكاء، ولكنهم لا يغفلون باب الأمل بصور مختلفة تتوزّع في ما آل الفقيد إليه، حــيث الجنان والرّاحة والأبديّة، وكذلك ما خلّف من أبناء وإخوة نُبَلاء يُعْتَمد عليهم في الشّدائد، وما إلى ذلك من تعزيات.

وتنحصــر رســائل التعزية في الغالب في أُمور ثلاثة، تتمثّل في الندب والرّثاء والتعزية، فالكاتب يبدأ عادة تلك الرسالة بالجزع والهلع، وتصوير شدّة النازلة، ثمّ يعكف على وصف أثر تلك النازلة في نفسه، واصفاً إيّاها بالذُّهول والبُكاء، ولكنّه ما يلبث أن يوطّن نفسه بالتأسّي من خلال وصف ذلك المتوفّى، ومن بلوغه جنّة الرضوان، والدُّعاء لــه بالسقيا، وبعد ذلك يواصل الدعاء لذويه بأن لا يروا مكروهاً بعده، ولا يفجعوا بأحد

غيره من بعده، ممهِّداً بعد ذلك لذكر الخلف الذين تركهم بعده، متمنِّياً لهم العيش الهانئ وبلوغ المرام.

وجاء في مواد البيان* أنّ "المكاتبة في التعزية بالأحداث العارضة في هذه الدُنيا واسعة المجال؛ لِمَا تتضمّنه من الإرشاد إلى الصَّبر والتسليم إلى الله جلَّت قدرته، وتسلية المعزى عمّا يُسلبه بمشاركة السابقين فيه، ووعده بحسن العوض في الجزاء عنه إلى غير ذلك ممّا ينتظم في هذا المعنى"[1]. فأغلب الرسائل لا تتعدّى هذه الدوائر، فهي ترشد إلى الصَّبر والتسليم بقضاء الله وقدره، حيث لا مفرَّ من ذلك، وبعث الأمل إلى نفس المعزّى من جديد وتسليته وسلوّه عمّا أصابه، وفتح عينيه على أمل جديد يكون عوضاً عمّن فقده.

ومن تلك الرسائل ما بعث بها الصفديّ إلى ابن القيسرانيّ معزّياً إياه بولده، فقد بدأها بوصف كيفيّة بلوغه ذلك الخبر الذي أفسد عليه صفو عيشه، وأنكأ جرحه فيقول: "وحُمّل المملوك من همٍّ مولانا ما يعجز عن شرحه، ويتعذّر الزّمان طب جرحه"[2]، وهو بذلك يشارك المعزّى أحزانه وفاجعته ليخفّف عنه وطأة تلك الشدّة، ثمّ بعد ذلك يصوّر الجزع الذي ألمَّ بوالد ذلك المتوفّى، متمنِّياً أن لا يرزأ بغيره قائلاً: "فثبت الله قلب مولانا بصبره الجميل، ولا جعل للرزايا عليه بعدها منعرج طريق، ولا هداية سبيل"[3].

---

* ذكر فؤاد سزكين أنّ النسخة الوحيدة من مواد البيان الموجودة في مكتبة فاتح رقم 4128 ينقص من أبوابها العشرة المذكورة في المقدمة الباب التاسع والعاشر وشيء من الباب الثامن، وثبت بمقارنة الكتاب بصبح الأعشى أنّ نسخة القلقشندي كانت أكمل، وربّما كاملة. مقدّمة الناشر، ص6-7.

وجاء في مقدمة الكتاب ((فأمّا آداب الصناعة والسياسة التي يفتقر إليها كاتب الترسيل فقد استوفينا القول عليها في البابين التاسع والعاشر من هذا الكتاب)). الكاتب، علي بن خلف، عاش في منتصف القرن الخامس الهجري: مواد البيان، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، إصدار فؤاد سزكين، ص47.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 80/9.

(2) الصفديّ: ألحان السواجع، 130/1.

(3) المصدر السابق، 130/1.

ويأخـــذ الكاتب في تخفيف روع المعزّى وتسليته، وفتح كوة الأمل أمامه، حيث سيعوّض الدُرر بعد تلك النازلة "فما يظلم أفق المعالي إذا هو كوكبه، وفيه منكم شموس وأقمـــار، ولا يـــوحش الســـاري مع وجود وجوهكم المشرقة إذا غاب كوكب سحـــره، فكـــواكب الســـحر قصيرة الأعمار، ولا يتعطّل روض المجد إذا ذوت منه زهرة، وفيه منكم غصون لها بالمحامد أزهار وأثمار"[1]، فالكاتب اتّبع أُسلوب المدح في تخفيف تلك النائبة، حيث فَقْدُ ذلك الولد ما كان له أن يذهب نضارة ذلك البيت، ولا ينهي آماله، فما هـــو إلاّ زهرة ذبلت وسط أزهار وأغصان كثيرة، ولما سلمت الأغصان ولم تذوِ؛ فإنّ الأزهار سرعان ما تتجدّد وتعود إلى سابق عهدها.

ويـــنوّع الكاتـــب فـــي أساليبه لتهدئة خواطر معزيه متّبعاً سبيل القضاء والقدر، فالموت لا يسلم أحد من ملاقاته، فعلى المعزى التسليم بهذه الحقيقة؛ لِمَا فيها من العزاء والسّلو "على أن هذه كأس لا بدّ من شربها، وإنما تعجّل الساقي على بعض دون بعض، وهذه النُفوس جواهر شريفة، وإنّما أصدافها التي تودع في بطون الأرض"[2].

ويحـــرص الكاتب على أن يربط تلك الحادثة بما أعدّه الله للمؤمنين؛ من الجزاء الأوفى يوم القيامة، ولمّا كان ذلك المتوفّى طفلاً آل ذلك الجزاء إلى ذويه قائلاً: "ويجعله لكل منهما فرطاً وذخراً يوم بعثه ومعاده، ويربط بالصّبر الجميل على مولانا الذي عدم ثمـــرة فـــؤاده، ولا يذيقه بعدها حرقة ينشر لها الطرس ذوات سطوره، ويلبس القلم لها حداد مداده"[3].

وللصـــفديّ كذلك تعزية عزّى بها صديقاً له بوفاة والده، وقد ترسَّخت تلك السُنن المتّـــبعة فـــي كتابة التعزية؛ من الشُعور بالفزع، والتفجّع والحزن الشديد على فقد ذلك المتوفّى، سيما وإنّه كان صديقاً للكاتب، حيث يصور الكاتب الألم الذي ألمّ به، والفاجعة

(1) المصدر السابق، 130/1.
(2) المصدر نفسه، 130/1.
(3) المصدر نفسه، 130/1.

التي نالت منه: "يقبل الأرض وينهي ما عنده من الألم لهذه النازلة، والقلق لهذه الرزية التـــي جعلــت الدُّمـــوع هامية هاملة، والجزع لهذه الحادثة التي تركت الجوانح حامية، فليــت القوى لو كانت حاملة"[1]، فيجعل الكاتب من ذلك المشهد المبكي وسيلة للتخفيف عن المعزّى، فقد شاركه الكاتب أحزانه، لا بل زاد عنه في الحزن والجزع، فعندما يرى المعــزّى أنّه ليس وحده من يقع تحت وطأة تلك النازلة، يجد في ذلك سلوةً له وعزاءً، فمشاركة غيره في أحزانه تخفّف عنه ثقل تلك الرزية.

ولا يجــد الكاتــب بــدّاً من التسليم بقضاء الله وقدره، حيث الموت سنّة الله في خلقـــه، وهذه وسيلة من وسائل التخفيف عن ذوي المتوفّى، ولا يلبث في أن يعدّد مناقبه الحمــيدة التي يجد بها سلوة من أحزانه، وجزعه. ففي تعداد تلك المناقب الحميدة تسلية وتســرية للحـــزن والألـــم "فإنّا لله وإنّا إليه راجعون قول من فقد جماله، وعدم صبره واحــتماله وفجعه الدّهر بواحده الذي ما رأت عينه مثاله، رحم الله ذلك الوجه الجميل، وقدّس تلك السريرة التي كان الصّفاء لها ألزم زمره"[2].

ولا يفــوت الكاتب في مثل هذا المقام من التخفيف عن ذويه ببلوغه دار الخلود؛ لأنّ ذلك يسبب السكون لنفوس ذويه، ويسهم في عزائهم قائلاً: "وما بقي غير الأخذ في ما وقع بالسنة والصبر على فقد من أثار النّار في الفؤاد وسكن الجنّة"[3].

وقد اتّبع الكتّاب في تعزية ذوي المتوفين مواطن الاعتبار، بوصف الدُّنيا بالغدر والــتقلّب، وعــدم الثبات على الصّفاء، وإنّها متاع زائل، وعَرَضٌ حقير "والدّنيا طريق والآخرة دار ودهليزها القبر"[4].

---

(1) المصدر السابق، 104/1.

(2) المصدر نفسه، 104/1.

(3) المصدر نفسه، 104/1.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 82/9.

ومهما يكن من أمر، فإنّ أقوى الأسباب التي يتمسّك بها المعزّي، ويحرص على بثّها في تعزيته، هي التمسّك بعُرى الصبّر، حيث "كانت العرب في الجاهلية - وهم لا يــرجون ثواباً، ولا يخشون عقاباً- يتحاضّون على الصبّر، ويعرفون فضله، ويعيِّرون بالجــزع أهلــه، إيثاراً للحزم، وتزيُّناً بالحلم، وطلباً للمروءة، وفراراً من الاستكانة إلى حُســن العــزاء، حتى إن كان الرجل منهم ليفقد حميمه فلا يُعرف ذلك فيه"[1]. وكتّاب العصــر المملوكيّ يتمسّكون بهذه الخصلة في رسائلهم أيّما تمسُّك، ولا غرو في ذلك؛ فــإنّ تلك الموضوعات تعالج قضايا إنسانيّة غير مرتبطة بعصر دون غيره، فمسألة فَقْد الأحــباب مــؤلمة أحسَّ بمرارتها الأوائل والأواخر، ولذا حافظ الكتّاب على بيان أهميّة هذه الخصلة، وبيّنوا جدواها في التسرية عن المحزون، فجاء في رسالة تعزية بعث بها ابــن نباتة إلى من فقد والده: "فما بقي إلاّ التمسُّك بأسباب الصّبر، والتفويض إلى من له الأمر"[2]، ومن التعزية ذاتها في المعنى نفسه ولكن على سبيل الدعاء والتضرّع: "والله تعالى يدارك بالصّبر الجميل قلبه"[3].

وقــد قــرن الكــتّاب بين تلك الفضيلة والحصول على الأجر والثّواب، وفي هذا المعنى يقول الحلبيّ من تعزية بولد: "وينبغي له استعمال صبره، والاستبشار بمضاعفة أجره... أعظم الله أجر مولانا، ومنحه صبراً جميلاً، وأجراً جزيلاً"[4].

وتتضمّن كذلك رسالة التعزية وسيلة أُخرى من وسائل التخفيف، وهي وجود مَنْ فيه العوض، وسدّ ثغرة من فُقد، فمن التعزية ذاتها قال الحلبيّ مخفِّفاً من وقع المصيبة، مستبشــراً بوجود من يصبح قُرّة عين لوالده: "فما كان إلاّ أحد العمرين فُقد فخلفه عمر، وثاني العمرين أفل فقام مقامه هلال قدم من سفر"[5]، وفي المعنى ذاته يقول الصفديّ في

(1) المبــرّد، أبو العبّاس محمد بن يزيد (286هـ/899م): كتاب التعازي والمراثي والمواعظ والوصايا، تحقيق إبراهيم محمد حسن الجمل، نهضة مصر، (د.ت)، ص42.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 82/9.

(3) المصدر نفسه، 82/9.

(4) المصدر نفسه، 83/9.

(5) المصدر نفسه، 84/9.

تعـزية بعـث بها إلى القاضي علاء الدّين شقيق المقرّ الشّهابيّ ابن فضل الله العمريّ يعزّيه بوفاته "وما يقول الملوك في البيت الكريم إلاّ إن كان قد غاب بدره، وأفل شهابه أو غاص قطره، وتقشّع سحابه، فإنّ نيّره الأعظم باقٍ في أوجه، وبحره الزاخر متلاطم في موجه"(1).

فالنّفس البشريّة تطمح دائماً إلى المزيد والعوض، ولا يروق لها النقص؛ ولذا فإنّ في التذكير بحسن العوض عزاءً وتسلية عمّن فقدته، وقد واظب الكتّاب على تلك المسألة راجين من ذلك سلوة الحزين، وتسرية للهموم.

وهناك ملمح لافت للنّظر في تلك الرسائل، حيث تجمع بين طيّاتها - في أغلبها - المدح إلى جانب التعزية، وكأنّهم يقصدون بذلك المدح التسرية عن المعزّى، والتخفيف عـنه مـن ثِقَـل تلك النائبة. فالإنسان بطبعه يطمح إلى المدح، ويرغب فيه، ويجد في نفسـه لـه مكانة، وقد يكون ذلك المدح تزلّفاً من جانب المعزّي رجاء الحصول على مآرب خاصة، ويبدو أنّ التأويل الأول أرجح وأقرب مأخذاً. ففي تعزية الحلبيّ السالف ذكـرها قوله مادحاً المعزّى: "فإنّه إذا سلم كان السلامة والأمان، ويجعله من كل فائت عوضاً كما أصاره جوهراً، وجعل غيره من الأنام عرضاً"(2)، ففي هذا الإطراء والمدح تخفـيف وتسـلية، فالنّاس مسلوبو الأمن حال غيابه، فهو جوهرهم وحامي ذمارهـم، وبسلامته يعمّهم الأمن والطمأنينة، وهنا تهون تلك الرزية، إذ لا رزية بعد فقده، وكل ما دونه هيّن.

ورسـائل التعـزية - فـي مجملها- لا تخرج عن دوائر ثلاث، تنحصر خلالها موجات عاطفية يسطّرها الكاتب، فأولى هذه الدوائر تكمن في تصوير حالته حال سماعه الخبـر، حـيث أحـدث له ذلك النبأ حالة من الفزع والذّهول والجزع لم يستطع معها تمالـك نفسه، حيث انهلّت دموعه وانحلّت عرى صبره، وفقد صوابه، فهذا الشقّ يخصّ

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 432/1.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 85/9.

وصـــف الكاتب لبيان مشاركته المعزّى أحزانه، وتتضمّن الدائرة الثانية تصوير الفاجعة التـــي حلّت بذوي المتوفى متناولاً فيها إرشادهم إلى فضيلة الصّبر والتسليم بقضاء الله وقـــدره، مخفّفـــاً عنهم بوسائل متعدّدة، مثل حتميّة الموت، ووجود العوض فيمن بعده، وبلوغه جنان ربّه، ومدح ذويه بما يليق بهم، والتأسي بمصائب الآخرين، والدائرة الثالثة تتمثّل بختم الكاتب تلك التعزية بالدعاء للمعزّى بطول العمر، والتأييد والنصرة والتثبيت.

وعـــادة تقابـــل هـــذه التعـــزيات بأجوبة من ذوي الفقيد، يُظهر من خلالها الأثر الإيجابي الذي أحدثته في نفسه تلك الرسالة، شاكراً للمعزّي تلك العواطف والأحاسيس، وجاء في مواد البيان أن: "أجوبة التعازي يجب أن تُبنى على وقوف المعزّى على كتاب المعزّي، وأنّ إرشاده نقع غُلّته، ووعظه نفع علّته، وتبصيره سكّت أوابده، وتذكيره أخمد نـــاره، وتنبـــيهه أيقظ منه بحسن العزاء غافلاً، وهدى إلى الصبر ذاهلاً، وحسّن عنده الـــرزية بعـــد جهامـــتها، ودمّـــث نفســـه للمصيبة بعـــد فدامتهـــا، فسلّـــم لله متأدّبـــاً بأدبـــه"[1].

فتتضـــمّن رســـائل الأجوبة عن التعازي قضية مهمّة تنحصر في الأثر الإيجابي الـــذي أحدثته رسالة التعزية، فقد أفاده ذلك الوعظ، ونفّس كربه، وهدّأ روعه، فجاء من رسالة ردّاً على رسالة الصفديّ الذي بعثها إلى صديقٍ له يعزّيه بوفاة والده: "يقبّل كذا، وينهـــي ورود المـــثال الشريف، يتضمّن تعزية حُسّن لفظها، وأثّر في القلوب وعظها، وتعيّن تسطيرها في صحائف الأذكار وحفظها، فوقف المملوك على محاسنها وأحاسنها، وشـــملته مـــن مكامنها بميامنها، وتسلّى بما حوته من مفصّل الرّثاء ومجموعه، وأسال مـــن أجفانه دماً بدل دموعه"[2].

وعلـــى هـــذا المنوال تسير الأمور، رسالة في التعزية تعقبها رسالة في الجواب عنها، وكلا النوعين لا يخرجا عمّا رسم له من تقاليد.

---

(1) المصدر السابق، 98/9.

(2) الصفديّ: ألحان السواجع، 104/1.

رسائل الإهداء:

رســـائل الإهـــداء من الوسائل التي تكفل دوام الودّ بين المتهادين، وتزرع بذور المحبّة فيما بينهم، وجاء في الحديث الشريف "تهادوا تحابّوا"[1]، وقد وجد الكتّاب في هذا الـــنوع من المكاتبات ما يزيل الجفوة من النّفوس، ويحلّ مكانها الأُنس والمحبّة؛ لِمَا في تلـــك الرســـائل من الملاطفة، وتوطيد أركان العلاقة ودوامها، وقد جاء في مواد البيان منـــبّهاً على أهميتها وما يجب أن تكون عليه من صياغة وديباجة قوله: "رقاع التهادي يجـــب أن تودع من الألفاظ المستحسنة ما يمهّد لقبول الملاطفة والمبرّة التي تتميّز في المودّة، قال: وينبغي أن يُطرف الكاتب إذا كان مهدياً أو مستهدياً"[2].

ومـــن الجدير ذكره أنّ الرسائل الناتجة عن تلك الهدايا - سواء القادمة مع الهدية أو المـــبعوثة شكراً عليها - تعدّ أنفس من الهدية وأدوم حالاً، فالهدايا وأصحابها ذهبوا، وبقيت تلك الدرر الموشّاة حاملة ذكرهم وملاطفاتهم، وغالباً لم يعثر على مناسبة ترتبط بهـــا الهدية، وإن كان هناك مناسبات؛ فإنّ يدّ الدهر قد عبثت بها، ومهما يكن فإنّ تلك الرســـائل تـــنمُّ عن ذوق مرهف، ويجد الكتّاب فيها وسائل للتعبير عن أنفسهم وتصوير مـــدى صداقاتهم، وعمق علاقاتهم الأخويّة، فيجعلون من تلك الهدية مناسبة وسبباً لبثّ مشاعرهم وعواطفهم تجاه أصدقائهم، ومن تلك الرسائل ما يكون بين الزعماء، فيسطّر الكـــتّاب تلـــك الرســـائل مستعينين بقدرتهم الفائقة على حُسن التعبير، من وصف تلك الهديـــــة ومناســـبتها للمهدى إليه، ومكانتها النفيسة، ومن هذا القبيل ما جاء في رسالة كتب بها الشيخ ابن نباتة إثر هدية بعث بها صاحب ماردين إلى السلطان الملك الصالح عمـــاد الـــدّين إسماعيل بن الناصر، وهي قرين خيل، وقد أسهب ابن نباتة في وصف المـــودّة الخالصة بين المتهادين، وعمق تلك العلاقة والتأكيد على صفائها ونمائها قائلاً: "وينهـــي بعد ولاء وثناء للإخلاص شارحين، وفي الضمائر والآفاق سانحين، واشتياق

---

(1) السيوطيّ: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، (د.ت)، 518/1.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 100/9.

وعهــد كانـــا أحــقّ بالانتماء لاسمه ونعته، وكان أبواهما صالحين"[1]. وبعد سرد هذه العواطــف، وبــيان مدى تلاحمها يعدل الكاتب إلى وصف تلك الهدية مختاراً أفضل ما يناسبها من الأوصاف فــ "ما منها إلاّ من تقصر الرياح أن تسلك فجّه، والبروق أن تتبع نهجــه، ومن تودّ الثريّا أن تكون لجامه، والهلال أن يكون سرجه ومن يتمطر كالغمام، ويـركض كالسيل، ومن كملت حلاه، ولبس حُلّة الفخار، فمشى علـــى الحالتيــن فـــي الحلتــين مسـبل الــذيل، ومـــن عُقد بناصيته كل خير، وعقد له لواء الفخار على كل الخيل"[2].

وقــد تنوّعت الهدايا وتنوّعت لذلك الكتب التي تبعث معها، ولكن الكتّاب يؤكّدون أهمية هذه الهدايا في دوام الودّ والصّفاء. فالهديّة تأخذ مجراها من نفس المهدى إليه فهي تليق به، ولذا تأتي أوصافها في الرسالة أقرب إلى صفات الكمال من أبناء جنسها، فإن كانت خيلاً فإنها لا خيل تباريها رشاقة وسرعة ونشاطاً، وإن كانت جوارح فإنها "القائمة على كواسر الطير مقام الملوك الأكاسر إلاّ في حكمها وعدلها، لا جرم أنهـــا إذا دخلت آفـــاق طير أفسدتها وجعلت أعزة أهلها أذلّة، وإذا انقضّت على سرب وحشٍ جذبتها من دم الأوردة بأرســـان حيث كستها من قوادم الأجنحة أجلّه، لا يُسأل كاسرها في الطيور بـــأي ذنب قتلت، ولا يحملها جانب الطير والوحش إذا عاندته، فيا عجباً لها على أيدي البشر كيف حُملت"[3].

وإن كانـــت لحم صيد طاب مذاقه، ولذّ طعمه "وإن كان قديماً في المعنى واللحم القديــد وإن كـــان أطرى من الرّوض النضير حسناً والسمين المحبوب، وإن كان كحال عداه الذين تقدّد جسومهم في الحياة قبل الممات حزناً"[4].

---

(1) المصدر السابق، 104/9.
(2) المصدر نفسه، 105/9.
(3) المصدر نفسه، 109/9.
(4) المصدر نفسه، 115/9.

وقد تكون هذه الهدايا فواكه أو ما في معناها، وعندئذٍ يجري عليها ما يجري على مـا سـبقها من وصف ومديح، فمن جواب بوصول مشمس لؤلؤي لابن نباتة: "ووصل المشـمس الـذي شـفى لؤلؤيه نظر النّاظرين، ونوعه الآخر الدغميش الذي هو الشهد بحسـنه، ولا يـدغمش باسمه على الحاضرين، فتناول المملوك عوارف بره المعروف المبتكرواستضاء نجومه المتردّدة... وقال شكر الله هذه المنن الحلوة والثمرات المتّصلة الخطـرات، وهـذه المجانـي التـي طابـت أُصولها وفروعها، (فلا أبعدهن الله من شجرات)"*[1].

والهدايا في هذا البّاب كثيرة ولا سبيل إلى حصرها، ولكن العرف في تدبيج كتبها قد استقام سبيله، وذُلِّل صعبه، حيث درج الكتّاب على طريقة تكاد تكون واحدة، واضحة الرُّسوم، وقد قرّبتها تلك الرسوم من رسائل الديوان ذات الحدود الثابتة، ولم يبقَ إلاّ تفنن الكاتب واستطراداته وتميّز بصماته.

ومـن الجدير ذكره، أنّ رسائل الإهداء بين الزعماء نحت منحى خفيّاً قد يطول تأويلـه، والوقـوف علـى تفسيره، فأكثر ما تكون هذه الهدايا من الخيل أو الجوارح، وكلاهما له مغزاه، فالخيل رمز القوّة والسطوة، والعدّة والذخيرة، وإهداؤها يعني إقتناء المـزيد منها، فهي هدية أشبه بالتكشير عن الأنياب، فضلاً عن كونها تليق بمن أهداها وبمن أُهديت إليه، وإهداء الجوارح يشي بالغرض ذاته كون الجوارح ملوك الطير، فلا يقدر على إهدائها إلاّ من كان في مكانتها من حيث العزّة والأنفة والشُموخ.

ومـن الهـدايا ما يكون بين الأصدقاء، وعندئذٍ تظهر الرسالة مدى عمق الصّلة والمـودّة بينهم، وأثر تلك الهدية في تنقية الأجواء وصفاء النّفوس، فتكثر فيها عبارات المجـاملات والاشـتياق، ومن ذلك ما بعث به بدر الدين الغزيّ إثر هدية بعث بها إليه

---

* "إذا لم يَكنْ فيكُنْ ظلٌ ولا جَنَـى فأبْعدكُنْ اللهُ من شجـرات".
انظر الصفديّ: أعيان العصر، ج3، 133. ولم ينسبه لأحد.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 9/116-117.

الصفديّ - وهي سكر وقطر - فجاء فيها "يقبل الأرض، وينهي وصول صدقته الجارية، وهديــته التـــي جاءت بين الحسن والإحسان متهادية، وهنديته التي قام نهدها مقام ثغر الغانــية، وأشــرقت الأرض بــنور وجهها من كل ناحية، نهد أبرزه الصدر، وشهد ما تجــرّعت دون اجتناء حلاوته من إبر النحل مرارة الصبر، وهرم أكسب رونق الشّباب وجه الدّهر، ووجه طبع على دائرته ليلة تمامه البدر"(1).

فقد سجّلت في هذه الرسالة عواطف لا تشاكل ما سبقها من عواطف في الرسائل الســابقة، والسبب علّه يكمن في أنّ هذه الرسالة صادرة عن صديق، ودافعها الصداقة والمحــبّة الخالصة، كون المتهادين من الرتبة ذاتها، واللافت للنظر نضارة تلك الرسالة مــع أنّ الهديــة غايــة في البساطة والتواضع، وهذا يدلُّ على استغلال تلك الهدايا في الكشف عن عواطفهم ومدى صدق شعورهم تجاه أصدقائهم.

ومــن هذا اللون كذلك ما بعث به الصفديّ إلى أحد أصدقائه وقد أهدى إليه ثوب صــوف أزرق مــربّعاً في غاية الحُسن "يقبل الأرض وينهي ورود المرسوم الكريم - أعلاه الله تعالى- فوقف المملوك له قائماً، وقبّل شفة عنوانه اللعساء لاثماً... ووصل ما تصــدّق به مولانا ملك الأمراء أعزّ الله أنصاره من الصّوف الأزرق المربّع، يا له من مــربّع يــودّ المملوك لو وصفه بألف مخمّس، وذي لون أزرق يحسن أن يكون سماء تتبرّج فيها ﴿الجواري الكنّس﴾(2) ما أحسن لونه الأزرق لأنّ البدر أهداه وما أحكم نسجه فإنّ صانعه أتقن ما ألحمه فيه وسداه"(3).

وقد أسهب الصفديّ في وصف ذلك الثوب، مبدياً شكره وثناءه، ومنوّهاً إلى عمق الصــداقة والأثر الجميل الذي أحدثته هذه الهدية، فقد لاقت قبولاً - يصعب وصفه - من جانــب الصــفديّ، ولا أظــنّ الــثوب في ذاته يفعل بأعصاب الصفديّ وعواطفه هذه

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 219/2.

(2) سورة التكوير، آية 16.

(3) الصفديّ: أعيان العصر، 425/5-426.

الألاعـــيب، وإنما الأثر الإيجابي الذي تركه مهدي الثوب هو الأساس وهو الباعث على هـــذه المـــبالغات، فمـــثل هذه الهدايا تجلب المودّة، وتديم أواصر المحبّة، وتصفّي كدر العلاقـــات، وتنقّـــيها من الشوائب، فلا عجب أن تفعل بألباب المتاهدين هذا الفعل؛ لأنّ فعلها يكمن في شخص مهديها لا في الهدية عينها.

ويظهـــر من خلال دراسة رسائل الإهداء حميميّة العلاقة بين المتهادين إذا كانوا أصـــدقاء لا تربطهم علاقة سياسيّة أو غيرها، كرسائل الصفديّ مع أصدقائه ونظرائه، بينما نجد التصنّع في الرسائل التي تكتب عن السلاطين والأمراء كرسائل ابن نباتة عن الأمراء المتهادين، حيث ترمز تلك الهدايا إلى أُمور سياسيّة، والمهدى إليه ليس بحاجة إلـــى تلـــك الهديـــة مـــن الناحية الفعليّة، وإنما تتّخذ الهدية معنى دبلوماسياً؛ ولذا تكون العواطـــف فاتـــرة تخلـــو من الحميمة على عكس الهدايا التي تكون غاية في التواضع والبساطة مع حاجة المهدى إليه إلى تلك الهدية، ولذا تجد في نفسه قبولاً، وتعطي بذلك الأثر الإيجابي، وتشحذ همّته في التعبير عن مدى حاجته إليها، وتصوّر كرم باعثها.

رسائل الشُّكر:

تتّصـــل رسائل الشكر برسائل الإهداء، حيث تكون في أغلب الأحيان موجّهة في الإجابـــة عن الرسائل التي بعث بها قرين هدية، وقد تتجاوز ذلك إلى الاعتراف بفضل بعـــض النّاس، وجاء في الحديث النبوي "من لم يشكر النّاس لم يشكر الله"[1]، وجاء في مـــواد البيان "رقاع الشُكر يجب أن تكون مودعة من الاعتراف بأقدار المواهب، وكفاية الاســـتقلال بحقوق النِّعم والاضطّلاع بحمل الأيادي والنهوض بأعباء الصنائع ما يشحذ الهمـــم فـــي الـــزيادة منها، ويوثق المصطنع بإفاضة الصّنع، ويعرب عن كريم سجية المحسن إليه"[2].

ولا شـــكّ أنّ المعـــارف والعـــوارف كثيرة بين النّاس، وموجبات الشّكر كثيرة، والكـــتّاب يتصـــيّدون العـــبارات والألفاظ المعبّرة عن مدى امتنانهم وشكرهم، وتعميق أواصـــر الصّداقة بينهم، وقد بعث الصفديّ إلى صديق له رسالة فيها شكر على هدية، وقـــد تقدّم ذكر هذه الرسالة في مبحث الإهداء، وجاء فيها ألوان من الشّكر والاعتراف بالفضـــل والإحسان، ومدى ملامسة تلك الهدية لسويداء قلبه: "والله يوزع المملوك شكر هـــذه الصدقات التي عمّ سحابها وأغرق وروى جودها عن نافع بن الأزرق، فقد نوهت بقدره ونوّعت له أسباب جبره ويديم الله أيّام مولانا ملك الأمراء لمماليك أبوابه وغلمانه، ويغفر بإحسانها لهم ذنوب زمانهم، فإنّهم من ظلّهِ الوارف في أمانه"[3].

وقـــد تقدّم في رسائل الإهداء بيان مقدار تلك الهدايا والأثر الذي تحدثه في نفس الكاتـــب، ومن هذه الرسائل كذلك رسالة شكر بعث بها القاضي جمال الدّين أبو اسحق إبراهيم بن محمود إلى الصفديّ يشكره على رسالة تهنئة سابقة، فتحدّث ذلك الكاتب عن الأثـــر الذي تركته تلك الهدية في نفسه، ومدى الفرح الذي غمر كيانه، حيث نالت تلك

---

(1) الكاندهلوي، محمد يوسف: حياة الصحابة، ط1، 1416هـ/1995م، دار قتيبة – بيروت، ج406/3.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 183/9.

(3) الصفديّ: أعيان العصر، 426/5-427.

التهنــئة مكانــة لائقة بقلبه، فلم يجد بدّاً من تسطير أخرى اعترافاً بالجميل وشكراً على العارفــة التــي أســديت إلــيه، فجاء في تلك الرسالة: "وينهي ورود المشرف العالي المشتمــل من جواهر البديع على ما يخجل زهر اللآلئ فقبلّه المملوك حين وافاه وأجلّ محلّــه حيث يلقاه، وكلّف بمضمونه، فكلّما انتهى إلى منتهاه أعاد لثمه وابتداه... وتحقق المملــوك صدقة مولانا التي ألفها قديماً وآنفاً، ومحبّته التي لم يزل المملوك على مثلها مقيماً وبمثلها عارفاً"[1]. وقد أغدق الكاتب في وصف تلك الرسالة حيث ملكت عليه كل حواسّــه حتى عدّ تلك الرسالة صدقة بُعث بها إليه، فلولا الحاجة الماسّة إليها لما سمّاها صــدقة، فقد وجدت في نفسه مسلكاً سهلاً، وتمكّنت في قلبه وحلّت محلاً يليق بها وبمن بعــثها، واعتــرافاً مــنه بهذا الجميل كان لزوماً عليه أن يسرع في شكرها، فجاء في الرســالة ذاتهــا: "وقد تقلّد المملوك لمولانا هذا الإحسان، وهو يعتذر من التقصير عن القــيام بشكر هذه العوارف الحسان، فلو كان بين يدي مولانا لا نفتح له من المعاني كل باب واقتبس من موائده وفرائده ما ينظمه في سلك هذا الجواب، وإنما بعده عن فضائل مولانا أوجبت له الاعتراف بتقصيره، والتعويض بقليل اللفظ عن كثيره"[2].

والعــبارات التي قد سطّرت في هذه الرقعة المبنيّة على الشّكر لافتة للنّظر، فقد عدّ الكاتب تقصير بلاغته عن ذرى بلاغة الصفديّ شكراً له واعترافاً بعوارفه وفضله، وقــد أكثر الكاتب من عبارات المجاملة والثناء والشّكر، وجعل ذلك عوضاً عمّا أحدثته رســالة الصــفديّ فــي نفسه من الأثر الإيجابي، فهذه مكافئة كان جزءاً منها شعوره بالتقصــير عن شكر مهنئه، وقد عدّ تلك الرسالة جزاءً بسيطاً لقاء ما قلّده الصفديّ من المعارف الحسان، وهذه مجاملة ظاهرة، ولطافة بيّنة، وتواضع كبير قد يوصل إلى حدّ الرّقّ.

---

(1) الصفدي: ألحان السواجع، 7/1.

(2) المصدر نفسه، 7/1.

وكـــتب كذلك زين الدين بن الورديّ إلى أحد أصدقائه رسالة وقد أهداه صقرين، فكـــتب يشـــكره واصـــفاً هذين الصقرين: "وينهي وصول الصقرين، فسرّ العبد بهذين الحـــرين، اللذين تحنّ الجوارح إليهما من وجهين، ويعزّ على ابن المعتز أن يذكر لهما في تشبيهاته شبهين، فوقع الصقران من المملوك بموقع يفوق النسر"[1]، ففي هذا المقطع من الرسالة يبيّن الكاتب مدى الأثر الذي لحقه بسبب هذه الهدية، فوقعت منه موقعاً لائقاً بالقلب، فغمره السّرور والفرح والابتهاج بهذه الهدية، وشرع في وصف ذلك الصقرين قـــائلاً: "وتأمّـــل نحـــوهما فإذا هما منصوبان لبناء ما ارتفع وانخفض من الصّيد على الكســـر، مقلهمـــا حمـــر كسيوفه، وأجنحتهما مسبلة كغمائم بره على رعاياه وضيوفه، ومخالبهما كالمناجل لحصاد أعمار أعدائه وأعمار الطير، ومناقيرها كالأهله المبشّرة له ولأوليائه بكل خير"[2].

والمـــتأمّل لهـــذا الجـــزء من الرسالة يجد الكاتب يمزج بين مثاليّة الهدية ومدح المهـــدي، فآخى بين صفات المثال لهذين الصقرين وكرم وشجاعة ذلك الصّديق، وهذا اللـــون من المدح لا تكاد تخلو منه رسالة إخوانيّة، حيث تبنى تلك الرسائل على عنصر ثابت يتمثّل في عنصر المدح. فالباعث لهذين الصقرين شجاع في مواطن الإقدام، كريم فـــي مواضـــع السّخاء، ورع في مواقع الرأفة والرحمة، جبّارٌ على أعدائه، تبشّر طلعة وجهـــه بكل سعد وخير، وهذه مجاملة يعدّها الكاتب كما سلف جزءاً من شكره، ومكافأة له جرّاء تلك الهدية.

ومـــن رســـائل الشّـــكر ما بعث بها شهاب الدين بن النقيب أحمد بن بلبان إلى الصفديّ يشكره فيها على رسالة في الشوق وتقصّي أخباره، فجاء في هذه الرسالة "فأمّا مـــا تصدّق به من وصف أشواقه ومكارمه إلى غير ذلك فقد شكر المملوك لمولانا هذه العوارف، وذم أياماً ضاع المملوك فيها زهر الأداب من غرس ظلّه الوارف، وندم حيث

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص118.

(2) المصدر نفسه، ص118.

لا يـنفعه الـندم على ما فرط في جانب تلك المعارف"[1]، فابن النقيب أسهب في شكر الصـفديّ، وبيان عوارفه التي طوّقت عنقه؛ فلذا عدّ الأيّام التي لم يكن اجتمع بها معه ضائعة من عمره بلا طائل، وخسر فيها التمتع بفوائده وفرائده، وندم على التفريط بهذه السّـاعات، وهذا ما سبق الحديث عنه من تواضع ورقّ وشعور بالتقصير واعتبار ذلك جـزءاً من الشّكر والاعتراف بالجميل، وجالباً للصداقة ومنقياً الأجواء من كل شحناء، ومدحاً يسهم في ردّ الجميل والعوارف الحسان.

والنّاظـر فـي تلـك الرسائل يجدها تفيض بالمبالغات والمجاملات التي تتجاوز عـباراتها قيمة موضوعاتها، حتى أصبحت هذه الخصلة سمة يوسم بهذا هذا اللون من الرسـائل بل تتعدّى ذلك إلى الرسائل الإخوانيّة عامّة، وقد يكون الغرض منها الإفصاح عمّـا في نفس الكاتب من الكشف عن بيانه وامتطائه لصهوة الكتابة، وربّما فرض تلك الخصـلة الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة حيث لا يولّى منصباً كتابياً أو ديوانياً إلاّ من امـتحن فـي سـلامة قـريحته، فـتكون هـذه السياسة دافعاً لهم على كثرة المبالغات والمجاملات.

ومهمـا تعدّدت رسائل الشكر وتباينت مناسباتها - حيث لا بُدّ لرسالة الشكر من مناسـبة إلاّ أنّ الكـتّاب يغرقون في أمواج من عبارات الشكر والثناء كما سلف، فهي تتناول محاور معينة اتّخذتها إطاراً ملازماً على اختلاف مناسباتها وموضوعاتها، فتبدأ عـادة بالحـديث عن أثر تلك النعمة التي أُسديت إليه، ومبلغ تلك الصداقة وتمكّنها من فـؤاده، ثـمّ يتبع ذلك بوصف تلك الهدية بالأوصاف التي تليق بها وبمن أرسلها، وإن كانـت غير هدية أفصح عن عميق مشاعره تجاه باعثها ووصفها بالوصف اللائق بها، والأمـر الآخـر يتمثّل في مدح مرسلها والاعتراف بفضله الذي طوّق الأعناق وجعله أسيراً لعوارف باعثها، ومعتذراً عن تقصيره البيّن في حقّ ممدوحه، ويختم بالدعاء على ما يستحقّه من شكر وثناء.

---

(1) الصفديّ: ألحان السواجع، 10/1.

عوائد إحسانه، ولمح أشرف المعاني بإنسانه، وربح إذا بدا بفصل خطابه، وفضل بنانه، أبـــى الله إلاّ أن يكون له الفضل في ابتدائه، والفوز بسبق تحيّته وإنشائه، فقبله المملوك تقبـــيلاً، وفضّـــه فإذا البيان جاء معه كلّه قبيلاً، ورأى أدباً غضّاً، ونظماً ونثراً فاقا من سلف عصره وتقضّى"[1].

والنّاظـــر في رقعة ابن البارنباري يدرك المنحى الذي هدف إليه، فهو يريد مدح صديقه والإشادة به، فلم يجد بدّاً من التنويه بفضل فصل خطابه، وحُسن بيانه، وفصاحة ألفاظـــه، فهو صاحب الأدب الغضّ النديّ المتنوّع، فقد فاق السّلف في نظمه ونثره فلم يدانـــيه معاصروه في هذه الفضيلة، وهذه مجاملات يسعى الكتّاب من ورائها إلى بلوغ الشهرة وذيوع الصّيت.

وقد أكثر الصفديّ من مدح الأديب ابن سيّد النّاس اليعمريّ (734هـ/1333م)، وبالـــغ في ثنائه والإشادة به، فقد جاء من رسالة قوله "فأعود إلى وصفه نثراً، وأستعير مـــن كلماته في تقريضه درّاً، فأقول: إنّه اشتمل على المحاسن وغدا إنموذج الجنّة التي خمرها مغتال، وماؤها غير آسن، تقطر البلاغة من كلمه، وتشفّ الفصاحة من وراء ما سـطّر بقلمه، وتغني رياضه الناضرة عن أراك الحمى وعن سلمه، ويهزّ الواقف على معانيه بالطّرب من قرنه إلى قدمه، يتحيّر النّاظر فيه لتردّده بين روض وأُفق، ويتخيّر الماهر من لفظه تاجاً لفرقٍ أو قلادة لعنق"[2].

وقد أظهر الصفديّ ألواناً من المدح في هذه الرقعة، فقد مدح شخصه مثنياً بأدبه، وقد اعتمد في مدحه ضروباً من فنون البلاغة والبيان، وقد يكون من اللافت للنّظر كثرة حديـــثه عـــن البلاغة والبيان والفصاحة، وربّما تعلّل هذه الظاهرة برغبتهم في الشهرة وخاصـــة في الأوساط الأدبيّة. فالبضاعة التي يروّجون لها ويرجون رواجها تتمثّل في فنّ الأدب: نظماً ونثراً؛ ولذا تدبّج معظم رسائلهم بالأشعار إلى جانب النثر.

---

(1) المصدر السابق، 174/5.

(2) المصدر نفسه، 226/5.

وقــد قابــل ابن سيد النّاس اليعمريّ هذه الرسالة بالسُّرور والنشوة، فكشفت عن جانــب من بلاغته، ولاقت هوىً في نفسه، فأفصح عن رغبته في إثبات ذلك المدح من خــلال مدح الصفديّ، معبِّراً عن تلك الخصال بتسطير رسالة في الموضوع ذّاته، مبدياً فيها صنوفاً من ألوان المدح، ومظهراً تفوّق ممدوحه عليه قائلاً: "وهل استولى على أمد تلــك الجواد غير ذلك الجواد، وأن يكاثر البحار الزواخر من ورده الثماد، وأن يطاول الأنجـــم الزواهـــر مـــن قرارته الوهاد، فما تفوّه السليم الصّدق إلاّ بالتسليم لذلك السبق والتعظيم لذلك الحقّ، اعترافاً بما قد حواه رافع ذلك المنار، وجامع تلك المبار"[1].

والنّاظر في مثل هذه الرسائل يجدُ إظهار التقصير والعجز أمام بلاغة الممدوح، فــابن سيّد النّاس يجعل من الصفديّ بحراً زاخراً، مصوّراً نفسه أمامه ماءً ثُماداً، وهذه غاية في التواضع بل مبالغة كبيرة في التواضع، وممّا يثير الدهشة أنّ هذا المدح الرائق يصدر عن شيخ الصفديّ ومجيزه[2].

وجاء له من رسالة أُخرى في الغرض ذاته مادحاً الصفدي، ومركِّزاً مدحه على عنصــر البــيان والفصـــاحة والبلاغة قوله: "وردت المشرفة السامية بحلاها، الزاهية بعلاهـــا، المشـــتملة على الأبيات الأبيّات، الصادرة عن السجيّات السخيّات، التي فاقت الكنديين، وطوت ذكر الطائيين... تقف الفصاحة عندها، وتقفو البلاغة حدّها فالله* ذلك الفضل الوافي! بل السّحر الحلال الشافي"[3].

وقــد طالت المساجلات بينهما في هذا الغرض، وقد كشف كلّ منهما عن قدرته في تسطير عبارات المدح التي تنمّ عن ذوق مرهف وامتلاك زمام البلاغة، ونختم تلك

---

(1) المصدر السابق، 230/5.
(2) انظر المصدر نفسه، 210/5.
* الصواب فلله وأثبت ما في الأصل.
(3) المصدر نفسه، 236/5.

المساجلات بقول الصفديّ: "وقد قيل: بُدئ الشعر بأمير وختم بأمير يريدون امرأ القيس وأبا فراس، وكذا أقول بُدئ بالبستي وختم بمولانا"(1).

ومن الجدير ذكره أنّ الكتّاب المماليك قد تحوّلوا بغرض المدح من فنّ الشعر إلى فـنّ النثر، وأصبحت الرسائل الفنيّة قطعاً موشاة بألوان المدح، وقد ربطوا بين غرض المـدح والمبنـى الذي يشكّل جسداً لتلك الرُوح، فجاءت رسائل المدح تغصُ بضروبٍ مـن أساليب البلاغة والبيان؛ لتناسب المدح المنصبّ على عنصر الفصاحة وما شاكله لدى الممدوح.

وقد تبادل الكتّاب هذا الغرض بقصد كسب المودّة ودوام الصّداقة؛ لِمَا في النّفس مـن ولعٍ بالمدح والثّناء، ويقود هذا المدح إلى مآربَ يطمح الكتّاب إلى تحصيلها، مثل: الشهرة وذيوع الصّيت؛ لتسهم هذه السمعة في تولّيهم المناصب الكتابيّة والديوانيّة.

رسائل الهجاء:

رسـائل الهجاء والذّم من الرسائل التي تكشف عن مدى طبيعة علاقات المجتمع واحتكاك أطيافه، حيث تفضي تلك الرسائل إلى الكشف عن مدى اندغام وجهات النّظر واخـتلافها، وتظهـر كـذلك الوجه الآخر لصورة المجتمع، فاختلاط الطبقات وتداخل علاقات النّاس وتعارض ميولهم ورغباتهم تولّد بعض الأمراض الاجتماعيّة، وخاصّة ما يُثيـر الهجـاء والذّم، وهذا الهجاء دليلٌ على صحّة علاقات المجتمع حيث لا يمكن أن يتصـوّر مجتمع تسوده علاقات المودّة والصّفاء دون شوائب تكدّر صفوه، فوجود مثل هذا اللون من الرسائل -أعني الهجاء- يدلّ على واقعيّة الأدب وصدقه الفنيّ.

وقـد تـوزّعت رسـائل الهجاء بين ذمّ أخلاق النّاس والبلاد، فمن الرسائل التي تـناولت هجـاء الأشخاص، وبيان فساد أخلاقهم، وحطّت منزلتهم تلك الرسالة المسمّاة "الحـرقة للخـرقة" لابـن الورديّ يهجو فيها القاضي الرياحي فجاء من تلك الرسالة:

---

(1) المصدر السابق، 241/5.

"اعلمــوا يــا ولاة الأمر، ويا ذوي الكرم الغمر ـ أبقاكم الله بمصر للأمّة، ووفقكم لدفع الأصـــر وبراءة الذمّة– إنّ حلب قد نزعت للزبدة ووقعت من ولاية التّاجر الرياحيّ في خسر وشدّة، بجرأته التي طمّت وطمت، وعاميته التي غمّت وغمت، وفتنته التي بلغت الفــراقد وأســهرت ألــف راقــد، ووقاحته التي أدهشت الألباب، وأخافت النطف في الأصلاب"[1].

ومــن الواضــح أنّ تلك الرسالة تتناول موضوع الشكوى من ذلك القاضي الذي تولّــى قضــاء حلب، ولكن الرسالة أخذت تفصح عن مساوئه وعيوبه، فقد عدل كاتب الرســالة عــن موضــوع الشكوى إلى النيل من شخصه؛ ولذا عدّت هذه الرسالة من موضــوعات الهجاء والذمّ، فقد بيّن فساد سياسته في القضاء قائلاً: "فكم لطخ من زاهد، وكم أسقط من شاهد، وكم أرعب بريّاً، وكم قرّب جريّاً، وكم سعى في تكفير سليم، وكم عاقب بعذاب أليم"[2].

وقد أسهب ابن الورديّ في تعداد عيوبه ومثالبه التي لا تكاد أن تتصوّر في قاضٍ بــل مســلم، فقد "كابر وتأوّل، واعتمد على الفجور وعوّل، وزاد في المدافعة، وخوف بالشرّ والمرافقة، وأطلق لسانه في الأعيان ولم يقيّد، وقلّب رأساً لم يكن رأس سيّد"[3].

ولقد أكثر ابن الورديّ في سرد مثالبه التي فاقت العقول وتجاوزت الحدود، حتى جعلــت أبــناء مذهبه يضجُّون منه، ويخافون سوء عاقبته على مذهبهم فقال: "ولمّا بلغ المالكــيّة بدمشــق هــذه الواقعة المستعظمة أصغروا قدره عنها، وقالوا "كبرت كلمة" واســتحلّوا سبّه وشتمه، واستقلّوا عقله وعلمه، وكتبوا إليه يا مغلوب لقد بغّضت مذهب مالك إلى القلوب"[4].

---

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص155.

(2) المصدر نفسه، ص155.

(3) المصدر نفسه، ص157.

(4) المصدر نفسه، ص157.

وقد نعته الكاتب بعدّة نعوت حطّت من قدره قاضياً، حيث وصفه بالجور والجهل وغشّ الرعيّة، وأكل أموال المسلمين إلى غير ذلك من أُمور تشين سمعته وتصمه بالعار، وبعد ذلك انتقل الكاتب من هجائه الذي يخصّ أمر قضائه إلى ذمّه الشخصي الذي يفضي بالتّالي إلى تآزر هذه المساوئ وتعزيزها، فقد بدأ بهجاء أخلاقه وفجوره وظلمه واستحلاله لأموال النّاس قائلاً: "لا يحمد أحمد ولا الشافعي ولا يرفع منار الرافعيّ، قراد لا يلفظ إلاّ دم الأوراك، وجراد لا يسقط إلاّ على أموال الأتراك، إذا وقع عنده عالم فقد وقع بين مخالب الأُسود وأنياب الأفاعي السُّود"[1].

وبالغ الكاتب في ذمّه، وبيان فساد عقيدته، وخيانته لأمانته فهو "عارٌ على الدّين عدّة للمعتدين، سيئ الصنائع ذخيرة سوء في الودائع"[2]، وقد وصمه بالجهل وقلّة العلم "فغاية علمه إطالة السكوت"[3]، فسكوته ناجم عن جهله لا عن رزانته ووقاره، فما يحبسه عن الكلام إلاّ جهله عن الإفصاح "فسكتاته غير متناهية... يجهل حتى أسماء الكتب))[4]، فجهله كما صوّره الكاتب عام وشامل في كل المعارف وقاده ذلك الجهل إلى إساءة معاملة النّاس وخاصة العلماء، ولذا نال من أهل الدّين "يقصد بذلك أهل الدّين والقرّاء المجوّدين، نسي جلوسه في السوق..."[5].

ومن اللافت للنّظر نعته بالرشوة "ويدَّعي العفّة من البراطيل، فليته تناول الحطام وتعفّف عن أعراض الأنام"[6]، وعاد ابن الورديّ إلى إظهار عيوبه الخَلْقية التي آزرت مثالبه الخُلُقية، فهو ألثغ "راؤه غين، ومنطقه شين، إذا سبّح الربَّ ما تدري أسبَّح أم سبَّ؟"[7].

---

(1) المصدر السابق، ص162.
(2) المصدر نفسه، ص163.
(3) المصدر نفسه، ص163.
(4) المصدر نفسه، ص163.
(5) المصدر نفسه، ص170.
(6) المصدر نفسه، ص171.
(7) المصدر نفسه، ص171.

والرسالة تلك طويلة تجمع الكثير من عبارات الشتم والذمّ لذلك القاضي الذي يحمل حقداً ولؤماً وجرأة على حقوق النّاس كما يدّعي الكاتب، ممّا جعل ابن الورديّ يصمه بالوقاحة وقلّة الحياء على الرغم من اعتذاره عن تلك الشتائم في بداية الرسالة حيث صرّح قائلاً: "وهذه رسالة أخلصت فيها النيّة، وقصدت بها النصيحة للرعاة والرعيّة، أودعتها من جوهر فكري كل ثمين، وناديت بها على هزيل ظلم أبناء جنسي مناداة اللحم السّمين، لكن جنّبتها فحش القول إذ لست من أهله، وخلّدتها في ديوان الدهر شاهدة على المسيء بفعله، ورجوت بها الثواب، وتحرّيت فيها الصدق والصّواب"(1).

ولا أرى الكاتب قد تجنّب فحش القول كما ادّعى، حيث جاء في الرسالة من هذا القبيل الجمّ الغفير "مغربي الأخلاق، مذموم على الإطلاق"(2) إلى آخر ما تعني كلمة مغربي من معانٍ وتعميم يشين ابن الورديّ قبل أهل المغرب، وكذلك "قراد لا يلفظ إلاّ دمّ الأوراك"(3)، وكذلك "جاهل بجميع العلوم"(4)، "يعامل النّاس بأخلاق المغاربة"(5)، "إنّ هذا القرد الظّالم حوله من المغاربة غير سالم"(6)، وقد أكثر ابن الورديّ من الهجوم على أهل المغرب، وهذا يقود إلى القول بتجذّر العصبية بين أهل المشرق والمغرب في ذلك الوقت.

ومهما يكن، فإنّ ابن الورديّ قد صبّ جامّ غضبه، وحدّة لسانه على ذلك القاضي، فكان هجومه عليه كاسراً، ومنطقه شائناً، وقد تعدّى ذلك القاضي إلى أهل المغرب عامة.

ومن رسائل الهجاء كذلك ما كان في ذمّ البلاد، ويمثّل هذا النوع من الرسائل ما بعث به زكي الدّين الحسين إلى أخيه سنة (762هـ/1360م) يتشوّق إلى دمشق ويذمّ

---

(1) المصدر السابق، ص155.
(2) المصدر نفسه، ص163.
(3) المصدر نفسه، ص162.
(4) المصدر نفسه، ص164.
(5) المصدر نفسه، ص165.
(6) المصدر نفسه، ص173.

مصر، وقد أكثر كاتب الرسالة من ذمّ تلك البلاد، وجرّدها من كل حسنة، مصوّراً شدّة غربته، وطول عذابه، مقابلاً بتلك الصورة صورة نعيم دمشق وأُنسها قائلاً: "فيكف يبقى لمــن حلّ في جنّة النعيم ورياضها، ويرتع في ميادين المسرّات وغياضها تلفّت إلى من ســمّته يــد الأقــدار إلى أرضٍ ليست بذات قرار، وبدّلوا بجنّتهم ذات البان المتفاوح، والورق المتصادح، والنشر المتقارح، والماء الطلق المسلسل، والنسيم الصحيح العليــل ﴿جَنَّتَيْن ذَوَاتِي أُكُل خمط وأثلٍ وشيء مِن سِدْرٍ قَلِيل﴾*"[1].

وأخذ الكاتب يقابل بين صورة دمشق الجميلة في ذهنه بصورة مصر التي تسبّبت فــي معاناته. فصورة دمشق كما تقدّم ذات بان متفاوح وورق متصادح ونشر متقادح، وماءٍ عذب مسلسل ونسيم عليل، بينما تبرز صورة مصر "بشموسها وحميمها، وغمومها وحَــزَنها وســهولها ووعــورها، وحــرورها وزفيرها، وسعيرها وكيمانها** ونيرانها وســودانها وفلاحــيها وملاّحــيها، ومشــاربها ومساربها ومسالكها ومهالكها، وحدّائها وعصفورها... وتعكّر مائها وتكدّر هوائها..."[2].

وقــد أحصــى ذلك الكاتب مثالب كثيرة، ووصم بها ذلك البلد، فقد أظهر مصر بأقبح صورة، فلا يصلح فيها شيءٌ للحياة الهنيئة، حتّى أنّه جعل سكناها مشاكلاً لسكنى الــنّار عندما قال: "ولو تراهم في أرجائها كالأباعر الهمّل، وهم يصطرخون فيها ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كُنَّا نعمل﴾*"[3].

---

* سورة سبأ، آية 16.

(1) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط المقريزية والآثار، ج368/1.

** كوّم الشيء جمعه ورفعه000 وكوّمت كومة بالضم إذا جمعت قطعة من تراب ورفعت رأسها. والكومة تراب مجتمع طوله في السماء ذراعان وثلث، ويكون من الحجارة والرمل. انظر ابن منظور: لسان العرب، مادة كوم.

(2) المقريزي: المواعظ والاعتبار، 368/I.

* سورة فاطر، آية 37.

(3) المقريزي: المواعظ والاعتبار، 368/I.

وقـد حشد الكاتب في تلك الرسالة كثيراً من آي الذكر الحكيم التي تصف مشاهد العذاب والشؤم؛ ليجعل من تلك الصورة التي رسمها لمصر منظراً مروّعاً، وطارداً لمن يزورها أو يسكنها.

ومـن الطريف في هذا المقام ذكر تلك الرسالة التي أنشأها محيي الدين بن عبد الظاهـر فـي التعريض بالوطواط** على سبيل السخرية والهجاء، فأنشأ تقليداً لشخص يعـرف بـابن غراب يعرّض فيه بالوطواط، وممّا جاء في ذلك التقليد "وإنّا فكّرنا في بعـض ذوات الأجنحة خبيث حقير السِّمات، أسود الوجه والقفا والصّفات، لا يألف إلاّ قـبور الأمـوات، ولا يسعى إلاّ في الظلم والظلمات، ذو أذن ناتئة، وما هذه الصّفة من صـفات الطيور، وإنّه يولد والطير لا يُعرف منها إلاّ أنها تحضن بيضها في أعشاشها والوكور، وإنّه لا يقع في الشباك ولا في الفخوخ... ولا يسمع منه هديل ولا هدير، ولا يصـير مسـرور حيث يصير... مشؤوم الطلعة، مذموم النجعة، مرجوم البقعة، سيئ الجوار، قبيح الآثار، مؤذن بخراب الديار..."[1].

وقـد أغرق محيي الدّين في نعته، وأوغل في وصفه، فألزمه كل صفات القبح، حيث رسم له صورة قاتمة مجبولة بالخداع والخبث وسوء النيّة؛ ممّا لا يحتمل أن تكون صـفة لـذلك الطائـر، ويمكن القول إنّ المنافسة بين هذين الكاتبين قادت إلى مثل هذه المنازلة، فالرسالة أكبر من أن يُقال مداعبة أو ملاطفة.

والتعـريض بالكاتب الوطواط واضح حيث يقول محيي الدّين في الرسالة ذاتها: "ويتجاوز فيه ذلك كل سمي بهذا الاسم المشؤوم إذ لكل امرئ من نعته نصيب"[2].

** جمـال الدين محمد بن إبراهيم الكتبي المعروف بالوطواط (718هـ/1318م)، كان من الأدباء، وبينه وبين القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر بعض الوقائع، فكان يكرهه ويغض منه. انظر المصدر نفسه، 4/201-204.

(1) الصفدي: أعيان العصر، 4/206.

(2) المصدر نفسه، 4/207.

ومهمـــا يكـــن، فإنّ تلك الرسالة تنمّ عن خيال خصب، وفكرٍ عميق وأدب رفيع، ففـــيها عبّـــر محيي الدّين عن سخطه على ذلك الكاتب دون أن يذكر اسمه مباشرة، بل اكتفـــى بالتورية عنه من خلال ذلك الطائر مستغلاً لقبه في ذلك، ولا يمكن أن نعدّ تلك الرســـالة مـــن موجبات المودّة والصداقة بين الكاتبين، بل تفضي إلى الكراهية السائدة بينهما، والحط من قدر الوطواط لمنافسته لمحي الدّين. والمنافسة بين الكتّاب من الأُمور المستحكمة بين العلماء في كل عصر.

وتمـــثّل رقع الهجاء بشكل عام لوناً من ألوان الأدب الواقعي، حيث لا يمكن أن تخلو العلاقات الإنسانية من شائنة تشينها، أو أمر مكدّر يكدرها، فالهجاء والذم يسيران جنباً إلى جنب ورسائل المدح والشكر والثناء.

ويتركّز الذمّ والهجاء في تلك الرسائل على صفات المهجو الخُلقيّة والخَلقيّة، وما يـــنجم عنهما من سوء أفعال وأعمال، ولكنّ الذمّ الموجع الذي يجعله الكاتب في الجانب الخُلقي من غدر وفجور وحقارة ودناءة... إلخ من هذه الخصال.

رسائل الشفاعات والعنايات:

اشـــتهرت رسائل الشفاعات والعنايات في الأوساط الأدبيّة في العصر المملوكي بســـبب العلاقـــات المـــتداخلة بـــين الكتّاب من جهة، وذوي الأمر والنهي في السلطة المملوكـــيّة مـــن جهة أُخرى، حيث استغلّت هذه العلاقة واستفاد الكتّاب من مكانتهم في طلب الشفاعة والعناية لأصدقائهم من تلك السلطات، فهذه الرسائل "إنّما تصدر عن ذوي الـــرُّتب والأخطـــار، والمنازل والأقدار الذين يتوسّل بجاههم إلى نيل المطلوب ودرك الرغائب"[1].

وتكـــون الشفاعات عادة في أُمور ثلاثة تنحصر في: المال، أو الجاه، أو العفو، وكل هذه تحتاج إلى سخاء ومروءة وحلم وتسامح؛ ولذا لا يبذل ماله إلاّ سخيّ، ولا يبذل جاهـــه إلاّ ذو مـــروءة، ولا يستنزل عن سخيمة إلاّ من كفَّ حدَّ غضبه، وغضّ طرف حنقه[2].

وقـــد ســـلك الكتّاب في هذه الرسائل مسالكَ تكاد تتطابق في تلك الشفاعات، ففي شـــفاعة للشيخ الشهاب الحلبيّ في استخدام كاتب درج*، أكثر الحلبيّ في مدح مستشفعه حتـــى كـــادت أن تكون تلك الرسالة مخصّصة للمدح، فجاء فيها: "صدرت هذه الخدمة تســـتمطر ســـحاب كرمه، وهامي ديمه، وتسأل جميل شيمه، في معنى مملوك المولى وداعـــيه والشـــاكر لأياديه، والملازم على رواية أخبار فضائله وبثّها، ونشر تفضّلاته وبثّها، فإنّه كريم النجار زائد الفخار، وله على مولانا حق خدمة"[3]، فقد بالغ الكاتب في الثـــناء علـــيه، ونشر خصاله الطيّبة فهو "من بيت كريم النجار، زائد الفخار، وله على

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 124/9.

(2) انظر المصدر نفسه، 124/9.

* كـــتّاب الـــدرج: هم الذين يكتبون ما يوقّع به كاتب السرّ أو كتّاب الدست أو إشارة النائب أو الوزير000 من المكاتبات والتقاليد والتواقـــيع والمراســـيم والمناشـــير000 وسُمُّوا بكتّاب الدّرج لكتابتهم في دروج الورق وهو الورق المستطيل المركّب من عدّة أوصال. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 138/1.

(3) المصدر نفسه، 134/9.

مـــولانا حقّ خدمة، وهو يمتُ بسابق معرفة، ومحبة الملوك له شديدة، والصحبة بينهما قديمة، وشقة المودّة جديدة"[1].

وقد جعل الكاتب تلك الخصال شفيعاً لذلك الطالب للوظيفة عند مولاه، فلهج لسانه بمدحه وشكره، ومداومة الثناء عليه وطول صحبته، ودوام صداقته مكّنته من طلب تلك الخدمة "ولولا ذلك ما ثقّل على خدمته، وتهجّم على المولى بمكاتبته، وقد توجّه إلى بابه العالي مهاجراً، وناداه لسان جوده فلبّاه، وأجابه مبادراً"[2].

والكاتـــب فـــي هذه الشفاعات يتعمّد صنع ألفاظ الملاطفة وذكر ما يوجب حفظ الـــوداد، وزرع الـــثّقة، واســـتماحة الحوائج، وبيان فضل مانح الشفاعة وكريم أخلاقه وســـماحته، ويثنـــي كذلك على طالب الشفاعة، حيث يستحقّ أن يبلغ تلك الخدمة التي يرمـــي إلـــيها، وبعد أن ينهي الكاتب من ذِكر خصال مانح الشفاعة وطالبها يفضي إلى تســـمية تلـــك الخدمـــة وتعيينها، ولكنه يتوخّى اختيار العبارات التي تنمُّ عن الاعتراف بالجميل، وحفظ الصداقات "وغرضه أن يكون كاتباً بين يديه، ومملوكاً تقع عين العناية عليه"[3].

ويســـهب الكاتـــب فـــي بيان خصال طالب الشفاعة، وبروزه في فنّ الكتابة وبزّ أقرانه، مطمئناً المشفِّع "وهو من الكرام الكاتبين والراغبين في الانتظام في سلك الخدمة والمؤثرين، وصفاته بالجميل موصوفة، وفصاحته معروفة، وقلمه ظفر المهمات، ويكفُّ كف الحدثان"[4].

ويعـــود الكاتـــب إلـــى الثناء على المشفِّع وشكره طالباً شفاعته، ومتوسّلاً إليه، راجـــيـــاً قـــبول تلـــك الشفاعة في تلبية حاجته، ففي قبول تلك الشفاعة حفظ لماء وجه

---

(1) المصدر السابق، 134/9.

(2) المصدر نفسه، 134/9.

(3) المصدر نفسه، 134/9.

(4) المصدر نفسه، 134/9-135.

الكاتب، وتحقيق بل تأكيد لكريم أخلاق المشفِّع "فإذا أنعم المولى باستخدامه، وتحقيق مرامه، كان قد وضع الشيء في محله، وصنع المعروف مع أهله، وبيَّض وجه المملوك وشفاعته وصدق الأمل في إحسانه ومروءته"[1].

ومن خلال دراسة رسائل الشفاعات يتعيّن من خلالها عدّة محاور أساسيّة تُبنى عليها تلك الرسائل، فالمحور الأول يتمثّل في ذكر خصال المشفِّع الكريمة والسخيّة، فهو صاحب مروءة، وحلم وسخاء، ويتعيّن على الكاتب ذكر تلك الخصال في معرض حديثه، مستعيناً بالملاطفة والموادعة، مع إبداء شيءٍ من التوسُّل والتضرُّع، حيث لا بدّ من بيان قدر ذلك المسؤول، وحاجة النّاس إليه لاستماحته، وطلب شفاعته، فمن شفاعة للحلبيّ في استخدام جندي جاء قوله في مدح المشفِّع "لا زال برّه مطلوباً، وجوده مخطوباً، وذكر إحسانه في الملأ الأعلى مكتوباً، ولا برحت رياض جوده أزهر وأنضر من روض الربا، ويده البيضاء ترقم له في سواد القلوب سطور حمد أحسن من نَوْر تفتحه الصَّبا"[2].

فالكاتب أثنى فبالغ في ثنائه، حيث أغدق كثيراً من صفات الكرم والجود والطيب والإحسان على مشفِّعه، حتى نال مرتبة عالية، وبلغ مكانة مرموقة في قلبه وقلوب النّاس، وقد تكرّر هذا اللون من الثناء في رسالة شفاعة في ردِّ معزول إلى ولايته، حيث جاء فيها "وينهي ملازمته على شكر مواهبه، ونشر فضائله الجسيمة ومناقبه، وحمده كريم شيمه"[3]، فالمشفِّع ذو فضائل جسيمة، ومناقب حميدة، ومواهب متعدّدة، وأخلاقه كريمة، ويتمثّل هذا المحور في كل رسالة شفاعة، حيث لا بدَّ من الإطراء، واللهج بالثناء والشكر، وبيان مناقب الكرم والجود، والسّخاء والعفو والحلم، ورجاحة العقل

---

(1) المصدر السابق، 135/9.

(2) المصدر نفسه، 135/9.

(3) المصدر نفسه، 136/9.

والإيثار، والتجاوز عن الهفوات، والصفح عن المذنب، ويدرج الكاتب هذه الخصال في جوٍّ من الملاطفة والاستماحة والتوسُّل الخفيّ الذي فيه شيء من إراقة ماء الوجه.

ويأتي بعد ذلك المحور الثاني والمتمثّل في الطرف الثاني وهو المشفَّع فيه، حيث يلهج الكاتب في ذكر خصاله من حفظه للودّ، وموجبات الحقوق، ومداومة شكره، والمحافظة على حفظ الجميل، فجاء من رسالة شفاعة في خلاص مسجون قول الكاتب: "وقد اشتهر ما يعامل به من الإكرام، وأن قسمه من العناية أوفر الأقسام وكان يعدّ من جملة العبيد، فأصبح مضافاً إلى الإلزام، وهذا ما يوجب على المملوك أن يبتهل إلى الله في تخليد دولته ويتضرّع"[1]، فالمشفَّع فيه لا يكلّ ولا يتوقّف عن ذكر محامد مشفِّعه حتى ينال عفوه وشفاعته.

وهناك محور ثالث يتمثّل في ذكر نوع الشفاعة، ويأتي مشفوعاً بألفاظ وعبارات تتموّج بألوان من التوسّل والضراعة، وطلب الرحمة والرأفة جلباً للعفو والاستماحة والاسترحام، حيث تُعدُّ هذه الرسائل مبنيّة على عنصر الاسترحام والاستعطاف، فمن رسالة الشفاعة السابقة قول الحلبيّ: "فإنّه قد طالت مدّة حبسه"[2]، ومن رسالة أُخرى في ردّ معزول "وقد تشفّع بالمملوك ومكاتبته في ملاحظة المولى له بعين عنايته، والتقدّم بردّه إلى جهة ولايته"[3]، وفي خلاص حقٍّ "وقد تعلّق أمله في خلاص حقّه بالمولى"[4]، ومن شفاعة في طلب وظيفة لابن نباتة: "وأنّ بيده وظيفة شهادة بيت لحم بتواقيع شريفة نظرت في حاله، ونشرت حال عياله وأطفاله"[5].

ويتوخّى الكتّاب عند ذكر تلك الحوائج اصطياد عبارات الترحّم والاستعطاف؛ لينالوا بذلك شفاعة المشفِّع، وتبييض وجوههم مع مشفّعيهم.

(1) المصدر السابق، 137/9
(2) المصدر نفسه، 137/9.
(3) المصدر نفسه، 136/9.
(4) المصدر نفسه، 138/9.
(5) المصدر نفسه، 138/9.

وهـــناك محـــور رابع يخصّ الكاتب وحده، حيث يضع نفسه في موضع يتنازل فيـــه عن شيء من كرامته، يجعله ثمناً لخدمة المحتاج للعون؛ ولذا يحرص الكتّاب على قـــبول تلك الشفاعات ليحتفظوا بماء وجوههم، فمن هذا القبيل قول الحلبي: "فلهذا توسّل بشـــفع وتر الشفاعة، وتوصّل إلى إزالة ضرع حاله بكثرة الضراعة، فإذا أنعم المولى بقبول شفاعة المملوك فيه، وحقّق له من العناية ما يؤمله ويرتجيه"[1].

ومـــن شـــفاعة لابن نباتة جاء قوله في المعنى ذاته: "والمملوك يسأل من إحسان مولانا ملاحظة المذكورين بعين عنايته التي ما أغفت عن القاصدين ولا غفلت"[2].

ومهما يكن، فإنّ هذه المحاور جميعها تتآزر في بناء تلك الرقاع التي تمتاز عامة بالقصـــر والإيجاز، فرسائل العنايات في مجملها تكون قصيرة إذا ما قورنت بالرسائل الإخوانيّة الأُخرى؛ لِمَا في تطويلها من التزلُّف في حقّ المشفَّع، وإراقة ماء الوجه لكاتب الشـــفاعة، وعندئذٍ يكون الكاتب ملزماً بقصر الرسالة، مكتفياً بالثّناء على المشفِّع، ذاكراً حاجة طالب الشفاعة، متوسّلاً أن تقبل تلك الشفاعة.

وتقـــود هـــذه الرســـائل إلى القول بأنّ منزلة الكتّاب في العصر المملوكي بلغت مرتبـــة عالية مكّنتهم من نيل شفاعة الرؤساء والأعيان، والدليل على ذلك ما كتبوا من رســـائل تشـــفع لـــذوي الحاجـــات، فلولا مكانتهم المرموقة لَمَا أعلنوا بتلك الشفاعات وتجـــــرأوا علـــى كتابـــتها، وتشي كذلك بالمنزلة التي حلّ بها الكتّاب من قلوب عامّة الـــنّاس، حـــيث وجـــد فيهم أفراد المجتمع بغيتهم، ونالوا حبّهم وتقديرهم، وربما هدف الكتّاب من تلك العنايات إلى كسب مودّة النّاس وذيوع ذكرهم في تلك الأوساط.

وعلـــى كـــل حـــال، فـــإنّ رســـائل الشفاعات تمثّل مظهراً من مظاهر التكافل الاجتماعـــي، والتعاطف بين النّاس، خاصة بين طبقة العامة وطبقة الخاصة، حيث تبيّن تلـــك الرســـائل بعـــض هموم ومشاكل المجتمع التي واجهته في تلك الحقبة، فهي تمثّل

---

(1) المصدر السابق، 136/9.

(2) المصدر نفسه، 142/9.

مــن الحرام - صلى الله عليه وسلّم وعلى آله الكرام وصحبه مصابيح الظلام وأزواجه اللاتي لسن كأحد من نساء الأنام ما طلعت شمس وهطل غمام"[1].

فقــد ظهــر في خطبة تلك الرسالة جليّاً الحثّ على الزواج، وبيان فضائله، فقد أفصح الكاتب عن مبدأ من مبادئ الإسلام، حيث لا رهبانيّة فيه، وهذا حثّ على الزواج واضح، وفيه كذلك حفظ للأعراض وصون للعفّة، فقد شجّع الإسلام كذلك على الزواج تجنّــباً للحــرام والسفاح، وقد أبدى الكاتب كذلك المنافع التي يجنيها الشخص منه، فقد "حثّ عليه المنقول من الصحيح والصحيح من المنقول ما كان لبقاء الذكر سبباً، ولتكثير الأمّــة مطلباً، وهو سنّة النكاح التي عظّم الله بها المنّة، لمّا عظّم بها النعمة فقــال جلّ مــن قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَــةً﴾*"[2]. فالــدّين يحثّ على الزواج ويرغّب فيه؛ ولذا استغلّ الكاتب هذه المزيّة ليحشــد الأدلّة على مباركة ذلك الزواج، علّه يكون سبباً في بقاء ذكر المرء، وقد ألمح الكاتب إلى حديث النبي ﷺ "تزوّجوا الودود الولود فإنّي مكاثر بكم الأمم" **؛ ليدلّل على أهميّة النكاح في حياة الأمّة.

وقــد جاء من خطبة نكاح لبعض بني النصيبي من إنشاء ابن الورديّ في المعنى ذاتــه الذي حثّ فيه على الزواج، مستدلاً على فضيلته بالسنّة الشريفة، متّخذاً الأهداف النبيلة كتكثير الأمّة، وحفظ الذكر الطيّب، فجاء منها قوله في هذا الصّدد: "فإنّ أولى ما بــادر إلــيه أولــو الأحلام وتنافس فيه كرام الأبناء وأبناء الكرام، ما كان لتكثير الأمّة متضــمّناً، ولفضــيلة العاجل والآجل نافعاً نفعاً بيّناً، وهي سنّة النكاح التي عظمت بها المنّة، وأثنى عليها لسان الكتاب، وأشارت إليها يدّ السنّة"[3].

---

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص96.

* سورة الرُوم، آية 21.

(2) ابن الورديّ: الديوان، ص107،

** السيوطي: الجامع الصغير، 505/1. جاءت مكاثر: مكاسر.

(3) ابن الوردي: الديوان، ص107.

واللافت هنا للنظر تركيز الكاتب على حشد أدلّة الزواج من الكتاب والسنّة، وهذا أمر ملحوظ، ويجعل المرء يفكّر في دواعي حشد مثل هذه الأدلّة، فهل هذه الأدلة منكرة حتى تحشد هنا؟ وهل هناك عزوف عن الزواج ممّا دعا الكاتب إلى التذكير بهذه الأدلّة؟ ولم تكن ظاهرة حشد الأدلة عند ابن الورديّ وحده بل نجد الأمر ذاته عند الصفديّ، ففي خطـبة نكاح أنشأها جاء فيها قوله منبّهاً على أهمية الأخذ بتلك الأدلّة: "فإنّ النكاح من مـزايا هذه الأمّة، ومحاسنها التي تجلو بأنوارها الحنادس المدلهمة، والسنّة بذلك طافحة 000 فمن ذلك ما هو في بيانه ووضوحه كالعلم، وهو قوله عليه السلام: "تزوّجوا الولود الودود فإنّي مكاثر بكم الأمم"*"[1].

وفـي الغرض ذاته أكّد ابن فضل الله العمريّ الفكرة ذاتها، حيث جاء من خطبة صـداق قـولـه: "والسـنّة النبويّة على من سنّها أفضل الصلاة والسلام فيما يأتلف به البُعدَاء، وتكثر لمباهاته الأمم، وتعدّ به أيادٍ جمّة ولا تحصر، ويخلد به في العاقبة شرف الذكر، ويتعجّل به شرف النعمة، وهو النكاح الذي تشتدّ به الأواصر"[2].

وجـاء في الغرض ذاته أيضاً خطبة نكاح لم يسمَّ منشئها قول الكاتب: "وبعد فإنّ أولى السّنن بالاتباع سنّة النكاح... وهي الوسيلة التي تكثّر سواد هذه الأمّة"[3].

والحقيقة أنّ هذه الميزة قد رافقت خطب صداق نكاح الرؤساء والأعيان ولم تلحظ فـي خطـب صـداق الخلفاء والسلاطين، حيث اكتفت الأخيرة بالتبجيل والمدح وذكر خصال الخاطب الكريمة وسجاياه الفضيلة، وقد تمّ رصد ملحوظة لافتة للنظر في خطب صـداقهم، حيث يتركّز الاهتمام على الخاطب، وتكثر الإشادة به، ويصوّر كأنّه قد أنعم علـى من طلب زواجها، فهو الطرف المانح للفضل، وصاحب المعروف، بينما الطرف الآخـر فيصـوّر على أنّه أقل مرتبة، وناله نصيب وافر من الحظوة، فجاء من خطبة

* السيوطي: الجامع الصغير، 505/1. ونصّ الحديث: ((تزوّجوا الودود الولود، فإنّي مكاسر بكم)).

(1) الصفدي: أعيان العصر، 261/5..

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 314/14.

(3) المصدر نفسه، 316/14.

صـــداق الملـــك بركة السالف ذكره قول محي الدّين: "فلو كان اتّصال كل شيء بحسب المتّصل به في تفضيله لما استصلح البدر شيئاً من المنازل لنزوله، ولا الغيث شيئاً من الــرياض لهطوله، والذكر الحكيم لساناً من الألسنة لترتيله، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله؛ لكن يتشرّف بيت يحل به القمر ونبت يزوره المطر"[1].

وفـــي المعنـــى نفسه قول جلال الدّين القزويني (ت739هـ/1338م) من خطبة صداق لأحد أبناء الملك النّاصر: "فإنّ من عادة الغمام أن يتفقّد الأرض بمطره، والبحر أن يسقي الزروع بما فاض من نهره، والمصابيح أن تمدّ بأنوارها ما يتوقّد، والسماء أن لا يخلو أُفقها من اتّصال فرقد بفرقد"[2].

فهــذه فكرة حرص الكتّاب على إبرازها، فعلى كل كاتب أن ينوّه بذكر الخاطب وفضله الذي أنعم به على من اختارها له زوجة أولاً، ومن اختاره له صهراً ثانياً، وقد شــغلت هــذه القضــية الكتّاب حتى باتت هذه الرسائل أشبه برسائل الديوان التي تتّخذ رسوماً ثابتة لا تتغيّر.

ومـــن الجديـــر ذكره أنّ خطب الصداق تبنى على محاور أساسيّة وتشهد مرونة واضـــحة فـــي صداق الأعيان والرؤساء، وتتمثّل هذه المحاور في الحثّ على الزواج والترغيب فيه، وذكر أدلّة ذلك النكاح من الكتاب والسنّة، ولو أنّ هذا المحور أظهر في رسائل صداق الأعيان والرؤساء أكثر من صدقات السلاطين كما أشرنا سابقاً.

وثانـــي هـــذه المحاور يتمثّل في مدح الخاطب وتعداد مناقبه الكريمة، وخصاله الحمـــيدة، وسجاياه النبيلة، والتنويه برفعة أصله ونسبه ومكانته؛ وممّا جاء في ذلك قول أحد الكتّاب من خطبة صداق: "ماجدٌ عَمرَ البلاد الساحلية بدوام ديمه، وجواد ما جاوره البحر إلاّ ليقتبس من كرمه، ورئيس امتطى ذروة العلياء بحسن السلوك، وأريحيّ لو لم

---

(1) المصدر السابق، 301/14.

(2) المصدر نفسه، 304/14.

يكــن صدراً لما أودع سرّ الملوك"[1]، وهذا المحور لا يخلو منه صداق لعينٍ أو رئيس، فقــد أصبح لازمة في خطب الصداق، يعكف الكتّاب على ذكر أفضل الخصال وأكملها، وقــد افــتقدته خطـــب صداق السلاطين لعدم الحاجة إليه، حيث لا داعي إلى مثل ذلك الأمر، فالسلطان استوى في عقول النّاس رفعة نسبه وكريم خصاله، فلا مبرّر لورودها، بينما ترد في صداق الأعيان لقصور منزلتهم عن منزلة السلاطين.

وهناك محور ثالث يتمثّل في مدح المخطوبة، ويتركّز على أمرين: الأول ينصبّ على عفّتها، وصون عرضها، والآخر يهتمّ بعلو نسبها وحسبها، فيجعل الكتّاب منها فتاة ذات خــدر مصونة عفيفة من أرومة متجذّرة الأُصول، وكان ذلك داعياً لخطبتها، فجاء من صداق الملك السعيد بركة قول الحلبيّ في وصف بنت سيف الدّين قلاوون: "فخطب إلــيه أســعد البرية، وأمنع من تحميها السّيوف المشرفيّة، وأعزّ من تسبل عليها ستور الصــون الخفيّة، وتضرب دونها خدور الحلال الرضية، وتتجمّل بنعوتها العقود، وكيف لا؟ وهــي الــدّرة الألفــيّة"[2]، ومــن صداق أنشأه الصفديّ جاء قوله: "وخطب الجهة المصونة، المحجّبة النقيّة التقيّة، العفيفة الخاتون، غصن الإسلام، شرف الخواتين، جمال ذوات الستور، قرّة عين الملوك والسلاطين"[3].

ومــن الــنافلة قوله في هذا المقام تباين صدقات السلاطين عن صدقات الأعيان والرؤســاء، حيث يحرص الكتّاب في أولاهما على العكوف على بيان فضل الخاطب، وعلوّ درجته، مشيدين بتواضعه، بينما يهتمّون في ثانيهما ببيان أهمية الزواج في صون العفّة، ومكاثرة الأمم، وتجنّب السفاح، والاقتداء بالسنّة الشريفة.

والنّاظر في رسائل هذا الفصل يجدها تحمل طابعاً اجتماعياً إخوانياً، حيث يربط بينها سلكٌ من المصالح الاجتماعية، فالتهنئة والتعزية قد لا تحتاج إلى عواطف صادقة،

---

(1) المصدر السابق، 317/14.

(2) المصدر نفسه، 302/14.

(3) المصدر نفسه، 319/14.

بل تكتفي باصطناع العواطف والأحاسيس من أجل استقامة العلاقات الاجتماعية، فالذين يؤمّــون مناسبات الأفراح والأتراح ليس بالضرورة أن يكونوا سعداء أو باكين، بل قد يكونوا مجاملين لذوي الأفراح والأتراح.

وكــذلك بالنســبة لرســائل الإهــداء والشكر، فقد تكون المصلحة جالبة لهذين النوعــيــن مــن الرسائل، حيث تستدعي العلاقات الاجتماعيّة خلق مثل هذه الرسائل، وعــندئذٍ لا تكــون هناك حاجة إلى بناء علاقات حميمة صادقة، بل تحكم هذه العلاقات مصالح تفرضها طبيعة الروابط الاجتماعيّة.

وإذا ما تذكّرنا رسائل المدح والذمّ، فإنّها تأتي في مجملها نتيجة لعلاقات إيجابيّة أو ســلبيّة، فقد تمدح المرء أو تذمّه دون الإحساس بالعواطف أو المشاعر الإيجابيّة أو السلبيّة تجاهه، ولذا لا تكون مثل هذه الرسائل ناشئة عن علاقات شخصيّة في الغالب.

وأخيــراً فإنّ رسائل الشفاعات والعنايات وكتب الصداق أبعد شيئاً عن العلاقات الشخصيّة، فالشفاعات والعنايات أقرب ما تكون من كتب المظالم، بينما خطب الصداق أقــرب إلــى المراسيم مع التأكيد على أنها تعالج قضايا اجتماعيّة إخوانيّة لا تمتّ إلى الرسائل الديوانيّة بصلة وهذا لا ينفي التشابه إنْ وُجِد.

ثانياً: العلاقات الشخصيّة

تمثّل العلاقات الشخصيّة بين الكتّاب والأعيان في العصر المملوكي صفحة رائقة ورائعة كما صورّتها الرسائل الفنيّة، وقد أسهمت طبيعة المناصب الديوانيّة والكتابيّة القائمة على التنقّل والحركة في نشوء علاقات صداقة حميمة بين الأفراد، فشكّلت تلك العلاقات صورة من صور الوفاء والإيثار والخلّة الصادقة، فنشأت عن ذلك رسائل الشّوق والحنين التي كانت نتيجة لانتقال الكتّاب من مصر إلى آخر، وشوقهم إلى رؤية بعضهم، ومنادمة خلاّنهم عن قُرب، وكان نتيجة لهذا البُعد انقطاع تلك المراسلات في بعض الأحيان، فيسجّلون رسائل العتاب لتسهم في تنقية كل ما يشوب تلك العلاقات، من خلال المعاتبة والتذكير بأيام الوفاء والصّداقة، وعندما ترد تلك الرسائل لا يجدّ الكاتب بُدّاً من الردّ إمّا بالعتب أو الاعتذار.

وينشأ كذلك عن الاغتراب والبُعد ومشاكل الحياة مآسي يواجهها الكتّاب فلا يجدون متنفّساً إلاّ في كتابة رسائل الشكوى التي يبثّونها أصدقاءهم علّهم يشاركونهم هذه المشاق، وتمثّل تلك الرسائل علاقات شخصيّة نابعة من الفؤاد، فهي أشبه بالشّعر الوجداني الذي يذهب من القلب إلى القلب.

رسائل الشّوق والحنين:

تُعدُ رسائل الشّوق والحنين من أكثر الرسائل الإخوانيّة تعبيراً عن النّفس ولواعجها، وما تنطوي عليه من إظهار لحسن العشرة وفرط الصبابة، وتذكر الأيام الخوالي، والحنين إلى جوّ الأُلفة، واجتماع الأحباب، وتناغم العواطف والأحاسيس، كل هذه الأُمور تجعل من رسالة الشّوق أتوناً يتقلّب عليه الأصدقاء، ويكتوون بناره، مقاسين مرارة البُعد والجوى.

وقد اشتهرت هذه الرسائل في العصر المملوكيّ لكثرة تنقّل الكتّاب بين الأمصار فـــي مصـــر والشّـــام، فإذا ما تمّ نقل أحدهم إلى مصر من الأمصار أرسل أنّاته نذيراً بفـــرط شوقه وتردّي حاله، متشوّقاً إلى رؤية خلاّنه، حيث لا يعيد صفو حياته إلاّ النظر إليهم والتواصل معهم في صلاتهم ومودّاتهم.

وغالـــباً ما تعبّر هذه الرسائل عن مدى الشّوق الذي ألهب عواطفه، وكدّر صفو أيّامه، وأشغله عن ذاته ولذّاته، وقد طبعت معظم الرسائل الشخصيّة بتلك الصّفة المعبّرة عن الشوق والحنين والشكوى من البُعد والنأي، وهذا دليل على عمق صلاتهم، وصفاء مودّاتهم فمجرّد أن يشعر الفرد منهم بالابتعاد عن مجالس أُنسهم، ويحسّ بوحشة الوحدة، يسطّر رسائل الشّوق والحنين، وإظهار الجزع واللوعة والحسرات والآلام التي عصفت به بعد مفارقتهم.

ومـــن هـــذه الرسائل ما سطّرها الأديب ابن نباتة على لسان صديق يتشوّق إلى صديقه، مضمّناً إيّاها أطيافاً من الشّوق والحنين وخطب المودّات، ومظهراً مدى الوحشة التـــي حاصـــرته بعد فراقه، معبّراً عن تلك العواطف والأحاسيس بقصور السطور عن إبـــلاغ فحـــواها، فجاء منها "وينهي أنّه سطّرها عن شوق يعزّ عليه أن ينوب فيه سعي القلـــم عـــن سعي القدم، وارتياح إلى القرب الذي بأُنسه يؤنسه أنواراً على أعلى علم، وتطلّع لمعاودة الأخبار أوفى من تطلّع العامري إلى معاودة أيّام ذي سلم"[1].

فالشّوق الذي بين جوانحه ألهب نار عواطفه، ولا سبيل لإطفاء هذه النّار بالكتابة دون النّظـــر، فيـــرى أنّ الأجـــدر والأجدى مباشرة النّظر لا الخبر، وقد بلغ به الشّوق والولـــع إلـــى صـــديقه درجـــة الهيام، فأشبه قيساً من فرط صبابته إلى ليلى، ولم تعد المكاتـــبات والمراجعات بلسماً كافياً يسكّن روعه ويداوي جروحه، بل لا بدّ من النّظر إلـــى صـــديقه عـــن قرب ومشافهته، فلا علاج يذهب سقمه، ولا سالٍ يسلو خاطره إلاّ

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 144/9.

منادمة ذلك الصديق، فهذه الرسائل لا تشفي له غليلاً، ولا تصحّ له عليلاً "وهيهات أين نظـرات الحـروف المـرقومة من نظرات العيون الرامقة، وأين منال السلو من شجو يقـــول "أعيذها نظرات منك صادقة"*، ما يحسب المملوك من النّظر إلاّ ما يملأ العين مـن ذلـك الوجه الكريم، ولا يلبس من خلع الأيّام إلاّ ما تخيط الأهداب على شبا ذلك الرقيم"[1]، فلا سبيل لسلوّ إلاّ بالقرب منه والجلوس معه، والنّظر إليه، والتمتّع بمنادمته، ولمّا حالت الظروف دون ذلك، وأصبح ضرباً من المستحيل تحقيق تلك الأماني، اكتفى بالتمنّي وبعث زفراته وأنّاته مثقلاً بها الرقاع قائلاً: "وعلى ذلك فقد جهّزها المملوك على يـد فـلان، وحمّلته من رسائل الشّوق ما يرجو أن ينهض فيه بأعباء الرسالة، ويسأل الإصـغاء والملاحظة فيما توجّه فيه، وإن أدّت الأمالي إلى ملاله، والله تعالى المسؤول أن يبلغ في امتدادها مولانا الأمنية، ويمتّع الدول منه بهذه البقيّة النقيّة"[2].

ومن هذا القبيل كذلك ما سطّره ابن نباتة عن نائب الشّام إلى القاضي علاء الدّين بن فضل الله يفصح فيها ذلك النائب عن عميق مودّته للقاضي علاء الدّين، مكتفياً بالخبر عن النظر، وحمّل تلك الرسالة أشواقه وحنينه المتّصل، شاكياً من لوعة الفُراق، متأسّفاً علـى أيّـام الأُنس والوصل فجاء منها "وجهزها على يد فلان بعد أن حمّله من رسائل الشّـوق مـا إن حملنا من إحسانه لينض عقود الأنجم لو تعدّدت، ومفاتيح أبوابه لتنوء بالعصـبة أولي القوّة لو تجسّدت، وهو بين يديه يقدّم نجواها، ويستشهد بالخاطر الكريم قـبل حضـور دعواها، والمسؤول إصغاء السمع الكريم إليه والملاحظة فيما توجّه فيه متّكلاً على الله وعليه"[3].

* هـذا صـدر بيت للمتنبي وعجزه "أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورمٌ". المتنبّي، أحمد بن الحسين (354هـ/ 965م): الديوان، شرح العكبري، ضبطه وصحّحه ووضع فهارسه مصطفى السقّا وآخرون، دار المعرفة – بيروت، د.ت، ج3، ص366.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 9/144-145.

(2) المصدر نفسه، 9/145.

(3) المصدر نفسه، 9/145-146.

إنَّ مـــا يثير الدهشة هُنا ويبعث على التساؤل هو مقدار الشّوق الذي تحمله هذه الرســـائل علـــى الـــرغم من أن كاتبها ليس صاحب التجربة وإنما يعبّر عن عواطف وأحاســيس غيـــره، وعلـــيه فإنّها لا تحمل عواطف ومشاعر حقيقية، ولا شكّ أنّ هذه العواطـــف والأحاســيس عارية مستردّة، وإلاّ كيف يمكن أن يعبّر كاتب عمّا في نفس آخـــر؟ وهـــل الأحاسيس والمشاعر رسائل ديوانيّة تُعْهد إلى مَنْ يقوم بتسطيرها، فهذا اللّـــون من الرّقاع يعتمد على تفنّن الأديب وسعة خياله، فينشئها بناءً على ما مرَّ به من أحـــداث مـــراعياً أحـــوال المخاطبين من الرّتب والمراكز، وكلّ هذه العوامل تضعف وتوهـــي شوكة ذلك الشّوق، وتطفئ شعلته، ولكن المرء يستشعر حرارة الشّوق ومرارة الأســـى عـــندما يقع ناظره على رسالة قام بتدبيجها من آلمه جزع الفراق، وكواه أتون الـــبُعد، وأدمت قلبه لواعج الفرقة، وأثقلته طوارق الهموم، وأرّقت جفنه هواجس الأيّام، فمـــن هـــذا اللـــون مـــن الرسائل ما بعث به نجم الدّين أبو محمد القرطبيّ إلى صديقه الصـــفدي يصـــف له فيها وحشة الفراق، وشدّة الشّوق، وألم الجوى قائلاً: "وينهي بعد وصف شوقه الذي تطاول عليه ليله فادلهمّا، ولمع في دجنته بارق اللواعج فأضرم بين الجـــوانح نيـــران الخليل لمّا، وأجرى من جفنه القريح طوفان نوح، فلأجل ذلك هجره الوسن، ومن بعد الهجران به ما ألمّا، وكابد فؤاده همّا، ووالذي يعلم خائنة الأعين بالسلو ما همّا وعاهده على الأخذ بسنّة الصبر الجميل فلم يفِ بعهد"(1).

فـــلا شـــكّ أنّ مثل هذه الرسالة تعبّر تعبيراً صادقاً عن مشاعر منشئها، فالمعاناة التـــي وصـــفها كفيلة بإظهار شوقه وحنينه، فقد طالت لياليه وأظلمت، وأشعلت نيران صدره والتهبت، وقرّحت جفونه وهجر الكرى، ولازمه الهمّ والأسى، وعلى الرغم من هـــذه الحالة المفزعة المؤلمة يؤكّد لصديقه أنّه لم يحاول السلوّ أو التحوّل عنه، ولم يجد سبيلاً للخلاص من هذه الظروف إلاّ بالاعتكاف إلى موائد الصبر الجميل الذي خانه ولم يجد له طاقة وعزماً على احتماله.

---

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 240/2.

ومــن هــذه الرســائل ذات الصبغة الواضحة في مجال إظهار الشوق والحنين، المظهــرة قـدراً من معاناة الفراق والبين ما بعث بها ابن سيّد النّاس يتشوّق إلى رؤية الصفديّ قائلاً: "فمد المملوك إليه راحته واستمدّ منه راحته، وأدار منه راحه، وألفى لديه انشـراحه، ونال له على الدهر اقتراحه، بعد ما وجد من فراق من به وجد، وقد أضرم بقلــبه مــن نار الخليل لفقد الخليل ما وقد، فراح كليم اشتياق في أليم احتراق، ينــادي بلسان الأشواق:

قد لَسَعتْ حيَّةُ النَّوى كَبِــدي ولا طَبيــبَ لهـــا ولا رَاقِ"[1].

وقــد أنكــت تلك الرسالة جراح الصفديّ، وأرّقت جفنه، وأحيت ضريم النّار في صدره، وأعادت بعث لواعج الأسى بين جوانحه، فعبّر عن تلك الأحوال بأُخرى ضمّنها بما تقطّع من نفسه حسرات قائلاً: "ويصف أشواقه التي لا يعلم قرارها إلاّ الذي أوجبها وقــرّرها، ولا يدري قدرها إلاّ الذي حكم بها وقدّرها، ولا يعرف ألمها إلاّ القلب الذي لمّهـــا، ولا يجبــر ضيمها إلاّ الفؤاد الذي ضمّها، فهي الأشواق التي استعارت الجحيم اســتعارها، ونفت عن الجفون قرّتها وعن الجوانح قرارها، وأعدمت النّفس في الصباح صلاحها وفي المساء مسارّها"[2].

فالعواطــف التــي يبديها الصفديّ في هذه الرسالة تفصح عن فرط في الشّوق، ومــرارة الفــراق، وقسوة البُعد، ووحشة الوحدة، وتنبئ عن حزن دائم، وغيظ ملازم، وكمد لا يعرف له بداية ولا نهاية، فنيران قلبه متأججة، وتقريح جفونه لا سبيل لإخفائه، وفقــد مع هذه الأسقام نضارة الحياة، فأرسل آهاته متحسّراً على سالف دهره، مستسقياً لمجــالس أنسه التي أصبحت مقفرة موحشة "فآهاً على الديار المصريّة وأوقاتها، وسقياً

(1) المصدر السابق، 222/5.

(2) المصدر نفسه، 225/5.

لمعاهـد أُنسـها لنفسها، ولذّاتها لذاتها، ورعياً لتلك المنازل التي لا تخرج الأقمار عن هالاتها"[1].

فالصفديّ يتشوّق للدّيار المصريّة التي رعى في ربوعها نضارة أيّامه، ووجد في أبـنائها صـفاء صداقه، وأحسَّ في مجالسها ومنازلها بالأمن والطمأنينة والأُنس، وتلذّذ بالعيش في مغانيها، وعزَّ عليه فراقها، وبقي ينتظر اليوم الذي يعود فيه إليها، ولا أجد تعلـيلاً لتلك الغربة التي يتحدّث عنها وهو في الرحبة يتفيأ ظلال الشّام، ويتنسّم هواءها العلـيل إلاّ بالتفسير النفسي حيث لازمته الغربة النفسيّة وأصابته حمّى الصداقة، فليس الحنـين إلـى أرض مصـر كـراهيّة فـي أرض الشّام وإنّما بيت القصيد يكمن في الصـداقـات، فالاغتـراب الـذي يحسّه آتٍ من فقد الخلاّن والأصدقاء، وقد يكون في وصـف هذه الغربة مبالغة يجامل فيها صديقه، وعلى كل حال، فإنّه ينتظر من يخرجه مـن تلـك الغربة ويعيده إلى مجالس أُنسه وأُلاّفه حيث يقول: "وما أقول بل أنتظر إلاّ نظرة شهابيّة ولا أترقّب إلاّ همّة عدويّة عمريّة تنقذني من نار هذه الغربة وتعيدني إلى خير عالم وألطف تربة، وتتعطّف على من غدرت به أيّامه ولياليه"[2].

وقـد كثـرت بين الصفديّ وشيخه ابن سيّد النّاس هذه المراسلات والمراجعات، وكلّها تنضوي تحت لواء الشّوق والحنين والإشادة، وقد نُظمت هذه المراسلات في سلك مـن العواطـف الملتهـبة، والأحاسيس المتوقّدة، والمشاعر المشتعلة، فالنّاظر في تلك المراسـلات يجـدها تطفـح بالشّـوق ولواعج الأسى، ومرارة البُعد والفراق، وقسوة الظـروف، وتحـوّل الأيّام والليالي، وجبروت العمل الوظيفي، حيث تعدّ هذه النوازل ضـريبة تلك الوظائف، فَفَقْدُ الأحبّة والنأي عنهم من مستلزمات هذا العمل، ومهما يكن فـإنّ الإيجابيّة ظاهرة حيث عصرت عقولهم، وأدمتِ قلوبهم، وقرحت جفونهم، وأوقدت

(1) المصدر السابق، 225/5.
(2) المصدر نفسه، 225/5.

نيـران صــدورهم، فتحوّلت مشاعرهم وأحاسيسهم وعواطفهم إلى مداد ينوب عنهم في الشّوق إلى أصدقائهم.

وكــتب الصــفديّ كــذلك رسالة شوق إلى تاج الدّين بن البارنباري يظهر فيها شوقــه الجارف، وحنينه الدائم المتواصل مع قلّة احتماله ونفاد صبره قائلاً: "وينهي بعد رفــع الــدعاء، وحمــل لواء الولاء، وإشادة بناء الثناء، أنّ المملوك سطّرها وشوقه قد ضاقت به الرحبة، وأغار على مثاقيل الصبر فما ترك عند حبّة القلب حبّة وذكّره الأيّام السالفةِ حتى عاد نسيبه بها أعظم نسبة"[1].

فتصــوّر هــذه الرســالة مدى عمق صداقات الصفديّ، وصفاء مودّته، وصدق أحاسيســه، ونُــبل مشاعره، فالصداقة عنوان حياته ولهذا تعهد تلك الرسائل بالاهتمام، وســكب دمــوعه ودمــاءه مــداداً يسوّد به سطور أوراقه لتكتحل بها عيون أصدقائه ورفاقــه. وممّا يزيد هذه الرسالة لوعة وحزناً وكآبة تذكّر الأيّام السالفة وما جرى فيها مــن الذكريات الطيّبة، والمجالس الحسنة، فبعد تحوّل الحال والانتقال من حالٍ إلى حال حاصرته العبرات، فلجأ إلى حصن الصّبر فما أعانه، وعندئذٍ لم يستطع المكابرة وإخفاء ضعفه بل أخذ في وصف ما عصف به علّ ذلك يكون سبباً في تخفيف معاناته، ويطفئ لهيب سعيره.

ولــه كذلك رسالة في الشّوق إلى شيخه أثير الدّين أبي حيّان الأندلسيّ (ت745 هــ/1344م)، وصف فيها مدى أشواقه التي يكنّها له، متمنّياً لقاءه، مؤكّداً ولاءه ودوام الصّــفاء له مهما تفرّقت الأجساد وتناءت الأجسام، فجاء فيها "يقبل الأرض، وينهي ما هــو علــيه من الأشواق التي برّحت بألمها وأجرت الدُّموع دماً، وهذا الطرس الأحمر يشهد بدمها، وأربت بسحّها على السحائب، وأين دوام هذه من ديمها؟ وفرّقت الأوصال على السقم لوجود عدمها... ويذكر ولاءه الذي تسجع به في الروض الحمائم"[2].

---

(1) المصدر السابق، 173/5.

(2) المصدر نفسه، 338/5.

ومن رقاع الشّوق كذلك ما بعث عبد الوهاب بن علي السبكي (ت771هـ/1369م) مشتاقاً إلى شيخه الصفديّ، معبّراً عن همومه وحزمه لفراق صديقه، وتبدّل أيّامه لياليَ بل أعوام، فالقلق حال بينه وبين النّوم، والأفكار والهواجس ينهشنه من كل صوب، فجاء فيها قوله معبّراً عن تلك الحالة: "وينهي بعد دعاء ما أحرصه على كونه فيه يخلص، وثناء ما أخلصه من محبّ صادق عليه يحرص، أنّه منذ سافر مولانا وإلى هذه الأيّام التي هي عنده أعوام ما طاب له في هذه البلدة مقام، وقد كتب هذه المطالعة تنهي بعض الأشواق، وتبدي ما حصل لرافعها بسبب الفراق، فأصدرها تعلم استمراره على العبودية... فإنّه لم يزل في قلق يمنعه النّوم، أو فكرٍ يتجدّد له في كل يوم"[1].

فالكاتب هنا يستعرض الأسقام والآلام التي أحاطت به جرّاء بُعد صديقه ونأيه، وعلى الرغم من طول هذه الغيبة، فهو ينتظر منه الأوبة؛ علّه يكتحل منه بنظرة، ويؤكّد فيها دوام العبوديّة وسرمديتها، وهذا دليل عمق الصّداقة والحرص على حفظها نقيّة لا تكدّرها الشوائب.

والرسائل في هذا الموضوع كثيرة ومتنوّعة، وكل رسالة في هذا الغرض تفصح عن سلسلة من الرسائل، فالبادئ بهذه الأشواق يثير أشواق الآخر؛ فيصاب بحمّى المراجعات والمراسلات، فتستمر هذه الرسائل تحمل أطيافاً من الولاء الصادق، والمشاعر النبيلة، والمودّات الخالصة، والصّلات الحميمة، حاملة ضروباً من العواطف الملتهبة، والأحاسيس المتوقّدة.

فرسائل الشّوق على كثرتها تحمل فكرة واحدة تفرغها في قوالب متعدّدة من الحنين والآلام والآهات والزفرات، فكل رسالة شوق يرد فيها وصفٌ معبرٌ عن نفسيّة باعثها، مظهرٌ جوّاً يكتنفه الحزن والكآبة والجزع، ومذكرٌ بأيّام الصّفاء ومجالس الأُنس، وهذا يزيد الجوّ النفسيّ حسرة وندامة، ويبقى الكاتب على أمل العودة وملاقاة الأحباب، واستئناف مجالس الأنس التي قد طويت.

---

(1) الصفدي: ألحان السواجع، 161/1.

رسائل العتاب:

قليل ما تخلو الصّداقات الخالصة من شوائب تكدّر صفوها كقطيعة، أو سباب، أو تجاهـل أو غيـر ذلك ممّا يحصل بين الأصدقاء. فالدهر كفيل بأن يخلق من مثل هذه الأحوال التي تستدعي كتابة رسائل العتاب من أجل تدارك تلك الهفوات التي تضرّ بتلك الصّـداقات، وتمـثّل هذه الرسائل لوناً من ألوان الودّ وموجبات الحفاظ عليه، فالعتاب يشـكل مطهّراً ومعقّماً للصّداقات يصونها ويحفظها من التباغض والتقاطع، فهو يشكل صـفحة نقيّة من صفحات الصّداقة الخالصة، يتبادل الأصدقاء من خلاله كشف هفوات بعضـهم مـن أجـل سدّ تلك الثغرات، وضمان تلك المودّات، والمحافظة على سلامة الخـلات وصفائها. فالعتاب محورٌ أساسيّ ترتكز عليه أواصر الصداقات لينقّيها من كل شـائبة تشـوبها، وتتباين صور العتاب بين اللّين والرقّة، والقسوة والشدّة[1] تبعاً لحالة الأديـب ومـدى أثر ذلك الحادث في نفسه، فمن تلك الرسائل المفصحة عن شدّة العتب مـا بعث بها أبو بكر بن محمد بهاء الدّين بن غانم إلى الصفديّ، وقد تأخّرت مكاتبات الصفديّ عنه، فبعث برسالة عتب غريبة الأطوار جديدة الفكرة، معبّرة عن جوّ القطعية، فكانت كل الرسالة ثلاثة أوصال ورق أبيض وفي ذيلها مكتوب ولم يك فيها غير ذلك:

سُبْحَانَ مَنْ غَيَّرَ أَخْلَاقَ مَـــنْ ... أَحْسَنَ فِي حُسْنِ الوَفَا مَذْهَبَــا
كَــانَ خَلِيْــلاً فَغَـدَا بَعْـدَ ذَا ... لَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا طَقَصبــا*[2]

فكانـت تلـك الرسـالة مثيراً حقيقيّاً للصفديّ، تحمل من المعاني ما تعجزُ عنه كثيـرات السُـطور، فعبّر عن تلك الرسالة مسجّلاً عتبه قائلاً: "ولكن توهّم المملوك أن تكون صحف الودّ أمست مثله عفاء، وظنّ بأبيات العهود السالفة أن تكون كهذه المراسلة من الرقوم خلاء:

---

(1) انظر القيسي، فايز: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير للنشر والتوزيع، ط1، ص284.

• طقصبا اسم مغنّ كان ابن غانم يسمع له في ليالي السّمر، انظر الصفديّ: أعيان العصر، 6/2.

(2) المصدر نفسه، 7/2.

لو أنَّها يَوم المعاد صحيفتـــي		ما سرّ قلبي كونها بيضـــــاء

فلقـــد ســـودت حال المملوك ببياضها، وعُدم من عدم الفوائد البهائيّة ما كان يغازله من حمـــيمات الجفون ومراضها، وما أحقّ تلك الأوصال الوافدة بلا إفادة، الجائدة بزيارتها التـــي خلت من الجود بالسّلام، وإن لم تخل زورتها من الإجادة أن ينشدها المملوك قول البحتريّ أبي عبادة*:

أخجلتني بندي يديك فســـوّدت		ما بيننا تلك اليدُ البيضـــاءُ

وقطعتني بالوصل حتى إنّنـــي		متخوّف أن لا يكونَ لقـــاءُ"(1).

وهـــذه الفقـــرة بل الرسالة عامّة تنطق بألوان من العتب الذي يفصح عن متانة العلاقـــة بـــين الصديقين، ويجلو عنها شوائب الكدر، وأوباش القطعية، فكانت الرسالة الأولـــى الخالـــية من الكتابة عتاباً قاسياً عبّرت عن القطيعة الحاصلة بينهما، واستفزّت مشـــاعر الصفديّ ليسجّل عتبه على صديقه الذي لم يضمنها خبراً واحداً، وعلى الرغم من عدم وجود أي كلام يدلّ على معاتبته منشورٍ في طيّاتها، إلاّ أنّها عبّرت بل أفصحت عـــن نفس مرسلها على صمتها الطويل، وقد فهم الصفديّ مضمونها، وتعجّب من جرأة باعـــثها على هذه الشاكلة قائلاً: "يا عجباً كيف اتّخذ مولانا هذا الصامت رسولاً بعد هذه الفتـــرة؟، وكـــيف ركن إليه في إبلاغ ما في ضميره ولم يحمّله من الكلام ذرّة؟ وكيف أهدى عروس تحيّته ولم يقلّدها من كلامه بشذرة؟ ما نطق هذا الوارد إلاّ بالعتاب مع ما ندّر وندّب، ولا أبدى غير ما قرّر عن الإهمال وقرّب"(2).

* البحتريّ، أبو عبادة الوليد بن عبيد (ت284هـ/897م): الديوان، تحقيق حسين كامل الصيرفيّ، دار المعارف، ط3، 1/ 21-22 . ورواية الديوان:

أحشمتني بندى يديك فسوّدت		ما بيننا تلك اليد البيضاءُ

وقطعتني بالجود حتى إنّنـــي		متخوّفٌ ألاّ يكونَ لقـــاءُ

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 2/8-9.

(2) المصدر السابق، 2/9.

وتســتحقّ رســالة ابن غانم وقفة معها، حيث لم يعهد أن بعثت رسائل خالية من الكــتابة أو حملــت معانــي كما حملت تلك الرسالة، فمثل هذه لا بُدَّ أنّها شكّلت قراءة جديــدة، وقــرّرت أُموراً مستحدثة؛ لغرابة فكرتها، ولا شكّ أنّها تحمل من المعاني ما تعجز عنه غيرها من الرسائل، وقد عبَّرت عن ضمير مرسلها، ففيها إنذارٌ ووعيد لقطع بل بتر تلك الصّداقة الحميمة، فالصّمت أحياناً أبلغ من النطق.

وقــد بعــث ابن غانم برسالة عتب ممزوجة بالاعتذار في أثر رسالته الصّامتة، يــؤكّد فيها عتبه، وتخوّفه من انقطاع تلك العلاقة لطول صرمها وبُعد الشقّة قائلاً فيها: "لكــنّ مــولانا غاب عن مملوكه غيبة ما كانت في الحساب، وهجره وهو من خاطره بالمحــل الذي يظنّه، إذا ناداه بالأشواق أجاب، واتّخذ بدعة الإعراض عن القائم بفرض الــولاء سنة، واشتغل عمّن له عين رضى عن نسيان ما مضى من كليلة ودمنة، فخشي المملــوك مــن تطاول المدّة، وخامر قلبه تقلّبات الأيّام، فخاف أن تبقى أسباب المقاطعة ممتدّة"[1].

والنّاظر في هذه الرسالة يجد ابن غانم فيها يتحدّث عمّا أراد أن يقوله في الرسالة الصّــامتة، فالهــدف مــن بعثها طول الغيبة الذي جعله يحسُّ بخطرها، فقد طالت تلك الغيــبة، وآذنــت بالصــرم والقطــيعة، وأعــرض الخليل عن صديقه، وحالت بينهما الحــوائــل، وأصــبحت المودّة بينهما ضرباً من البدعة، وسرى بينهما طيف النسيان، وهذه الحالة من الاغتراب والتجاهل والنسيان أقلقت سكونه، وأقضّت مضجعه، وأشعلت نيران الوساوس في صدره، وخامره الخوف من تبدُّل الأحوال، وتقلُّب الزّمان، وخشي أن تســتمر تلك المقاطعة، فكتب تلك الرسالة المستحقّة أن تسمّى الموضّحة، وإن كانت الأولى أبلغ منها.

---

(1) المصدر السابق، 10/2.

وللشّهاب الحلبيّ رسالة عتب على صديق له لم يسمّ، سجّل فيها عتبه متّخذاً سبيل التذكيـــر بالوفاء والمودّة القديمة، سالكاً أُسلوب الملاطفة والاستعطاف في جوٍّ من الكآبة والإنكســـار قائلاً: "فإن كان قد عزم مولاه عن طرده، وعوّضه عن منحة القرب المحنة ببعده، فإنّه يأبى ذلك جوده ولطفه، ومعرفه يشكر ويزيد لا يمكن صرفه"(1).

فالواضـــح مـــن الرسالة أنّ العتاب صادرٌ من أدنى إلى أعلى، حيث مزج ذلك العـــتاب بالترجّـــي والاستعطاف والملاينة، حتى أصبح هذا العتاب أقرب إلى الاعتذار والاعتـــراف بالـــذّنب، وقـــد أكّـــد الحلبيّ في هذا العتاب قضية الملاطفة والاستعطاف والإنكسار أمام المعاتب.

وللحلبيّ رسالة أُخرى في العتاب، ولكنّها هذه المرّة تناقض سابقتها، حيث يبدي فـــيها ألـــواناً من القسوة المغلّفة باللّين، فالعتاب في تلك الرسالة أظهر منه في الرسالة السابقة، والقول فيها أكثر حدّة وأشدّ ألماً، ولغة الحنق والغيض بارزة ظاهرة، فمن تلك الرســـالة قوله: "وقد صار يشاهد من المولى ملالاً وصدوداً وإعراضاً يغيظ به صديقاً، ويســـرّ بـــه حسوداً، واطّراحاً أوهمه أنّه ألف وصل درجت أو لفظة هجر لفظت، ولا يعـــرف لـــه ذنباً يوجب إبعاده ولا جرماً يستوجب به أن ينقض حبل وصله، ويرفض وداده، ولا يعلـــم سبباً يوجب سبّه، ولا شيئاً يحدث عتبه، مع أنّ المملوك أحقّ أن يبدأ بالإعـــراض، ويـــرفل في إغفال مودّته في الثّوب الفضفاض، فإنّ المولى آلمه بالقول مراراً"(2).

لا شـــكّ أنّ فـــي هذه الفقرة عتاباً مؤلماً وموجعاً، فغرضه ليس تأخر رسالة أو مكاتـــبة بـــل يرجّح أن يكون سباباً أو شتماً، وعلى هذا كانت لهجة العتاب آخذة بالحزم والشدّة على الرغم من أنّ العتاب صادرٌ من أدنى إلى أعلى.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 196/9.

(2) المصدر نفسه، 198/9.

وكما يبدو من ديباجة هاتين الرسالتين أنهما مصنوعتان لغرض العتاب من باب امتحان القريحة، فالعتاب فيهما مختفي خلف ركام من التزويغ اللفظيّ والبديعي، فالعتاب فيهما يفترُ عن عاطفة باردة على النقيض من العتاب الوارد في مراسلات الصفديّ وابن غـانم السـالفة الذكـر، حـيث تعبّر تلك الرسائل عن المعاناة الحقيقية التي أحسَّ بها الصـديقان، وتحمّـل تلك الرسائل في طيّاتها التوجُّس والقلق من صرم تلك المودّات، فالعتاب فيها تخاله ينبع من دفقات قلب الكاتب لا من سطور رسالته ومدادها.

ومـن تلـك الرسـالة التي تعبِّر عن مدى صدق العلاقات، ودوام تلك المودّات والخوف من بترها - على قصر تلك الرسالة - ما بعث بها شّمس الدّين بن قاضي شهبة إلـى خلـيله الصفديّ يعاتبه فيها لانقطاع مراسلاته قائلاً: "يقبل الأرض، وينهي ما لم يخـف من العلوم الكريمة من مضاعفة شوقه، ومضاعفة أسفه الذي أحاط به من تحته وفوقه، وما يجده من التألُّم لانقطاع مراسيم مولانا التي تفلُّ حدّ الغربة بغربها، وتحجب عن الأنفس المكروبة المحزونة كرّ كربها"[1].

فالرّسـالة طافحـة بالأسـف والعتاب، فالعتاب ظاهر جليٌّ، والصّداقة الصّادقة أوجبت هذا العتب، فالحزن والألم أحاط به بسبب انقطاع مراسلات صديقه، فالعواطف ملتهـبة، والحاجـة ماسّة لقراءة رسائله، حيث الغربة والاغتراب تشكّل جوّاً من الكآبة والحـزن، ولا خـروج مـن ذلـك الجوّ إلاّ بمراسلات صديقه له، ولمّا انقطعت تلك المراسلات أحسَّ بالغبن فلم يتوانَ عن عتاب صديقه وتأنيبه.

وبالجملـة، فإنّ رسائل العتاب تعبِّر عن جوٍّ انفعالي إنساني، حيث يبقى الودّ ما بقي العتام، وتحمل رقاع العتاب فكرة واحدة، تتمثّل في التذكير بأواصر المحبّة والمودّة التي أصبحت في خطر بسبب البُعد والجفاء والتناسي، فالكاتب إذا ما أحسَّ بلوعة الهجر ووحشة الغربة، ووحدة الاغتراب يفزع إلى معاتبة صديقه، وتركه له دون مشاركته تلك

(1) الصفدي: أعيان العصر، 46/5.

الأحـــوال، فالظاهر من تلك الرسائل أنّ العتاب يصدر في مجمله عن البُعد والاغتراب، فـــتكون تلـــك الوحشة داعياً لموجبات كتابة تلك الرسائل، ليستأنس الكاتب بما يكتبه له أصدقاؤه حال غربته.

رسائل الاعتذار:

تمـــثّل رسائل الاعتذار الوجه الآخر لرسائل العتاب، ونتيجة منطقية له، فإذا ما بعـــث أحدهم رسالة عتاب إلى صديقه لقاء مقاطعة حصلت أو مشاحنة حدثت، يسارع الآخـــر في اعتذاره لإدامة الصّداقة، والحفاظ على جوّ الأخوة الصادقة، فيجعل من ذلك الاعتذار مسلكاً جديداً يدخل منه إلى قلبه.

فرســـائل الاعتذار تحمل من الوفاء والاعتراف به وإيثار الأصدقاء الجمّ الغفير، وهـــي علاج يبرئ سقم الصّداقة الذي خلّفته القطيعة، فيقوم الكاتب باختلاق الأعذار في تبريـــر فتـــرة تجاهلـــه وتناسيه لصديقه، علّه يقنع بتلك الحجج، ويصفح عنه، ويطوي صفحة قد كدّرتها دلاء الصرم والقطعية.

وتـــتّخذ رسائل الاعتذار مناحي متعدّدة تتمثّل في الاعتراف بالذنب والتوسُّل من أجـــل إدامة المودّة، وخلق الأعذار، ولين الخطاب المتّخذ لوناً من ألوان العتاب، فيحمّل الكاتـــب العتب صديقه أيضاً، فمن الرسائل المعتمدة أُسلوب التوسُّل والضراعة من أجل تسوية العلاقة ما كتب بها الصفديّ إلى صديقه الحسين بن محمد العوكلاني، حيث أبدى الصفديّ ضروباً من الشّوق والحنين، وجدّ في خلق الأعذار من أجل قبولها، فجاء منها: "إنّه قد شغله ألم الإعراض عن ألم الشّوق، وضاقت الرحبة بفضائها على أنّه لا رحبـــة لابن طوق، وتحرّز بالمكاتبة إلى مولانا، فجاء بطوفان هجره من فوق، ويطلب الإعذار في ترك الجواب، فلم يكن لها في النّفس ذوب قبول ولا ذوق"[1].

(1) الصفديّ: ألحان السواجع، 116/1.

فالصّفديّ في هذه الرسالة يبدي شوقه الجارف إلى صديقه، وفي ذلك وسيلة لجلب مودّته، وتناسيه تلك القطيعة، فوصف الضّيق الذي مرّ به، والأحوال القاسية التي عصفت به جرّاء مفارقة صديقه، كل هذا يخفّف من تقصيره عن مكاتبته، ويسترسل في اعتذاره بهذا الأسلوب الاستعطافي قائلاً: "على أنّ المملوك فارق مولانا ما صفّ له جفاء ولا جفّ له صفاء، ولا توسّم من عواطفه ردى رد، ولا سمع من عوارفه صدى صدّ"[1].

فالإسهاب في الاعتذار من وصف الآلام، وحرق الفراق، ومرارة البُعد تشفع له عند صديقه في قبول اعتذاره، ولم يكتفِ الصفديّ بشرح هذه الأوضاع التي آلمته، وأنكأت جرحه، بل يجد تلك العلاقة التي اصطلح على تسميتها عبودية قائلاً "وقد جهّز المملوك هذه العبودية، وهي لعواطفه متطلبة متطلّعة، متصرّفة الأحشاء متضرّعة، متجرّدة من الذنوب، وإن كانت لغصصها متجرّعة"[2].

فالصفديّ يجعل من اعتذاره هذا قرباناً عن تلك القطيعة، وقد جدّ في سُبل قبوله، فالعواطف والأحاسيس متشوّقه إلى صفحه وغفر ذنبه وتناسي جرمه، فقد عبّر عن تلك الرقعة بالنّفس المضطربة، الهلعة المتوجّسة أمام خالقها ترجو عفوه أو تطمع في رحمته، فهو معترف بذنبه، متضرّع ومتوسّل يرجو قبول عذره.

ومن هذا اللون من الرسائل كذلك ما بعث به ابن قاضي شهبة يعتذر للصفديّ عن عتب قد كان بعثه وفيه شيء من الغلظة والوحشة، فدبّج تلك الرسالة يلتمس فيها العذر والصفح من الصفديّ، متّبعاً الأُسلوب ذاته في كسب الودّ والصّفاء، وتدارك الأحوال قبل فوات الأوان، فجاء في تلك الرسالة: "يقبل الأرض، وينهي ورود الجواب

---

(1) المصدر السابق، 116/1.

(2) المصدر نفسه، 116/1.

الكــريم عمّــا كـــان تهجّــم المملــوك من العبودية والأبيات التي بان بتلك المراجعة قصورهـــا، وتضعضع بتلاوة سور تلك العوذ الصلاحية سورها وصورها"[1].

فبدأ ابن قاضي شهبة رسالته بالاعتذار عن تلك الجفوة، وغلظة المعاشرة، وسوء المعاتبة، معترفاً بذنبه البيّن، مقرّاً بعبوديته الوفيّة، مسلّماً بفضل صديقه وسبقه إلى كل فضــيلة، ولم يقف عند ذلك الحدّ من الاعتذار والاعتراف بالتقصير، بل تعدّى ذلك إلى التصـــريح بســوء العشــرة، وقصوره في جانب أدب الخطاب والمعاتبة قائلاً: "يا ألف مــولاي قد تجاسر العبد، ولكن والله مقتبساً من أنوار فضائلك، وتهجّم ولكن ملتبساً من مبارّ شمائلك"[2].

ومــن خـــلال هـــذه الرسالة يلمس المرء الرقّة في الاعتذار، وعذوبة الإنكسار، ويحـــسّ بأثـــر الغصـــة التي سبّبها الفراق والوحشة، وفرط الشّوق والحنين، فكل هذه العواطف والمشاعر تجعل الكاتب رهن عبودية حقيقيّة، ومودّة متّصلة الأطناب، وألفة لم تعرف يوماً الصرم والهجر، وقد جعل تجاسره على صديقه وغلظته في عتابه وتأنيبه له صادراً عن مدى حبّه وعميق صداقته.

ويخـــتم ابـــن قاضــــي شهبة اعتذاره بالموادعة والتوسّل والسؤال قائلاً: "وسؤال المملـــوك مـــن الصدقات إدامة الجبر الكريم، فإنّ المملوك إذا رأى كتاب سيدي شاهد معانـــيه مـــن مـــثاله، وتذكّر مواصلة الخيرات الحسان بين يديه بالنشر الفائح من طي أوصاله"[3].

فهو يطمح في جبر ذلك الكسر الذي أحدثته مخاطبته لصديقه، ولا يرى جبراً إلاّ فـــي متابعة تلك المراجعات بينهما، فتمثّل هذه المراجعات غذاءً لا يصفو عيشه إلاّ به، ولا تقرعينه دون أن تقع عليه.

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 48/5.
(2) المصدر نفسه، 48/5.
(3) المصدر نفسه، 49/5.

ومــن هذا القبيل رسالة اعتذار وجهها الصفديّ إلى صديقه جمال الدّين بن غانم يعــتذر فــيها عن تقصير لم يفصح عنه الصفديّ، وقد حملت رسالة الاعتذار ألواناً من المجاملات والتبريرات المفضية لإدامة الخلة بينهما، فبدأ تلك الرسالة كعادته في كسب ودّ خلــيله، وإطفــاء نار العتب والهجران بالحديث عن الشّوق والحنين، فجاء في هذا المعنــى مــن تلــك الرســالة: "يقبل الأرض ويصف شوقه الذي شقّ الجوانح، وجرّح الجوارح، وملأ الفؤاد فوادح، ويذكر حنينه الذي شغله عن ذاته، وأذهله حتّى عن تمنّي اللقاء ولذّاته، ونغّص صفو عيشه بالبُعد، وهذه أحسن حالاته"[1].

فالصــفديّ مــن خلال هذه المقدّمة يصف الجوّ الكئيب الذي ألمّ به إبّان مقاطعة صــديقه فجفوة ذلك الصّديق أشعرته بالوحدة والوحشة وألهبت شوقه، وأحرقت فؤاده، حتــى فــارق ملذّاته، ولم يعد يروق له صفو الحياة وهناؤها، فطوّقته الهموم، وأذابت قلبــه الحسرات، وسلبته الهواجس جميع الملذّات، وأذهلته هذه الحالة العصبيّة عن تذكّر مراسلات أحبابه، فجعل الصفديّ من تلك الأهوال التي أختلقها عذراً ومبرّراً عن انقطاع مــراجعاته لصــديقه، وفــي مثل هذا اللّون من الاعتذار انكسار واعتراف بالتقصير، وشــعور بالــذّنب، ولكــن الأحــوال التي وصفها وأشغلته عن تذكّر أصدقائه لفداحتها وقسوتها يمكن أن تُسهم في قبول عذره وإقالة عثرته، والأُسلوب الآخر الذي يجنح إليه الصفديّ ويرى فيه قبول الاعتذار يكمن في ترحيبه الحار بالعتاب، وذكر فضيلة السبق، فقــد صــوّر ذلــك العــتاب بالسُّــيوف التي تقطع دابر البغضاء، مشعلة ناراً مواقدها ضــلوعــه، فقــال مصــوّراً ذلك: "وينهي ورود المثال العالي، فتلقّى منه أكرم وارد، وحــوى مــن ألفاظه الغرّ مصائد الشوارد، وشافهه منها ألسن عتب لها في القلب وقع السُّــيوف وإن كانــت فصــاحتها مثل المبارد، وأضرمت في الحشا نيراناً لها الزفرات دخان، والضّلوع المنحنية مواقد"[2].

(1) المصدر السابق، 2/704-705.
(2) المصدر نفسه، 2/705.

وفي مثل هذا الجوّ الانفعالي المفعم بالعاطفيّة والأحاسيس والمشاعر يقرُّ الصفديّ بتقصيره، ولم يجد بدّاً من الاعتراف بتخليق أعذاره وضعفها في وجه هذا العتاب الشّديد الـــذي يقف حائلاً أمام تدفق أعذاره، وهنا لا يجد الصفديّ إلاّ الكشف عن حقيقة عذره الواهـــي أمـــام صلابة ذلك العتاب، فيجد في الاعتراف وسيلة، وفي التضرُّع سبباً من أســـباب قبول الاعتذار وغفران الهفوة، فقال: "فقابلها بأعذاره الملفّقة، فقالت حرارة تلك السُّـــور: دعـــنا من عذرك البارد، ونظر من الحروف المنظّمة إلى نونات كأنّها براثن الأُسود، وإلى ميمات كأنّها عيون الأساود"[1].

وقـــد قاده اعترافه بتلفيق أعذاره وضعف حجّته إلى مدح صديقه والإشادة بعتابه الـــذي أســـهم في رأب الصّدع وتفادي القطيعة، وقبول التأديب بنفس راضية مستسلمة متضـــرّعة. ففي هذا التأديب درس للصفديّ يضمن عدم تكرار تلك القطيعة فقال: "هذا هـــو العـــتب المحمود العواقب، وهذا التأديب الذي يعقب الرضى ولا يعاقب، وقد عاد المملوك إلى صوب الصّواب، وتضرّع من تلك السُّطور على عتبات العتاب"[2].

وتـــدلّ رقّـــة ذلـــك الاعـــتذار علـــى حرص الصفديّ على قطع شأفة البغضاء والتناكـــــر، وجحود المودّة والصداقة، والعودة إلى أجواء الخلّة الصّادقة، القائمة على الوفاء والإيثار، وقد فرضت عليه هذه العبوديّة طلب المغفرة من صديقه "فليغفر مولانا هذه الهفوة، وليقله عثرة هذه الخطوة التي لم يلقَ فيها حظوة، والله يمتّع العيون والنُّفوس بجماله وجلاله"[3].

ولا شكّ في أنّ قبول هذا العذر والصفح عن هفوة صاحبه كفيلة بعدم تكراره مرّة أخرى، فالصفديّ حريص على عدم المعاودة لمثله أبداً.

---

(1) المصدر السابق، 705/2.

(2) المصدر نفسه، 705/2.

(3) المصدر نفسه، 705/2-706.

لتقصيره من معاقبة فأعفاه منها، وجبر ما قابله وأذن له في المكاتبة على أنّ المملــوك -شهد الله - ما يترك مكاتباته نسياناً لبرّه، وإنّما ذلك إزاحة لتكلّفه، وإراحة سرّه"(1).

فتــرك ابن الورديّ مكاتبات صديقه متعمّداً لكنه غير قاصد الإيذاء أو الهجر بل لأنّ الظروف التي يمرّ بها تسوء الصّديق، وقد أفصح عن تلك الأحوال التي حبسته عن المكاتبة قائلاً: "وقد جهّز المملوك ورقات تتضمّن النبا عن الوبا وما هي من جيد قوله، وكيف يجيد مَنِ الطّاعون يتخطّف النّاس من حوله"(2).

ومــن هــذا اللون من الاعتذار ما كتب به الصّفدي إلى شرف الدّين بن ريّان، معتذراً عن تأخّر مراسلاته إليه ومراجعاته، فقد حالت دون ذلك فتنة حصلت أشغلته عن متابعة أخبار خلاّنه، فجاء في ذلك الاعتذار قوله: "وحاول المملوك الجواب فجاءت هذه العوائق التي ما احتسبت، والحوادث التي لم تكن كيوم القيامة"(3).

والحقــيقة أنّ رسائل الاعتذار محكٌّ أصيل للوقوف على صدق علاقاتهم، وبقاء مــودّاتهم، وفــيها ضـــمان لاستمرار صلاتهم، فهم من خلالها يعبّرون عن مشاعرهم النبيلـــة وعوطفهم الجياشّة، وقديم ودّهم الذي تداركوه قبل ضياعه، وتذكّر أيّام الصّفاء التي تفيئوها، فيحنّون من خلال تلك الرقاع إلى إعادة تلك المودّات.

رسائل الشكوى:

إنّ مــن وســائل التخفــيف بين الأصدقاء بثّ أحزانهم وهمومهم وآلامهم التي تــواجههم فـــي حال سقمهم وصعوبة ظروفهم وأحوالهم، فإذا ما اعترض ذلك الأديب عـــارض نال منه، وأسدى إليه الهموم وضاق صدره عن احتمال ذلك الأذى، لا يتوانى عـــن بــثّ حزنه إلى صديقه علّه يشاركه عواطفه وأحاسيسه، وهذا اللون من الرسائل يظهـــر فيه المرسل حاجته للمساعدة الأخويّة، ومشاركة صديقه له، ومؤازرته في تلك

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص114.
(2) المصدر نفسه، ص118.
(3) الصفديّ: اعيان العصر، 86/4.

الأحـــوال، وقد شاعت مثل هذه الرسائل في موضوعات الأسقام والفتن التي تعرّض لها الأدبـــاء، وعندئذٍ لا يجدون مناصاً من الشكوى إلى أصدقائهم، والبوح لهم بهذه الملمّات التـــي تعصف بهم، فيصفون أحوالهم ومدى ضعفهم، وحاجتهم إلى المواساة والمساعدة، ومن ذلك شكوى بعث بها أحمد بن علي تقي الدّين السبكيّ إلى الصفديّ، يصف فيها ما يلقاه من مرض الطاعون الذي فتك بالآلاف في مصر، فجاء في تلك الرسالة: "غير أنّه صـــادف مـــن المملـــوك قلباً يتقلّب على الجوى، ويتطلّب سبيلاً إلى الفرار من النوى، ويتصـــلّب علـــى الحـــبّ كلمـــا انشـــوى، ويتغلّب عليه داني الهوى، فآنس من جانبه المؤانســـة، ولابس منه ما جانب به وساوسه"(1).

ففي الفقرة السابقة تظهر لوعة السبكيّ جليّة، فقلبه قد آلمه الجوى، وهو يصارع رغـــبة صـــارمة تحتّم عليه الفرار من البعد والفراق ولم يجد بدّاً من الاستعانة بصديقه للخـــلاص مـــن تلك الحالة الملازمة له، فوجد في تلك الصّداقة المؤانسة والتخلّص من وساوس الهموم والشكوى.

وجاء من الرسالة ذاتها ما يعبّر عن مدى الأحزان والآلام التي انتابته جرّاء ذلك المـــرض الذي نزل بساحة قومه، وحصدهم حصد الثمار، وأغار عليهم غارة الأعداء؛ ممّـــا جعلـــه يخـــرج عن طور الصّبر والاحتمال والفزع إلى الشكوى، وطلب مشاركة الآخرين له بالعزاء والتسرّي فقال: "وشغله ما شغل جميع الخلائق، وهو أمر هذا الوبا، ومـــا بلغكـــم عـــنه مـــن النـــبأ، فإنّه قد عمَّ البلاد والعبـــاد، وغـــمَّ النّفـــوس وأذاب الأكبـــاد"(2).

والنّاظـــر فـــي تلـــك الفقـــرة مـــن الرسالة يجدها تفيض بألفاظ الشكوى والألم والجـــزع، وعدم الاحتمال ونفاد الصّبر، والخوف من العاقبة، فالغرض ليس وصف شدّة الكارثة بقدر ما هو شكوى من تلك الأحوال، فهي أحزان ومعاناة يبثّها صديقه علّه

---

(1) الصفدي: ألحان السواجع، 31/1.

(2) المصدر نفسه 31/1.

يســـرّي عن نفسه بإبلاغها، وقد أكثر السبكيّ من وصف مشاهد الموت الجماعيّة، وقلّة احتمال النّاس الصّبر، وانتظارهم المصير المحتّم، فزاد لذلك تضرّعهم وشكرهم.

ومـــن رسائل الشكوى الأكثر وضوحاً ما بعث بها أحمد بن علي علاء الدّين بن غـــانم إلى صديقه الصفديّ، يصف في تلك الرسالة ما يلاقيه من أهوال السّقم الذي حلّ بجســـمه، وكيف قلّ احتماله لتلك البلوى، وألجأته تلك المحنة إلى الشكوى والتعبير عن آلامه وأحزانه إلى صديقه، فجاء من تلك الشكوى التي تجمع بين المنظوم والمنثور قول الكاتـــب: "يقبل الأرض وينهي أنّه لا يسأل مولانا كيف انقضت ليلته من الألم -دفع الله عن مولانا ما يحاذره- والمرجو حصول اللّطف من الله تعالى"(1).

فالكاتـــب يبثّ صديقه المعاناة التي واجهها من ذلك المرض، ويصف له ما لاقاه في تلك الليلة من الألم الذي حرمه السكون والكرى، ولما كان ذلك سقماً ومرضاً وليس لصديقه حيلة في التخفيف عنه عدل إلى التضرّع إلى الله أن يلطف به، ويجنّب صديقه تلك الأوجاع.

ومـــثل هذه الرسائل تصوّر مدى العلاقة الحميمة التي كانت تربط الأدباء، حتى بلغـــت بهم تلك الأواصر إلى الإفضاء إلى بعضهم في كل ما يعزّيهم من أوجاع وهموم وآلام، فـــلا يجدون في أنفسهم أي تردّد من الشكوى وبثّ أحزانهم إلى بعض، وهذا ما يدلّ على شفافيّة علاقاتهم ونقائها.

ومـــن الغـــرض ذاتـــه كتب الصفديّ إلى أبي بكر بن محمد بن غانم، شاكياً من مرض ألمّ به، وقرّح جفونه، وأذهب سكونه، وأوهى جسمه قائلاً: "يقبل الأرض صرف الله الصروف عن حماها، وحفظ ساحها من الغِيَر وحماها، وجعل حرمها لأوليائها عوذة من الأسواء، وإذا قبلته شفاه مرضاها شفاها شفاها، وينهي لا بل يسلو حاله التي ليس له

(1) المصدر السابق، 20/1.

منها بدل، وآلامه التي كلمت أعضاه ولم يكن جلده قطع ذلك الجدل، وحُمّاه التي تلدغه منها عقرب... فليت جسمه مع ذاك حمل"[1].

فالصــفديّ يشــكو مــن مرض الحمّى الذي كان من أفتك الأمراض في الزمن المتقدّم، واصفاً أعراضه التي أفقدته احتمال الصبر، وأنسته لذّة العيش، فقاسى من الآلام مــا يقاسيه لديغ العقرب من سمومها. وقد أخذ في وصف ذلك المرض مظهراً الشكوى وعــدم الاحــتمال، واصفاً ألوان العذاب الذي أحلّ بجسمه من رأسه إلى أخمصه قائلاً: "ويعجــز المملــوك عــن وصف ما حصل لرأسه من الصداع ولجسمه من الصّدوع، ولآماله المعلّقة من القطع، ولخطه من القطوع"[2].

فقــد ألجأتــه تلك الحمّى إلى الشكوى، وقطعت أماليه وأمانيه، وقرّبت أجله، فقد عجــز عــن احتمال صداعها الذي صدع رأسه، وصدّع جسمه، فالمرض لم يترك من جســده شــيئاً لــم يمسّه، فوجد في بيت المتنبي في وصف الحمّى بغيته، فضمّنه تلك الرسالة:

بَذَلْتُ لَهَا المَطَارِفَ والحَشَايَــــا فَعافَتْهَا وَبَاتَتْ فِي عِظَامِــــي[3]

واتّســمت رســائل الشــكوى مــن هذا اللون بالقصر البيّن مع كثرة ألفاظ الألم والشّــكوى والحزن الملازم لتلك الرقاع، وبيان الضعف الذي لازم كتّاب تلك الرسائل، وعدم احتمالهم للصّبر.

وهــناك رسالة شكوى بعثها الصفديّ إلى شرف الدّين حسين بن ريّان، إثر فتنة ألمّت به، حيث تعرّضت مدينة دمشق إلى محنة وأبناء الصفديّ فيها وهو في مدينة "لُدّ" فكــتب تلك الرسالة يشكو فيها من تلك الحال التي أصابت دمشق، ومتخوّفاً على أبنائه، وقــد وجّه الصفديّ تلك الشكوى إلى صديقه واصفها بألوان من الألم والخوف والفزع

(1) المصدر السابق، 83/1.
(2) المصدر نفسه، 84/1.
(3) المتنبي: الديوان، 146/4.

والـــتوجُّس قـــائلاً: "يا مولانا هذه مصائب عمّت وصمّت، وصرحت بالشرِّ وما عمّت، وقيدت إليها الأهوال وزمّت، ودعت الجفلى إلى مآدبها، وأصمّ المسامع نعي نوادبها، فلا حـــول ولا قـــوة إلاّ بالله العليّ العظيم، قول من ضاقت به حيلته واتّسعت عليه بالهموم ليلته... ونسأل الله تعالى حُسن الخاتمة، وفجر هذه الليل العاتمة"[1].

وقـــد أبـــدى الصفديّ ألواناً من الهموم والأحزان، وكثرت وساوسه، وفصّل في حديـــثه عن المصائب التي عمّت، والأهوال التي بلغت من النّاس كل مبلغ، ونالت من نفوســـهم ما لم يحتملوا الصّبر عليه، حتى كثرت الناعيات والنادبات، وهذا الأمر ألجأه إلـــى الشـــكوى، فصـــرّح معلـــناً عن ذهاب صبره ونفاده، وعدم احتماله، وقلة حيلته، فهاجمـــته الهمـــوم وأغارت على مثاقيل صبره، وأخذ الصفديّ يصوّر الحال التي كان علـــيها من الفزع والخوف والتوجُّس والقلق قائلاً: "فقد بلغت القلوب الحناجر، وحزّت الغلاصم بالخناجر، وكسرت براني الصبر، وحسد من امتطى ظهر الأرض من استكن في جوانح القبر"[2]، فلشدّة تلك النازلة التي واجهته وعصفت به وأفقدت النّاس الصّبر، تمنّـــى الأحـــياء معها الموت؛ لتهدأ أنفسهم من تلك الضائقة، وفي تصوير هذه المشاهد تفريج لهمّه وغمّه، فمثل هذه الرسائل تسهم في تخفيف معاناته، وكعادة رسائل الشكوى حـــيث لا بـــدَّ فيها من الالتجاء إلى الخالق -جلّت قدرته- في كشف الضرِّ والانتصار للمظلـــوم، فجاء في هذا المعنى قوله: "وهذه رزية شموس التثبّت بها كاسفة، وليس لها من دون الله كاشفة، اللهم اكشف هذه البلية عن البرية، ولقّ النفوس الظالمة ووقٍ البرية وأجرنا على عادة أجرنا، وعجّل فكَّ أسرنا بأسرنا إنّك بالإجابة جدير وعلى كشف هذه اللأواء قدير"[3].

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 86/4.
(2) المصدر نفسه، 86/4.
(3) المصدر نفسه، 86/4.

ففي هذا تضرُّع وخشوع لله سبحانه بأن يكشف عنهم الضرّ والنوازل التي أثقلت كواهلهم، وجعلتهم يضجّون بالدعاء إلى الخالق في رفعها عنهم، وإزالة اليأس عنهم، فلا ملجأ منه إلاّ إليه.

والنّاظــر في رقاع الشكوى السابقة يجدها في مجملها تتمحور حول عدّة قضايا أبــرزها قضيّة تصوير الجزع والآلام والأوجاع والهموم التي أشغلت الأديب وقطعت آمالــه، وآيســته مــن احــتمال الصبر والاحتساب حتى يفرَّ إلى بثِّ تلك النوازل إلى خلاّنـــه، طالــباً مواســاتهم وســلوتهم له، مظهراً ضعفه وقلّة حيلته في مواجهة تلك الأحوال والأسقام.

والكاتــب كذلك في مثل هذه الرقاع يكشف عن لون من ألوان التضرّع والابتهال إلى المولى سبحانه أن يكشف عنه تلك الشدّة وأن يجنّب خلاّنه هذه المصائب والويلات.

ويُلحــظ على تلك الرسائل قصرها، فكأنّها أنّاتٌ يرسلها الكاتب إلى صديقهِ، فلا مجــال في مثل تلك الحال أن يطوّل ويؤنّق فيها، فالحالة النفسيّة لمدبّجها لا تعينه على تطــويلها والإطــراء فــيها، بل القلق والألم والجزع لا يمهله حتّى يتمكّن من تفصيل أجــزائها وتحلــيل كليّاتها، وكأنّما هي ومضات يُفسح للنّفس فيها أن تعبّر عن معاناتها ومقاساتها للآلام.

ثالثاً: العلاقات التعليميّة

اهتمَّ المماليك بالحياة العلميّة، وتبوأ العلماء مكانة علية في الأوساط الاجتماعيّة، وأسندت المناصب الديوانيّة إليهم، فزاد اهتمام العلماء بالدرس والتحصيل والتأليف، فالتفَّ حولهم نفرٌ من الطلبة ينهلون من علومهم، ويغرفون من بلاغة بحورهم، وقد اشتهر في ذلك العصر البحث عن التعليم والتمسّك بأسبابه، فكثر الشيوخ والمدرِّسون.

وقد اتّخذ التعليم في تلك الحقبة الصّفة الشخصيّة أكثر من الصّفة الإلزاميّة المنظّمة على الرغم من وجود المدارس التي ينفق عليها من قِبَل الدولة والأوقاف، فقد كثرت الإجازات العلميّة بأنواعها المختلفة ورسائل التقريض وحلّ الألغاز والأحاجي.

وقد أصبحت هذه الإجازات من أولويات عمل الأدباء والعلماء، وقد ارتبطت تلك الإجازات والتقاريض وحلّ الألغاز بالعلاقات الاجتماعيّة، فإذا ما أراد طالب أن ينهل من علوم أولئك الشُيوخ ما كان عليه إلاّ أن يوطّد العلاقة معهم، ويلزمهم في حلّهم وترحالهم، فيتعلّم سلوكهم قبل علومهم.

وقصّة الشُيوخ مع طلبتهم تمثّل صفحة صداقة وخلّة وفيّة، فتبنى تلك العلاقة على نوع من الصّلات والمودّات والاعتراف بالفضل، والذي يبرهن ذلك ما مرَّ في الفصل السابق من الرسائل الإخوانيّة التي كان يتبادلها الطلة مع شيوخهم.

والذي يحتّم إدراج هذا الفصل في باب الرسائل الإخوانيّة ما كانت عليه علاقات الطلبة مع شيوخهم، حيث كانت تعتمد سبيل العلاقات الاجتماعيّة والشخصيّة، وهذا ما يقود إلى جعلها في هذا الباب. فرسائل الإجازات يمنحها الشُيوخ طلبتهم بشكل شخصيّ، والاستدعاءات بالإجازات يكتبها الطلبة إلى شيوخهم كذلك بالأمر ذاته، فكلا الإجازات والاستجازات تتّخذ الطابع الإخواني لا الإداري أو الديواني، والأمر نفسه يحصل في

حالـــة تدبيج رسائل حلّ الألغاز والأحاجي الخاصة بالنُكت النحويّة والبلاغيّة وغيرها، وهــذا ما يحصل كذلك في حالة تقريض المصنّفات والقصائد، حيث تتّبع سبل العلاقات الشخصيّة لا الرسمية.

الإجازات:

هـــي رســـائل يكتـــبها الشُـــيوخ إلى طلبتهم يكون موضوعها مرتبط بالمستوى التحصيلي الذي بلغ شأوه ذلك الطالب، حيث تنظّم درجات المتعلّمين، وتبيّن المكانة التي يـــرتقون إليها، فهي على هذا النحو متنوّعة تبعاً لتنوّع الغرض الذي تتضمّنه، فتتوزّع هـــذه الإجـــازات علـــى: الإجـــازة بالفتيا والتدريس، وهي أعلى هذه الإجازات، تليها الإجـــازة بالعراضة، ثمّ الإجازة بالمرويّات، ولكل واحد منها حدٌّ يميّزها عن غيرها.

أ- الإجازة بالفتيا والتدريس:

يُعدُّ هذا اللون من الإجازات قمّة الهرم من حيث الدرجات العلميّة، فتمنح للطالب عـــندما يشعر شيخه أنّه يمكن الركون إليه في الجلوس للتدريس والفتيا، فبعد أن يطمئن الشـــيخ إلى قدرة طالبه على تحمّل عبء هذه الدرجة ويركن إليه في القيام بتلك المهمّة والتصـــدّي للـــتدريس والفتـــيا، يدبّج إليه رسالة يجسّد من خلالها إجازته بممارسة تلك المهنة، محذره من المزالق التي قد تصادفه في مسيرته.

وتتضمّن تلك الرسائل ألواناً من المجاملات وعبارات التقريض والثّناء ممّا يقرّبها إلـــى رســـائل المديح والشُكر، ويحرص الكتّاب في مثل هذه الرسائل أن يضمّنوها اسم المجـــاز وتاريخ الإجازة ونوعها، وقد "جرت العادة أنّه إذا تأهّل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرّس ويكتب له بذلك"(1). ولم يحصل الطالب على هذه الإجازة إلاّ بعد أن يتأكّد شيخه من أنّه لديه القدرة على الفتيا والتدريس في علم مـــن العلـــوم، فمن هذه الإجازات ما حصل عليه القلقشندي في الفتيا والتدريس لمذهب

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 322/14.

الإمــام الشّـافعي من شيخه ابن الملقّن سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وقد تضمّنت هذه الإجـازة إذناً له بالتدريس والفتيا للمذهب الشّافعي، وقد نهج ابن الملقّن في تلك الإجازة طريقة وسطى بين الرسائل الديوانيّة والإخوانيّة، فقد بدأها بالتحميدات الطويلة الملائمة للموضـوع، حـيث تضمّنت تلك التحميدات بيان فضل العلم والاشتغال به والاعتراف بفضـل تلـك المهـنة، وتأكـيد علوّ منزلة العلم الشرعيّ حيث قال: "فقد وضح لذوي الأبصـار والبصـائر، واتّضح عند ذوي الأسرار والسرائر، واستقرّ عند ذوي القلوب السليمة والعقول الراجحة المستقيمة أنّ منزلة علم الشريعة عند الله تعالى أعلى المنازل، وفضـله أفضل المآثر، وآثر الفضائل، وخصوصاً معرفة تفاصيل أحكام أفعال المكلّفين بالشريعة المحمّديّة..."[1].

وقـد أبحر الكاتب في ذكر فضائل ذلك العلم، وحثّ على الرغبة في التزوّد منه، وأطال في تعداد مناقبه، وجعل تلك الخطبة مدخلاً ملائماً لمدح طالبه الحائز على ثقته، الـنائل لإجازته. فقد عظّم ذلك العلم وأعلى من شأنه وقدره؛ لبيّن فضل من يقوم على حفظه وخدمته والعمل به، وذكر طائفة من آي الذكر الحكيم والأحاديث النبويّة الشريفة، التي تنطق بفضل ذلك العلم، وتمجّد من يقوم عليه.

وبعـد تلك المقدّمة الطويلة خلص ابن الملقّن إلى الثّناء والمدح لطالبه، حيث لمح مـنه الفطنة والذكاء وتوقّد الفكر الذي مكّنه من ترقّي هذه الرتبة على حداثة سنّه قائلاً: "ولمّـا كان فلان أدام الله تعالى تسديده وتوفيقه، ويسّر إلى الخيرات طريقه، ممّن شبَّ ونشـأ فـي طلب العلم والفضيلة، وتخلّق بالأخلاق المرضية الجميلة الجليلة، وصحب السّادة من المشايخ والفقهاء والقادة من الأكابر والفضلاء، واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشـتغالاً يُرضـي"[2]، ومـن خلال هذه الفقرة من الرسالة يخلص المرء إلى القول إنّ المعـيار الأول فـي منح مثل هذه الإجازات هو طول المكث مع الشُيوخ والفقهاء، ففي

(1) المصدر السابق، 323/14.
(2) المصدر نفسه، 324/14.

الجلوس معهم مؤشّر يقود مجيزه إلى الاستئناس برجاحة عقله بمخالطته هؤلاء العلماء والسّـادة، والمعـيار الآخـر يتمثّل في الخلق الذي يكتسبه نتيجة هذه الصحبة، وطول المعاشـرة، فقـد أثنـى ابن الملقّن على تلميذه من خلال هذه الميزة، حيث مدح أخلاقه وشيمه المتأتية من ملازمة هؤلاء العلماء والاشتغال بذلك العلم عليهم، فالاشتغال بالعلم الشـريف وحده لا يكفي بل لا بُدَّ من تعلّم ذلك العلم على يدّ هؤلاء العلماء حتى يكتسب الفضيلة عنهم إضافة إلى العلم.

وبعـد أن يلمـس مـن طالبه تلك الميزة يلجأ إلى الاستخارة قبل أن يمنحه تلك الإجازة، وفي ذلك ملمح يشير إلى خطورة تلك الإجازة، ودرجة أهمّيتها، حيث لا تمنح إلاّ بعـد تأنٍّ وصبر واستخارة، فجاء قوله: "ولمّا كان فلان... استخار الله تعالى سيّدنا وشـيخنا وبـركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى..."[1]، وقد حشد كثيراً من الألقاب والكنى التـي تُظهر التفخيم والتعظيم إلى حدٍّ مبالغ فيه، وفي حشد هذه الألقاب وكثرة تعظيمها إشارة إلى أهمية هذه الإجازة، وعلوّ قدرها، فهي صادرة عن عالم جليل القدر، وبعد أن ينتهـي مـن سرد ألقابه يفضي إلى ألقاب طالبه التي لا تقلّ تعظيماً وإجلالاً عن ألقابه، وفـيها قدر كبير من المجالات، حيث يقال في ألقاب المجاز "الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمـام العـالم الأوحـد، الفاضل، المفيد، البارع، علم المفيدين، رحلة القاصدين فلان الدّين..."[2].

ويذكر القلقشندي أنّه أهمل ذكر ألقابه الواردة في هذه الإجازة، وعلّل ذلك بقوله: "إنّـه لا يلـيق بأحـدٍ أن يذكر ألقاب نفسه في مصنّف له؛ لأنّه يصير كأنّه أثنى على نفسـه"[3]، ولا أكـون مجانـياً للصّواب إذا ما قلت بأنّ الألقاب التي أوردها في نهاية

(1) المصدر السابق، 324/4.

(2) المصدر نفسه، 327/14.

(3) المصدر نفسه، 327/14.

الإجـــازة المشار إليها آنفاً هي ما ورد في حقِّه، ولكنّه أراد أن يظهر بمظهر المتواضع مع بيان ألقابه الواردة في حقِّه.

ومهما يكن من أمر، فإنّ المجيز خلص بعد تلك السلسلة من الألقاب التي تقاسمها مـــع طالـــبه إلـــى الغرض الرئيس المتمثّل بالإذن بالفتيا والتدريس، وذكر تلك الإجازة صـــراحة لا تلميحاً كقوله: "وأذن وأجاز لفلان المسمّى فيه -أدام الله تعالى معاليه- أن يـــدرّس مـــذهب الإمـــام المجتهد المطلق العالم الربّاني أبي عبد الله محمد بن إدريس المطلبـــيّ الشافعيّ رضي الله عنه وأرضاه... وأن يقرأ ما شاء من الكتب المصنّفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبيه حيث حلّ وأقام، وكيف ما شاء متى شاء، وأين شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطاً ولفظاً على مقتضى مذهبه الشريف المشار إليه لعلمه بديانته وأمانته ومعرفته ودرايته وأهليته لذلك وكفايته"[1].

ومـــن هـــذه الفقـــرة من الرسالة تُستشفّ أمورٌ كثيرة تكون عمدة لتلك الإجازة، فالأمـــر الأول يتمـــثّل فـــي تحديد نوعها، فهي إجازة وإذن بتدريس وفتيا لمذهب واحد محـــدّد، ولـــيس علـــى عمـــومها، فهي مقيّدة بمذهب وطريقة، وقد عيّن ذلك المذهب، والأمـــــر الثاني يتمثّل في تحديد غرض هذه الإجازة، حيث بيّنه في أمر التدريس لذلك المذهب، ونبّه على أهمية التزوُّد وعدم الركون إلى الدعة والاعتماد على تلك الإجازة، بل على الطالب أن يواصل البحث والدراسة في ذلك المذهب ليصبح في ذلك العلم باقعة زمانه، والأمر الثالث يتضمّن الإذن بالفتيا وهذا يدلّ على أنّ إجازة التدريس وحدها لا تؤهّل إلى الفتيا دون الإذن الصريح بالفتيا، وهذا ما ورد صريحاً في نصّ تلك الإجازة، ويتمثّل الأمر الرابع في بيان أهمية الأخلاق والسمت الحَسَن في هذه المهنة، فالإجازة لم تُمـــنح له إلاّ بعد التأكّد من هذا المورد المتمثّل بعلمه وديانته ومعرفته ودرايته وأهليته وكفايته، ورجاحة عقله، ومخالطته لأهل العلم، ومجالسته للعلماء.

(1) المصدر السابق، 325/14.

وهناك أمر خامس غاية في الأهميّة يكمن في الحثّ على التزوّدِ بالعلم، ومواصلة البحث والدراسة والتعمّق وسبر غور ذلك العلم، وعدم الخلود إلى الدعة والراحة، والركون إلى الاكتفاء بتلك الإجازة، وفي هذا الأمر حثٌّ لطلبة العلم في أي مكان وزمان على المثابرة والجَلَد في طلب العلم دون ملل أو كلل؛ لأنّ الحصول على الإجازات لا تعني نهاية العلم.

وتختم الإجازة بالوصايا التي يرى فيها الشيخ ضرورة ملحّة قد يجنّب طالبه إذا أخذ بها عقبات كأداء، مستخلصاً تلك الوصايا من تجاربه خلال مسيرته في ذلك النهج، فجاء في تلك الرسالة "ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم لا أعلم، فذاك قول سعد قائله، وقد جاء: جُنّة العالم لا أدري، فإذا أخطأها أصيبت مقاتله"(1).

ومن خلال تصفّح هذه الرسالة وعرض بعض أجزائها يتبيّن أنها إجازة عامة، مكّنت صاحبها من ممارسة مهنة التدريس والفتيا في ذلك المذهب دون قيد أو شرط، وقد تخلّل أجزاء تلك الرسالة ألوانٌ من المبالغات والمجاملات وعبارات المدح والثّناء، ولكنها أبقت الشيخ في مكانة أعلى من مكانة طالبه، وظهر ذلك جليّاً من خلال الوصايا الدّالة على عميق تفكيره، وتبحُّره في ذلك العلم، وتقرن هذه الإجازات بالتّاريخ، وقد ذكره المجيز في آخر الرسالة.

وإذا ما حصل الطالب على هذه الإجازة، فإنّه يكون قد حاز إذناً صريحاً بإجازة مرويّات الشيخ المجيز، وهذا ما قرنه ابن الملقّن بإجازته العامة للقلقشندي، فتكون الإجازة بالمرويّات تحصيلاً حاصلاً في حال حصول الطالب على إذن شيخه بالتدريس والفتيا.

(1) المصدر السابق، 325/14.

ب- الإجازة بالعراضة:

هـذه الدرجة من الإجازات تكون في مرتبة أدنى من الإجازة بالفتيا والتدريس، ولكـنها كثيـرة إلى حدٍّ يخرجها عن نطاق الحصر، وعنها عبّر القلقشندي بقوله: "فقد جـرت العادة أنّ بعض الطلبة إذا حفظ كتاباً في الفقه أو أُصول الفقه أو النحو أو غير ذلـك من الفنون يعرضه على مشايخ العصر فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب ويفـتح منه أبواباً ومواضع يستقرئه إيّاها من أي مكان اتّفق، فإن مضى فيها من غير توقّف ولا تلعثم استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه جميع الكتاب"[1].

ويفصـح هذا الحدّ الذي وضعه القلقشندي عن طبيعة تلك الإجازات حيث يجتهد الطالـب في حفظ ذلك الكتاب في أي علم اتّفق، ثمّ يأتي شيخه المتمرّس في ذلك العلم ليعـرض عليه حفظه لذلك الكتاب؛ فإن توصّل الشيخ إلى قناعة بحفظ ذلك الكتاب كتب له إجازة تشهد بروايته لذلك المصنَّف.

والحقـيقة أنّ هـذا النوع من الإجازات أكثر ذيوعاً في أوساط الطلبة، حيث تُعدُّ طـريقة حفـظ الكتب سبيلاً مفضياً إلى الحصول في النهاية على الإجازة العامة، ولا تتـباين رسالة الإجازة بعراضة الكتب عن الإجازة العامة إلاّ في بعض الخصوصيات، حـيث تـبدأ الرسـالة بالتحميدات المناسبة للغرض والثناء على طلب العلم، والكدّ في تحصيله، وبيان فضل من حازه، فمن ذلك إجازة من ابن الورديّ لشهاب الدّين أحمد بن ريّـان بقراءة الخلاصة في النحو لابن مالك وشرحها، فجاء في ذكر فضل العلم قوله: "أمّـا بعد حمد الله الذي منح خلاصة النحو كل مقرَّب، أو فتح لمن برزت ضمائره في طلب العلم باب معرفة، وهو باب صحيح ومجرّب"[2].

---

(1) المصدر السابق، 327/14.

(2) ابن الورديّ: الديوان، ص57.

ولا يرد في عراضة الكتب ألقاب الشيخ بل يكتفي بضمير المتكلّم متبعاً ذلك اسم الطالـــب، واصفاً ذكاءه واتّقاد فكره، وتمكُّنه من حفظ ذلك المصنَّف، وقدرته على نقله وتدريســـه، فجاء في تلك الرسالة: "فقد قرأ عليَّ القاضي شهاب الدّين أحمد بن ريّان - جعلـــه الله – وقـــد فعل– فقيه أهله، ولا صرفه عن علميته ووزن فعله – جميع كتاب الخلاصـــة الألفـــيّة فـــي علم العربية... وما اكتفى بذلك حتّى شرح عليَّ شرحها لابن المصـــنّف مـــن أوله إلى آخره، ووقف على معانيه ومغازيه، وباطنه وظاهر، وأدأب نفسه في شرح هذا الشرح الطويل، وعوّل على إدراك أسراره أي تعويل"(1).

ومـــن إجـــازة لشـــهاب الدّين محمود الحلبيّ للصفديّ بحفظه المقامات الحريريّة قـــــول الحلبـــي: "قرأ عليَّ المولى الصدر فلان الدّين نفعه الله بالعلم ونفع به من أول كـــتاب المقامـــات إلى آخر الخامسة والعشرين قراءة تطرب السامع، وتأخذ من أهواء القلـــوب بالمجامع، وسأل منها عن غوامض تدلّ على ذكاء خاطره المتّقد، وصفاء ذهنه العارف منه بما ينتقي وينتقد"(2).

وبالجملـــة يمكن القول إنّ الإجازات بعراضة الكتب تتّبع هذا السبيل، حيث يقرّ الشـــيخ بقـــراءة ذلـــك الطالـــب، ويأخذ بالثّناء على تلك القراءة، حيث يصفها بأعجب الصّـــفات، ويمـــدح ذلـــك الطالب ويبيّن مواطن الذّكاء عنده وحبّه للعلم من خلال نعته بالفطـــنة وتوقّد الفكر، وتنبّه الذهن، والجلد والصبر على الحفظ والبحث والتحرّي، ولا تخلو هذه النعوت من مجاملات يطمح من ورائها الشيوخ إلى ذيوع صيتهم بين الطلبة، حيث في هذا الإطراء ما يقود الطلبة إلى العودة إليهم واختيارهم دون سواهم.

وقـــد تفسّـــر هـــذه المجاملات بطبيعة ذلك العصر القائم على التهويل الإعلامي والزخـــرفة القولية، فقد اعتاد هؤلاء الشيوخ -وأغلبهم من الكتّاب– على تلك العبارات، وأصبحت من لوازم أسلوبهم.

---

(1) المصدر السابق، ص58.

(2) الصفدي: أعيان العصر، 376/5.

ومهما يكن من سبيل هذه المجاملات والتهويلات، فإنّ الشيخ ينفذ من خلالها إلى الإقــرار بــتمكّن الطالــب من حفظ ذلك المصنّف واستيعابه استيعاباً يمكّنه من روايته وإقــرائه، فجــاء فــي إجازة ابن الورديّ السابقة قوله: "فصار أهلاً لإقراء هذا الكتاب وأصله، وأعرب عن ذهن وقّاد يشهد بفطنة فطرته وفضله"(1).

وفــي المعنــى ذاته قال الحلبي: "قراءة دلّت على تمكّنه من علم البيان، واقتداره على إبراز عقائل المعاني المستكنة في خدور الخواطر مجلوّة الأعيان"(2).

ولهــذا تمكّن تلك الإجازات الطالب من رواية هذا الكتاب وإقرائه، حين تعدّ مثل هــذه الإجازات سلّماً في طريق الحصول على الإجازة العامة في ذلك العلم، ويحرص الشــيوخ الــذين يقومون بمنح هذه الإجازات على ذكرهم لشيوخهم الذين أجازوهم هذه الكــتب، وفــي هــذا تأثّر واضح بعلم الرواية في الحديث النبوي الشريف، وفيه كذلك حــرص بــيّن علــى الحفــاظ على طريقة الرواية، فجاء في إجازة ابن الورديّ قوله: "وأخبــرته أن شــيخنا قاضــي القضاة شرف الدّين البارزي الحمويّ حِبْر الأمّة وعالم عالمهــا، أجازنــي عــن ناظمها، وأخبرني -على صدق لهجته وعلوّ مقداره- أنّ هذه الخلاصــة صــنّفت له وفي داره"(3)، وفي المعنى ذاته يقول الحلبي: "ورويتها له عن الشيخ الإمام مجد الدّين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن الظهير الإربلي"(4).

والقــارئ لمــثل هذا النوع من الإجازات يلحظ قصرها مقارنة بالإجازة العامّة، واقتصــارها علــى الإخبار بحفظ ذلك الطالب للكتاب المعروض، منوّهاً بخصاله التي لمحها من خلال عرضه عليه ذلك الكتاب: من نباهة، وذكاء ودربة، واتّقاد ذهن، وجَلَد وصبر، وفطنة وسلامة فطرة.

---

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص58.

(2) الصفديّ: أعيان العصر، 377/5.

(3) ابن الورديّ: الديوان، 58-59.

(4) الصفديّ: أعيان العصر، 376/5-377.

ويأتـــي بعـــد ذكر تلك الخصال إلى الإقرار بتمكّن ذلك الطالب من حفظ الكتاب والوقـــوف على جزئياته وكليّاته، مشيداً بفهمه له، وسبر غور أعماقه، مستدلاً من ذلك علـــى قدرته على أن يرويه عنه، وحينئذٍ يسمّي له شيخه الذي قد أجازه ذلك المصنّف حتى تبقى سلسلة السند متّصلة، تأثراً برواية الحديث الشريف، وحفاظاً على العلوم من ضياعها.

وقد كثرت هذه الإجازات إلى حدٍّ يصعب حصره، فقد يجد القارئ في قسم النثر فـــي ديـــوان ابن الورديّ عدداً من هذه الإجازات[1]، وهذا يدلّ على كثرة الطلبة الذين يطمحـــون إلى نيل تلك الدرجات، ويقود كذلك إلى المكانة التي بلغ شأوها ابن الورديّ وأمثاله في ذلك الزّمان.

ج- الإجازة بالمرويّات:

تُعـــدُّ الإجازة بالمرويّات من الإجازات المتقدّمة، حيث ينالها الطالب بعد عرض مجموعة من كتب الأصول، فعندما يحسّ ذلك الطالب بأنّه قد قطع شوطاً في ذلك العلم يكـــتب اســـتدعاءً لأحد شيوخه يطلب فيه منه الإذن برواية جميع ما ألّف أو روى من العلوم، وعلى قدر ثقة ذلك الشيخ بمستدعيه يمنحه تلك الإجازة، مصرّحاً بجميع ما ألّف وروى فـــي ذلك العلم. فتكون تلك الرسالة إذناً له برواية تلك الآثار، ويعتمد الكتّاب في تلـــك الرســـالة رسوماً متّبعه، حيث تقرب خطبتها من خطبة رسالة الإجازة بالتدريس والفتـــيا، فالمبنى العام لهاتين الإجازتين يكاد أن يتطابق لولا غرض كلّ واحدة منهما، فتبدأ تلك الرسائل بالتحميدات الطويلة التي تمجّد هذا العلم وتحثّ على تتّبع آثاره، وتبيّن فضائله، وهذا النوع من الإجازات يفوق غيره في ناحية المجاملات، وعبارات التهويل والمـــدح والثـــناء، ومـــن تلك الرسائل ما أجاز به الحلبيّ الإمام عزّ الدّين بن العجمي بمـــرويّاته قـــائلاً: "فإنّي لما خلت في غمار طلبة الأدب رغبة في اقتباسه، وطعماً في

(1) ابن الورديّ: الديوان، 59، 60، 66، 75، 76، 138، 139، 145، 146، 148، 179، 187.

تحصـيل بعضـه، بإدامة التماسه، وحصّلت كثيراً من كتبه رواية ودراية، وعرفت ما أجتنب من نقائض المعاني والألفاظ التي لا تؤمن نكايتها في الأذهان السليمة بالسراية، لم أزل أستضيء بنور أئمته، وأهتدي بمنار من بلغ الغاية فيه علماء أمّته"(1).

ففـي هـذا الـنّوع من الإجازات يثني الشيوخ على طلبتهم بل مستدعييهم هذه الإجـازات ثناءً كبيراً، ويمدحونهم بِمدحٍ تصل إلى حدِّ المبالغات، فيظهر الشيخ بمظهر الطالـب، ويتضـاءل قدره أمام مستدعيه، ولا بدَّ من مغزى وراء تلك المجاملات، فقد تُسـوّغ بعظم قدر أولئك طالبي الإجازات، فربما يكونون شيوخاً حائزين على إجازات عامّـة، ودفعهـم حـبّ البحث والعلم والتحصيل إلى ضمّ تلك المرويّات إلى حصيلتهم العلمـيّة، سيما وإنّ بعض المرويّات لم تكن من تأليف الشيخ بل يمكن أن يكون رواها عن غيره متتابعة السّند، فيحصل بذلك طالب الإجازة على سند جديد يقوّي معارفه.

ومهمـا يكن، فإنّ مانح تلك الإجازة يقوّي بتلك المِدّح طالب الإجازة ليكون محطّ ثقة، وذا أهليّة تليق بما أجازه واستودعه، ولا يمنحه تلك الإجازة إلاّ بعد أن يطمئن إلى تنوّع معارفه، وسعه مداركه. ففي هذا المعنى يقول الحلبيّ في حقّ مستدعيه: "وفاوضت مـنه إمامـاً تقطر الفصاحة من أعطاف قلمه، وتخطر البلاغة في أفواف كلمه، وتنزل المعاني المتمنّعة من معاقل القرائح على حكمه، وتقف جياد البدائة حسرى دون التوسّط في حلبة علمه"(2).

ولقد أسهب وأخال الحلبيّ في ذكر خصال ذلك الطالب التي أظهرته بمظهر الجدّ في التحصيل والتوقّد في الذهن والصبر والجلد في نيل المعالي، فدفعه ذلك التجويد إلى إجازته بجميع مرويّاته مجيباً عن الشرط الذي تقدّم في أول الرسالة المتمثّل بقوله: "فإنّي لمّا خلت"(3)، قائلاً: "فامتثلّت أمره -أعزه الله تعالى ونفع به- وأجزته رواية مـا يجوز

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 183/3.
(2) المصدر نفسه، 183/3-184.
(3) المصدر نفسه، 183/3.

لـــي روايته من مسموعاتي ومقروءاتي واختياراتي ومناولاتي، وما لي من نظم مختلف الأوضـــاع، مستحقّ لولا ما يصوغ فيه من المدائح النبويّة أن يصاغ ولا يذاع، وإنشاء نوّعته كثرة المباشرة، وكثّرته المحافظة على الوظيفة والمثابرة، ونفّحته فوائد المطارحة والمذاكـــرة، إلى ما يندرج في سلك ذلك من تأليف حمل عليه التنقيب عن أسرار هاتين الصناعتين، واختيار، واختصار، وانتقاء، وانتقاد، وانتخاب تكلّمت على ما فيه من معنى مستملح، وأدب مستفاد"[1].

فقــد ســرد الحلبيّ جميع مرويّاته ومؤلّفاته في الصناعتين النثر والنظم، وأجاز مســتدعيه روايــتها إجازة مطلقة غير مقيّدة، فعلى ذلك المستدعي أن يتتبّع تلك الآثار ويصلح ما اعتراها من النقص، وفي ذلك إشارة إلى تواضع الحلبيّ، حيث لا يبرّئ نفسه مــن الــزلل والعثــرات، فــيفوّض له الأمر في البحث والتصويب والاستقصاء، وسدّ الثغرات، وإقالة العثرات، وظهر ذلك جليّاً من قوله: "ورغبت إليه في أن يصلح من ذلك مــا أغفله القلم، وزلّ فيه الفكر الذي عثرته أبلغ من عثرة القدم، إذ هو المليّ بالإحسان في ذلك، الجدير بتوطئة ما تعذّر سلوكه على السالك"[2].

وتندرج هذه العبارات في ثنايا التواضع، ورفع قدر طالب الإجازة فالشيخ يظهر تواضــعه مــن جهة، ومن جهة أخرى يخرج نفسه من الحرج حيث إنّ في إجازة هذه المــرويّات كشــفاً لهــا وحينئذٍ تخرج عن نطاقه وتوضع تحت المجهر، فإذا ما ظهر أعــوجاجها نالــه الحرج، فيكون بهذه العبارات قد أخرج نفسه من الملام، ووكّل بتلك الهفوات ذلك المستدعي.

ويلــزم هــذا الــنّوع من الإجازات ذكر طائفة من المعلومات حول حياة الشيخ المجيــز، تــتمحور حول مولده، ونشأته العلميّة، وذكر أهم شيوخه الذين تتلمذ عليهم، ويختم ذلك بالتاريخ، والأمثلة كثيرة على هذا اللون من الإجازات، والمطابقة في بنائها

---

(1) المصدر السابق، 185/3.

(2) المصدر نفسه، 185/3-186.

تـبلغ درجة كبيرة، فمن ذلك إجازة الصفديّ إلى خطيب بيت الآلهة الشيخ شهاب الدّين أحمـد الحنبلـي، وقـد بـدأها الكاتب بالخطبة الطويلة التي غدت رسماً ملازماً لتلك الإجـازات، مثنّياً بالثناء والمدح على طالب تلك الإجازة قائلاً: "ولمّا كان الشيخ الإمام شـهاب الـدّين... ممّن نظم، فودّت الدرر في أفلاكه لو اتسقت، وكتب فرقّم الطروس ووشّـاها... وحـلّ المتـرجم فسـحر عقـل كل لبيب، وخلب لبّه... وخطب فصدع القلـوب"(1).

وكمـا أُسلف فقد بالغ الصفديّ في ثنائه، وأغدق في مدحه كما فعل شيخه الحلبيّ فـي الرسالة السابقة، وهذا ديدنهم في هذا الأمر، وظهر بمظهر التّواضع الذي يبلغ حدّ الـرقّ والعـبودية، فجـاء منها في هذا السبيل قوله: "فأراد أن يشرّف قدري، ويعرّف نكري، فطلب الإجازة منّي وأنا أحقّ بالأخذ عنه، واستدعى ذلك منّي، وربّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه"(2).

وهـذه المجاملات يؤيّدها ما ذُهب إليه في أنّ تلك الإجازات تمنح في أغلبها بعد الحصول على الإجازة العامة.

وكعـادة كـتّاب هذه الرسائل، فإنّهم يقرنون بها بعض التّقاليد والرُّسوم الخاصّة كالرُّسوم الخاصّة بالمعلومات التي تدور حول مولده ونشأته العلميّة وشيوخه، فجاء في تلك الرسالة "وذكرت هنا شيئاً من مرويّاتي وأشياخي، وذكرت مصنّفاتي"(3).

وفـي هـذا المجـال قول ابن الورديّ مجيزاً الصفديّ، ومعتذراً عن تقصيره، ومتواضـعاً أمامه قائلاً: "ها قد أجزتك متطفّلاً عليك، وأذنت لك متوسّلاً إليك أن تروي

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 333/14.

(2) المصدر نفسه، 333/14.

(3) المصدر نفسه، 334/14.

عنّي ما يجوز لي روايته وإسماعه ليتّصل بك فما اتّصل بك أمن انقطاعه من منقول ومعقول، وفروع وأصول، ونثر ونظم، وأدب وعلم وشرح وتأليف وبسط وتصنيف"[1].

وقد بسط ابن الورديّ القول في ذكر ألوان مرويّاته ومصنّفاته، وفي هذا إشارة إلى مدح الشيخ نفسه من خلال عرضه لمصنّفاته الكثيرة ومرويّاته العديدة، ففي سردها تنوية بقدره ولو من طرف خفيّ، فعرض تلك المصنّفات وتعديدها يمثّل دعاية إعلاميّة يذيع من خلالها ذكره.

وهناك أمر لافت للنظر لا يجب إغفاله يتمثّل في دور الرواية، حيث تُعدُّ هذه الطريقة أنفس وسائل نقل العلم وحفظه، وشيوع ذكر صاحبه، فإذا ما أُجيز طالب علم برواية هذه الآثار فإنّ في ذلك ضماناً لبقائها حيّة بين النّاس، ولذا ندرك أهمية قول ابن الورديّ "وليتّصل بك، فما اتّصل بك أمن انقطاعه"[2]، ولذا يلزم عند تلك الإجازات الإشهاد على ذلك، فما جاء في هذه القضية ما حكاه ابن الورديّ من شهادة على إجازة قوله: "فقد أشهدني الإمام الهمام، العلاّمة، مفيد الطالبين، الشيخ تاج الدين محمد الواضع خطه أعلاه -أدام الله علاه- على نفسه من قراءة ابنه فلان عليه القرآن العظيم جمعاً سلم من التكسير، ومن قراءة الشاطبية... فشهدت عليه طال لقاؤه، وطاب لقاؤه، بما نسب إليه"[3].

وقد أوردت تلك الشهادة لبيان أهميّة علم الرواية لديهم، ففيه حفظ لمؤلّفاتهم ومرويّاتهم، وضمانٌ لها من الانقطاع، وقد تَقْرُب هذه الشهادة ممّا يسمّى اليوم بحقوق المؤلِّف، فقد جاء في بيان أهميّة ذلك العلم قول الصفديّ "فإنّ علم الرواية من محاسن

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص102.

(2) المصدر نفسه، ص102.

(3) المصدر نفسه، ص137-138.

الإسلام، وخصائص الفضلاء الذين تخفف لهم ذوائب الطروس... ولم تزل رغبة السلف تتوفّر عليه وتشير أنامل إرشادهم للإلهام بالحثّ إليه"[1].

والقارئ للإجازات بالمرويّات يدرك بأنّها لا تقلّ أهميّة عن الإجازات بالتدريس والفتـيا، لا بل يظهر فيها الشيخ المجيز تلميذاً أمام استدعاء طالبه الإجازة، وهذا يقود إلـى القـول إنّ هـذه الإجازات قد تمنح لبعض الشيوخ بعد حصولهم على الإجازات بالـتدريس والفتيا، وممّا يؤيّد هذا الرأي إجازة ابن الملقّن السابقة للقلقشندي حين أجازه بالـتدريس والفتيا في المذهب الشافعيّ، ثمّ قرن تلك الإجازة بإجازته رواية كل مؤلّفاته ومسموعاته قائلاً: "وأجزت له مع ذلك أن يروي عنّي ما لي من التآليف، ومنها جامـع الجوامع... وأجزت له مع ذلك ما جاء لي وعنّي روايته بشرطه عند أهله..."[2].

وقـد أخّـر القلقشـندي هـذا النوع من الإجازات عن الإجازة بعراضة الكتب لغـرض ربّمـا يُفسّر بكونها تمنح للمجازين بالإجازات العامة، فهي أشبه بالأبحاث العلمية التي يعكف على تأليفها من اضطلع في ذلك العلم، بينما الإجازة بعراضة الكتب لا تـتعدّى حفـظ ذلك الكتاب، وعلى هذا يكون صاحب إجازة العراضة لا يتعدّى كونه طالباً مقبلاً على العلم، لم يمهّد له الطريق بعد للحصول على إجازة التدريس حتى يكون محـطّ ثقـة لحمـل أمانـة حفـظ المرويّات ونقلها، وبذلك يشكّل حلقة في السّند لتلك المرويّات.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 332/14.

(2) المصدر نفسه، 326/14.

الاستجازة:

تُعـــدُّ رســـائل الاســـتجازات استدعاءات يدبجها الأدباء إلى شيوخهم طالبين من خلالهـــا إجـــازتهم بمـــرويّاتهم ومصـــنّفاتهم ومـــا إلـــى ذلك من علوم، مضمّنين تلك الاستدعاءات ألواناً من ضروب الإطراء والمدح والثّناء، ويقتصر هذا اللون من الرسائل علـــى طلـــب الإجـــازة بالمـــرويّات - وهذا يعزّز الرأي القائل بأهمية تلك الإجازات وتجاوزهـــا أحـــياناً لرسائل التدريس والفتيا- حيث يكتب الأديب الذي تمرّس في فنون العلم، وبلغ منزلة عالية من ذلك العلم رسالة إلى أحد الشيوخ يطلب فيها رواية مؤلّفاته ومسموعاته وما إلى ذلك من فنون، ومن هذا القبيل ما كتبه استدعاءً الصفديّ يطلب من خلالـــه إجـــازة مـــرويّات شيخه أثير الدّين أبي حيّان، حيث أسهب في مدحه وإطرائه فقـــال: "المســؤول مـــن إحسان سيّدنا الإمام، العالم، العلاّمة، لسان العرب، ترجمان الأدب، جامـــع الفضـــائل، عمـــدة وسائل السائل، حجّة المقلّدين، زين المقلّدين، قطب المولّين، أفضل الآخرين، وارث علوم الأوّلين، صاحب اليد الطولى في كل مكان ضيّق، والتصانيف التي تأخذ بجامع القلب"[1].

فالنّاظـــر في هذه الألقاب يدرك بأنّ ورودها في هذا الاستدعاء ذو مغزى يرمي إلـــيه طالب الإجازة، حيث يطمح من خلال تلك الألقاب إلى بيان قدر ذلك الشيخ، وعلوّ مكانته، ولا تخلو هذه الألقاب من التهويلات والمبالغات، فتتنوّع هذه الألقاب وتتعدّد في بدايـــة كـــل استدعاء، ويحرص كتّاب تلك الرسائل على الإتيان بها ليستميلوا بها أولئك الشـــيوخ، فأصـــبحت هذه الألقاب لازمة يبدأ بها كل طلب إجازة، فمن ذلك ما بعث به الصـــفديّ إلـــى شيخه ابن سيّد النّاس قائلاً: "المسؤول من إحسان سيّدنا الشيخ، الإمام، العلاّمة، المتقن، الحافظ، رحلة المحدّثين، قبلة المتأدّبين، جامع أشتات الفضائل، حاوي محاسن الأوائل والأواخر... بديع زمانه، نادرة أوانه..."[2].

---

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 5/340-341.

(2) المصدر نفسه، 5/208-209.

وهكـذا فـإنّ هـذه الاسـتدعاءات حملت على عاتقها تبجيل الشُيوخ، وإغداق زخـرف القـول عليهم، وتعديد مناقبهم الحميدة ومآثرهم السخيّة، حتّى وقف مشاهير العلماء من القدماء حسرى أمام عتبات بلاغتهم وفطنتهم. فقد جاء في استدعاء الصفديّ لشيخه أثير الدّين أبي حيّان مادحاً إيّاه قوله: "سبّاق غايات قصّر عن شأوها سحبان وائل فـارع هضبات البلاغة في اجتلابها وهي في مرقى مرقدها، سالب تيجان الفصاحة في اقتضاء اقتضابها من فرق فرقدها..."[1].

فجعل الصفديّ شيخه في مرتبة أعلى من المضروب مثلاً في الفصاحة والبلاغة، بـل شـيخه أسـبق إلى فتق أكمام تلك الفصاحة، وقد مكّنته فطنته ودربته من امتلاك ناصـيتها، وفي هذا المعنى يقول في حقّ شيخه ابن سيّد النّاس "الذي إذا ترسّل نقصت عـنده ألفاظ الفاضل، وعجز عن مفاوضته ومعارضته كل مناظر ومناضل... أو استمدّ قلماً كفّ بصره عنه ابن مقلة، ووقف ابن البوّاب بخدمته يطلب من فضله فضلة"[2].

وهذا ديدن من يكتب تلك الاستدعاءات، فيظهر فيها جلّ بلاغته وبيانه، ويحرص دائمـاً على الأُسلوب البديعي، إضافة للتبجيل والثّناء، ويرمي من وراء ذلك إلى أمرين اثنين إذا لم يكونا أكثر من ذلك.

فالأمـر الأول الـذي يهدف إليه طالبو الإجازات من تلك المجاملات كسب ودّ هـؤلاء الشّـيوخ واسـتمالتهم، بيـنما يكمـن الأمـر الثانـي فـي إظهـار بلاغتهم وفصاحتهم،وكشـفهم عـن امتلاكهم لناصية اللغة وعلومها؛ ليفضي ذلك إلى زرع الثّقة بهم، والاعتماد عليهم في تحمّل أمر الرواية التي يطمحون إلى الحصول عليها، فإذا ما كانت عبارات المستدعي تخلب الأذهان، وتستنطق الأفهام، وتروق الأُذن لسماعها أدرك الشيخ أنّ طالب الإجازة أهلاً لها، وحريّ بها، ويُعتمد عليه في حملها، وأداء حقّها.

(1) المصدر السابق، 341/5.
(2) المصدر نفسه، 209/5.

ومــن هنا اهتمّ كاتبو الاستجازات بهاتين الناحيتين اهتماماً كبيراً، وأولوها قدراً كبيراً من العناية، حيث يترتّب على هاتين الناحيتين نجاح أو إخفاق صاحب الاستدعاء.

فالخصلة الأولى تنمّ عن لباقة طالب الاستجازة، وحُسن استهلاله، وإنزال النّاس مــنازلهم والاعتراف بفضلهم، فيجعلهم في مرتبة لا يقوى أحدٌ على بلوغها، بل ينكص عــنها مشــاهير العلمــاء والفصحاء، وفي ذلك إطراء واضح، ومبالغة ظاهرة، ولكنَّ شــيوخهم لا ينكرونها عليهم، ولعلَّ ذلك تقليد أدبيّ انتظم به عقد القوم، وتعارفوا على أصــوله، وعــدُّوه من باب تبجيل العلماء واحترامهم والاعتراف بفضلهم، والتنبيه على أقدارهم.

وتكشف الخصلة الثانية عن بلاغة وفصاحة المستدعي، وإظهار مقدرته الأدبيّة، وامــتلاكه لأدواتهــا، فالمستدعي يسعى إلى إظهار قدرٍ من براعته في ذلك الفنّ ليلفت انتــباه شيخه إلى تلك المهارة، وامتلاكه لصهوة البلاغة، وعندئذٍ لا يتردّد في الاعتماد عليه في استيداعه تلك الأمانة المتمثّلة في المرويّات؛ لأنّه إذا نال ثقة الشيخ أصبح حلقة أساسية في طرف تلك السلسلة من السند الذي يوليه القدماء عناية فائقة نظراً لأهميته في حفظ الآثار في تلك الأزمان.

وبالجملة فإنّ رسالة الاستدعاء تتكوّن من جزئين رئيسين، يتمثّل الجزء الأول في تبجــيل الشيخ وذكر ألقابه كما تقدّم، ثمّ يأتي الجزء الثاني الذي يظهر فيه الطلب جليّاً، ففــي هــذا الجــزء يبدأ المستدعي بالطلب الرسمي من شيخه إجازته جميع ما له من مؤلّفات ومرويّات على شتّى أنواعها، فجاء في استدعاء الصفديّ لشيخه أثير الدّين أبي حــيّان قــولــه: "إجازة كاتب هذه الأحرف ما رواه - فسح الله في مدّته - من المسانيد والمصــنّفات، والسُّنن والمجاميع الحديثية، والتصانيف الأدبيّة نظماً ونثراً إلى غير ذلك

من أصناف العلوم على اختلاف أوضاعها، وتباين أجناسها وأنواعها... بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة خاصة أو عامة..."[1].

فالمستدعي يحرص في استجازته على أن يؤدّى إليه كل ما لدى شيخه من علوم، سارداً أصنافها تارة ومجملاً أخرى، وقد جاء في استدعاء الصفديّ لشيخه ابن القوبع مجملاً مرويّاته ومؤلّفاته قائلاً: "إجازة كاتب هذه الأحرف ما له من معقول ومنظوم أو منثور، وضع أو تأليف جمع أو تصنيف"[2].

ويشفّ من هذه الاستدعاءات أمورٌ عديدة تندرج أولاً في الكشف عن نظام التعليم في زمانهم، حيث يعتمد الفرد على نفسه في تثقيفه، فالطالب يراسل شيخه ويستميحه ويستميله من أجل الحصول على هذه المرويّات، ونوال ثقته، وتنمُّ ثانياً عن مقدار اهتمامهم بسبل العلم، وتظهر كذلك موسوعيتهم في شتّى العلوم، وهذه المرويّات على تنوّعها يمكن أن تفسّر لنا سرّ انتشار الموسوعات في زمانهم.

وتكشف ثالثاً عن طرق الرواية لديهم وأنواع تلقّي العلم، وكل هذه الأُمور تفيد الدارس في تتبّع طرق التعليم في الأزمنة السابقة.

ومهما يكن، فإنّ رسائل الإجازة والاستجازة تمثّل إنموذجاً خاصاً في سلَّم الدرجات العلميّة، حيث نظمت تلك الرسائل درجات المتعلّمين كما هي الشهادات العلميّة في زماننا اليوم.

التقاريض:

تُعدُّ رسائل التقاريض لوناً من ألوان رسائل المديح، إلاّ أنّها تختصّ بلون خاص من المدح يتمثّل في تقريض المصنّفات والأشعار، وتقريض هذه المصنّفات أو القصائد يُعدُّ مدحاً لأصحابها، وقد أدرج هذا اللون من الرسائل في العلاقات التعليميّة لعلاقته

(1) المصدر السابق، 341/5.
(2) المصدر نفسه، 156/5.

المباشـــرة بالنـــتاجات العلمـــيّة والأدبية. فقد ذاعت هذه الرسائل في العصر المملوكي، فـــنادراً ما يخلو ديوان أو مصنّف في فنّ من الفنون من هذه التقاريض، حيث تُعدُّ هذه الرســـائل وســـائل تعزيـــز لمصـــنّفي هـــذه المؤلفات والقصائد، وفيها كذلك كثير من المجاملات، وقد راجت هذه الرسائل في تلك الحقبة واتّسع نطاقها، ويرجع محمود رزق ســـليم رواجهـــا إلى "عوامل الصّداقة بين الأدباء، ورغبتهم في اللعب البديعي، وتمرين القريحة، وحبّ المعارضة ونحو ذلك"(1).

وأدّت هذه الصّداقات إلى تبادل تلك الرسائل حتى أصبحت بينهم كحكم الواجب، فإذا ما قرّض أحدهم مصنَّف الآخر، وجب عليه تقريض مصنّف صديقه.

وقـــد يعـــزى رواج هذه الرسائل إلى الرغبة في رواج تلك المصنّفات بين طلبة العلـــم، حيث يُعدُّ ذلك التقريض دعاية إعلاميّة من ذلك الشيخ، وتزكية لذلك المصنَّف، تماماً كما يفعله بعض الأدباء والعلماء اليوم من تقديمٍ لبعض المؤلّفات.

ومهمـــا يكن، فإنّ هذه التقاريض لا تُعْدَم فائدتُها، فهي تفصح عن بلاغة الأدباء والعلمـــاء، وتكشـــف عـــن ثرائهم الفكريّ، وسعة اطّلاعهم، وتشهد لهم باستيعاب تلك المؤلّفات، وتساعد على تبادل تلك المصنَّفات بين الأدباء.

والكتّاب في مثل هذه التقاريض يتّبعون سبيل التمجيد والتهويل، وبيان أهمية ذلك المصنَّف، ودوره في تيسير الأفهام، و"قد جرت العادة أنّه إذا صنّف في فنّ من الفنـــون أو نظم شاعر قصيدة، فأجاد فيها أو نحو ذلك، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقريض والمدح، ويأتي كل منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك"(2).

وللدلالة على أهميّة هذه التقاريض التأكيد على خصوصيتها، حيث لا يكتب ذلك التقـــريض إلاّ مـــن تخصّص في موضوع ذلك الفنّ، فكتابة تلك الرسائل تعني الإجازة

---

(1) سليم، محمود: عصر سلاطين المماليك، 288/5.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 335/14.

بنشره وتزكيته، والوقوف على أهميته، فأهل الصناعة أدرى بما في ذلك المصنَّف، فإذا مـــا دبّجـــوا له تقاريض، فهذا يعني رضاهم عمّا يحويه من مضمون أو شكل، والأمر الآخر الذي يكمن في قول القلقشندي السابق الالتزام بالبلاغة فهي تدلّ على مقدار كاتب التقـــريض لا على قيمة المنصَّف، فكل كاتب تقريض يأتي بما في وسعه من البلاغة لا بما يستحقّه المصنَّف، ولذا فإنّ في التقريض أمرين مهمّين أحدهما الثّناء على المصنَّف، وبـــيان فائدتـــه ومدح مؤلِّفه، وثانيهما بيان قدرة كاتب التقريض على الإيغال في علوم البلاغة والبيان، ومدى حصيلته الأدبيّة، ففي الأمر الأول مدح وثناء للغير، وفي الثاني مدح وافتخار بالذّات.

وكمـــا أســـلف فقد انتشرت هذه الرسائل بشكل كبير بين أولئك الأدباء، فمن هذه الـــتقاريض مـــا كتبه برهان الدّين القيراطي* (ت781هـــ/1379م) على سيرة صنّفها القاضـــي تقـــيّ الدّين بن ناظر الجيش ليلبغا الخاصكي، حيث اعتمد فيها أُسلوب الثّناء المبالغ فيه الذي اعتاده أبناء عصره، فجاء منه "وقف المملوك على هذه الدرّة الفائقة، بل الـــدرّة الناطقة، فتعجب من فصاحتها، وفتن بملاحتها، وتماديت بين يديها، وأنفقت منها عليها"(1).

فقـــد بدأ القيراطي هذه الرسالة بالتمجيد والثّناء، مصوّراً نفسه أمام فصاحة تلك الســـيرة ضـــئيلاً، ولذا لم يستطع أن يصفها ويمنحها حقّها من المدح إلاّ بالاستعارة من فصاحتها وعلوّ بلاغتها، فاستعار من بيانها ليبيّن مدى جمالها، واستمرَّ في الكشف عن مواطن الجمال قائلاً: "أطرب لفظها المسجّع، ونشر بردها فانطوى لبهجته ثوب السّماء المجـــزّع، وأمر بفضلها فاضل بيسان، وأسكرت حمياها فأين خمر ميسان، وشكا صدر

---

* بـــرهان الدّين إبراهيم بن شرف الدّين الشاعر المشهور تفقّه واشتغل وتعانى النظم ففاق فيه وله ديوان جمعه لنفسه يشتمل على نثر ونظم. انظر ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص269-270.

(1) القيراطـــي، بـــرهان الدّين (ت781هـــ/1379م): مطلع النيرين، نسخة مخطوط، مكتبة جامعة مؤتة، رقم التزويـــد 102304، ص161.

الحاسد منها حرّ تمّوز حين لقط بسمعه منها ذر نيسان، فرأى درّة بل درر، وألفاظ هي في جبهات دهم الليالي غرر..."(1).

وأخذ الكاتب في الكشف عن مكامن الجمال والعظمة في تلك السيرة، فقد أطربت الأسماع بجرس سجعها، وجمال بلاغتها، وفصاحة ألفاظها، فلم يسعْ القاضي الفاضل إلاّ الاعتـراف بفضـلها وعلـوّ شأنها، وقد فعلت بالعقول ما عجزت عنه أعرق الخمور، وأشـعلت الـنّار فـي صدر كل حاسد لمصنِّفها، وأظهر القيراطي ألواناً وضروباً من التـزويق اللفظـي والبديعي في تلك الرسالة، وأتى على تفصيل أجزائها حتى بدا هذا التقريض وكأنّه عرض لتلك السيرة، فجاء في هذا المعنى قوله: لقد تأمّلها المملوك باباً بابـاً، ووصـف العـبد عنبـراً نقلها الذي فاق ريحان العذار، فقال صواباً، ودخل إلى قصـورها من باب بعد باب، وخرج من قشور عندما عاين اللفظ لبّ اللباب، ورأى من سـحر ملكي المنظوم والمنثور ما سحرت الألباب، والتقى من لفظها الحلوّ ما هو أحلى من لقاء الأحباب"(2).

وقـد فصّل القيراطي القول في الثّناء على تلك السيرة وأثنى على مؤلّفها، وبيّن قدر من أُلِّفت له، فتحوّل من تقريضها إلى مدحه وتبجيله، وهذا يقود إلى القول بأنّ أحد الدوافع إلى تقريضها مكانة من دبّجت له تلك السيرة، فجاء في هذا المنحى قوله: "فأكرم بهـا مـن سيرة إلاّ أنّها عمريّة، وصحاح مناقب إلاّ بهذه الدرّة جوهريّة، وافت بنشرها مناقب أمير المسلمين الذي لا حتف في أحكامه ولا حيف، ونشرت محاسن سيف الدّولة المحمديّة، فأعظم به من سيف على عاتق المملوك نجاده، وفي يد جبّار السموات قائمه، سيّد ساد وشاد، ولم يشمل جفنه على مصالح المسلمين وساد"(3).

---

(1) المصدر السابق، ص161.

(2) المصدر نفسه، ص162.

(3) المصدر نفسه، ص162.

فعـاد القيراطـي يثني ويمدح أمير المؤمنين الذي صنِّفت السيرة له، فأسهب في مدحه حتّى تحولّت الرسالة من تقريض لمصنّف إلى مدح أمير، ولم ينسَ القيراطي مدح مصـنِّفها، فرجع يذكر فعله المحمود ومعانيه الفريدة التي سلبت معاني غيره النَّضارة، فقـد "علـم الأدبـاء أنَّ ما خصّوا به من المعاني الجليلة والدقيقة عوام، وأنّ عامة هذه المعانـي خواص، وتحرّر الحريري عند سلوك أنّ هذه الدرة المنثورة في الحقيقة درّة الغـواص، ووصف القاضي العبد نفسه النفيسه حين شاهدها بالحرمات، وقالت الأدباء قاطبة من أين لعبد الرحيم* محاسن عبد الرحمن؟"[1].

والقـارئ لهـذه الرسالة يجد فيها كثيراً من المجاملات والمبالغات التي قد تفقد مـثـل هذه الرسائل بعض مصداقيتها العلميّة، فالأحكام فيها عامّة، فقد جعل القيراطي معانـي تلـك السيرة تخجل كل ما أتى الأدباء به من معانٍ، فمعانيها أفحمت معاني من سبقوه، لا بل تخطّى ترسل الفاضل، وتجاوزه علماً أنّ الفاضل مثلهم الأعلى في الترسّل والبديع، وربما تعلّل هذه المبالغات بطبيعة العصر القائمة على التهويل الإعلامي، ولذا فـإنّ مثل هذه المبالغات تقبل منهم، ولا يؤاخذون عليها، كيف لا والذين يأتون بها جلّ أدبائهم وعلمائهم، فلو كانت تلك التهويلات ممقوتة لديهم لَمّا أتوا بها أصلاً.

وقـد اعـتمد القيراطي الأسلوب المسجّع القائم على فنون البديع لإظهار قدرته وبراعته، وامتلاكه لأدوات البلاغة آنذاك.

ولصلاح الدّين الصفديّ تقريض على تخميس البردة لعلاء الدّين الغزيّ، وقد نهج فيه نهج القيراطي السالف ذكره، حيث بدأ بوصفه والإشادة به حتى جعله باهراً للعقول معيـناً لأهـل تلك الصناعة قائلاً: "وقفت على هذا التخميس الذي طرّز طرسه، وسقى الفضـل غرسـه، وحلا للعين عرسه، ونوّع في البديع جنسه، ونوّل أهل الأدب أنسه،

* المقصود به عبد الرحيم البيساني القاضي الفاضل.

(1) القيراطي: مطلع النيرين، ص162.

وسـاق إلـى طيـبة بأحمـال المدائح عُنْسَه"(1). فالمديح واضح والإشادة ظاهرة، فهذا التخمـيس يُعـدُّ إضـافة حقيقيّة للأدب كما بدا من قول الصفديّ في حقّه، فقد تنوّعت أسـاليب بلاغـته وأنـبأ عـن فتق أبكار الفصاحة، فأصبح مؤلّف ذلك التخميس وحيد دهـره، حيث تضاءلت أقدار الأدباء أمام قدره، واعترفوا بفضله لا بل أقرُّوا بسبقه، واعـتمد الصـفديّ الأُسلوب البديعي القائم على التورية والتلاعب بالألفاظ لتناسب ما يطمـح إلـيه من بديع، ففي هذا يقول: "ويرى الخيّاط أنّ البردة كانت قبل هذا التفصيل سدى، ويعترف الرّفاء أنّ إبرة قلمه قد لبست من المداد الصدا"(2).

فـلا يخفـى علـى النّاظر ما بين الخيّاط والبردة من علاقة، وكذلك بين الرّفاء والإبرة، فكل هذه الألفاظ أتى بها الصفديّ ليوائم بين مديحه وبديعه.

ومـن خلال قراءة هذين التقريضين يتّضح للقارئ دقّة استخدام العبارات، حيث خـصَّ القيراطـي أعـلام الترسّـل بالوقوف حسرى أمام ترسّل ممدوحه، بينما خصَّ الصـفديّ أعـلام الشـعر بهذه المزية، وهذا ما أراده القلقشندي من قوله السالف "أهل الصناعة"(3).

والـتقاريض تقـوم فـي مجملها على فكرة واحدة تتمثّل في الإشادة بالمصنّفات والقصائد، ولكنَّ هذه الفكرة تتطوّر وتتنوّع حسب ثقافة منشئ التقريض، وقدر بلاغته، فهـي تؤكّد أهمية ذلك المصنَّف، وتقرّر سبقه وتفرّده، وعلوّ منزلة منشئه، وتفوّقه على أعلام ذلك الفنّ.

ويطلـب الأدبـاء أحياناً من بعضهم كتابة تقاريض لمصنّفاتهم من أجل رواجها وشيوعها بين القرّاء، وحينئذٍ تقرب هذه التقاريض من الإجازات، ومن الأمثلة على ذلك

---

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 376/3.

(2) المصدر نفسه، 377/3.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 335/14.

مــا ذكــره الصفديّ في شأن تقريض تشطير لاميّة العجم لابن فرحون، حيث جاء فيه: "فأعدتها بعدما كتبت عليها تقريضاً وهو حسبما قصده مني والتمسه"(1).

ففــي هذه العبارة ما يؤكّد رغبة القوم في نوال تلك التقاريض من أشهر الشّيوخ؛ لـتكون إجــازة وشهادة منهم، وتزكية لذلك المصنّف، فعندما يكتب الشيخ تقريضاً لذلك المصــنّف فهذا يعني شهادة صريحة منه، وتزكية لهذا العمل، وهذا يسهم إلى حدٍّ كبير فــي رواجه وسعة شهرته بين الأدباء، ويزيد إقبال القرّاء عليه، وهذا ما يطمح إليه كل أديب وعالم.

ومــن الطــريف ذكــره في هذا المقام، أنّ بعض هذه الرسائل تتّخذ جانب الذّم والهجــاء بدل المدح والثّناء، حيث يقوم الأديب بوصف تلك المصنّفات بأشنع الألفاظ، وينعــته بخلــوه مــن فنون البلاغة والفصاحة، وحسن السبك، ومن أمثلة ذلك قول ابن فــرحون علــى المقامــات الجزرية "يقول الفقير إلى الله تعالى... لمّا نظرت مقامات الجــزرية، رأيــت ألفاظها حوشيّة، وحُلَل أسجاعها غير مطرّزة ولا موشّية، ولم يسق روضها ماء البلاغة المستعذب، فما أنبتت أرضها زهر اللفظ المهذّب"(2).

فالقــارئ لهذه الرسالة التي كتبها ابن فرحون على مقامات الجزري يشعر بمدى الهجوم الذي قام به عليها حيث وصفها بأقبح ما توصف به المصنّفات الأدبية، فالألفاظ حوشــيّة، والأســجاع غير متناسقة، ولا ماء في سبكها، وبلاغتها مقفرة، فقد سلبها كل جميل فيها، وطعن في كل موقع يمكن أن تمدح منه، فكانت التقاريض تركّز في مدحها علــى فصاحة الألفاظ وبلاغة العبارات، وتشيد بالفنون البديعيّة. بينما نجد هنا يحصل الضدّ تماماً، فالألفاظ حوشيّة وأسجاعها غير متوافقة لا تشكّل جرساً موسيقياً، والبلاغة فيها تكاد تُعدم.

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 510/3.

(2) المصدر نفسه، 511/3.

ومن هذا القبيل كذلك ما كتبه القيراطي على اختراع الخراع للصفديّ، حيث جاء فـــي تلـــك الرســـالة ذمٌّ واضحٌ، وهجاءٌ قاسٍ، فقد عرّاها من الأُسلوب الرائق والمعاني العذبـــة عندما قرأها عليه فخر الدّين بن مكانس قائلاً: "قرأ عليَّ هذه المقامة الصلاحيّة التـــي انفردت بهذا الأُسلوب، وجلبت في ملبوس غير مسلوب، وتنكّرت فيها المعارف، وطـــاف عليها طائف، وتقلّبت في وجوه الطرس عيون معانيها، وتغيّرت معالم مبانيها، وصـــارت أعاليها أسافل، ومعالمها مجاهل، وركبها السائر إلى أرض البلاغة في هيئة العاقـل، وقـد أفـــرغها الصلاّح في قالب الفساد، وفرغها من أرواح المعاني، فإذا هي أجساد"(1).

والنّاظـــر فـــي هذه الفقرة يتجلّى له مدى الذمّ الذي ألحقه القيراطي بتلك المقامة، حـــيث جمـــع فـــي ذلـــك الهجاء الناحيتين الشكليّة والمضمونيّة، فالأُسلوب لم يرق له، والمعاني تنكّرت، والألفاظ أصبحت أجساداً بلا أرواح.

وعلـــى كل حال، فإنّ هذه الرسائل تفصح لنا عن مدى الروح النقديّة لدى أدباء ونقّـــاد ذلـــك الـــزمن، فالتقاريض في مجملها تبيّن لنا المعايير التي ينظر إليها النقّاد، ويـــراعونها عند تقريضهم أو هجومهم على لتلك المصنّفات، ولو أنّ ملامح النقد تكون أبيّن في حالة الأهاجي وأظهر.

الألغاز:

يمكـــن أن تُعـــدُّ رسائل الألغاز من الترف الفكري، حيث تبادلها الكتّاب والأدباء لأغراض متعدّدة، تشمل الترفيه عن النفس والتسلية، وامتحان القريحة، واختبار الذّات، وســـرعة الـــبديهة، والقدرة على التعامل مع المجهول، فالكتّاب يطمحون من وراء تلك الألغاز إلى امتحان سلامة قرائحهم، واختبار أفكار نظرائهم.

---

(1) القيراطي: مطلع النيرين، 181.

ورسائل الألغاز تعتمد أُسلوب التعمية والإبهام، حيث يقصد الأديب إلى المعاني الباطنة في ذلك اللغز، ويترك الظاهر، ويتعمّد أن يكون ذلك الباطن مشاركاً لأمر ظاهر في شيء آخر حتى يذهب ذهن المتلقّي للغز إلى غيره.

وفي سبيل هذه التعمية يتتبّع الكتّاب أساليب وأدوات كثيرة في اللغة تشمل علوم البلاغة من بيانٍ ومعانٍ وبديع، وعلوم النحو والصّرف والإملاء، فتكثر في هذه الألغاز علوم اللغة من تشبيهات وكنايات واستعارات وخبر وإنشاء، وألوان من علوم البديع وضروبٍ من المشتركات اللفظيّة، وازداد الاهتمام بالنقط والإعجام، والحذف والزيادة، والتحريف والتصحيف.

فعند قراءة أي رسالة لغز يرى المرء نفسه أمام كمٍّ هائلٍ من علوم العربيّة، وهذا ما دعا إلى ضمّ هذا اللون من الرسائل إلى رسائل العلاقات التعليميّة؛ لِمَا فيها من علوم ومعارف لا يحيط بها إلاّ من تمرّس في ميدانها، فالظاهر أن تلك الألغاز هدفها التسلية وقطع الوقت، ولكن الباطن يقول بضدّ ذلك، لا بل يؤكّد أنها مسائل متطوّرة في علوم متشعبة، وهذا ما يقود إلى مخالفة الرأي القائل بأنّها لون من ألوان التلهية شغف النّاس بها بعامّة والمتأدبون بخاصّة"[1].

ومهما يكن، فإنّ الألغاز تسهم بشكل كبير في نشر المسائل العلميّة بين الأدباء خاصة والنّاس بعامة، فلا يخلو لغز من نكتة بلاغيّة أو نحويّة أو غير ذلك، يكون لها مردود طيّب للأفهام. فاللغز يكشف عن صلات دقيقة بين مفردات اللغة إضافة إلى الطرافة الأدبية التي يشيعها[2].

ولرسائل الألغاز فائدة أخرى، حيث توطّد أركان الصداقة بين الأدباء، وتديم أواصر العلاقة بينهم، وتستفزّ قرائحهم، وتكشف عن مدى ثقافتهم، ودقّة ملحوظاتهم،

---

(1) انظر أمين: المجتمع المصريّ في أدب العصر المملوكيّ الأول 648هـ/784هـ، ص329.

(2) انظر سليم: عصر سلاطين المماليك، 305/5.

وســرعة بديهــتهم، وبهــذا تكون رسائل الألغاز ذات مغازٍ متنوعة تنحصر في أمرين مهمّين: أولهما تأكيد الصّداقة بين الأدباء، وثانيهما في نشر الثقافة العلميّة فيما بينهم.

ومــن الجديــر ذكره أنّ الألغاز اتّخذت من النظم والنثر سبيلاً لها، ولكنّ السبيل الــذي يعنيــنا هنا، هو سبيل النثر، وهذا السبيل تكون فيه القضايا العلميّة أظهر وأبين، حيث الكلام المنثور يمكّن الأديب من وصف لغزه بعيداً عن ضيق الوزن والقافية، ومن تلــك الرسائل التي جاءت في هذا الغرض - وهي كثيرة - ما بعث بها القاضي ناصر الــدّين بــن الصاحب شرف الدّين إلى الصفديّ، يسأله حلّ لغزٍ جمع في تعمية عباراته ألواناً من المعارف والعلوم، فجاء فيه "ما اسم شيء سداسي الحروف، ظرف العشرات والألــوف، لا تــنفكّ علّتاه الصوريّة والغائيّة عن عاطف ومعطوف، يمنع من القنص، ويتّخذ كاتخاذ القفص، لا يوصف جلده ببهق ولا برص، أعجميّ المسمّى، حرم دان لمن تأمله..."[1].

ففــي هذه الفقرة القصيرة من هذه الرسالة حشد الكاتب معميات كثيرة تضافرت فــي إبهــام اللغز، فمن هذه الأدوات عبارة ظرف للعشرات والألوف. ففي لفظة ظرف إبهــام حــيث تذهب بالتفكير إلى عالم النحو، ولكنّها مرتبطة بالعشرات والألوف وهي تشــير إلى عالم الأرقام، ولكن المعنى الباطن للعشرات والألوف الوحدات العسكرية في قطاعات الجيوش المملوكيّة، ومن التعميات كذلك ذكر العلل والعاطف والمعطوف وكلّها مــن مصــطلحات النحويــين. فبعد أن يشغل الذهن بهذه المصطلحات يعود إلى تعمية أخــرى، حــيث يربك الفكر بنقله إلى جوّ الصّيد والقنص، وما أن يقفز الذهن إلى ذلك العالم الطردي يكرّ به إلى عالم الأمراض، وهكذا يقفز بذهن المتلقّي من عالم إلى آخر، ومن غرض إلى غرض مغاير، حيث تتضافر هذه العوالم في إبهامه، وصعوبة معرفته.

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 5/316-317.

فقــد أدخل كاتب هذا اللغز في تعميته وإبهامه معارف لغوية وعسكرية وطردية ومرضـــية وعروضـــية، ونحــوية وصرفية، معتمداً أُسلوب التشبيه والتورية والإبهام والغموض.

والأعجب من ذلك أنّ هذه الألغاز على صعوبة حلّها يتوصّل الأدباء إلى معرفة أســرارها، وكشــف كنه تعميتها، وإزالة أبكار غموضها، ثمّ لا يقدمونها إلى أصحابها بذكر اسمها أو صفتها، ولكنهم يلزمون أنفسهم بصياغة نسيج لغز آخر يحتاج إلى إعمال فكر في حل مجهوله، وحينئذ تكون هذه الرسائل ليس الهدف منها معرفة حلّ اللغز بقدر ما هي إظهار لبراعتهم وقدرتهم في سبك وإحكام صياغة تعميات قد تفوق التعميات التي وردت في رسالة اللغز المراد حلّه.

فاللغز السابق الذي كان في لفظة حرمدان، وتعني الدّرع صاغ الصفديّ جواباً له لا يقلّ تعمية عن اللغز ذاته، مظهراً براعة وقدرة فائقة، وقد اعتمد أُسلوب الرد بالمثل، حــيث جعــل فـــي موازات كل تعمية تعميةً أُخرى، مرتّباً ذلك ترتيباً دقيقاً فجاء منه: "فــرأيتك ألغزت في ظرف حوى حسن الشكل، والظّرف، وفيه الألف والنون والتركيب لا يمـــنع من الصّرف... لأنّه حرم قريب لا يوجد به حائف، حرز لما يودع فيه، وهذا الوصف له من أجلِّ الوظائف، ذو جلدٍ على الغربة..."[1].

ومن الملاحظ أنّ الصفديّ قد أغرب في حلّه لذلك اللغز، واستخدم أساليب كثيرة ومتــنوّعة فـــي تعميــته؛ ولهذا فإنّ من يقرأ تلك الرسالة يجد نفسه في متاهات واسعة ومتداخلة من علوم وثقافة، وقد أكثر الصفديّ من أسلوب البديع، وخاصة التورية، حيث وردت أكثــر مـــن مـــرّة فـــي تلك الرسالة، فمن ذلك للتدليل فقط قوله: "ذو جلدٍ على الغـــربة"[2]. فكلمة غربة معنيان معنى قريب، ويعني الاغتراب، ومعنى بعيد ويفيد حدّ

(1) المصدر السابق، 317/5.

(2) المصدر نفسه، 317/5.

السّـيف، وهــو المــراد هــنا، ومن ذلك قوله كذلك: "وإذا قلبته وجدت آدم، ولا يفوّه بكلمة"[1].

وبالجملـــة، فلا تخلو جملة من جمل تلك الرسالة من إبهام أو غموض أو تعمية، ولا شـــكّ أنّ الهدف من ذلك إظهار قدرته وتفوّقه على نظيره. ومن لغز آخر بعث به زيــن الــدّين خضـــر إلى الصفديّ في قطن، حيث التزم الأساليب السابقة في التعمية، كالحــذف والــزيادة والإعراب والتورية والتشبيه فجاء منه: "إن حذفت أوله، وصحّفت ثانــيه، فهــو ظنٌّ حقيقته الآمال، أو صحّفت جملته كان وصف مؤمن يجري على هذا المــنوال، أو حــذفت أوسطه مع التحريف كان عبداً لا يعتق، أو حذفت آخره مع بقاء التحريف كان حيواناً يسرق ولا يُسرق، ويأنس وينفر..."[2].

فالواضح من خلال قراءة تلك الرسالة غزارة المعلومات والمعارف مع تنوّعها، حــيث اعــتمد على تلك المعارف في تعمية ذلك اللغز، فقد أكثر من مشتتات الذهن من خـــلال ربط المتناقضات والمتباعدات في سبيكة واحدة، ومن هنا فإنّ الذهن والتفكير لا يثــبت علــى حالـــة واحـــدة بــل يجب القفز من موضوع إلى آخر، والعلاقة بين هذه الموضـــوعات معدومـــة كما تقدّم، فمن عالم اللغة إلى عالم الحيوان وهكذا. ففي اللغز الســـابق كـــان الكاتـــب يسرد ألواناً من التعميات اللغوية الخاصة بالمبنى الصرفيّ من الحــذف والتصـــحيف والتحـــريف وغير ذلك من مشتقات، ثمّ قفز إلى موضوع آخر يتمـــثّـل بعـــالم الحيوان، حيث الحديث عن القط وصفاته، ثمّ التحوّل إلى دور العبادة وهكذا يتنقّل بين المعارف بشتّى أنواعها.

وكمـــا سلف يجيب عنه الصفديّ برسالة أُخرى تزيد تعمية وإبهاماً وغموضاً في الغـــرض ذاتـــه، وهو التحدّي من جهة، وحبّ إظهار النّفس بالمظهر اللائق بها حيث

---

(1) المصدر السابق، 317/5.

(2) المصدر نفسه، 317/2.

معرفة تلك الألغاز والوقوف على معمياتها تعدّ منقبة كبيرة، وصفاء ذهن، ونفاذ بصيرة، وحدّة قريحة.

والألغاز كثيرة في هذا المجال، وقد اتّخذت هذه الرسائل مناحي الحياة مجالاً لها، حيث شملت عالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد.

والجدير ذكره هنا والتنويه به هو الحديث عن غزارة المعلومات والمعارف التي يتّصف بها هؤلاء الأدباء، فهذه الألغاز تحوي في طيّاتها المعارف الإنسانية والحيوانية والنباتية والجماد إلى غير ذلك من معارف وعوارف، فهي تكشف لنا بصورة جليّة عن الثـراء الفكري الذي تميّز به عصرهم، وتفسّر لنا جانباً من المؤلّفات الموسوعية التي وسم بها ذلك العصر.

ومهمـا يكـن، فليس من الممكن والمعقول جعل هذه الرسائل توازي ما نشاهده اليوم على صفحات بعض وسائل الإعلام من ألغاز تكاد تعدم فائدتها من النواحي اللغوية والعلمـية والثقافية وتقصر هدفها على التسلية أو النيل من جهة رسمية معنية بالطريقة الرمزيّة.

وبالجملـة، فإنّ رسائل الألغاز تشعّبت أغراضها وتنوّعت بقصد أو دون قصد، فهي وسائل لنشر العلم والثقافة، وهي كذلك تُسهم في صقل الصّداقة بين الأدباء، إضافة إلى كونها وسيلة من وسائل تنمية الذكاء، وتوقد البصائر وامتحان القريحة إلى غير ذلك من فوائد.

وهـناك أمـرٌ لافت للنّظر في هذه الألغاز، حيث تُعدّ من أكثر الرسائل تصويراً لـبعض مظاهـر الحـياة المدنيّة في زمنهم، فمن ذلك وصف القطن في اللغز السابق ومجـالات اسـتخدامه، وكـذلك وصف الدروع في اللغز السابق عليه، والتعرّف إلى

مجـــالات استخدامه، والوقوف على قطاعاتهم العسكرية، وفي لغزّ آخر في كلمة "أمس" جاء قول عزّ الدّين الموصلي: "إن نزعت قلبه بعد قلبه فهو لعبة النرد موجود"[1].

ففي هذه العبارة كشف عن إحدى وسائل التسلية عندهم، وهي لعبة النرد، وهناك لغزّ آخر لزين الدّين المغربيّ جاء فيه وصف القطائف[2]، حيث يتجلّى لنا من خلاله أنّ عـــادة تـــناول هذا الصنّف من الطعام في رمضان لم يكن مقصوراً على زماننا بل هو أسبق في الوجود.

(1) الســـيوطي: الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق عبد العال سالم مكرّم، ط1، 1406هـــ/1985م)، مؤسسة الرسالة – بيروت، 4/ 250.

(2) انظر الصفديّ: أعيان العصر، 2/385-386.

الفصل الثّالث

الرسائل الأدبيّة

أولاً: رسائل الوصف

تمـــثّل الرسائل الأدبيّة لوناً من ألوان النثر الإبداعي وتشكّل مصدراً من مصادر الثراء الفنيّ، فمثل هذه الرسائل تعتمد اعتماداً مطلقاً على قوّة الخيال وتصرّف الذهن في التعبير، فالكاتب في مثلها يطلق العنان لفكره وقلمه، فيترك لذهنه حريّة التنقل والوصف دون قـــيود تفرضها النظرة الديوانيّة أو الإخوانيّة، فهي كما يصفها الحلبيّ من الرسائل التي يحسن بسط الكلام فيها ويكون الكاتب فيها مطلق العنان، مخلّيًا بينه وبين فصاحته، موكـــولاً إلـــى اطّلاعه وبلاغته، ما تضمّنت الأوصاف من الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب، وأنواع الرياضات من الصّيد ورمي البندق ولعب الكرة(1).

فالرســـائل الأدبـــيّة أكثر ما تتمحور بنيتها عليه عنصر الوصف، فهذا الغرض يشـــكل المـــادة الأساسيّة لتلك الرسائل، وهذا الأمر يخضع لمدى تصرّف ذهن وفطنة كاتبه، حيث يتشكّل الوصف حسب ما يرغب في تصويره ذلك الكاتب.

ولهـــذا أصـــبحت الرسائل الوصفيّة من أكثر الرسائل الأدبيّة شيوعاً، حيث اهتمّ الكـــتّاب بهـــذا اللـــون مـــن الرســـائل، وقد استوعبت رسائل الوصف مظاهر الطبيعة الصّامتـــة والصائتة. فصوّر الكتّاب مظاهر الشّتاء وفيضان الأودية والقصور والقلاع، ووفـــاء النـــيل وغيرها من الموضوعات الصّامتة، وكذلك أبدعوا في تصوير الطبيعة الصـــائتة؛ كوصـــفهم للقـــادة والجيوش، وصفات الخيل وحركاتها، ولم يغفلوا وصف الكوارث الطبيعيّة، كالزلازل والأوبئة التي عصفت بالمجتمع المملوكيّ، وكوته بنارها، ولم يقف الوصف عند المظاهر السلبيّة المتمثّلة في الأوبئة والزلازل، بل صوّر الكتّاب

---

(1) الحلبي: حُسن التوسّل، ص343.

مظاهــر الحضـــارة المخـــتلفة، كأدوات السلاح والأطعمة والأشربة ومظاهر حضاريّة أخرى كانت قد عرفت في زمانهم، ممّا جعل من هذه الرسائل وثائق مهمّة في التعرُف على حياة المجتمع في تلك الفترة.

رسائل وصف القادة والجيوش:

اتّصف عصر المماليك بالكرّ والفرّ ومجابهة أعداء الأمّة، وقد ظهرت نتيجة لذلك صورة القائد البطل وجيشه المنصور، ولذا احتلّ الجانب العسكريّ مكانة عليّة مرموقة نظــراً لحاجـتهم الماسّة لأولئك القادة الأفذاذ. فقد اتّخذ عصرهم طابع القوّة العسكريّة، والإغــارة علـــى الأعــداء وصـــدّ هجماتهم، ولهذا أولى المماليك الجيش عناية فائقة، وانعكســت هذه العناية على إنتاج الأدباء والكتّاب، حيث كان الكتّاب يصفون الأحداث العسكريّة عن كثب ودراية، فصوّر الكتّاب حركات الجيوش والقادة وخذلان الأعداء في المعـــارك، وقـــد مكّنتهم الانتصارات على العدوّ وفتح الحصون والقلاع والبلاد وكتب البشـــارات مـــن وصـــف حـــركات العساكر والجنود والقادة في حصار تلك الممالك، واســـتماتتهم فـــي سبيل صدّ الأعداء وانتزاع الممتلكات من أيديهم، حيث صوّر الكتّاب حركة القادة السلاطين حال خروجهم إلى المعارك بين يديّ قادتهم وعساكرهم، وهم لا همّ لهم إلاّ تحقيق النّصر وخذل العدو، وصوّروا كذلك قطاعات الجنود وخيولهم وقوّتهم العســكريّة الضـــاربة، كما صوّروا القلاع والحصون التي يريدون حصارها، كما أنّهم صوّروا العدو المتأهّب للانقضاض عليهم، كما صوّروا خور قواه وخذلانه.

وقـــد أنشأ محي الدّين بن عبد الظاهر في وصف غزوة قام بها السلطان الظاهر لفـــتح قيســـاريّة رســـالة تناول فيها وصف تحركات السلطان بين قادة جيشه وقطاعاته العســـكريّة، وتنقّله بين الوهاد والجبال أياماً وليالي حتى أدرك العدو، وأغرى به وألحق به شرّ هزيمة، وممّا يزيد الوصف دقّة وموضوعيّة مشاهدة الكاتب الأحداث عياناً، حيث

جـــاء في الرسالة قوله: "ولمّا كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد"[1]، وقد بدأ الكاتـــب الرســـالة بوصـــفه لحـــركة السلطان وجيوشه التي تسابق السّحاب، وتجاري الـــريـــاح، حـــيث لا يلـــوون على شيء، ولا همَّ لهم إلاّ الظّفر على عدوّهم "وسرنا لا يستقرّ بنا في شيء منها قرار، ولا يقتدح من غير سنابك الخيل نار، ولا نمرّ على مدينة إلاّ مرور الرّياح على الخمائل في الأصائل والإبكار، ولا نقيم إلاّ بمقدار ما يتزيّد الزّائر من الأهبة أو يتزوّد الطائر من النغبة، نسبق وفد الريح من حيث ننتحي، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسحبه أذيال الصوافن تمتحي، تحمل همّنا الخيل العتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق"[2].

وقـــد أظهـــر الكاتـــب في وصفه دقّة كبيرة حيث رسم صورة لحركات السلطان وجـــنوده وهـــم متأهّبون لقتال عدوهم، حيث جدّوا في الإسراع وملاقاته، متّخذين كل وســـائل النّصـــر والعزّة، فقد أمر السلطان جميع عساكره بادّراع لامات حربهم وحمل آلات طعنهم وضربهم[3].

وكـــل هذه المشاهد نقلها الكاتب في ثوب معلم، وإطار من التصوير، حيث تابع وصـــف تحـــركات ذلـــك القائد وعسكره، وتنقّله السريع بين المدن والقلاع متّخذاً أهبة الاســـتعداد للانقضاض على الأعداء، وقد وصف الأماكن التي مرَّ بها الجيش من جبال وأوديـــة وســـهول وهضـــاب، وقد انتهى به الوصف إلى تصوير جيش المسلمين قبل المعـــركة وجـــيش التتار، فقال: "وبات التتار على أجمل ترتيب لأنفسهم وأجمل منظر، وبات المسلمون على أتمّ تيقُّظ وأعظم حذر)"[4].

فالمسلمون متيقّظون والتتار متهاونون مغترّون بقوّتهم، وقد نفذ الكاتب إلى رسم صورة للقائد المسلم، وقد شرع في تثبيت الجيش وترتيبه وتهيئته للقتال ومطالعة العدو،

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 140/14.

(2) المصدر نفسه، 140/14.

(3) انظر المصدر نفسه، 141/14.

(4) المصدر نفسه، 144/14.

وأخــذ يوصي جنده بالصّبر والمصابرة والاجتماع عند المصادمة، وقد ظهر من عزمه ونفاذ بصيرته ما أعجز أعداءه عن مجاراته، وقد صوّر الكاتب السلطان القائد وجنوده يحفّــونه مــن كــل جانب وسط الرايات والسناجق في صورة مرعبة مفزعة للأعداء، فجــاء في تلك الصورة "ولمّا شاهدوا سناجق مولانا السلطان المنصورة ومن حولها من الممالــك الظاهريّة وعليهم الخود الصفر المقترحة، وكأنّها شعاع نيران مقتدحة، رجعوا إلــى مــا كانــوا عقــدوا مــن العزائم فحلّوا، وسُقِط في أيديهــم، ورأوا أنّهــم قــد ضلّــوا"(1).

وأخــذ الكاتب يصوّر هذا المشهد المثير للمشاعر والعواطف، فشرع يبيّن ملامح الصــورة الحقيقيّة للمعركة حيث "انصبّت الخيل إليهم من أعلى الجبل انصباب السيل، وبطلت الحيلة منهم ونُفي الحيل، فشمّروا عن السّواعد ووقفوا وقفة رجلٍ واحد"(2).

ومــا فتــئ الكاتــب يصف جوّ المعركة من الكرّ والفرّ والقتل والأسر وإزهاق الــنُفوس وتمــزيق الأشــلاء حتّى قتل من العدو من قتل وأسر من أسر وفرّ من فرّ، واســتمرّ الكاتب في تصوير عزمات السّلطان وشجاعته وهو ينقضُّ على أعدائه ويثب علــيهم "فثاب مولانا إليهم ووثب عليهم، فضحّى كل منهم بكل أشمط، وأفرى الأجساد فأفرط"(3).

وقــد رسم الكاتب صورة حيّة للسلطان المسلم، وهو يطارد أعداءه ويسرف في قــتلهم وتمــزيق أجسادهم، وقد التفت الكاتب كذلك إلى وصف عزمات القادة المعاونين للســلطان فجــاء في وصف أحدهم وهو الصّاحب زين الدّين "فكان أول مسابق وأسرع

---

(1) المصدر السابق، 145/14.
(2) المصدر نفسه، 145/14.
(3) المصدر نفسه، 146/14.

راشـــق، وأقرب مطاعن، وأعظم معاون، ذكر من شاهده أنّه أحسن في معركته وأجمل في كرّته، وأجاد في طعنته، زأر زئير اللّيث... ووقف دريئة للرّماح"(1).

وقـــد صـــوّر الكاتب الجانب الآخر وهم الأعداء المخذولون، حيث صوّر فُلولهم والمســـلمون يتّبعونها قتلاً وأسراً "وأصبح الأعداء لا تُرى إلاّ أشلاؤهم، ولا تُبصر إلاّ أعـــياؤهم كأنّمـــا جـــزر أجســـادهم جزائر يتخلّلها من الدّماء السّيل، وكأنّما رؤوسهم المجمـــوعة لـــدى الدهليـــز المنصور أكرٌ تلعب بها صوالجة من الأيدي والأرجل من الخيل... وأقبل بعض الأحياء من الأسارى على الأموات يتعارفون، ولأخبار شجاعتهم يتواصـــفون فكـــم مـــن قائل هذا فلان وهذا فلان وهذا كان وهذا كان يحدّث نفســـه بأنّه يهزم الألوف... وكثرت الأسارى من المغل"(2).

وبعـــد إنجـــلاء المعركة، وتحقيق النّصر المبين، وهزيمة الأعداء، جدَّ السُّلطان وجـــنوده في العودة منصورين، وقد استقبلهم النّاس بالفرح والسُّرور والغبطة والتّهاني "وأقـــبل الـــنّاس علـــى مولانا السُّلطان يهنئونه وعلى كفّه الشّريف يقبّلونه، وبعد ذلك حضـــرت القضـــاة والفقهـــاء والعلمـــاء والصـــوفيّة وذوو المـــراتب من أصحـــاب العمائـــم..."(3).

وممّـــا لا شـــكّ فـــيه أنّ هـــذه الرسالة استوعبت وصف القادة والجُند في حالة النّصـــر، كما صوّرت الجيوش المنهزمة مع قادتها، وتمثّل هذه الرسالة طرفاً من أدب الحـــرب والقتال، حيث تصوّر تصويراً حقيقيّاً حركات القادة والجيوش وملاقاة الأعداء وإيقـــاع الهـــزيمة بهم، فقد صوّرت المعركة وتناثر الأشلاء وتطاير الرؤوس، وتقادح الســـنابك، كما رسمت لوحات لجماعات الأسرى وفُلول المنهزمين، وأجساد القتلى، ولم

(1) المصدر السابق، 147/14.

(2) المصدر نفسه، 148/14-149.

(3) المصدر نفسه، 155/14.

تغفل صورة القائد المسلم الشّجاع الذي يثب على الأعداء، ويقف في مقدّمة الصّفوف يوصي جُنده بالإقدام والتثبيت والتضحيات وصدّ هجمات الأعداء والصّبر والمصابرة.

ومن الجدير ذكره، أنّ القادة يمثّلون عنصراً مهمّاً، وعصباً حيويّاً في تحفيز الجُند، وتحقيق النّصر، ولذا فإنّ الكتّاب جعلوا لهم وصفاً خاصّاً يميّزهم عن غيرهم من الجند، فهم دائمو اليقظة، شديدو الأسر، مرهوبو الجانب، سديدو الرأي، خفيفو الحركة، فجاء في وصف قائد سريّة كاشفة للشّهاب محمود الحلبيّ قوله يصف حركات ذلك القائد وشدّة أسره ويقظته "وهو لا زال أخفّ من مقاصده من وطأة ضيف، وأخفى من مطالبه من زورة طيف، وأسرع في تنقّله من سحابة صيف، وأروع للعدى في تطلّعه من سلّة سيف"[1].

فقد ركّز الحلبيّ وصفه لذلك القائد على أُمور مستحبّة في القادة من سرعة الحركة والتخفّي والتمويه، والتنقّل السريع وعدم المكوث في مكان واحد يسهّل على العدو كشفه، وإضافة إلى ذلك جرأته على الأعداء وإرهابهم، وشجاعته في مواطن الإقدام، وأسهب في وصف ذلك القائد، حيث نعته بنعوت كلّها تجمع بين الشجاعة وسرعة الحركة والتنقّل.

وقد وصف محي الدّين بن عبد الظّاهر القائد السلطان المنصور قلاوون بعد فتح طرابلس، وقد اشترك في المعركة بنفسه، وتقدّم جنده، وخاض الصّفوف، وأغار على الأعداء بشجاعة وثبات جنان يحيطون به جند ضرّستهم الحرب العوان ليس لهم همٌّ سوى مطاردة العدو وخذله، سريعو الحركة إلى العدو، فجاء في وصف القائد وجنده قول الكاتب: "قدّر الله تعالى أن صرف مولانا السلطان إليها العنان، وسبق جيشه إليها كل خبر وليس الخبر كالعيان، وجاءها بنفسه النفيسه والسعادة قد حرسته عيونها، وتلك المخاوف كلها أمان... وفي خدمته جنوده لا تستبعد مفازة، وكم راحت وغدت وفي

(1) الحلبي: حُسن التوسّل، ص331.

نفسها للأعداء حزازة، فامتطوا بخيولهم من جبال لبنان تيجاناً لها صاغتها الثُلوج... وانحطت تلك الجيوش من تلك الجنادل انحطاط الأجادل، واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال..."[1].

وقد وصف القاضي علاء الدّين بن غانم قائداً عسكرياً من رسالة له باليقظة والحزم والمهابة والعدل وشدّة السطوة على الأعداء فقال: "وجعله لحقيقة العلياء نفساً وعيناً، ولا أعدم منه الملك ناظراً ولا عيناً، ولا زال على الأعداء يرسل من مهابته رقيبين أذناً وعيناً... وأطلع طلعة لوائه في الخافقين حتّى تخال الشّمس عيناً وسير ركائب ذكره في الآفاق تشتكي أيناً ولا عيناً ... وأهلك كل عدو له وحاسد"[2].

وقد أنشأ الحلبيّ بعض الرسائل في وصف القادة والجيوش إبّان هزيمتهم امتحاناً للقريحة وذلك ظاهر في قوله: "ومن ذلك ممّا أنشأته إلى من هزم وجيشه يتضمّن إقامة عذره، ووصف اجتهاده، ويحثّ على محاودة عدوّه، والطلب بثأره رياضة للخاطر"[3]. فمن تلك الرسالة قال الحلبي: "والدّهر ذو دول والزّمان متلون إن دجت عليكم منه بالقهر ليلة واحدة فقد أشرفت لكم منه بالنّصر ليالٍ أُوَل، فالمولى لا يلتفت إلى ما فات، ويقبل بفكره على تدبير ما هو آت..."[4].

وقد وصف الحلبيّ كذلك من هُزم جيشه ذامّاً له ومقرّعاً فقال: "وأنّه حين وقعت العين على العين، وأيقن عدوه لمّا رأى من عَدده وعُدده بمعاجلة الحين، أعجل نصول العدى عن وصولها، تناديه ألسنة أسنّته الكرّة الكرّة فلا يلتفت إلى ندائها، وتشكو إليه سيوفه الظمأ... فمنع عدوّه مقاتل رجاله وأباحهم كرائم مال جنده وماله، وخلى لهم خزائن سلاحه التي أعدّها لقتالهم، فأضحت معدّة لقتاله"[5].

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 368/7.

(2) الصفديّ: أعيان العصر، 498/3-499.

(3) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص385.

(4) المصدر نفسه، ص386.

(5) المصدر نفسه، ص388.

وقــد بدت صورة القائد والجيش بصورة مهزوزة مضطّربة تنافي صورة البطل وجيشه إبّان النّصر، وعليه فإنّ القادة والجنود حظيا بمكانة مرموقة في الدولة المملوكيّة لِمَــا لهمــا مــن الأهمية في توطيد أركان الدولة وحمايتها من إغارة الأعداء، خاصة والأعــداء يحــيطون بدولتهم من كل جانب، ويتربّصون بهم الدوائر، وقد لقيت صورة القادة والجنود من الكتّاب هوىً ورغبة في تصويرها وبيان مظاهر الإعجاب بها.

رسائل وصف القلاع والحصون:

لقــد أعمل الكتّاب في العصر المملوكيّ أفكارهم في رسم صور لكل مظهر من مظاهر الحياة، ومن بين هذه المظاهر رسموا الصور للقلاع والحصون التي تمثّل رمزاً سياســياً ومظهراً من مظاهر العزّة والتمكين، وقد كثر رسم هذه الصّور نظراً لمكانتها العســكرية، حــيث تمــثّل القلاع والحصون الملاذ الآمن للعسكريين والقادة، كما يمثّل صمودها في وجه الأعداء وشموخ بنيانها مظهراً من مظاهر العزّة والمنعة.

وقد اعتمد الكتّاب في وصف تلك القلاع على بيان مظاهر الوعورة وعلوّ المكان، وصــعوبة الوصول. فقد صوّر علاء الدّين بن غانم قلعة بقوله: "ذات أودية ومحاجر لا تــراها العُيون لبُعد مرماها إلاّ شزراً، ولا ينظر ساكنها العدد الكثير إلاّ نزراً، ولا يظنّ ناظــرها إلاّ أنّهــا طالعة بين النجوم بما لها من الأبراج، ولها من الفُرات خندق يحفّها كالبحر إلاّ أنّ ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾•، ولها وادٍ لا يقي لفحة الرمضاء، ولا حَــرَّ الهواجر، وقد توعّرت مسالكه فلا يُداس فيه على المحاجر، وتفاوت ما بين مرآه العلي وقراره العميق، ويقتحم راكبه الهول في هبوطه"(1).

والمــتأمّل لهــذه الفقــرة التي أملاها الكاتب يجدُ نفسه أمام لوحة فنيّة واضحة الخطــوط والمعــالم، متداخلة الألوان شاهدة على فنّ العمارة في ذلك الزمن، وقد أكّد

• سورة الفرقان، آية 53.

(1) الصفدي: أعيان العصر، 498/3.

الكاتب عناصر أساسيّة في اختيار موقع تلك القلعة، حيث تحيط بها الأودية والوهاد، فهي عصيّة على الأعداء، يحلُّ ساكنها في مأمنٍ من الخوف، إذ لا يستطيع العدوّ مداهمتها، عالية شاهقة تُباري النُّجوم والكواكب، تستند إلى نهر الفُرات فيمدّها بالحياة، وهي إلى جانب ذلك في منطقة شديدة الوعورة، ولا يستطيع العدوّ السلوك إلى مسالكها، وكلّ من يتّجه نحوها يركب في هول المخاطر والشدائد. ويحسّ القارئ من خلال قراءة هذه الرسالة مدى اهتمام المسلمين بعمارة تلك القلاع واختيار الأماكن الوعرة، ولكنّهم يختارون سُبل الحياة كذلك، ولذا فإنّها ملازمة لنهر جارٍ يزوّدها بالمياه، فكما احتاط البناءون في اختيار المواقع الوعرة حرصوا على توفير سبل الحياة، وإلاّ أصبحت الإقامة فيها ضرباً من الخيال.

ومن هذا القبيل ما جاء من رسالة لابن فضل الله العمريّ في وصف قلعة، تحدّث فيها عن مكانها ووعورتها، وعلوّ أبراجها ومنافستها للنُّجوم، فقال: "وهي أي قلعة تُقص دونها قوادم النِّسر، وتعرف بضمها إلى النُّجوم أنّ جميع القلاع غيرها مبنيّة على الكسر، قد زلّت الرياح عن طرقها، ونزلت الكواكب دون أُفقها، ومتت إليها البروق بأسباب لم تقطع، وفصّل عليها ثوب السّحاب، لكنه مذ وقع دونها ما توقع، قد استعلت على قنة جبل ازداد بها رفعة منار، وأصبح بها وهو صخر علماً على رأسه نار"[1].

ولا شكّ في أنّ العمريّ أرخى لذهنه وقلمه العنان في وصف تلك القلعة، وجعل بينه وبين الفصاحة والبلاغة سبباً، مبتدئاً بالحديث عن مدى ارتفاعها، وسموّ علوّها، حتى قصّر النسر عن بلوغ قمّتها، وقد زاحمت الكواكب بشرفاتها، وقد أصبحت عصيّة على الرياح، دائمة الشُّموخ، متّشحة بثوب السّحاب لارتفاعها، وقد رسم لها صورة وهي تجثم على قمّة جبل عالٍ، فأصبحت فوق قنته كالمنارة التي نصبت.

---

(1) العمريّ: التعريف، ص359.

وقـــد استرســـل العمريّ في وصفها حتى تراءت للقارئ، وكأنّها بين يديه ماثلة، فكانـــت كلماته أشبه بالنحت أو التصوير؛ ممّا جعله يبرزها في صورة حيّة ماثلة يغلّفها إطـــار مـــن العناصـــر الطبيعيّة، ويشكّل تلوين خطوطها ضُروبٌ من الحقائق الماديّة الملموســـة، حيث الوعورة والرِّياح والسَّحاب والبُروق والطيور الجارحة والكواكب إلى غير ذلك من عناصر تضافرت في رسم تلك اللوحة.

ولـــــه أيضاً رسالة في وصف حصن منيع أكثر من نعته بالمنعة والشُموخ، فقد اتّخـــذ بـــناءوه كل موجبات حمايته، وضمان صموده في وجه الغارات، فجاء في ذلك الوصـــف قوله: "ودونه جبال رفيعة، وأودية منيعة، وقد بني على قنة يقع دونها النِّسر الطائـــر، ويقـــنع بـــدون طيفها الخيال الزائر، قد آلت السُّحب لا تفرجت عنه فروجها، والشـــهب لا ميّزت منه بروجها، قد أذكى البرق فيه شعله، وغلقت عليه السماء أبوابها المقفلـــة، وأنكـــرت الشّـــمس فيه الأيّام، وخفيت دونه الأهلة، فما رويت إلاّ في التّمام، وتمـــنطقت أســـواره بالمنجانـــيق التي حالت العهود وحلّت العقود، وهدر في كل ناحية فنـــيقها، ونزل في كل جهة فريقها، ووراء أسواره من المقاتلة أسوار، ومن أهل النوب من جرت معهم أطوار، وما عملت في صخوره المعاول، ولا دبّت نقوبها في المفاصل، ولا نفدت منه المادة ولا انقطع عنه الواصل"(1).

وقـــد آثـــرت في وصف تلك القلاع والحصون نقل الرسالة المختصّة بالوصف كاملـــة – وهـــي قصـــيرة فـــي العادة – وذلك لأنّ فيها بياناً واضحاً لتخيّل صور هذه الحصـــون والقلاع، وقد حرص العمريّ على رسم صورة ذلك الحصن بما يقرّبها من صـــورة القلعة السابقة، فقد وقع ذلك الحصن بين أودية عميقة، وجبال شاهقة الارتفاع، وقـــد علت شرفاته حتّى قصر النسر عن التحليق فوقها، ونافست الكواكب في سموّها، واتّخـــذها البرق نوراً، وتعمّم بالسحائب، وأقعى على قنة جبل عالٍ، وجثم بين أسواره الشـــديدة المنـــيعة. وقد أنبأ العمريّ عن كيفيّة عمارته حيث لم يعمل بالمعاول بل نحت

---

(1) المصدر السابق، ص259-260.

نحـتاً في تلك الصخور، وكل هذه الأوصاف تزيده منعة وصموداً، والعمريّ يريد من ذلـك الوصـول إلـى المدح والإشادة بمن بنى الحصن ومن يتّخذه مسكناً حيث العزّة والشُموخ.

وقـد جـاء فـي خطبة منشور للصفديّ وصف لقلقة صفد، حيث جاء قوله: "قد طاولـت النُجوم شرفاته، وعلت على الغيوم غرفاته، وتلهبت ذبالة الشمس في سراجه، ونفـض الأصيل زعفرانه على بياض أبراجه، كم لاثت الغمائم على هامته عمائم، وكم لبست أنامل بروجه من الأهلة خواتم"[1].

فقد حرص الصفديّ – كما هو الشأن في ذلك – على إبراز محاسن ذلك الحصن، فرسم له صورة فريدة، ممّا دفعنا إلى القول بأنّه من ناطحات السّحاب التي تتبارى الأُمم وتتسابق في إنشائها.

وجـاء في وصف قلعة الرُوم عرضاً خلال رسالة بشارة بعد فتحها قول الكاتب: "ومـا زلنا نصل السرى بالسير ونرسل الأعنّة إلى نحوها، فتمدّ الجياد أعناقها إليها مدّاً يـنقطع بـين قوّتها وقوّته السّير، واستقبلنا من جبالها كل صعب المرتقى وعر المنتقى شـاهق لا يلتقـي به مسلك ولا يلتقى، فلمّا زالت العزائم الشريفة تسهّل حزونه... فما أشـرف علـيها مـنّا أشـرف سلطان جعل جبلها دكّاً، وحاصرناها حصاراً ألحقهـا بعكّـا..."[2].

وقـد أورد الكاتب أوصافاً لها من خلال حديثه عن حصارها، حيث وصف منعة القلعـة، فهـي محصّنة بالجبال التي أحاطت بها من كل جهة، ورسم لها صورة وهي محاطـة بالأسوار والأبراج العالية والحجارة الصلبة، والارتفاع الشّاهق، وما إلى ذلك من أسباب الصّمود، ومع ذلك آل أمرها للمسلمين.

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 108/4.

(2) المقريزي: السلوك، 1006/1.

ونختم هذه اللوحات بأتمّها إتقاناً، فقد وصف الحلبيّ حصناً وأدقّ في وصفه فقال: "قــد تقــرّط بالنجوم وتقرطق بالغيوم وسما فرعه إلى السماء، ورسا أصله في التّخوم، تخــال الشــمس إذا علت أنّها تنتقل في أبراجه، ويظنّ من سها إلى السُها أنّه ذبالة في ســراجه، لا يعلوه من مسمّى الطّير غير نسر الفلك* ومرزمه**، ولا يرمق متبرّجات بــروجه غيــر عين شمسه والمقل التي تطرف في أنجمه، وحوله من الجبال كل شامخ يتهــيّب عقــاب الجــوّ قطع عقابه، وتقف الرّياح حسرى إذا توقّلت في هضابه، تخاف العــيون إذا رمقته سلوك ما دونه من المحاجر، وتتخيّل الفكر صورة الترقي إليه ثمّ لا تــبلغها حتّــى تبلغ القلوب الحناجر، وحوله من الأودية خنادق لا تُعلم منها الشهور إلاّ بأنصــافها، ولا تُعــرف فيها الأهلة إلاّ بأوصافها، وطالما شحّت الأحلام أن تُخيل فتحه لمــن ســلف في المنام، فكم ذي جيوش قد أمات بغصّه، وذي سطوات أعمل في أمره الفكر فلم يفز من نظره على البعد بفرصة"[1].

والحقــيقة أنّ الحلبيّ لم يترك فرصة للحديث عن ذلك البرج، فقد وصفه بكل ما يمكــن أن يوصــف بــه الحصن، فوصف الموقع والبناءِ والبيئة المتاخمة له، وحسرة الأعــداء أمــام أســواره. فالحلبــيّ استوعب جميع أوصاف القلاع والحصون التي قد وصفــت في هذا الباب وأتى على أكملها صورة.

ومــن الجدير ذكره، أنّ الرسائل التي تتحدّث عن وصف القلاع والحصون -في مجملهــا- تركّــز تركيــزاً كبيراً على اختيار الموقع، حيث يغلب عليه أن يكون شديد الوعــورة، حــيث الجــبال الشــاهقة، والأودية السحيقة، والبناء عالي الارتفاع يزاحم

---

* نســر الفلك أو النسران وهما كوكبان يقال لأحدهما النسر الطائر وللآخر النسر الواقع. التفتازاني، سعد الدين مسعود (ت791 هــ/1389م): النعم السوابغ في شرح الكلم النوابغ، حقّقه جاك الأسود، الدارِ العالمية للطباعة والنشر، ص130.

** المــرزم: نجــم في السماء. (لا خير في الزّمان، ما طلع المرزمان). المرزمان نجمان أحدهما في الشّعري والآخر في الذّراع. المصدر نفسه، ص102.

المــرزم: من طير الماء، طويل الرجلين والعنق، أعوج المنقار، في أطراف جناحيه سواد، أكثر أكله السّمك. الدميري، كمال الــدين محمــد بــن موسى (808هــ/1405م): حياة الحيوان الكبرى، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر، ط5، 1398هــ/1978م، 314/2.

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص349.

الكواكب في علوّه، ويرتدي جلباباً من الغيوم، ويعتمد على البروق في الإنارة وتحيط به أسوار شديدة الصلابة.

ويخلص من هذه الأوصاف إلى بيان عزّة من يسكنه ويقيم فيه، وقصور الأعداء عن بلوغ شأوه والوصول إليه، فالقلاع والحصون ترمز إلى قوة الدولة وعزّتها، وهي تمثّل الثُغور التي تصدّ الأعداء وتقف حائلاً منيعاً في وجه الغزاة والمعتدين.

رسائل وصف الخيل:

نالت الخيل عناية فائقة في العصر المملوكيّ واحتلّت مكانة مرموقة، فهي الوسيلة الناجعة في الحرب والسِّلم، فبها يُغار على الأعداء، وعليها تحمل الرؤساء والأعيان، وهي مصدر الجمال ومتعة النُفوس، وأداة للصّيد، ومهما يكن فإنّ فضائل الخيل لا يبلغ حدّها، ولذا أولاها الأعيان والرؤساء والكتّاب عناية خاصة، وقد خصّتها الكتّاب برسائل وصفيّة متفرّدة لا يشركها فيها شيء، فوقفوا على أصنافها، وأجادوا في وصفها، فمن أهم الكتّاب الذين اهتمّوا بوصفها الشّهاب محمود الحلبيّ وابن فضل الله العمريّ. فقد أنشأ الحلبيّ رسالة في وصف الخيل يشهد بحقّها الصفديّ حيث قال: "ومن إنشائه البديع، وحوكه الذي قصر عنه الحريري، وبَعُد عن البديع كتاب في وصف الخيل"(1).

وقد ذكر القلقشندي أنواع وألوان الخيل، فذكر أنّ أصنافها ثلاثة: العراب، وهي أفضلها وأعلاها قيمة، وأغلاها ثمناً، والعجميّات وهي البراذين، والمولّدة بين العراب والبراذين، وأمّا ألوانها فقد ذكر أنّها أربعة ألوان وما سواها مفرّع عنها: فأولّها الأبيض، وثانيها السواد، وثالثها الحمرة، ورابعها الصّقرة(2).

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 5م392.

(2) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 2/14-15.

وقد يحتاج إلى وصفها في أحوال مخصوصة ودواعٍ معروفة، فمن المواضع التي تستدعي وصف الخيل بعثها في الإنعام والهدايا، والجواب عن ذلك ووصفها في ترتيب الجيوش والمواكب، وذكرها في مجالات الحرب، وما يجري ذلك المجرى، وتشمل الأوصاف معرفة أصنافها وألوانها وشياتها•، وما يستحسن من صفاتها وغير ذلك من أمور تخصّ الخيل[1].

وقد فصّل القول الحلبيّ في صفات تلك الخيول، حيث قسّمها حسب ألوانها، فبدأ بالأشهب، وذكر صفات لونه وحركته وسرعته ورشاقته، فقال فيه: "فمن أشهب غطاه النهار بحلّته، وأوطأه الليل على أهلته، يتموّج أديمه ريّاً، ويتأرجح ريّاً، ويقول من استقبله في حلى لجامه هذا الفجر قد طلع بالثريّا، إن التفّت المضائق أنساب إنسياب الأيم، وإن انفرجت المسالك مرّ مرور الغيم"[2]، وقد أسهب الحلبيّ في وصفه وأدقّ الوصف، حيث رسم لوحة فنيّة متجانسة الأبعاد والألوان، وقد وصفه وصف الخبير المعاين، ولا خلاف في ذلك، فالخيل هي وسيلتهم في السّلم والحرب، وهي شغلهم الشاغل، ولذا أدقّوا في نعتها ومعرفة أُصولها، وقد وصف العمريّ كذلك الأشهب ونعته بالجمال والزّينة والسبق فقال في ذلك: "فمن أشهب جواد بما في يده، سابق يعدّ يومه الأبيض لغده، كأنّما قمصه النهار بردائه، أو سمع له البدر التمام بروائه، قد صيغ من لجين، وصين من نور البصر فيه بسواد العين"[3].

والمتأمّل لهذين الوصفين يجد الخطوط العريضة متقاربة، حيث اتّفق الكاتبان على جمال الهيئة وسرعة العدو، ومع أنّ الصورة قد اختلفت في بعض جزئياتها إلاّ أنّ الإطار ظلّ واحداً في اللوحتين.

• شيات مفردها شيَة وهي كل لون يخالف معظم لون الفرس، الإسكافي، أبو عبد الله محمد (ت421هـ/1030م): كتاب مبادئ اللغة، حقّقه يحيى عبابنة وعبد القادر الخليل، ط1، 1997، وزارة الثقافة – عمّان – الأردن، ص219.

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 2/13-14.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل: ص344.

(3) العمريّ: التعريف، ص327.

وقــد غلب على اللوحة عناصر الإضاءة والبياض حيث الحصان الأشهب يغلب علــيه اللون الأبيض، ولذا نجد اللوحة الفنيّة المرسومة له تتموّج بالألوان الزاهية، فمن الــنهار والــبدر والفجــر والثريا، وأشعة يومه الأبيض، واللجين، ونور البصر، وهذه العناصــر شــكّلت صورة مشرقة الألوان، وهذا لون ذلك الحصان، فالكاتبان اتفقا على الخطوط المميّزة لتلك الفصيلة من الخيل ولكن الصورة الجزئية المكوّنة للوحة متفاوتة عندهما.

وقــد استرســل الحلبي في وصف اللون الآخر، وهو الأدهم حيث اللون الأسود غالب عليه، فكانت عناصر صورته مجلوبة من الظلام فقال في حقّه: "ومن أدهم حالك الأديــم حالــي الشكيم... قد ألبسه الليل برده، وأطلع من عينيه سعده يظن من نظر إلى سواد طرّته وبياض حجوله وغرّته أنّه توهّم النهار نهراً... يقبل كالليل"[1].

وكمــا تضــافرت عناصر الصورة في اللوحة الأولى حدث الأمر ذاته في لوحة الأدهم حيث تشابهت العناصر المكوّنة للصورة وغلب عليها اللون الأسود، حيث ظلمة الليل البهيم ساهمت في إخراج الصورة.

وقــد تكــرّرت الصــورة عند الكاتبين في وصفهما للكميت والأشقر والأخضر والأبلــق والأصــفر الحبشي، وقد أدقّا في رسم ملامح تلك الصور وإبراز هذه الألوان والحركات.

وقــد ركزا في رسمهما لهذه اللوحات على أمرين اثنين، يتجلى الأمر الأول في صــفة اللــون، حــيث حشدا في وصفهما كل عناصر الطبيعة التي تقرّب الصورة من الواقع، فاعتمدا على عناصر البيئة في إبراز تلك الصفات. ففي لوحة الأشقر مثلاً، نجد البرق والأصيل والرّاح، والهلال والقبس والشمس، وكل هذه العناصر تشعُ نوراً، وتشي بصفاء اللون، بينما نجد في لوحة الكميت سواد الليل وهكذا.

---

(1) الحلبي: حُسن التوسّل، ص344.

والأمـــر الآخـــر الذي حرص الكتّاب على وصفه في الخيل الرشاقة والسرعة، فـــنجدهم يختارون لها عناصر أيضاً من البيئة، فهم يشبهونها بالبرق، وشعاع الشمس، والأيم ومرور الغيم، ويسابق ظلّه، ويزل الغلام الخف عن صهواته وهلمّ جرّا.

ومـــن الجديـــر ذكره، أنّ لكل لون من هذه الخيل صفات في الرشاقة والسرعة تختلف عن غيرها، وقد أجمل العمريّ القول في الخيل، واستخلص صفاتها المستحسنة فقال: "اعلم أنّ صفات الخيل المستحسنة كثيرة امتلأت بها الكتب، وكثرت بها المعرفة، حتـــى بقيت لا تكاد تجهل، وجماعها في الفرس أن يكون في عظم خلقه كالبنيان، وفي سرعة انعطافه مثل العنان، وفي اشتداد جريه مثل الطيران، ويكون رقيق لحم الخدين، واســـع الشـــدقين، جاحظ العينين، حديد الحدقتين، مولل الأذنين، عريض الجنبين، ناتئ الصـــدر، قصـــير الوطـــيف*، طويل النسا**، قصير المطا***، واسع الخطا، عريض الكفـــل****، ســـائل الذيل، قصير عجم الذنب، صلب الحافر مقبقبه كأنّه قعب الحالب، لـــيّـــن الجلـــدة، ناعم البشرة، كأنّ دهناً سكب عليه، أزينها الأشهب، وأجراها الكميت، وأســـبقها الشـــقر، وأحـــدّها نفوســـاً الدهم، وما سلم فيها من الوضح كان أشدّ، والغرة والحجول من الوضح، وهي نوعان: عراب وهماليج وهي الأكاديش"[1].

وقـــد اجتـــزأت هذا النصّ على طوله؛ لأنّ فيه مجمل صفات الخيل المستحسنة، حـــيث بين بعض صفاتها فمنها ما تميّز بالسرعة ومنها ما تميّز بالعدو والحركة، ومنها ما هو شديد الصبر، ومنها حادّ النفس عسر المزاج، ومنها ما تروق النفس لرؤيته، ففي كل صنف منها مجموعة من الصفات تميّزه عن غيره.

---

* الوطيف: الوطف كثرة شعر الحاجبين والعينين والأشعار مع استرخاء وطول؛ ابن منظور: لسان العرب، وطف.

** النسا: عرق من الورك إلى الكعب؛ لسان العرب، نسا.

*** المطا: حبل المتن من عصب أو عقب أو لحم والجمع أمطاء؛ لسان العرب، مطا.

**** الكَفَل: ردف العجْز؛ لسان العرب، كفل.

(1) العمريّ: التعريف، ص326-327.

فقـــد رســـم الكـــتّاب لوحات لهذه الأصناف في رسائلهم تكاد تنطق بصفات تلك الخـــيول، فعناصـــر اللون والحركة والصوت نابضة حيّة، ولم يقف الكتّاب عند وصف مظاهـــر الخـــيل المادية الجسدية الملموسة من اللون والحركة، بل تعدّى الوصف إلى صـــفات معـــنوية نفسية. فقد وصفوا صبرها وحدّتها وشدّتها، حتى أشبهت في أخلاقها البشـــر، وكل هذا الأمر ناتج عن طول تجربة وحسن عشرة، وطول مراس، فأصبحت الخـــيل فـــي حياتهم هاجساً حقيقياً، وصديقاً وفيّاً، فعاملوها كما يعامل البشر، من حيث العناية والرعاية والاهتمام.

وممّـــا لا شـــكّ فـــيه أنّ الخيل مصدر من مصادر العزّة والمنعة، ومعين للخير والغلـــبة، فهـــي أداتهـــم في الغارة على الأعداء والنيل منهم، وهي وسيلتهم في الصّيد والترويح عن النّفس، وجلب المسرّات، وهي واسطتهم في الحلّ والترحال، وهي مبعث جمـــال وزينة وطمأنينة للنّفس وراحة، ولذا لا نشكّ في اعتناء القوم بها، واختيار أجمل الصفات لها، ورصد كل فريدة في وصفها، والحرص على انتقاء أعرقها وآصلها.

ولهـــذا انـــتخب الكـــتاب أوصـــافها، وأدقّوا فيها وأكثروا القول عنها، وأوجدوا الفـــروق المميّزة لها عن بعضها، فأخرجوا لوحات فنيّة، وصوراً حيّة تعجز عن رصد تفاصيلها لوحات الفنانين والرسامين.

ومهمـــا يكـــن، فـــإنّ رصد صفات الخيل في رسائل مستقلّة خاصة ليشكّل دلالة قاطعـــة علـــى مبلغ اهتمام القوم بها، وولعهم باقتنائها، وإدراكهم لما في الخيل من خيرٍ وعزّة ومنعة.

ولم يتوقّف وصف الخيل على تلك الرسائل، بل وصفت في كل موضع جاء فيه ذكرها، فوصفت في رسائل الإنعام بها والهدايا، كما وصفت في رسائل الصّيد والطرد، وقد وصفت في مواطن الحرب وصدّ الأعداء، وفي الكرّ والفرّ، ووصفت في المواكب وركـــوب المـــيدان والاحتفالات، وعلى هذا فإنّ الخيل تشكّل عنصراً مهمّاً من عناصر

الحياة اليوميّة في ذلك العصر، ولهذا احتلّت الخيل مكانة عزيزة في نفوس النّاس، ونتيجة لذلك تباروا في وصفها كما تباروا في اقتنائها.

رسائل وصف مظاهر الحضارة:

تعمّد الكتّاب في العصر المملوكي تصوير كل أمر في حياتهم تصويراً حيّاً، فلم يتركوا شيئاً ذا بال دون وصفه والوقوف على كنهه، فقد وصفوا الأدوات والأطعمة والأشربة والألبسة والبريد، وأدوات السّلاح وغيرها من مظاهر حضارية. وعند الحديث عن وصف تلك المظاهر يتّسع المقام ولا تحصى أطرافه، وحينئذ نجد أنفسنا مضطرّين إلى الوقوف على الأمور النادرة والجديدة والمبتكرة، ولذلك لا بدّ من دراسة رسالة رصف الفريد في وصف البريد، حيث تعدّ الرسالة الأولى في البريد في الأدب العربي، فقد جاءت الرسالة لتقف على تفاصيل تلك الخدمة في ذلك الزمان، وتعود أهميّة الرسالة كما يقول سمير الدروبي: "إلى طرافة موضوعها الذي لم يحم حوله سابق، وبما كشفت عنه من مدى عناية المسلمين بنظام البريد، وإدراكهم لأهمية الإسراع في وصول الأخبار إلى عاصمة الدولة، وما اشتملت عليه من موازنة بين البريد الجوي (الحمام الرسائلي)، والبريد البري (الخيول والإبل والسعاة)، وإشادة برجال البريد الذين يتحملون مشاق السفر ومصاعبه ومخاطره في مختلف الأحوال والظروف"(1).

وفي الحقيقة أنّ موضوع تلك الرسالة جديد لم يسبق إليه، وقد أشار سمير الدروبي إلى ذلك بقوله: "وبناءً على ما تقدّم، فإنّ كاتب هذه السطور لم يقف – بعد طول البحث والتفتيش – على مصنّف أو رسالة مفردة كتبت في موضوع البريد عند العرب سوى هذه الرسالة التي تُقدَّم محقّقة لأول مرّة"(2).

---

(1) الشيباني، أحمد بن أبي الفتح (708هـ/1302م): رسالة رصف الفريد في وصف البريد، دراسة وتحقيق سمير الدروبي، ط1، 2002م، مؤسسة الرسالة، عمان، ص38.

(2) المصدر نفسه، ص38.

وكما أسلف محقّق هذه الرسالة فإنّها تولي الاهتمام بالبريد أيما اهتمام، حيث بيّنت مدى أهميته في جلب الأخبار والإسراع بها فجاء في ذلك قول الشيباني: "فإنّه لمّا كانت النُفوس مولعة بحبّ العاجل، متطلّعة إلى الاطلاع على المستقبل من الأمور والآجل، لم تزل أنفس الخلفاء والملوك وأنفس الأكابر والعظماء به كلفة صبة، وإلى استعلام أحوال ممالكها وعساكرها ورعاياها منصبة"[1].

والمتأمّل لهذه الفقرة من الرسالة يجد الحاجة الماسّة لإنشاء البريد والاهتمام بأمره، حيث تزيد الحاجة إليه في معرفة أُمور الممالك والعساكر والرعايا إبّان السّلم والحرب.

وقد أخذ الشيباني يصف رجال البريد وخيولهم، وقد أدقّ في وصفهم قائلاً: "من كل فتى قد هجر الكرى وأشبه البدر فلا يملّ من طول السرى، قد أعدّ للسفر في ليله ونهاره من الخيل كل أشقر صباح، وأشهب مساء، وأصفر أصيل وأدهم ليل"[2].

وقد أسهب الشيباني في وصف البريد، وأكثر من ذكر فوائده وصوره في عهد الأنبياء، حيث أورد قصّة سليمان -عليه السلام- مع بلقيس، وتعجيل موسى -عليه السلام- لميقات ربه، مردفاً ذلك بفضل السبق والرهان وفضيلة الرمل والإسراع في الحجّ والعمرة، فقد أولع في ذكر فضيلة الإسراع، فذكر فضل الكواكب والجواري، وفضيلة السير والانتقال على القعود، وحشد كثيراً من الأمثلة المعبّرة عن فضيلة السير والتنقّل في كل الأُمور في الطبيعة والنفس البشرية.

وقد عقد الشيباني وصفاً دقيقاً للبريد الجوي، حيث الحمام الرسائلي كما أشار إليه محقّق الرسالة، فقد وصف سرعته وحركته، وما يعترض له من أخطار أثناء الطيران، فقال في ذلك: "ولذلك درّجت الملوك الحمام، ورتّبت البريد... فبلغت هذه بسرعة إيصال

(1) المصدر السابق، ص49.

(2) المصدر نفسه، ص50.

الـبطائق ما لم يكن أحد من البشر بطائق، وارتفعت محلّقة في الهواء، وحلّقت مسخرة في جوّ السماء، وما خفقت بأجنحتها إلاّ وقد وافت بالبشرى مخلّقة وما أخفقت..."[1].

وقـد وجـد الشـيباني في وصف حمام البطائق هوىً في نفسه فأوغل في بيان فضـائله وسرعة نقله للرسائل، وقد فصّل القول في كيفية نقل تلك الرسائل من حمامة إلـى أُخرى في الأبراج المخصّصة لها فقال: "إلاّ أنّ بطائقها ربما نقلت من جناح إلى جناح، وحصل بنقلها أعظم خطر وأوفر جُناح، وكشف خدرها وأذيع سرّها"[2].

وقـد كشـف عن بعض عيوب هذه الوسيلة، حيث كثيرٌ ما تتعرّض إلى الصّيد والطـيور والجوارح، فتضيع تلك الرسائل ويكشف سرّها "وتلك ربما جرحها الجوارح وعـرض لهـا بالبنادق من اعترض، وصدّها عن بلوغ المرام غموض الغمام، وعموم الظـلام، وقطـع طـريقها، وحتم تعويقها، وقضى وحكم عليها بالتأخير لأنّها فيهما لا تطير"[3].

وقـد عقد الشيباني هنا مقارنة بين هذه الوسيلة والبريد البرّي، المتّخذ الأشخاص المحمولـين علـى صـهوات الخيل وسيلة فقال في حقّهم: "ويغدو كالخيال يمشي إلى الوراء، ويعدو فلا يسأل عن السليك ولا عن الشنفرى"[4]، وجاء في وصفه كذلك "وكاد لشدّة إحضاره يسبق أذني جواده في مضماره، فتراه لسرعة سيره لا يرتدّ طرفه عن أمد حتـى يتعدّاه إلى غيره... فيبلّغ غاية الأقطار، ويخترق من الآفاق حجب الأستار، حتى يقال: إنّه ما سار، ولكنّه طار وفي الأرض طار"[5].

ومهمـا يكن، فإنّ الشيباني قد أتى على أوصاف دقيقة وجليلة للبريد ووسائله في زمانـه، وأنعـم النّظـر فـي دقائق أُموره، فوصف الحرص البالغ الذي أكّده الخلفاء

---

(1) المصدر السابق، ص60.
(2) المصدر نفسه، ص61.
(3) المصدر نفسه، ص62.
(4) المصدر نفسه، ص66.
(5) المصدر نفسه، ص68.

والسلاطين في الحفاظ على أسرار نوابهم ورعاياهم، وبيّن أهميّة البريد في الاطلاع على أخبار الرعية والممالك، وأسهب في ذكر فضيلة الإسراع، فحشد الأدلّة من الحياة في شتّى أنواعها، فجعل مسرح تلك الأدلّة الرسائل السماوية، والظواهر الكونيّة من فلك ونواميس كونيّة وطبائع بشريّة وحيوانيّة، وغير ذلك من أمور.

وقد حرص على وصف البريد الجوي المتمثّل في الحمام، وبيّن محاسنه ومساويه، وأردف ذلك ببيان أهمية البريد البري المتمثّل في الأفراد الذين تحملهم الخيول الأصيلة.

وبالجملة فإنّ هذه الرسالة تمثّل مظهراً حضارياً غاية في الجدة والابتكار، وقد أشار سابقاً إلى ذلك محقّق تلك الرسالة.

ومن مظاهر الحضارة في ذلك الزّمان عدّة الحرب، ومن أشهرها السيف الذي به يبتر العدو. فقد وصف الحلبيّ سيفاً قائلاً: "وقلّدته مهابتنا سيفاً تلمح مخايل النّصر من غمده، وتشرق جواهر الفتح في فرنده، وإذا سابق الأجل إلى قنص النفوس عرف الأجل قدره عند حدّه، ومتى حرّكه على ملك من ملوك العِدى وهت عزائمه، وعجز جناح جيشه أن تنهض به قوادمه، وعلم أنّه سيفنا الذي على عاتق الملك الأغرّ نجاده، وفي يد جبّار السماوات قائمه"[1]. كما وصف العمريّ أيضاً سيفاً قائلاً: "وسل سيفاً سال المنون في لعابه، وسار الموت في إهابه، وتناوم غراره ملء جفونه فما هجع"[2].

وقد وصف العمريّ كثيراً من أدوات الحضارة كالرمح والسكّين والقوس والسهام والبندق والجلاهق وغيرها من أدوات قتال وصيد[3].

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص347.

(2) العمريّ: التعريف، ص296.

(3) انظر المصدر نفسه، ص296 – وما بعدها.

والحقيقة أنّ الوصف في الأدوات انحصر مجمله في صفات القطع والبتر وسبق الأجـل إلى نفوس الأعداء، وهذا الوصف مبطّن بالمدح حيث لا يحمل هذه الأدوات إلاّ الشجعان من الرّجال، ولهذا أسهب العمريّ في وصفها، وركّز على فعلها في الأعداء.

وقد بالغ العمريّ في وصف سيف فقال: "لا يمنع دونه زرد موضون، ولا بيض مكنون، قد توقد شعلاً، وسفل الفرند في تياره وعلا، وكاد لولا السل يأكل غمده، ويقطع حتـى بنده، قد تردّى حامله منه بابن صاعقة، وأرى الآجال من كل بارقة، قد قذف في اللج سعيره، وقبل في إبلاغ الآجال سفيره، وكأنّ على متنه سلخ أيم..."[1].

والقـارئ لـتلك الرسالة يجد العمريّ يتصيّد كل صفة فريدة ونادرة؛ ليصقل بها ذلـك السيف، ويعود ذلك إلى الأهميّة التي توكل إليه حيث يمثّل العدّة والعتاد في وجه كل معتدٍ، فضلاً عن كونه سلاح المرء في سلمه وحربه.

وقـد وصف شافع بن علي شمعة، وهي تمثّل مظهراً من مظاهر الحضارة حيث تمـثّل في زمنهم مصدر الإنارة والضّوء، فجاء في وصفها قوله: "شمعة ما استتم نبتها بروضـة الأنس حتى نوّر، ولا في يد وجه المفاكهة حتى أثمر، أومأ تبلجها إلى طرق الهداية وأشار، ودلّ على نهج التبصّر وكيف لا وهي علم في رأسه نار؟ كأنّما هي قلم امـتدّ بمـا أليق من ذهب أو صعدة إلاّ أنّ أسنانها من لهب، وحسبها كرماً أنّها جادت بنفسها، وأعلنت بإمتاعها على همود حسّها..."[2].

والمتأمّل لهذه الرسالة يجدها تفيض بالوصف الدقيق والحسّ المرهف والمشاعر النبـيلة، حيث وصف تلك الشمعة بالوفاء والبذل والتضحية، فقد ضحّت بنفسها من أجل إنارة الطريق وهداية الآخرين، وقد أكثر الكاتب من أوصافها، وتنمّ تلك النعوت الدقيقة عـن تجـربة حقيقيّة، فما الشمعة إلاّ رمز أراد الكاتب أن يحمّل الشمعة أوصافه، فكل

(1) المصدر السابق، ص295.

(2) الصفدي: أعيان العصر، 510/2.

الصّــفات التــي وردت في حقّ تلك الشمعة تصلح لأن تكون صفاتٍ وخصالاً لشخص ضحّى من أجل الآخرين وأزهق نفسه ليهنأ بالسعادة أتباعه.

ومهما يكن، فإنّ الكاتب أدقّ في وصفها وأجاد في رسم لوحتها وهي تذوي حيث جعل المتلقّي أمام شمعة حقيقية تذبل وتضمحل شيئاً فشيئاً، وسط ظلام دامس تنيره تلك الشمعة، وتجود بجسمها من أجل تبديده.

وقد جاء في وصف الألبسة بعض الرسائل الوصفيّة التي اتّخذت غرض الوصف عنواناً لها، فمن ذلك ما جاء في وصف ثوب أزرق مربّع أدقّ الصفديّ في وصفه، فقد وصف لونه وعرضه وطوله وخيوط نسيجه وكيفية تلاحم خيوطه فقال: "يا له من مربّع يود المملوك لو وصفه بألف مخمّس، وذي لون أزرق يحسن أن يكون سماء تتبرّج فيها ﴿الجَوَارِ الكُنَّس﴾*، ما أحسن لونه الأزرق لأنّ البدر أهداه، وما أحكم نسجه فإنّ صانعه أتقــن مـــا ألحمـــه فـــيه وسداه"(1)، فلا شكّ أنّ صناعة الثياب هي من أولويات مظاهر الحضـــارة لديهم، وهذه الرسالة تكشف عن مدى اهتمامهم بنسج الثياب وتلوينها وتداخل أصباغها.

ومـــن هـــذا القبيل ما جاء في وصف نعل في حكاية إسكافي، حيث جاء في تلك الرســـالة قول الكاتب: "وأسألك أيها المولى أن تتحفني بساموزة أنعم من الموزة، أقوى مـــن الصوّان وأطول عمراً من الزّمان، خالية البواشي، مطبقة الحواشي، لا يتغيّر عليَّ وشـــيها، ولا يروعني مشيها، لا تنقلب إن وطئت بها جروفاً، ولا تنفلت إن طحت بها مكاناً مخسوفاً، لا تلتوق من أجلي، ولا يؤلمها ثقلي، ولا تمترق من رجلي... أخفّ من ريـــش الطيـــر، شديدة البأس على السّير، طويلة الكعاب، عالية الأجناب... جلدها من خالص جلود المعز..."(2).

---

* سورة التكوير، آية 16.

(1) الصفدي: أعيان العصر، 426/5.

(2) المصدر نفسه، 516/2.

والنّاظـــر فـــي تلك الرسالة يقف على خصائص ذلك النعل الذي يعزّ وجوده في كثيرٍ من العصور، حيث أغدق الكاتب في وصفه وبالغ، ولكنَّ الوصف يقود إلى معرفة صناعة تلك الأسموزة. فقد عرفت مواصفات صناعتها، ومن أي جلد كانت تصنع، ولا شـــكّ أنّ فـــي هذا الوصف مظهراً من مظاهر صناعة النعل في زمانهم، ولو أنّ ذلك الوصف جاء بألفاظ ومصطلحات غريبة.

وكما وصفت الملابس، وصفت الأطعمة والأشربة، فمن رسالة هدية جاء وصف قصـــب السكّر والقلقاس* والمحمضات "فمن قلقاس يقصّر ابن قلاقس عن نعته... كـــل رأس منه يعود في طبخه كالمخّ، وتمشي النفس إليه وهو في رقعة الخوان مشي الرُّخ، رؤوســـه كرؤوس العدا المحزوزة غلفتها الدّماء والهضاب، وأصابعه كأصابع العذارى إذا انغمست في الخضاب"(1).

وجـــاء في وصف قصب السكّر من الرسالة ذاتها: "ومن قصب سكر كل عود له لدونة غضن البان، وصفرة استعارها من العاشق إذا صدّ عنه الحبيب أو بان، وحلاوة ذوق لولاها لما شبهه إلاّ بالمرّان، ومائية كريق الحبيب الذي ردّ الرّدى، وصدّ الصّدى عن القلب الحرّان..."(2).

وممّا جاء في وصف المحمضات "ومن أترج أصفر، وكبّاد أحمر، هذا لونه لون الوجل، وهذا له حمرة الخدّ الخجل..."(3).

---

* القلقـــاس: نـــبات ليس له زهر ولا ثمر، وله أصل مستدير، ينبت بالقرب من المياه الراكدة والمستنقعات، يقطّع ويطبخ مع اللحم وهـــو بمصـــر كثيـــر. انظر الشيزري: الفلاحة، مخطوط، جامعة مؤتة، رقم التزويد 110088، ص45؛ انظر ابن العوام، أبا زكـــريا الإشبيلي (580هـ/1180م): كتاب الفلاحة، 212/2؛ وجاء في معجم النبات والزراعة: هو أصل نبات يؤكل مطبوخاً ويتداوى به، انظر آل ياسين، الشيخ محمد حسن: معجم النبات والزراعة، ط2، 2000، دار ومكتبة الهلال – بيروت، 406/1.

(1) الصفدي: أعيان العصر، 424/5.

(2) المصدر نفسه، 424/5.

(3) المصدر نفسه، 424/5.

ومهما يكن فإنّ رسائل الوصف طالت مظاهر الحضارة جميعها في ذلك العصر، خاصة وإنّ الوصف لا تخلو منه رسالة أبداً.

رسائل وفاء النّيل (النيليات):

هي رسائل تتناول وصف النّيل من حيث وفاؤه، وكسر خلجانه، وذكر الاحتفالات السنويّة التي تعقد لهذه المناسبة، والحديث عن السلطان وتهنئته بهذه المناسبة، وما يخصّ ذلك الجانب من الأفراح والشّكر والدُّعاء.

ورسالة وفاء النّيل تتحدّث عن الجوّ العام المفعم بالفرح والسُّرور الذي أحدثه وفاء النّيل، حيث تعمّ البشارة الخاصة والعامة، وقد ذكر القلقشندي أنّ هذه الرسائل قد خصّت بها مصر دون غيرها من البقاع، فقال: "وهذه المكاتبة من خصائص الديار المصرية لا يشاركها فيها غيرها من الممالك، ولم يزل القائمون بالأمر بالدّيار المصريّة من قديم وهلمّ جرّا يكتبون بالبشارة بذلك إلى ولاة الأعمال اهتماماً بشأن النّيل، وإظهاراً للسُّرور بوفائه"(1).

وقد أسهب القلقشندي في الحديث عن الآثار المترتّبة على وفائه من انتظام الحكم والمملكة، وازدهار العمارة، وقوام الممالك، وقد تابعه في هذا الأمر السيوطي، حيث بيّن مراسم ذلك الاحتفال مشيراً إلى خصوصيته في مصر قائلاً: "وجرت العادة كل سنة إذا وفى النيل أن يُرسل السلطان بشيراً بذلك إلى البلاد لتطمئن قلوب العباد، وهذه عادة قديمة، ولم يزل كتّاب الإنشاء ينشئون في ذلك الرسائل البليغة"(2).

ونظراً لأهميّة النّيل ومدى أثر وفائه، وما يترتّب عليه من خير ألّفه المصريّون حتى أصبح أمر وفائه يثير في نفوسهم البهجة والسُّرور، وانشراح الصُّدور، ولذا تُقام الاحتفالات في كل عام في ذلك البلد، وقد أشار إلى هذه الظاهرة سعيد عاشور، فقد

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 328/8.

(2) السيوطي: حُسن المحاضرة، 366/2.

ذكــــر أنّ هناك احتفالاً يُقام كل عام، ويحرص المصريّون على إحيائه بجميع طوائفهم مـــنذ فجـــر التاريخ حتى يومنا هذا، وهذا الاحتفال يتمثّل بوفاء النّيل، وذكر أنّ العادة اقتضـــت فـــي الدولـــة المملوكـــيّة أن يكسر الخليج ابن السلطان بعد اليوم التالي لوفاء النّيل[1].

وهذا التقليد يثير بعض التساؤلات حيث لا بُدَّ من تفسير سياسي لقيام ابن السلطان دون الســلطان أو نائب المنطقة مثلاً، ولعلّ في ذلك تهيئة له باستلام الأُمور بعد أبيه، ولذا يحرص والده على أن يتعرّف الابن إلى النّاس ويخالطهم.

وقـــد تنافس الكتّاب في إنشاء مثل هذه الرسائل، فقد اهتمّ نفرٌ منهم بوصف هذه الاحـــتفالات، ومـــدى ســـرور الـــنّاس ومبلغ شكرهم وثنائهم، وقد رسموا صوراً حيّة لمشـــاهـــد كســـر الخلـــيج وفيضان الترع، وتجمّع النّاس حوله وما إلى ذلك من بهجة وســـرور، ولقـــد نوّه محمود رزق سليم إلى أهميّة نهر النّيل ووفائه واهتمام الأدباء به حـــيث قـــال: "ولقد كان لأدباء مصر في هذا العصر وقبله كتّاباً وشعراء جولات موفّقة ومقالات صادقة في وصفه وذكر أنبائه وتصوير شعورهم نحوه"[2].

والحقـــيقة أنّ جُـــلَّ الأدباء وصفوا وفاء النّيل ولم يقتصر على أدباء مصر فقط، ومهمـــا يكـــن فقد كثر الأدباء الذين تناولوا تلك الظاهرة بالوصف والتحليل، وتتضمّن رســـالة وفاء النّيل مشهداً رئيساً تعضده عدّة مشاهد جانبيّة. فالمشهد الرئيس يتمثّل في وصف الماء وفيضانه، فجاء في رسالة أبي حفص الصفديّ عمر بن داود قوله: "وهـــي نعمة تحدّث عن عجائب بحرها على الحقيقة ولا حرج، ويتساوى في الانتفاع بها كل نام فضـــلاً عمّا دب ودرج، لقد أبرزت كنانة أرض الله في أثوابها القشب، وســـرى ذكرها إلـــى الشـــام المرتقب موسم الوسمي طليعة السحب، تضمّن ذلك المثال الشريف الوارد بخبر وفائه القائل من سمعه: هذا عذوبة ألفاظ ألبستها من حلاوة مائه، وإنّ المقياس أتى

---

(1) انظر عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص197، 199.

(2) سليم: عصر سلاطين مصر، 217/5.

بــتمام قياسه الثابت على عادة عدّانه، ونادى وقد سقى الأرض غير مفسدها بالأمان من طــوفانه، وإن أراقــم غدرانه انسابت في ذلك الإقليم فابتلت غدران أراقمه، ومحا سيله المتدفّق معالمه المجهولة"(1).

فقــد رســم الكاتب لوحة فنيّة واضحة المعالم، وشكّل ملامحها تشكيلاً دقيقاً، فقد ركّــز علــى رســم العناصــر الأساسية، من ذكر الغدران والسُّيول والطوفان وطمس المعالــم البارزة بالسيول الجارفة، وما إلى ذلك من صور فرعيّة ترفد تلك اللوحة التي أحكم بناءها ذلك الكاتب.

وكمــا تحــدّث الكاتــب عن هذا المشهد، فقد ذكر المقياس الذي يشير إلى الخير العميم على تلك الديار حتى تعدّى خيره إلى ممالك الشّام.

ومــثل هــذه الصورة ما ورد في رسالة لصلاح الدّين الصفديّ، حيث جاء فيها وصــف دقيق لمشهد كسر الخليج، وعتوّ الماء، وشدّة جريانه واقتحامه للدور والمنازل، وتســوية الوهاد بالأباطح فقال: "فكسر الخليج وقد كان يعلوه فرح موجه، ويهيل كثيب سدّه هول هيجه، ودخل يدوس زرابي الدور المبثوثة، ويجوس خلال الخبايا كأنّ له فيها خبايا موروثة، ومرق كالسّهم من قسي قناطره المنكوسه، وعلا زبد حركته..."(2).

وقــد رصد الصفديّ صورة الماء وشدّة جريانه، ورسم له لوحة بل صورة حيّة نابضــة بالحركة والحياة، والكتّاب في مثل هذه الرسائل يعتمدون الأُسلوب الأدبي القائم علــى الخيال المطلق في التقاط كل نادرة وفريدة، وحشدها في إبراز ذلك المشهد القائم على الحركة واللون والصوت بل على كل مدركات الحسّ.

وقد ذكر الكتّاب فضل ذلك النهر في نشر الخير في بلاد مصر مشيرين إلى قلّة الأمطــار، ولــذا فقــد استغنت به عن العواصف والرُّعود، فجاء في هذا المجال قول

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 3/621-622.

(2) المصدر نفسه، 3/620.

شـــرف الــدّين بـــن فضل الله: "وضاهت الأرض بها السماء وأغنت عن منّة الغمام، وعمّــت مصر بالهناء حتى فاض إلى الشّام"[1]. وقد عبّر الصفديّ عن هذا الأمر بشكل أدقّ وأعمــق حيث قال: "وأغنى قطرها عن القطر فلم تحتجّ إلى مد كافه وفائه، ونزهه عــن منّة الغمام الذي إن جاد فلا بدّ له من شهقة رعده ودمعة بكائه، فهي البلاد التي لا يــذمّ للأمطار في جوّها مطار، ولا يزمّ للقطار في بقعتها قطار، ولا ترمد الأنواء فيها عيون النوار، ولا تشيب بالثّلوج فيها مفارق الطرق ورؤوس الجبال"[2].

وقــد تحدّث الكتّاب في تلك الرسائل عن الجوّ الغامر بالفرح والسُرور والبهجة، مصوّرين النّاس وهم يجتمعون حول الخليج شاكرين "وازدحمت في عبارة شكره أفواج الأفواه، وأعلم الأقلام بعجزها عمّا يدخل من خراج البلاد"[3]، ومن رسالة أخرى ذكــر كاتــبها هــذا الابــتهاج والثّناء على الله المنعم "وقد علم حقّ نعم الله الشكر فيوفيها منه حقّها"[4].

ومن مستلزمات هذه الرسائل تعميم البشارات، وخصّ السلطان بها، والمباركة له بهــذه الــنعمة والمنّة التي تعود بالخير العميم على البلاد والعباد، فجاء من رسالة قول الكاتــب "ومولانا يأخذ من هذه الأنباء بأحسنها وكلّها حسنة، ومن هذه البشائر المنتظر قدومها بأبينها يمناً وكلّها بينة متيمنة"[5].

فقــد خــصّ الكاتــب بــتلك البشارة السلطان، فهذه الأنباء تكشف عن السعادة والفــرح، وتثيــر فــي نفســه مشاعر الابتهاج وانشراح الصدر، فهذه بشائر يطرب السلطان لسماعها لِمَا فيها من الخير والبركة، ومن هنا يمكن القول أن تسابق الكتّاب في إنشــائها يعــود إلى التنافس في السبق إلى مَنْ تلامس بشارته أذن ذلك السلطان ليفوز

(1) المصدر السابق، 197/3.
(2) المصدر نفسه، 624/3.
(3) المصدر نفسه، 625/3.
(4) المصدر نفسه، 622/3.
(5) المصدر نفسه، 622/3.

برضـــاه وصلاته، وعندئذٍ يكون هدف الرسالة ليس الوصف لذاته، وإنّما لكسب صلات السلطان، ونوال حظّه من تلك البشارة.

والحقــيقة أنّ لوحة فيضان النيل وكسر الخليج وصفة طغيان الماء تُخيّل للمشاهد عــياناً حينما يقرأ نصّ رسالة جمال الدّين بن نباتة في وصف وفاء النيل، فقد جاء منها قولـــه مصوّراً ذلك المشهد الذي يتراءى للمشاهدة: "فلم يترك وعداً بل وعيداً إلاّ وفّاه، ولا هــدّاً بــل جبلاً إلاّ أخفاه، أقبل كالأسد الهصور إذا احتدم واضطرم، وجاء من سنّ الجــنادل فــتحدّر، وعلا حتى بلغ أقصى الهرم، وعامل البلاد بالخيلاء وكيف لا؟ وهو ســلطان جائــر أُيّد بالنصر قائلاً: إن كنت بُليت بالاحتراق في أرضكم فأنا أفيض بأن أرمى من بروق تياري بشرر كالقصر"[1].

والمــتأمّل لهذه الفقرة من الرسالة يجدها تفيض بالعبارات الشاعريّة، فقد ماجت بالصــور الفنــيّة فــي إطـــار من الزخرفة القولية، وخلقت جوّاً من الحركة والألوان والأصوات، وقد تداخلت تلك الصور وشكّلت لوحة فنيّة يحتار أشهر الرسّامين في جلب جزئياتها، وإبراز معالم جمالها.

فقد اختار له صوراً من عالم الحيوان والجماد، وقد تضافرت تلك الصور مشكّلة صـــورة حـــيّة نابضة مفعمة بالحيويّة والحركة، وقد رسم ابن نباتة كذلك صورة جليّة واضحة المعالم للنّاس الذين يستبشرون خيراً لوفاء النّيل حيث قال: "وبات النّاس بوفائه مـــن حـــذار الغلاء تحت الستر والسلامة"[2]، وهذه إشارة إلى الجدوى الاقتصاديّة التي يجلبها وفاء النّيل إلى العباد والبلاد.

وقد صوّر ابن نباتة وفاء النّيل ضيفاً يحمل لأهل مصر الخير العميم "كم ورد إلى الـــبلاد ضـــيفاً ومعـــه القِرى... فهو ساهر في مصالح الخلقِ، وقد ملأ الأمن أجفانهم

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 274/14.
(2) المصدر نفسه، 275/14.

بالوسن، جامع لأهل مصر من سقياه ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن"[1].

ولم يتوانَ الكتّاب عن ذكر المقياس في رسائلهم، وإنعام النّظر في دقائق تفاصيله، فجاء في رسالة ابن نباتة في ذلك الغرض قوله: "وتمّت أصابع الزيادة ونمت، حتّى قال النّاس ما ذي أصابع أيادي... وقال المقياس تغطت منها الدَّرَجُ فنال الرّجاء، وظهرت الدقائق فهو جمّ المنافع، عذب المنابع، يُشار في الحقيقة والمجاز إليه بالأصابع"[2].

وقد اعتمد ابن نباتة في تصوير ذلك المشهد الأُسلوب البياني، حيث أكثر من التشبيهات والمجاز مستفيداً من بلاغته وفصل خطابه، وجاء في هذا الغرض كذلك قول الصفديّ: "حتى إذا أكمل الستة عشر ذراعاً"[3].

ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الرسائل في مجملها بشارات إلى السلطان في ذلك الزّمان، ولو أنها تعتمد الوصف اعتماداً كبيراً، ونظراً لسيادة عنصر الوصف فيها قيّدت في باب الأدبيّات.

الشتويّات:

حظيت الطبيعة في العصر المملوكي بالاهتمام الكبير في النواحي التعبيريّة. فقد أكثر الكتّاب من وصف مظاهرها من أمطار وثلوج وأنهار وأطيار إلى غير ذلك من مشاهد طبيعيّة، وقد أولع بعض الكتّاب في العصر المملوكيّ بوصف الأمطار والثّلوج وعواصف الشّتاء، وما ينتج عنها من جوانب إيجابيّة أو سلبيّة، وقد سمّيت تلك المراسلات بالشتويّات، وأكثر ما وجدت بين العمريّ والصفديّ، حيث كثرت المراجعات بينهما في ذلك الموضوع.

(1) المصدر السابق، 275/14.

(2) المصدر نفسه، 275/14.

(3) الصفديّ: أعيان العصر، 624/3.

وقــد تناول الكتّاب في تلك الرسائل مظاهر الشتاء من رعود، وبروق، وأمطار، وبــرد، وثلــج، وما ينتج عنها من السيول والانجرافات، وموجات الصّقيع، وأصوات المــزاريب، ورافــق ذلــك الوصــف تصوير لمشاهد حياة النّاس اليوميّة، من ملازمة البــيوت، وإيقــاد النيران، والخلود إلى الفراش، والاستئناس إلى الوحدة، ونبذ مخالطة الآخرين.

وقــد أتى الكتّاب طائفة من المشاهد الأساسيّة في رسالة وصف مظاهر الشّتاء، فأوّل هذه المظاهر يتمثّل في وصف الظواهر الطبيعيّة التي تشعر القارئ بالجوّ الماطر، والبرودة الشديدة، فمن هذه المشاهد ما قاله العمري: "كيف أصبح مولاي في هذا الشّتاء الــذي أقــبل يــرعب مقدمه، ويرهب تقدّمه، ويريب اللّبيب من برقه المومض تبّسمه؟ وكــيف حالــه مع رعوده الصّارخة ورياحه النافخة ووجوه أيّامه الكالحة، وشرر لياليه التي لا نبيت منها بليلة صالحة، وسحابه وأمواجه، وجليده والمشي فوق زجاجه"[1].

إنّ النّاظــر في هذه الفقرة من الرسالة يجد الكاتب قد حشد فيها ظواهر تضافرت وشــكّلت جوّاً ليوم ماطر، فقد وصف البرق والرُعود، وهما ظاهرتان ملازمتان لفصل الشّــتاء، فرسم لهما صورة حيّة من الوميض والأصوات الصارخة، وأردف ذلك برسم صورة أخرى لأيّام الشّتاء ولياليه حيث الاكفهار والبرودة الشديدة، ولإتمام ذلك المشهد رســم ســماء تلك الأيّام، فالغيوم ملبّدة تشبه الأمواج في تحرّكها، ولشدّة البرد تجمّدت المياه فأصبحت جليداً كالزّجاج.

والمتصــفّح لهــذه الفقرة يجد نفسه أمام صورة فوتوغرافية، لمشهد يوم ماطر، حــيــث العناصر الأساسيّة التي تشكّل ذلك الإطار من البرق والرعد والبرد والسّحاب والجليد، وكل هذه الصّور تشكّل مشهداً حيّاً في ذهن الكاتب استطاع نقله إلى الورق.

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 427/I.

والمشهد السّابق يذكّر بمشهد آخر من رسالة للصفديّ حيث جاء فيه: "فمالنا ولهذه السـحائب السحابة، والغمائم السكّابة، والرُّعود الصخّابة والبروق اللهّابة، والثلوج التي أصبحت بحصبائها حصابة، والبرد الذي أمست إبره لغصون الجلود قطّابة"(1).

فالقـارئ لهـذه الفقرة يجدها تطابق إلى حدٍّ بعيد المشهد السابق، حيث العناصر المشكّلة للمشهد الأول ذاته، فهناك صورة فوتوغرافية ليوم ماطر شكّلت مادتها السحائب المتراكمة والغمام والرُّعود والبروق والثلوج والبرق الشّديد، وكل هذه العناصر شكّلت عمـدة أساسيّة في تصوير ملامح اليوم الماطر، وأسهمت في تحديد أُطره، وجعلت من تلك الفقرة صورة نابضة حيّة.

وبالجملـة فـإنّ أول المشـاهد الذي يشكّل الرسالة الشتويّة هو بيان ملامح ذلك اليـوم الماطر اعتماداً على الخيال المطلق في التقاط عناصره وتنسيقها وإبرازها في صـورة حيّة حيث الرعود والبروق، والسحاب والغمام، والبرد الشديد والجليد، ثمّ يأتي المشـهد الثاني، وهو مشهد ناتج عن المشهد السابق، وفيه يبرز دور الأثر الذي أحدثه اليوم الماطـر، من السيول والإنجرافات وتهدّل أغصان الشجر، وأصوات المزاريب، وتهدّم المباني والكثبان، إلى غير ذلك من مظاهر طبيعيّة تنتج عن ذلك اليوم.

فقـد عبّر العمريّ عن ذلك المشهد بقوله من رسالة شتويّة: "ووقع كل جبل على جنـبه، وقد عصب رأسه ممّا تصدّع، وفاض كل واد امتلأ بطنه ممّا شرب، وانتفخت روايته ممّا تضلّع، وعمّت أهوال وأغمت أحوال، وكان للمدنية أي يوم ولليلتها في يومه أي نوم، ودخلتها الجواريف البقر لجرف الثلج، وما دخلت آلة الحرث دار قوم"(2).

فقد رسم العمريّ صورة حيّة لجبل وقد تراكم الثلج فوق قمّته؛ ممّا جعله يتصدّع ويتشـقّق، ورسم كذلك صورة نابضة للأودية التي فاضت مياهها من شدّة جريان الماء فـيها، وعدم استيعابها في تصريف تلك المياه، وقد تولّد عن تلك الأحوال آثار مدمّرة،

---

(1) المصدر السابق، 429/1.

(2) الصفدي: ألحان السواجع، 54/1.

فأصبحت المدينة في حال صعبة، فقد جرّفت طرقها دون آلة حرث بل تكفّل الماء بعمل ذلك.

وقد أبرز الصفديّ ذلك المشهد بصورة أكثر فاعليّة في رسالة له، حيث أدقّ في تصــويره فقــال: "قــد هال الجبال أمره، فشابت من الفَرق إلى القدم، وغمرت سيوله الأبــاطح والــربا... وبصــاق هــذا الثلج في وجه الضّاحك منّا والعبوس، وسكر هذه الميازيب التي لا تبوك إلاّ على الرؤوس"(1).

وقــد رســم ابــن الورديّ مشهداً كذلك ليوم ماطر، حيث قال: "فالجدران لهيبته مطــرقة، والعمــران قــد تداعت ولا يقيل البنّاء جموعها المتفرّقة، والطرق قد شرقت بالســيول، فــلا تنطق آثارها المغرّبة ولا المشرّقة... والسيل قد بلغ الزُّبا، وسوّى بين الوهاد المتطامنة والربا، وبكت السُّقوف بعيون الدّلق))(2).

فقــد وضــعنا ابن الورديّ أمام صورة واضحة المعالم ليوم ماطر، فكلما أجلت نظــرك في تلك اللوحة أدركت ملامح تلك المشاهد التي تجلّت بوضوح، وتنمّ عن خيال مطلق العنان بل تعبّر عن ذوق رسّام مرهف البنان، ممتلك لأدوات ومهارات ذلك الفنّ. فالجــدران مستســلمة ومطرقة، والأبنية ومظاهر العمران متداعية ومتهدّمة، والسُّيول ضاقت عنها الطرق والسُّبل، وقد بلغت حدًّا يصعب استيعابه، فسوّت الوهاد بالربا هدماً وتدميــراً، ونتــيجة لــذلك هوت السقوف والجدران، ولا شكّ أنّ هذه الصورة تثير في الــنّفــس الهلــع والخــوف، وتنذر بكارثة إنسانيّة، وتجعل المرء أمام مشكلة اقتصادية واجتماعــية وصــحية، وقد جرّنا ذلك المشهد إلى مشهد ثالث يتمثّل في تصوير أحوال النّاس والعمران إبّان تلك الأيام الماطرة، حيث يشكّل ذلك المشهد العنصر الإنسانيّ وما يلاقيه من أهوال وأحوال وكوارث.

---

(1) الصفدي: أعيان العصر، 2/221-222.

(2) المصدر نفسه، 2/220-221.

فقد جاء في ذلك المشهد قول الصفديّ "أمّا المساكن فأهلها مساكين، وأفواههم من الحـــزن مطبقة فما تفتحها السكاكين، وقد انتبذ كل منهم زاوية من داره، وتداخل بعض فـــي بعـــض لتضمّه بقعة على مقداره، هرباً من توقيع أكفّ الوكف، وخوفاً من ركوع الجدار، وسجود السّقف"[1].

ففـــي هـــذا المشهد نلحظ صورة نابضة تُبدي لنا جانباً من حياة الأفراد في ذلك اليوم، فالنّاس مساكين لا يستطيعون فعل أي شيء في ظلّ تلك الظروف، فهم قد أُلجموا مـــن الحزن في مساكنهم، فلا حول ولا قوة لهم غير السكوت والصمت، وقد رسم لهم لـــوحة فنية تظهرهم، وقد اجتمعوا في زاوية في فناء المنزل هرباً من الدلف والوكف، وصـــورة تلك المنازل التي يكثر دلفها وركوع جدرانها وسجود سقوفها تثير في المتلقّي الشـــفقة والحـــزن معاً، والتوجّع لحالهم، وقد نجح الكاتب إلى حدّ ما في إثارة عواطف القارئ وجعله يعيش تلك الحالة التي مرّت بالنّاس في ذلك اليوم الماطر.

وقد رسم العمريّ مشهداً يشبه هذا المشهد من رسالة شتويّة فقال فيه: "أمّا نحـــن فبـــين أمـــواج من السُّحب تزدحم، وفي رأس جبل لا يعصم فيه من الماء إلاّ من رحم، وكيف سيدنا مع مجامر كانون؟ وشرار برقها القادح؟ وهمّ ودقها القادح؟ وقوس قزحها المتلوّن؟ ردّ الله عليه صوائب سهامه"[2].

فالعمـــريّ في هذه اللوحة رسم شخصيّة وسط أمواج من السحب والغمام لا يقيه واقٍ، وزاد في بيان تلك المعاناة حيث جعل نفسه في رأس جبل شاهق ليكشف عن مبلغ معاناته، وشدّة مكابدة تلك الأهوال، وقد استحضر صورة طوفان نوح – عليه السلام – ليـــزيد تلـــك الصورة غمّاً وهمّاً، وقد عمّق في ألوان تلك اللوحة عندما قال: "فلقد جاء مـــــن البـــرد بما رضّ العظام وأنخرها، وقدّ فخّارات الأجسام وفخّرها، وجمّد في الفمّ

(1) المصدر السابق، 222/2.

(2) المصدر نفسه، 428/1.

الــرّيق وعقد اللسان، إلاّ أنّه لسان المنطيق، ويبّس الأصابع حتى كادت أغصانها توقد حطباً، وقيّد الأرجل فلا تمشي إلاّ تتوقع عطباً"[1].

وكــان أهــم العناصــر في الشتويّات بروزاً، وأكثر ما يثير قلق النّاس ويذكي همــومهم البــرد الشّــديد، فقد جمّد الأرياق في الأفواه، ورضّ العظام ونخرها، وعقد ألســنتهم عن الحديث، ويبّس الأطراف وحبسها عن الحركة، وقيّد حركات النّاس فلزم كــل شخص منزله، وهذه صورة طبيعيّة نابضة بالحياة تجعل المرء أمام مشاهد حقيقية ليوم شديد البرد والعواصف.

ولم يغفل الكاتب عن رسم صورة للنّاس وهم يقاومون هذا البرد، بلبس الملابس والإكــثار منها، فجاء في تلك الرسالة "وأتى الزمهرير بجنود ما للقوي بها قبل، وحمّل الأجسام من ثقل الثياب ما لا يعصم منه من قال سآوي إلى جبل"[2].

وتماثــل هــذه الصورة ما قاله الصفدي في بيان تلك الأحوال الناتجة عن البرد الشّــديد، فأمست النّار أحسن أمنية ولزوم البيوت بات فرضاً حيث قال: "قد حسد على النّار من أمسى مذنباً وأمسى عاصياً، وتمنّى أن يرى من فواكه الجنّات عنّاباً من النّار وقراصيا"[3].

فــلا شــكّ أنّ الصورة جليّة تبيّن مدى التفاف النّاس حول المواقد واتخاذهم كل السُبل التي توفّر لهم الدفء والأمان.

وقــد تآزرت هذه المشاهد الثلاثة الآنفة الذكر في رسم لوحة فنيّة نابضة بالحياة والحركة والصوت واللون؛ فقد أدركت الحواس جميعها هذه العناصر، فقد أدركت العين الصــورة اللونــيّة مــن وميض البرق، وبيان الثلج، وتدفّق السيول، فيما أدركت الأُذن صــوت الــرعد والعواصــف، وهديــر السيول، وبكاء المزاريب، وأحسّ الجلد البرد

(1) المصدر السابق، 428/1.
(2) المصدر نفسه، 428/1.
(3) المصدر نفسه، 430/1-431.

الشـــديـــد، وهكـــذا تضافرت هذه العناصر فشكّلت كلاً متكاملاً ليوم ماطر وليلة شديدة البرودة.

وقـــد أفصــــح الكـــتّاب من خلال أخيلتهم المحلّقة، وقدرتهم التعبيريّة الهائلة عن مشـــاهد تلـــك الأيـــام والليالي، وقد مكّنتهم من تصوير تلك المشاهد المواهب الخلاّقة والطّاقة الإبداعيّة الفائقة.

ومهما يكن، فإنّ هذه اللوحات الفنيّة التي رسمها الكتّاب لتلك المشاهد تعبّر تعبيراً صـــادقاً عـــن مـــدى اندغامهم في الطبيعة، وتفاعلهم معها، كما تشي باهتمامهم الكبير بتصوير مظاهر الطبيعة والتعايش معها، كما تبيّن مدى المعاناة التي لقيها النّاس في تلك الأزمنة، من الأحوال والأهوال الطبيعية، والكوارث البيئية التي قد تعرّضوا لها.

وقد وجد الكتّاب في مثل هذه الرسائل موضوعاً يربطهم ويوطّد علاقاتهم، حيث تبادل هذه الرسائل يؤكّد روابط العلاقة بينهم والتواصل، وهو من جانب آخر يكشف عن مدى اهتمامهم بإبراز قدراتهم في التعبير ومحاولة التفوّق على بعضهم. ولم يكن هدف هذه الرسائل تصوير الأحوال الجويّة فقط، بل لاختبار مهاراتهم، وامتحان قرائحهم في محاولة منهم للتفوّق على بعضهم في تلك الرسائل.

ومن هنا فإنّ بعض هذه الرسائل اتّخذت طابع المدح والتقريض، فجاء من رسالة للصـــفديّ يجـــيب فيها العمريّ قوله: "فإن كانت هذه الأمطار تكاثر مولانا فيا طول ما تســـفح، وإن كانت العواصف تتشبّه ببأسه فيا طول ما تلفح، وإن كانت البروق تحاكي ذهـــنه المتســـرّع فيا طول ما تتألّق، وإن كانت قوس قزح تتلوّن خجلاً من طروسه فيا طول ما تتألّق، وإن كانت الرُّعود تحاكي جوانح أعدائه فيا طول ما تشهق وتفهق، وإن كانت السُّيول تجري وراء جوده فإنها تجري على طول المدى وما تلحق"[1].

---

(1) المصدر السابق، 431/1.

ولا شــكّ في أنّ مثل هذا المقطع من الرسالة يقود إلى القول بأنّ تلك الشتويات يــراد منها تعزيز العلاقات بين الكتّاب وتتبّع أخبارهم، ومعرفة أحوالهم، فتجري بينهم هــذه الرســائل لتــنقل الأخــبار التي هم عليها، ومن هنا فإنّها تمكّن الكتّاب من إيجاد فــرص لمدح بعضهم والثناء عليهم.

وهــذه الرســائل تدلّ دلالة كبيرة على تفنّن كتّاب الديوان في فنون القول، حيث الكــتابة الرســميّة لــم تمنعهم من تخطي حواجز العمل الرسمي والاندغام في وجدان الطبــيعة، والتعبيــر عنها بما يرضي ذائقتهم من التشخيص والتجسيد وما إلى ذلك من أمور.

رسائل وصف الكوارث:

وكما وصف الكتّاب مظاهر الحضارة في أحوال الرخاء وأدقّوا في وصفها، فقد وصــفوا الكــوارث التــي ألمّــت بل عصفت بالمجتمع إبّان زمانهم، وقد تنوّعت تلك الكوارث، وكان أشهرها تلك الكوارث التي لا تخصّ مثل الأوبئة السارية التي لا تعرف غنــيّاً ولا فقيــراً، ولا عزيــزاً ولا ذلــيلاً، فقــد أقلقت تلك الأمراض النّاس وأقضت مضــاجعهم، وأشعرتهم بدنو الأجل ومفارقة الأحباب، فنغّصت عليهم الملذّات، وفزعوا إلى التوبة والاستغفار، ووقف الموت على أبوابهم في الصّباح والمساء، وتواترت قوافل الموتــى كمــا يخبــر ابــن الورديّ في رسالته الموسومة "بالنبا عن الوبا"؛ التي جعل موضــوعها فــي وصــف الطاعــون الذي استشرى بأهل الشّام، ودخل مدنها وقراها ومنازلها منزلاً منزلاً "يا له من زائر، من خمسة عشر دائر، ما صين عن الصين، ولا منع منه حصن حصين، سلّ هندياً في الهند، واستند على السند، وقبض بكفيه وشبّك على بــلاد أزبــك، وكــم قصــم من ظهر فيما وراء النهر، ثم ارتفع ونجم وهجم على بلاد العجم"[1].

---

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص86-87.

وقـد تتبّع الكاتب تنقّل ذلك الطاعون حتى وصل حاضرة الشّام دمشق واستقرّ به المقام بها وبما حولها من المدن والقلاع والضياع، فذكر ابن الورديّ أسماء المدن التي أفزعها ذلك الزائر الثقيل.

وقـد أبدع الكاتب في وصف حالة النّاس من الذّعر والتوجُّس والقلق والخوف، فقال في ذلك: "ومن الأقدار أنّه يتتبّع أهل الدّار فمتى يبصق واحد منهم دماً، تحقّق كلهم عـدماً، ثمّ يسكن الباصق الأجداث بعد ليلتين أو ثلاث، اللهم إنّه فاعل بأمرك فارفع عنّا الفاعل وحاصل من عند من شئت فاصرف عنّا الحاصل فمن لدفع هذا الهول غيرك يا ذا الحول"[1].

وهـذا هو حال أهل تلك البلاد لا حول لهم ولا قوّة لدفعة إلاّ بالدعاء والتضرُّع والابـتهال إلـى مـولاهم القديـر، وقد وصف الكاتب حال النّاس والأطبّاء والأعيان وعكوفهم على دراسة العلاج والتطبيب للخلاص من هذا الدّاء "فلو رأيت الأعيان بحلب وهـم يطالعـون مـن كـتب الطبّ الغوامض، ويكثرون في علاجه من أكل النواشف والحـوامض، قد تنغّص عيشهم الهني بملاخة مسلم الطينة الطين الأرمني، وقد لاطف كـل مـنهم مزاجه وعدّل، وبخروا بيوتهم بالعنبر والكافور والسّعد والصندل، وتختموا بالـياقوت، وجعلوا البصل والخلّ والصحن من جملة الأدم والقوت، وأقلّوا من الأمراق والفاكهة وقرّبوا إليهم الأترنج وما شابهه"[2].

والنّاظـر في تلك الفقرة يستخلص وسائل العلاج والتطبيب والوقاية في زمانهم، حيث ترك بعضهم الأطعمة والأشربة المعتادة وعكفوا على أطعمة وأشربة أخرى، كما أظهـرت الرسالة بعض عاداتهم، وخزعبلات العامة كالتختم بالياقوت وغيره، وتبخير البيوت بأنواع البخور، وكل هذه وسائل ظنّ النّاس بها الخلاص من ذلك الدّاء الوبيل.

---

(1) المصدر السابق، ص90.

(2) المصدر نفسه، ص91.

وقد التفت الكاتب إلى وصف قوافل الموت قائلاً: "لو شاهدت كثرة النعوش، وجملة الموتى، وسمعت بكل قطر من حلب نعياً وصوتاً ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُم فِرَارًا﴾* وأبيت فيهم قراراً. فلقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية، فلا رزقوا وعاشوا بهذا الموسم وعرقوا من الحمل فلا عاشوا ولا عرقوا، فهم يلهون ويلعبون ويتقاعدون على الزبون"(1).

فقد جعل الكاتب المتلقّي أمام لوحة فنيّة بل صورة حيّة نابضة بالحركة والألوان والأصوات، فالنّقوش متحرّكة، والناعيات باكيات في كل مكان... والجنائزيون يتسابقون إلى أرزاقهم، فالكاتب كشف لنا بعض مهن تلك الفترة، حيث يوجد الجنائزيون الذين يتولّون أمر دفن الأموات لقاء أجر يتقاضونه.

وصوّر الكاتب وحشيّة ذلك الوباء، حيث لا يدخل مكاناً إلاّ ويترك أهله أمواتاً "وكم دخل إلى مكان فحلف لا يخرج إلاّ بالسكان، ففتّش عليهم بسراج، وهذا الذي جلب لأهل حلب الانزعاج، استرسل ثعبانه وأنساب وسمّي طاعون الأنساب"(2).

واسترسل ابن الورديّ في وصف ذلك الطاعون والآثار التي تركها وردود الفعل التي واجهها، فالمسلمون فزعوا إلى التوبة والاستغفار، ولكنّ الذي أساءهم شماتة أعدائهم، فأهل سيس كما يقول الكاتب "مسرورون لبلانا بالطاعون حتى كأنّهم منه في أمان أو عليه أن لا يقرّبهم ضمان أو كأنّهم إذاً ظفروا"(3).

ولا يجعل الكاتب ذلك الطاعون شرّاً خالصاً للمسلمين بل ذكر بعض فوائده التي فمنها: "تقصير الآجال، وتحسين الأعمال، واليقظة من الغفلة، والتزوّد للرّحلة"(4).

---

* سورة الكهف، آية 18.

(1) ابن الوردي: الديوان، ص91.

(2) المصدر نفسه، ص90.

(3) المصدر نفسه، ص92.

(4) المصدر السابق، ص93.

وهـــذه الفوائد التي تحدّث عنها ابن الورديّ من علامات التّوبة والاستعداد ليوم الـــرحيل، وهـــي ثمرة من ثمار تلك الكارثة التي حلّت بهم، وهي أقرب للتعزية وتسلية النّفس منها للفائدة.

وقد توفي ابن الورديّ بهذا الطاعون الذي أطال في وصفه، حيث قال الصفديّ: "وكان الشيخ زين الدّين – رحمه الله تعالى – قد رأى عجائب الطاعون في حلب، فعمل فـــيه رســـالة أنشأها وأبدعها وسمّاها: "النّبا في الوبا"، ولكنه خُتِمَ به الوبا، وفُجع النّاس فيه"(1).

وقـــد أبدع ابن الورديّ في إنشائها كما وصفه الصفديّ حيث وضع المتلقّي أمام صـــورة حـــيّة لكارثـــة طبيعية حصدت النّاس حصداً وأفزعتهم، وأقضت مضاجعهم، وحرّكت قوافل الأموات، وأيقظت نوازع الإيمان، وقد صوّر كذلك فزع النّاس وخوفهم، كما كشف عن بعض أطعمتهم وعاداتهم وطرق علاجهم.

ومن الكوارث الطبيعيّة كذلك التي عصفت بالمجتمع المملوكي الزلازل والهزّات الأرضيّة، فقد أخبرنا ابن الورديّ عن زلزلة حدثت لبلاد الشّام سنة أربع وأربعين وسبع مائة.

فقد صوّر الدّمار الذي أحدثته تلك الزلزلة في الممتلكات والأرواح، وصوّر كذلك حالة الفزع والهلع التي أصابت النّاس، واختلف النّاس في تفسير تلك الظاهرة، فتعدّدت الآراء فـــي كشـــف سرّها "فالحكيم يقول هذا بخار ريح احتبس، والمنجّم يقول هو من حركة كوكب كالقبس، وأمّا الفقيه فينشد فيه:

إنّي بِفِعْلِ الله أوّلُ مُؤْمِـــــنٍ ... وبِمَا قَضَاهُ النَّجْمُ أوّلُ كَافِـــــــر

كَذَبَ الحَكيمُ فَمَا لَهُ مِنْ قُـــوةٍ ... وَذُوو النُّجومِ فَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِـــر"(2).

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 679/3.

(2) ابن الورديّ: الديوان، ص151.

ومهمـــا يكن من تأويلات أو تفسيرات، وجدل ونقاش، فإنّ المصيبة أدهى وأمرّ، فقــد عمَّ الدّمار مدينة حلب، وكثر الردم والقتل فيها "ولو رأيت حلب وقد أشرفت على ســوء المنقلب، ووضع لجامعها فروق في أماكن، وتعلّمت منارته باب الإمالة وتحريك الســاكن"[1]. فالكاتب يرصد الحديث بالحركة واللون والصوت، فقد وصف تلك المباني وهـــي تتحــرّك وتمـــيل وتنهار كمن يرصد تلك التفاصيل بآلة تصوير، وقد اعتمد في تصوير ذلك المشهد على الاستعارات والتشبيه وألفاظ اللغة والتجويد.

وقــد صوّر الكاتب جموع النّاس، وهم يبكون ويصطرخون من هول المصيبة، وخرجت النّساء من خدورها من هول الموقف، وقد تعانقت الحيطان والجدران "غير أنّ الدُمــوع جــرت علـــى عقبة بني المنذر كماء السماء، وبرزت المضمرات من الخدور لحركات البناء، وتعانقت حيطانها تعانق وداع"[2].

وحــرص الكاتــب علـــى نقل مشاهد الإنقاذ وتفقّد النائب لأهل البلد حيث "خرج النائب بحلب لهذه النائبة ماشياً متفرعاً من نتيجة هذه الكلية السالبة، وهو يأسى ويأسف وعلى رأسه المصحف"[3].

وعكــف الكاتــب علـــى تصوير المباني والحصون والقلاع وقد سلبت منعتها، وتهدمت شرفاتها، وأصبحت المدن دمناً قد تطاول عهدها "ولو رأيت القلاع والحصون، وقــد أذلّت الزلازل منها كل مصون... ولو رأيت منبج منبت كل سرّي، ومهبّ النسيم الســـحريّ، وهي لشدة الطمس كأن لم تغن بالأمس، قد كسف الردم فيها كل بدر شمس، فــوا أســـفا على منبج من مدينة جليلة أصبحت دمنة، وكانت الألسن عن وصفها كليلة،

(1) المصدر السابق، ص151.

(2) المصدر نفسه، ص151-152.

(3) المصدر نفسه، ص152.

غشـــيها قتـــر وظلمة، وركبتها ريح سوداء مدلهمّة، ولقد حكي لي أن منارتها صارت تقذف نحو السّماء حجارتها"(1).

وفـــي هـــذا الوصـــف صورة دقيقة لما حلّ في تلك المدينة من دمار وهدم حتى أصبحت تلك المدينة كالدمن القديمة، فوصف الزلزلة وريحها السوداء، وقوة هزّتها، كما وصف تبعثر الحجارة في الجوّ من الحصون والقلاع والمنارات.

وقد انحصر كل ما أورده الكاتب في نطاق الخسائر المادية، ولم يصف القتلى أو الجرحـــى نتـــيجة تلك الزلزلة، إلاّ أنّه وصف سلوك إثر تلك الحادثة فقال: "النّاس بعلة الســـدر والـــدوار... ولما سمع مهول ذلك الصوت ﴿خرجوا من دياهم وهم ألوف حذر المـــوت﴾* فمـــا حمـــتهم هيـــبة هيبت، ولا أقطار القاطر، ولا جنتهم قناطر الملوك إذا صرعتهم ملوك القناطر"(2).

والحقـــيقة أنّ هذه الرسالة قد رصدت حدثاً بل كارثة طبيعية عصفت بأهل الشّام بكـــل تفاصـــيلها، فصـــوّرت أحـــوال المباني والحصون والقلاع والمنارات والأبراج والمساجد إثر تلك الزلزلة، حيث أصبحت حواجز المدن دمناً لا يُعرف لها معالم، وبثّت حجارة المنارات والقلاع وقذفت نحو السماء من شدّة تلك الهزّة.

كما صوّر الكاتب حالة الفزع والخوف والقلق والهلع التي سيطرت على النّاس، فأصـــابهم الدوار والاضطراب، فجعل ذلك المشهد يشبه مشهد حشر النّاس يوم القيامة لشدّة أهوال تلك الزلزلة.

وتكشف هذه الرسالة عن بعض جوانب الحياة كما هي رسالة النبا السابقة، حيث تبـــيّن بعـــض العادات والتقاليد الشعبية، وتدلّل على مدى تفكيرهم وموقفهم من الحياة، وتفصح عن بعض وسائلهم المتّبعة في التعامل مع الكوارث التي تعصف بهم.

---

(1) المصدر السابق، ص152-153.

* سورة البقرة، آية 243.

(2) ابن الورديّ: الديوان، ص153.

ثانياً: رسائل الطرد وقِدْمات البندق

اهــتمّ العرب بالصّيد اهتماماً بالغاً وقد تنوّعت الأهداف التي دعت لاهتمامهم به، فكــان من هذه الأهداف تحصيل القوت، أو الدفاع عن النّفس، أو الرياضة والمتعة[1]، وقــد كلف العرب بالفروسيّة والفتوّة والصّيد والطّرد في السابقة على عصر المماليك، وقد بقي الاهتمام ذاته في ذلك العصر.

وقــد تعــدّدت المصادر التي تناول موضوعها الصّيد والطّرد في تاريخ الأدب العربــي، وذكرت تلك المصادر الفوائد الجمّة للصّيد، فذكر صاحب المصايد والمطارد حديثاً طويلاً عن اهتمام الخلفاء بالصّيد والطّرد وافتنانهم به[2].

وقــال صـــاحب البيــزرة: "إنّ للصّيد فضائل جمّة وملاذ منعة، ومحاسن بيّنة، وخصائص في ظلف النّفس ونزاهتها، وجلالة المكاسب وطيبها كثيرة، به يستفاد النشاط والأريحــية، والمــنافع الظاهــرة والباطــنة..."[3]. وقد أسهب في ذكر فضائل الصّيد والطــرد، والحقــيقة أنّ للصّيد فضائل نصّ عليها القدماء وأولوها العناية وأكّدوها، فقد ذكــر كشــاجم كثيــراً مــن فضائل الصّيد فقال: "خليق بذوي العدل من الملوك الكرام والســماحة والإكرام، والهمم العظام، الحسني السياسات أن يكون التصّيد والتقنّص لهم من جميل العادات"[4].

---

(1) انظــر الصالحي، عبّاس مصطفى: الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثاني الهجري، ط1، 1402هـ/1981م، المؤسسة الجامعيّة – بيروت، ص29-45.

(2) انظــر كشــاجم، أبــو الفتح محمود بن الحسن (358هـ/968م): المصايد والمطارد، تحقيق محمد أسعد طلس، دار المعرفة – بغداد، د.ت، ص3-7.

(3) أبو عبد الله الحسن بن الحسين: البيزرة، تعليق محمد كرد علي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ص18.

(4) كشــاجم: الصــقر والصــيد عــند العرب، دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحية، ط1، 1985م، مكتبة شركــة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع – الكويت، ص35.

وقــد أورد القــدماء الشــروط الــواجب توافرها في الصّائد حال مزاولته لتلك الرياضـــة، فذكــر محمـــد بن منكلي أنّ من آداب المتصيّد اتخاذ القوس الجيّد والسهام الجـيدة، وتعلــيمه ما يترتّب عليه حال كسرها، وكيفية اختيار القوس الخفيف، وما إلى ذلك من أدوات الصّيد[1].

ولــم يكن الصّيد عند العرب لجلب الرزق أو المتعة فحسب، بل يُعدُّ مظهراً من مظاهر الشّجاعة وعلماً من علوم الفروسيّة في الحرب والسلم[2]. وقد بقي الاهتمام بهذه الرياضـــة على أوجه حتى عصور متأخّرة، فقد أولع السلاطين المماليك بهذه الرياضة، وأصبح الصّيد فنّاً خالصاً يتّخذ لمتعة النُفوس والأبدان، وأضحت هناك مواكب سلطانية خاصة بالصّيد، وأماكنه وأزمنته، وجدَّ الكتّاب في وصف تلك الرحلات.

وقــد اتّخذت رسائل وصف الرحلات الخاصة بالصّيد طابعاً خاصّاً، حيث عنيت بالمشـــاهد التفصـــيلية لتلك الرحلة في سبيل إبراز أهمية تلك الرياضة، فأوّل مشهدٍ من مشاهد هذه الرحلة يتمثّل في خروج ركب السلطان بين حاشيته إلى أماكن خارج القلعة مــن أجــل تفقُّد مستلزمات الرحلة، ولا شكّ أنّ في هذه المواكب تقليداً ومحاكاة، وآداباً يجب على الحاشية الالتزام بها أثناء المسير مع السلطان أو المكوث.

والحقيقة أنّ صيد السلاطين لم يكن رغبة في الحصول على الطعام والقوت بقدر مــا هو رياضة، ومتعة للأذهان والأفهام، وطلب للرّاحة والاستجمام، والخروج من جوّ القصــور والحواضــر. فعــند خروجهم للصيّد يعيدون نشاطهم الذهني، ويسترجعون هممهم، يخرجون من أجواء الحكم والسلطنة، فتسمو نفوسهم، وتستريح أبدانهم بممارسة تلك الرياضة.

---

(1) انظــر منكلــي، محمد (784هـ/1382م): أنس الملا بوحش الفلا، دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحيـــة، ط1، (1413هـ/ 1993م، مؤسسة الرسالة – عمّان، ص70-71.

(2) انظــر الباشـــا، عبد الرحمن رأفت: الصيد عند العرب، ط3، (1403هـ/1983م)، مؤسسة الرسالة – دار النفائس، بيـــروت، ص23.

وقد اتّخذ الكتّاب في العصر المملوكي من وصف هذه الرياضة وسيلة للتقرُّب من السلاطين والحكّام، فقد وصفوا ركوب السلطان للصّيد، ورحلة الصيّد، والطرائد بجميع أصنافها، وعودة السلطان من تلك الرحلة هانئاً سعيداً، محمّلاً بالصُّيود والطرائد ركبه.

فمــن تلــك الرســائل ما كتب بها تاج الدّين البارنباري في وصف رحلة صيد الســلطان النّاصر محمد بن السلطان المنصور قلاوون، فقد عرض الكاتب لمشاهد تلك الــرحلة، فبدأ بتبيين أهميّة هذه الرياضة، حيث جعلها تضاهي رياضة الحرب والدّفاع عن الأمّة، فإنّ النفوس ترتاح لها في حال السّلم والدّعة "وتنشرح الصُّدور إلى معاطــاة الصُّــيود والمسرّات مجتمعة"(1)، فأكّد الكاتب أهمية هذه الرياضة عند السلطان في أيام السّــلم والــرّاحة، حــيث لا بدّ من ممارستها؛ لأنّ النفوس تجد فيها بغيتها لما فيها من امتطاء صهوات الجياد، وركوب المخاطر وترويض النفوس على المهالك والمشاق.

وقــد وصــف الكاتب رحلة السلطان حيث تضرب الخيام، وتعدّ الخيول وأدوات الصّــيد لهــذه الغاية، ويحدّد الفصل الذي يخرج فيه السلطان، ويكون ذلك في كل عام، فينصــب للســلطان الدهليز "وتضرب خيام الأُمراء حوله وطاقاً، وتحفُّ به مثل النُّجوم بالبدر إشراقاً"(2).

وبعــد إتمام مراسم نصب تلك الخيام وإقامة دهليز السلطان وتجهيز كل ما يلزم رحلــة الصّــيد من خيل وطيور جارحة وضوارٍ تبدأ الرحلة بأن ينقل هذا المخيّم إلى المــنطقة المضــروبة للصّيد وسط احتفال مهيب، ومشهد يشعّ بالحيويّة والفاعليّة، فقال الكاتــب مصــوّراً ذلك المشهد: "ويستقلّ الركاب الشريف – شرّفه الله – بعد ذلك يقصد عــبور النّــيل المبارك، فيظهر من القلعة المحروسة والسلامة تحجبه من المخافة ...

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 166/14.

(2) المصدر نفسه، 166/14.

ومماليكه الأُمراء قد حفّوا به أطلاباً ... وسار في زروع مخضّرة، وثغور مفترة، وقد طلعت للظفر شموسه وبدوره"[1].

وقد أسهب الكاتب في وصف ذلك المشهد حيث رسم صورة واضحة المعالم، فرصد حركة الاستعداد لإقامة ذلك المخيم بالقُرب من القلعة، وبعد الانتهاء من تلك التجهيزات والاستعدادات الضرورية لرحلة الصّيد، رسم صورة لمشهد الرّحيل حيث السلطان تحفّه أمراؤه وحاشيته وسط أبّهة السيادة ونشوة السلطنة، فالطبيعة والمناظر البيئية قد أسهمت في إضفاء جوٍّ من الرّاحة والاستئناس والشّعور بالنشوة والابتهاج، فقد بسط القول في وصف الطبيعة الصّامتة، حيث نهر النّيل الذي تمَّ عبوره، ومن ثمَّ السهول الخضراء التي تبعث البهجة وانشراح الصّدر، كل ذلك رسمه الكاتب في لوحة فنيّة تتموّج بالألوان والحركة.

ولم يقف الكاتب في ذلك المشهد عند رسم صورة للمرتحلين بل التفت إلى رسم لوحة للطيور الجارحة التي كانت بحوزتهم، فقد أورد أنواعها، وحدّد صفاتها فقال: "وأعدّت للصّيد بزاته وصقوره من كل متوقّد اللحظ من الشهامة، محمول على الرّاحات من فرط الكرامة، يتوسّم فيه النجاح قبل خفق الجناح، ويخرج من جوّ السماء ولا حرج ولا جناح، وبازها الأشهب يجيء بالظفر ويذهب بصدر مفضض وناظر مذهّب، له منسر أقنى طالما أغنى، كأنّما هو شبا السنان وقد حباه الكماة طعناً"[2].

وقد استهوى ذلك المنظر الكاتب فألحَّ في تصويره، وذكر تفاصيله، فأكثر من وصف الطّيور المدرّبة للصّيد، فوصف الصّقر والباز وصفاً نمَّ عن شغفٍ بها وملازمة لها.

واتّبع ذلك الوصف برسم صورة حيّة لمنظر الصّيد في اليوم الأول، حيث تعدّ الطيور الجوارح لهذه الغاية، فعند ظهور أي سرب من الطّيور تطلق هذه الجوارح

(1) المصدر السابق، 167/14.
(2) المصدر نفسه، 167/14.

لتأســرها بمناسرها ومخالبها، وهكذا تعمل طيلة اليوم حتى يعمّ الظّلام، وعند ذلك يعود السلطان وأُمراؤه إلى مخيمهم مرتاحي البال، مسروري الخاطر، وقد أورد الكاتب ذلك المشــهد حــيث وصف خروج السلطان إلى مسرح الصّيد حيث مكان الطيور في وقت مبكّر من النهار قبل وضوح الصّباح ليفاجئها، وهي في وكناتها، فقال في تصوير ذلك: "فيســرح والطيــر جاثمــة في وكورها، ويخرج في إغباش السحر وعليه سواد فيهابه الصــادح في الجوّ والباغم في الواد، ويأمر – خلّد الله سلطانه – أُمراءه فيضربون على الطيــر حلقة وهي لاهية في التقاط حبّها، غافلة عمّا يراد بها فيذعرونها بخفق الطُبول وضربها"(1).

وتكشف هذه السُّطور عن كيفيّة صيد القدماء، فقد رسم الكاتب لوحة لمشهد إرباك الطــيور، حيث غافلها الأُمراء فصاحوا بها كي تفزع ولا تعرف إلى أين تذهب، وهنا تكمن مهمّة الطيور الجارحة المدرّبة لهذه الغاية، حيث تنقض على تلك الطيور وتأسرها وســط جــوٍّ مــن الفوضـــى والفزع، والسلطان ينظر إلى هذا المشهد، ويراقبه ببهجة وسرور، فوصف الكاتب ذلك المشهد قائلاً: "ومولانا السلطان – خلد الله ملكه – لنافرها مترقّب، ولطائرها بالجارح معقب، فما يدنو الكركي مقروراً حتى يؤوب مقهوراً، ساقطاً مــن سمائه إلى أرضه، ومن سعته إلى قبضته ... والجارح قد أنشب فيه مخالبه، وسدّ عليه سبله في جوّ السماء ومذاهبه"(2).

وفــي خضمّ هذه الأحداث والأحوال يقضي السلطان يومه متمتعاً ومسروراً بهذه المشــاهدة، حــيث يراقب تلك المشاهد المتحرّكة ببصره وعقله وعواطفه، فترتاح لذلك نفسه ويطمئن باله.

ويمضي السلطان يومه بهذه المسرّات حتى يغلّف الظّلام ضياء النهار "ولم يزل -خلّــد الله ســلطانه- عامــة يــومه متوغّلاً في التمتّع بلذّات صيوده، وأوقات سعوده،

---

(1) المصدر السابق، 168/14.

(2) المصدر نفسه، 168/14.

وحصـــول أربه ومقصوده ... حتّى ينسخ النهار الليل بظلمائه ويلمع الطارق بأضوائه، فيعود عند ذلك الركاب الشريف إلى المخيم المنصور"[1].

وهكـــذا وصف الكاتب أحوال السلطان حيث المتعة والملذّات وقطع وقت الفراغ وممارســـة رياضـــة الصّيد، وإخراج النفس من قيود العمل الرسمي، وممارسة دستور الحكم، فالنفس رائعة في مهد سعادتها، بعيدة عن كل ما يكدّر صفوها، والعواطف شغفها ممارسة هواية الصّيد والتحليق في جوّ السماء بالبصر حيث تحلّق الجوارح وكسبها.

ولـــم يغفـــل الكاتب عن وصف الموكب العائد ليلاً، وسط لمعان الكواكب، ونور الفوانـــيس، والجـــوارح قد أكثرت الكسب؛ ولذا صوّرها الكاتب وشخّصها حيث جعلها مســـرورة، فـــرحة بنشـــوة الظفر والكسب، ويشتدّ الظلام رويداً رويداً، فيُرفع للسلطان فانوســـان مـــن بين يديه حتى ينيرا له الطريق إلى دهليزه "فيعود عند ذلك الركاب ... والجـــوارح كاســـبة، والأقدار واهبة، والجوارح مسرورة والطيور مأسورة، والنفوس ممـــتعة، والمواهب منوّعة، والأرجاء مضوّعة... فيُرفع أمامه فانوسان توءمان، كأنّهما كوكبان بينهما اقتران"[2].

وهذا المشهد ينقل المتلقّي إلى جوّ مفعم بالنّضارة والمسرّات والملذّات. فقد رسم صورة متداخلة الألوان، حيث أدخل النهار في الليل مشكّلاً صورة لونيّة فريدة، سرعان ما تلاشت لتحلّ محلّها صورة الكواكب والفوانيس؛ لتعوّض لون النهار المنصرم، وسط حـــركة مـــتموجة لركب السلطان الذي فيه كل شيء في غاية السُرور، حتى الجوارح التـــــي أعدت لقتل الطيور غدت مسرورة مبتهجة، ولا شكّ أنّ الكاتب مزج عواطف ومشاعر السلطان بكل شيء رافقه، فنالت الجوارح حظّاً من هذه المسرّات.

وجـــدُ الكاتب في رسم تلك اللوحات التصويرية، فقد أبحر في تصوير الليل الذي قضـــاه الســـلطان في ذلك الدهليز، فالأمراء يقضون طوال ليلهم بالطواف حول خيمته،

---

(1) المصدر السابق، 168/14.

(2) المصدر نفسه، 168/14.

رافعـــي الفوانـــيس والشموع حتى مطلع الفجر؛ ليعاود السلطان كرّه وفرّه على صيوده بشـــراهة وبهجـــة، وهكذا استمرّت الرحلة والكاتب جادّ في وصف تفاصيلها عن كثب، وبعـــد أن يكتفـــي السلطان من صيد الطيور ويعود إلى دهليزه يصف الكاتب ذلك الليل بقـــوله: "فعـــند ذلـــك يطـــوف بالدهليـــز أُمراء الحرس بالشموع المرفوعة، والمزاهر المســـموعة، فـــإذا طلـــع الفجر مستطيلاً، وجاء الصبح شيئاً قليلاً عُرضت عليه النِّعم فأعطاها"(1).

وهكـــذا يتكـــرّر مشـــهد الصيد لدى السلطان، حيث يتبع هذه الطيور بجوارحه وأمرائه طيلة النهار، ثمّ يعودون مسرورين ليلاً إلى مخيّمهم الذي ضربوه لهذه الغاية.

وتنقضي الأيّام والليالي والسلطان بين كرّ وفرّ مع هذه الطيور، حيث يتغذى على لحمهـــا، ويتمتّع بصيدها، وقد رسم الصفديّ لوحة فنيّة لمشهد صيد وقد خصّ من تلك اللوحة مشهد طهي تلك الطيور، واصفاً مواقد النيران وتطاير الرّيش، وجريان الدماء، فقـــال واصـــفاً ذلـــك المشـــهد: "بعد أن عرضت صيوده على مواقد النيران، وضربت أطيارها قباب أشلائها على طريق الوحش تتقارع منها على قرى الضيفان، ونشر على ســـندس الـــربيع مـــن ريشها الأزرق ياقوت، ومن دمها الأحمر مرجان، وغدت وجنة الأرض وفمها من الدماء مضرّج ومن الريش خيلان"(2).

وهذا المشهد يشكّل حلقة أساسيّة في لوحة الصيد، حيث يشكّل ذلك المشهد معيناً لا ينضـــب من الملذّات والمسرّات، حيث تسرح النفس على سجيّتها، وتخرج عن نطاق أســـر قيودها، وتكسر حواجز مدنيتها لتسبح في فضاء واسع يبعدها عن بوتقة السلطنة والحكم.

وقد وصـــف الحلبيّ في رسالة له مشاهد الصّيد، والجوّ الانفعالي الذي يشكّله ذلك المنظـــر، حيث النُفوس على سجيّتها بعيدة عن وعث المدينة وكدّ القيود، فوصـــف لوحة

(1) المصدر السابق، 14/168-169.

(2) الصفدي: أعيان العصر، 2/633.

فنيّة رسم فيها تحليق الجوارح، ومطاردة الوحوش، فجاء فيها من وصف الجوارح قوله "ونهـــيُ أنّه سار إلى الصيد ميمّماً وجه إقباله متيمّناً بسعده الذي ما برح يعتلق بحباله، ومعه من الجوارح كل بازٍ شديد الأسر صحيح على ما اتّصف به من الكسر، ينظر من نهـــار، ويخطـــر فـــي ليل رقم به أديم نهار، ذي صدر مدبّج، ورأس متوّج، ومخلف خطـــوف، ومنســـر لصدغ معطوف، أسرع من هوج الرياح، وآكل من عوج الصفاح، ينحطّ على الطير من علٍ، ويسبق إلى مقاتل الوحش كل رامٍ من بني ثُعَل"[1].

والنّاظر في تلك الرسائل التي دبّجت لغرض وصف صيد السلطان يجدها تتصيّد المشاهد المؤثّرة كما يتصيّد الجارح من الطير. فالكتّاب يركّزون اهتمامهم حول وصف تلـــك الجوارح، ويهيمون في التدقيق في رسم لوحاتها، ولا شكّ أنّ ذلك يلقى قُبولاً من نفـــس الســـلطان، حيث تكتب هذه الرسائل ليبعث بها إلى حضرة مقامه، فيحرص كل كاتـــب على أن تكون رسالته لوحة فنيّة شائقة، تجلب انتباه السلطان، وتثير فيه مظاهر الإعجاب والنشوة.

ومهمـــا يكـــن، فـــإنّ وصـــف مشـــاهد صيد الطيور لا تبتعد كثيراً عمّا وصفه البارنـــباري فـــي رسالته السابقة، حيث تتكفّل الطيور الجارحة بتلك المهمّة؛ لذلك أدقّ الحلبيّ في نعتها، وبيان خصائصها وسماتها، راسماً صورتها وهي تنقضّ على فرائسها في جوّ السماء.

وتمـــثّل لوحة صيد الطيور الفصل الأول من مسرحية الصّيد، فيلي ذلك الفصل فصل مشاهد وصف صيد الأوابد، وهنا يبدأ الكتّاب بوصف الوسيلة الأنجع في صيدها ومطاردتها، فيصفون الخيل والفهود والكلاب.

وفـــي وصفهم للخيل يحرص الكتّاب على بيان أصنافها، وشدّة جريها، ورشاقة حـــركاتها، فجاء من رسالة البارنباري في وصف تلك الخيول قوله: "فمن أشهب كريم

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص347-348.

المغار، ذي إهاب من النهار... إذا استن في مضمار يسبق البروق الخاطفة"(1). ثمّ أتبع ذلك بوصف الأحمر قائلاً: "كأنّما صبغ بدم الأعداء أديمه ... وله كل يوم ظفر جديد مع أنّه عتيق"(2)، وهكذا يستمر بسرد أصناف الخيل التي قد وردت في مبحث وصف الخيل من هذا الباب.

وقد جاء في رسالة الحلبيّ في وصف تلك الخيول ما يغني عن الشرح والتفصيل، وتقدّم ذلك في مبحث وصف الخيل.

وقد ركّز الكتّاب في وصفهم للخيل التي ترد في لوحة الصّيد على الصبر على الظمأ، وشدّة عدوها، ورشاقة حركاتها، فقد تميّزت "بصبرها على الظمأ وشدّة عدوها في النّور والظلما، وسبقها إلى غايات رهانها وثباتها تحت رايات فرسانها"(3).

ويلي ذلك المشهد مشهد وصف الضواري المفترسة التي تختطف نفوس الوحش والأوابد، فجاء في وصفها في رسالة للحلبي مبيّناً هيئتها المرعبة للإنسان قبل الطريدة: "ومن الفهود كل أهرت الشدق، ظاهر الحذق، بادي العبوس، مدبر الملبوس، شثن البراثن، ذي أنياب كالمدى، ومخالب كالمحاجن، قد أخذ من القلق والضّيق إهاباً، وتقمص من بخل الحدق جلباباً، يضرب المثل في سرعة وثوب الأجل به ويشبهه، وتكاد الشّمس مذ لقبوها بالغزالة من الوجل لا تطلع على وجهه، يسبق إلى الصّيد مرامي طرفه"(4).

فهذه صورة حيّة ولوحة فنيّة طبيعية رسمها الحلبيّ لذلك الفهد، فقد تعهّد بوصف لونه، وشكله، وسرعته، وطبيعة مزاجه، وطريقة وثوبه، وتعيد هذه اللوحة إلى ذهن المتلقّي مدى اعتناء المماليك بالصّيد وأدواته، حيث إنّ ترويض الفهود وتدريبها على

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 169/14.
(2) المصدر نفسه، 169/14.
(3) المصدر نفسه، 170/14.
(4) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص348.

قنص الصّيود والطرائد يُعدُّ مفخرة في تاريخ ترويض الوحوش واستئناسها، فلولا العناية الفائقة برياضة الصيّد لما تمّ تدريب هذه الضواري.

ومهما يكن، فقد وصف البارنباري لوحة الفهد ولكنّه اختلف مع الحلبيّ، ولا شكَّ أن في ذلك أثراً نفسيّاً، حيث أُشير سابقاً إلى تلوين كل شيء بصبغة السعادة التي غلفت نفس السلطان.

فجـــاء في وصفه قوله: "وتليها الفهود الحسن منظرها، الجميل ظفرها، الكاسب نابها وظفرها، تفرّق الليل في أُهبها المجتمعة، وأدركت العواصم في هضابها المرتفعة، وجـــوهها كوجوه الليوث الخادرة، ووثباتها على الطريدة وثبات الفئة المؤمنة على الفئة الكافرة ..."(1).

وقـــد تابـــع الكتّاب وصف هذه الضواري والكلاب المدرَّبة لهذه الغاية، فجاء في وصف الكلاب من رسالة البانباري قوله: "ما منها إلاّ طاوِ الخاصرة وثباته طائلة غير قاصرة، بنيوبٍ كالأسنّة، وساعدين مفتولين تسبق بهما ذوات الأعنّة"(2)، ويصورّ الحلبيّ حركة كلب الصّيد وقد أفزع تلك الطريدة وأدركها بقوله: "فالكلب أعرف باختلاسه منه بكناسه، وأسرع إلى احتباسه من رجع أنفاسه)"(3).

وهكذا صورّ الحلبيّ والبارنباري حركة الضواري المعدّة للصّيد بأدقّ التفصيلات وأحذقها، فقد صورّا حركاتها وألونها ووثباتها، وشدّة أسرها، وسرعة عدوها، وجاء هذا الوصـــف لـــيكون مقدّمة لوصف الطرائد التي كلف السلطان وأُمراؤه باصطيادها. ولذا تلـــت لوحة وصف الضواري لوحة الطرائد، حيث وصف النعام وحُمر الوحش والظّباء وبقر الوحش، وقد أسهب البارنباري في وصف تلك الطرائد، فوصف النعام وأطال في نعـــوته، فرسم لها لوحة وهي تسابق الرّيح عدواً، وقد خضّب ظليمها واحمرّت أطراف

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 170/14.
(2) المصدر نفسه، 170/14.
(3) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص348.

ريشـــه، واشـــتدّت قـــوائمه، وكأنّها شاركت الطّير في وجود الجناح إلى غير ذلك من أوصاف ونعوت تجعل من لوحة النعامة صورة حيّة[1].

وتابـــع ذلك بوصف الظّباء راسماً لها لوحة فنيّة تتموّج فيها الألوان، فهي مسودة الأحداق، مبيضّة البطون محمرّة المتون، ذاكراً جملة من صفاتها ونعوتها[2]، وقد أردف الكاتـــب بوصـــف حمـــار الـــوحش وبقر الوحش، وقد أعطى كل صنف منها خواصّه وصفاته.

ومـــن الطـــريف ذكـــره أنّ الكاتـــب وصـــف الضّواري والطرائد في لوحتين منفصلتيـــن خارج نطاق لوحة الطرد، فوصف كل لوحة منفردة ولم يصف مشهد طرد تلك الضّواري لطرائدها، ولكن هذا الحال لم يدم طويلاً، حيث أتى الكاتب بلوحة جديدة تجمـــع ضواري الوحش مع نوافر الطرائد، فيصوّر الكاتب ذلك المشهد بقوله: "وعندما تلتقـــي حلقـــة العســـاكر يلحقهـــا -خلد الله سلطانه- ومعه الجوارح الصائدة والحوامي الصائلة، والأسهم النافذة، والفهود الآخذة، فتموج الوحش ذعراً، وترى مسالكها قد سدّت عليها سهلاً ووعراً، وضرب دون نجاتها بسور من الجياد والفرسان، وحيل بينها وبين خلاصها بنبال وخرصان، فحينئذٍ تفرّ النعام عن رمالها، والظّباء عن ظلالها، والبقر عن جآذرها، والحمر عن بولهـــا"[3].

فهـــذه اللوحة جمعت اللوحتين السابقتين مشكّلة جوّاً طرديّاً حيّاً، وفي خضمّ هذه المعركة الوحشية تختلط الضواري بالطرائد، ويكثر الصّيد، ويستمتع السلطان بمشاهدة ذلك المنظر المثير لإعجابه.

---

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 170/14.
(2) انظر المصدر نفسه، 171/14.
(3) المصدر نفسه، 171/14.

وتتــنوّع تلك الصّيود، وتكثر اللحوم، وتملأ الحقائب، فيذكر الحلبيّ وصف ذلك اللحم بقوله: "فظللنا بين قدير معجّل أو قديد مؤجّل نمشُ بأعراف الجياد كفوفنا، ونقري من صواف الطير وأصناف الوحش ضيوفنا"(1).

فاللحوم التي تمّ صيدها لم تؤكل في رحلة الصّيد بل بقي منها قسم يعود معهم إلى الحواضر، وهو ما يسمّى بالقديد.

وكما وصف البارنباري ركب السلطان وهو متوجّه إلى مكان الصّيد وسط أمرائه فــي أبهة الحكم ونشوة الطرد، وصف الموكب ذاته، وقد قفل راجعاً إلى القلعة محفوفاً بكل مظاهر الفخر والعزّة فقال واصفاً ذلك الموكب بعد إتمام تلك الرحلة: " فإذا استكمل أوقات الصّيد من الطير والوحش ثنى ركابه الشريف إلى جهة القلعة المحروسة والقفار قد شرّفت بمرور مواكبه، والوحش والطير قد افتخرت بكونها أصبحت من مكاسبه"(2).

ولــم يغفــل الكاتب عن وصف مزاج السلطان بعد مزاولة رياضة الصّيد، حيث نعــتها بالانشــراح والبهجة والمسرّة، وقد أثنى على تلك الرياضة، حيث تعود بالفائدة العمــيمة على القادة والجيوش فهي تكسبهم اللياقة والصّبر والجلد وقوّة المراس، وشدّة الأسر، فقال في هذا السياق: "هذا كله وإن كانت النفس تره لهواً، وتبلغ به كل ما تهوى، ففي طيّه من تمرين الجنود على الحرب ما تشدّ به العزمات وتقوى"(3).

والحقيقة أنّ رسائل الصّيد رسمت صورة حقيقيّة لرياضة الطرد في ذلك الوقت، فقــد رصــد الكتّاب في تلك الرسائل لوحات متتابعة لمشاهد الصّيد، حيث يبدأ المشهد الأول باســتعداد السلطان لاستئناف رحلة الصّيد السنويّة، فيقوم بالإيعاز لأمرائه بنصب الخــيام خارج الحاضرة، حتى يستكمل جميع لوازم الرحلة من خيل وجوارح وضوارٍ وأدوات أخــرى، وبعد إتمام هذه الاستعدادات يرسم الكاتب صورة حيّة لتحرّك موكب

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص348.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 174/14.

(3) المصدر نفسه، 172/14.

السلطان وسط الحقول والوهاد في أبهة الحكم والسلطة، حيث تحفّه الأُمراء من جميع جوانبه، وتقوم على خدمته، وتسهر على راحته، ويحرص الكاتب على وصف مزاجه النفسيّ، وإضفاء ذلك المزاج على المحسوسات التي ترافقه، فيعكس نفسيّة السلطان التي تغبطها الفرحة والسُّرور على جميع الأشياء من حوله، وبعد ذلك المشهد يرسم مشهداً آخر لأول يوم من أيام صيد الطيور، فيصف الجوارح وقد انقضت على الطيور، وأكثرت الأسر فيها، مظهراً تلك اللوحة في إطار من المرح واللهو والنشاط والحيوية، مبدياً مظاهر السرور والبهجة والمسرّات والملذّات على عواطف ومشاعر السلطان.

ويردف هذا المشهد بمشهد عودة السلطان مع حلول الظلام إلى مخيّمه وسط الشموع والفوانيس التي يحملها حرّاسه من الأُمراء.

وبعد هذه المشاهد ينتقل الكتّاب إلى مشهد آخر يتمثّل في صيد الوحش، حيث تصوّر الخيل والضواري والكلاب، وتنعت بأوصاف تمكّن المتلقّي من تكوين صورة حسيّة عن تلك الوحوش، ثمّ تردف هذه اللوحة بلوحة أخرى توضّح أطيافاً من الطرائد التي تمّ اصطيادها، وتُدمج هاتان اللوحتان في لوحة واحدة في مشهد الطرد، فتثب الوحوش وتكرّ على طرائدها وتحاصرها في كل المسالك.

وبعد ذلك يعرض الكاتب لوصف هذه الطرائد جميعها، وكيفية حفظ لحومها والاستفادة منها، فما تبقى من الشوي والطهي يتّخذ قديداً، ويحمل إلى المدن والحواضر.

ويتمثّل آخر مشهد في رحلة الصّيد بتصوير موكب السلطان وقد أخذ حظّه من الملذّات والمسرّات، وابتهجت نفسه وانشرحت.

قدمات البندق:

إنّ مـــن الأُمور ذات العلاقة الوطيدة بالصّيد ورياضته ما يُعرف بقدمات البندق وآلـــته، وقد جاء في المقترح في المصطلح في صيد الطير لابن البقال قوله في تعريف آلة البندق: "وهي القوس المتّخذ من القنا والقرن، والبندق وهو معروف"[1]، وقد ذكـــر القلقشـــندي أنّ مـــن أدوات الصـــيد البـــندق وقوسه فقال: "منها قوس البندق – ويسمى الجلاهـــق– قـــوس يتّخذ من القنا، ويلف عليه الحرير، ويغرّى وفي وسط وتره قطعة دائـــرة تسمّى الجوزة توضع فيها البندقة عند الرمي"[2].

والقـــدمات جمع قدمة وهي رسائل تخصّ الرمي بالبندق وتصف أحوال الرماة، وتبـــيّن أنـــواع الطير الذي يتم صيده[3]، وهي تقوم على مبدأ الرياضة السالف ذكرها ولكـــنّها لهـــا أحوال مخصوصة، فهذه الآلة تقوم مقام الجوارح في صيد الطيور، إذ لا تعدى الطيور إلى الطرائد الأُخرى.

---

(1) الـبقال، محمد بن إسماعيل (588هـ/1192م): المقترح في المصطلح في صيد الطير، حقّقه إبراهيم السامرائي، ط1، (1418 هـ/1997م)، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ص26.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 145/2.

(3) انظر المصدر نفسه، 282/14.

وقــد أشار ابن البقال إلى حصر عدد الطير الجليل[1] الذي يرمى بالبندق، فذكر أنّه أربعة عشر صنفاً[2].

وقد اهتمّ المماليك بهذه الرياضة وأولوها العناية الفائقة، فقد عُيّن لها أمير يُدعى البندقدار[3]، وهو الذي يحمل جراوة البندق خلف السلطان أو الأمير، وهناك أمير شكار: وهو لقب على الذي يتحدّث عن الجوارح من الطير وغيرها وسائر أُمور الصيد، ومعناه أمير الصيد[4].

ومــن خــلال هذه الوظائف التي تُمنح لهذه المهنة يستدلّ على قدر أهميتها في حــياتهم، وقــد أفصح الكتّاب عن أهمية الصّيد بالبندق، وعدّدوا مراحله، وتحدّثوا عن أحــواله وأوقاته، فقد أنشأ الحلبيّ رسالة في الرمي بالبندق استعرض من خلالها أحوال الرماة وأنواع الطير، ووصف الطبيعة الصّامتة والصائتة.

---

(1) وهو المعبّر عنه بطير الواجب، وبه تعنى رماة البندق ونحوها، وهي على ضربين:

- طيور الشتاء: وهي عشرة:
  - الكُركي وهو طائر أغبر طويل الساقين في قدر الإوزّة.
  - الإوزّ: واحدته إوزّة والمراد هنا الإوزّ المعروف التركي، وهو طير في قدر الإوزّ البلديّ أبيض اللون.
  - اللغلغ: وهو دون الإوزّ في المقدار، لونه كلون الإوزّ الحبشيّ إلى السواد، أبيض الجفن، أصفر العين.
  - الحُبرج: وهو الحباري.
  - -التُّمّ: وهو طائر قدر الإوزّ أبيض اللون، طويل العنق، أحمر المنقار.
  - الصوغ: وهو طائر مختلط اللون من السواد والبياض، أحمر الصدر وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار.
  - العُنّاز: وهو طائر أسود اللون، أبيض الصدر، أحمر الرجلين والمنقار.
  - العُقــاب: ومنها الأسود والخوخية، والسفع والأبيض والأشقر ومنها ما يأوي الجبال، وما يأوي الصحارى، وما يأوي الغياض، وما يأوي حول المدن.
  - النسر: ذو منسر وليس بذي مخلب، وإنما له أظفار حداد المخالب.
  - الأنيســة: وهــو طائــر حاد البصر، يشبه صوته صوت الحمل، ومأواه قرب الأنهار، والأماكن الكثيرة المياه الملتفّة الأشجار، وله لون حسن، وتدبير معاشه.
- طيور الصيف: وهي أربعة أطيار:
  - الكُي: وهو طير أغبر اللون إلى البياض، أحمر المنقار والحوصلة، رجلاه تضربان إلى السواد.
  - الغرنوق: وهو طائر أبيض من طير الماء طويل العنق.
  - المرزم: وهو طير أبيض في أطراف ريشه حمرة طويل الرجلين والعنق.
  - الشبيطر: وهو طائر أبيض، أسود طرفي الجناجين، ورجلاه ومنقاره حُمر.

(ينظر القلقشندي: صبح الأعشى، 2/63-69).

(2) انظر ابن البقّال: المقترح في المصطلح، ص27.

(3) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 5/458.

(4) انظر المصدر نفسه، 5/461.

وقـــبل الخوض في تلك الرسالة نعرض لِمَا تحدّث فيه العمريّ عن وصفه لقوس البندق وفوائده فقال: "وبرز إلى مصارع الطير ومعه من قسي البندق كل صائلة بالحين، صـــائبة بالعين، قد تلفعت بالحرير، وتوشعت بالحبير، ولبست مثل حلل الربيع، وسلبت مـــن ريش الطير المختلف الألوان ما ظهر عليها حسنه البديع، قد تعققت رؤوسها كأنّها جيمات الأصداغ... ورمت الطيور من أفقها، وأصبح في يد قبضتها كل ملحق بجناحه ومخلق بدمه وجه مسائه أو صباحه"(1).

وهـــذا يتّضح أنّ البندق تتّخذ لصيد الطيور ولا تتعدّاها إلى غيرها من الطرائد، وقـــد وصـــف الحلبـــي من رسالة له في رمي البندق رياضة الصيد والطبيعة وأسراب الطـــيور والرماة والصيود، فكانت تلك الرسالة مشهداً حيّاً، ولوحة فنيّة رائقة، فقد بدأها بوصـــف تلـــك الرياضة، فقال في حقّها: "الرياضة... تبعث النّفس على مجانبة الدّعة والســـكون، وتصـــونها عن مشابِهِ الحمائم في الركون إلى الوكون، وتحضّها على أخذ حظّهـــا مـــن كـــل فن حسن، وتحثّها على إضافة الأدوات الكاملة إلى فصاحة اللسن، وتأخـــــذ بها طوراً في الجدّ، وطوراً في اللعب، وتصرفها من ملاذّ السموّ في المشاق التي يستروح إليها التعب"(2).

وقـــد أخذ الحلبيّ يبيّن الفوائد التي يجنيها السلطان من اتخاذ تلك الرياضة، فهي تجعل السلطان في ميدان حرب وإن كان لهواً ولعباً.

وقد رسم الحلبيّ صورة لمنظر طبيعي، وخصّ بذلك مشهد غروب الشمس حيث تـــبدأ رحلة قنص تلك الطيور، فأسهب الكاتب في بيان عناصر تلك الصورة، فأدقّ في بيان ملامحها، فقال في إبراز ذلك المشهد: "فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها، وتشير مـــن الأُفـــق الغربـــي إلى جانب رمسها، وتغازل عيون النور بمقلة أرمد، وتنظر إلى

(1) العمري: التعريف، ص299-300.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص353-354.

صـــفحات الـــورد نظر المريض إلى وجوه العوّد، فكأنّها كئيب أضحى من الفراق على فرق أو عليل يقضي بين صحبه بقايا مدّة الرمق"(1).

ولا شكّ أنّ هذا الوصف الرائق يبعث في النّفس الرّاحة والطمأنينة، ويشيع جوّاً من المرح والمتعة والملذّات، وقد عدّ الحلبيّ هذا المشهد وما يليه من مشاهد في وصف الطبـــيعة مقدّمة مهيئة للدخول في جوّ الرمي بالبندق وصيد الطّيور. فالطبيعة الصامتة لهـــا أثـــر عميق في مشاعر وأحاسيس الممارسين لتلك الرياضة، وفي هذا السياق يتبع الحلبـــيّ وصـــفه لمظاهر الطبيعة الخلاّبة قائلاً: "إلى أنّ نضا المغرب عن الأُفق ذهب قلائدها، وعوّضه عنها من النُّجوم بخدمها وولائدها، فلبثنا بعد أداء الفرض لبث الأهلة، ومنعـــنا جفونـــنا أن تـــرد الـــنوم إلاّ تحلّة، ونهضنا وبرد الليل موشع وعقده مرصّع، وأكليلـــه مجوهر، وأديمه معنبر"(2).

ورصد الحلبيّ مشاهد الطبيعة، واصفاً الأثر الذي تركه السير ليلاً، من شدّة البرد ومـــنع الأعـــين من الغمض، ومحاربة الكَرَى ومواصلة السُّرَى وسط أضواء النُّجوم، ولمعـــان الكـــواكب. وهكـــذا مضى الحلبيّ في تصوير تلك المشاهد بريشة فنّان مدرك لجوانب تلك اللوحة حتّى بلغ المكان المضروب للصّيد، فوصف أشجاره وماءه وأنهاره قائلاً: "ونهضنا... إلى حدائق ملتفّة، وجداول محتفة، إذا جمش النسيم غصونها اعتنقت عناق الأحباب، وإذا فرك من المياه متونها انسابت في الجداول انسياب الحباب ورقصت في المناهل رقص الحباب"(3).

وهكـــذا استمرّ الحلبيّ يصف تلك الطبيعة، ويدقّ في وصفها، حتى يخيّل للمتلقّي أنّ كلماتـــه تشـــكّل إطاراً يحوي صورة حيّة لمشهد طبيعي يعيشه، ويتفاعل معه، وهذا المشـــهد لا شـــكّ أنّه يثير في النّفس النشوة والطمأنينة والسكينة، فقد فصّل الحديث في

(1) المصدر السابق، ص354.
(2) المصدر نفسه، ص355.
(3) المصدر نفسه، ص355-356.

وصــف الطبـيعة الصّامتة والصائتة، ومزج بينها مزجاً فنيّاً، فوصف الورد والنرجس والريحان والطيور والمياه والأغصان والنسيم وكل ما له علاقة بهذه اللوحة(1).

وقد خصَّ الطيور بلوحة أُخرى خاصة، حيث هي مبتغى الرماة وطلبتهم، فرسم لهــا صــورة حيّة وملموسة قائلاً: "وصواف الطير المبيضّة بتلك الملق خيام أو ظباء بأعلى الرقمتين قيام، أو أباريق من فضّة رؤوسها لها فدام، ومناقيرها المحمرّة أوائل ما انسـكب مـن المدام، وكأنّ رقابها رماح أسنتها من ذهب، أو شموع أسود رؤوسها ما انطفأ، وأحسره ما التهب"(2).

وبعــد وصــف هذه المظاهر التي تثير في النّفس مشاعر الغبطة والسعادة، من لــوحاتٍ طبيعــيّةٍ أبــدعها خياله الخلاّق، ورسمها بريشته البديعة، يخلص الحلبيّ إلى وصــف غلمــان صــيده حيث جعل عدّتهم كعدّة الطير الجليل، فقال في وصفهم "وكنّا كالطّيــر الجلــيل عــدّة وكطراز العمر الأول جدّة، ومعهم قسيّ كالغصون في لطافتها ولـيــنها، والأهلــة في نحافتها وتكوينها، والأزاهر في ترافتها وتلوينها وبطونها مدلجة ومتونها مدرجة"(3).

وقد عدل الحلبيّ عن وصفهم إلى وصف عدّة صيدهم، حيث البنادق المعدّة لصيد الطيــر الجلــيل، فوصف تلك الكرات متقنة الصنعة "ومن البنادق كرات متّفقة السرد، مــتّحدة العكس والطرد، كأنّما خرطت من المندل الرطب أو عجنت من العنبر الورد، ترى كالشُهب في الظّلام، وتسبق إلى مقاتل الطير مسددات السّهام"(4).

وهكــذا هيّأ الحلبي الجوّ إلى بداية ساحة الصّيد، وممارسة تلك الرياضة، بعد أن انشــرحت الصُدور، وأخذت المسرّات مكانتها من النُفوس، ولذّت الأرواح وطابت لهذا

---

(1) انظر المصدر السابق، ص356.

(2) المصدر نفسه، ص357.

(3) المصدر نفسه، ص357.

(4) المصدر نفسه، ص358.

الجوّ الهادئ الباعث على الطمأنينة والسكينة. فعلى أثر هذه الأحوال قام الكاتب بتوزيع أولـــئك الـــرماة في أماكنهم متّخذين أهبّة استعدادهم لرمي تلك الطيور والعودة بالظّفر "فاتّخـــذ كـــل له مركزاً وتقاضى من الإصابة وعداً منجزاً وضمن له السّعد أن يصبح لمراده محرزاً"(1).

وممّـــا يلفت النّظر أنّ الحلبيّ جعل لكلّ طير من الطّير الجليل رامياً خاصّاً، فقد جعــل عـــدد الـــرماة مطابقاً لعدد أصنافها، وممّا يزيد الأمر غرابة أن تجتمع كل تلك الأصـــناف فـــي بقعـــة واحـــدة اختارتها جماعة الرماة، وهذا يبرهن على مدى اهتمام الكاتـــب بتشكيل لوحته الفنيّة والحرص على ضمان ظهور جميع أجزائها وإن لم تكن هـــذه اللوحة في الواقع الملموس، وقد أكّد ذلك الحلبيّ من خلال قوله بأنّ بعض الكتب تعمل رياضة للخاطر فيما يقلّ وقوعه لاحتمال أن يقع أو فيما تمتحن به قوة القريحة(2).

وقـــد رســـم لكـــل طائـــر من تلك الطّيور لوحة خاصة به أظهرت جمال لونه وســـرعـــة جـــركته، وقـــبل الخوض في هذه اللوحات الجزئية نجتزئ فقرة من رسالة شـــمس الدّين بن الصائغ الحنفيّ في الرمي بالبندق لتكشف لنا عن أصناف تلك الطيور التي قد سبق التعريف بها،فمن تلك الرسالة: "لا يتمّ سرورهم إلاّ برؤية تمّ كبد التمام... ولا يداوي همومهم لغبهم مثل كُيّ لأجنحته الخوافق في الخافقين نشر وطي، ولا تبتهج نفوسهم النفيسة إلاّ بإوزة يزدري دلالها بالكعب المعتزّة، ولا يطرب أسماعهم غير لغات اللغلغـــة، حـــيث تمتدّ كأنّها مدامة في الزُجاجة مفرغة، ولا يؤنسهم إلاّ الأنيسة الأنيسة والـــدُرة النفيسة، ولا يذهب جرحهم غير الحبرج الصّادح، المستوقف بحسنه ينظر كل عـــاد ورائـــح، تكاد قلوبهم تطير بالفرح عند رؤية النّسر الطائر ... إذا عاينوا عقباناً أعقبهم الفرح ونزح عنهم الترح، وإن كرّ كُركيٌ فرعنهم البوس ... وإن عرض غرنوق غـــرقوا في بحار أمكارهم ... وإن لاح ضوّع كالذّهب المصوّغ، ألقوه في الحبال وهو

---

(1) المصدر السابق، ص359.

(2) انظر المصدر نفسه، ص382.

بدمـــه مصـــبوغ، وإن مـــرَّ مرزم كالخودة الحسناء ضربوا له الآلة الحدباء، وإن مرّ السـبيطر أجنحته كالسّحائب، جاءته المرامي من كل جانب، وإن عنَّ عنز عمدوا إليه حتى يُسقط في يديه"[1].

وقد اجتزأت هذه الفقرة على طولها لحصر لوحة الطّير الجليل الذي يتفانى الرُماة ويتبارون في رميه، حيث ذكر جميع الأصناف التي تمَّ التعريف بها في موقع سابق من هذا البحث، وكل هذه الطُيور تُصاد ويؤكل لحمها إلاّ النِّسر والعُقاب، ومن اللافت للنظر حشدها مع الطير الجليل.

وقد رسم الحلبيّ لوحات فرعيّة لكل طير من تلك الطيور تصف مشهد مصرعها، فـــأول لـــوحة تمثّل مشهد مصرع التم، فقال في وصف ذلك: "فاستقبل أولنا تمائم بدره وعظم في نوعه وقدره، كأنّه برق كرع في غسق، أو صبح عطف على بقية الدجى... عليه من البياض حلّة وقار، وله كرة من عنبر فوق منقار من قار..."[2].

وبعـــد وصف تحليقه وجمال ألوانه يتحوّل الكاتب لوصف مصرعه، حيث أرسل إليه الرامي الأول بندقة فسقط وسط الماء صريعاً، وتلت هذه الصّورة لوحة الكي حيث وصـــفه بقـــولـــه: "وتـــلاه كيّ نقيّ اللباس، مشتعل شيب الرأس ... ذو غيبة كالجراب ومـــنقار كالحـــراب"[3]، ثـــمّ أتبع هذه اللوحة مشهد مصرعه حيث تعهّد الرامي الثاني بإسـقاطه "فثنى الثاني إليه عنان بندقه وتوطاه فيما بين أصل رأسه وعنقه، فخرّ كمارد انقـضّ علـيه نجم من أُفقه فتلقّاه الكبير بالتكبير واختطفه قبل مصافحته الماء من وجه الغدير"[4].

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 284/14.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص359.

(3) المصدر نفسه، ص359.

(4) المصدر نفسه، ص360.

وبعـد تصوير مشهد الكيّ يأتي وصف الإوزّة حيث "حلتها وكناء وحليتها حسناء لهـا في الفضاء مجال وعلى طيرانها خفّة ..."[1]، إلى أن يصف مشهد مصرعها حيث الرامـي الـثالث يتعهد برميها جثّة، ثمّ تتوالى تلك المشاهد التي تصف شقين في كـل لـوحة؛ الشقّ الأول يتعهّد بوصف الطائر من حيث لونه وحركاته، وأهم مميّزاته، بينما الشقّ الثاني يهتمّ بوصف مشهد اصطياده، حيث الرّامي المتأهّب، اليقظ الذي يعاجله من النجاة بنفسه. فبعد الإوزّة ترد اللغلغة ثمّ الأنيسة ثمّ الحبرج ثم النّسر ثمّ العقاب ثمّ الكيّ ثمّ الغرنوق ثمّ الصوغ* ثمّ المرزم ثمّ الشبيطر** ثمّ العناز.

وكـل طير من هذه الطيور يرسم له الحلبيّ لوحة خاصّة مميّزة تحفل بأوصافه، كما تبيّن مكانة مكمن الخطر الذي يستغلّه الرامي عند رميه بكرة البندق، فلكل طير من تلك الطيور منطقة ضعف يصاد من قِبَلِها، بل يسهل رميه من خلالها.

وأشار الحلبيّ إلى الإطار الزمني لتلك الرحلة حيث بدأت مع الغروب واستمرّت حتـى قبـيل الصّباح، حيث ورود تلك الطيور الماء في الغلس ولو أنّ بعضها مائي لا يبرح الماء والغياض.

والمثيـر للدّهشـة كيفـيّة صـيد هذه الطيور قبل وضح النهار، لا بل كيف تمَّ تصـويرها داخل اللوحات السابقة في ذلك الإطار الزمني. والأمر يكمن في بيان قدرة الرماة على رمي تلك الطيور بكرات البندق وإصابتها حيث المهارة والحذاقة مكّنتهم من إصابة أهدافهم بدقّة.

والأمر الآخر اللافت للنّظر تجمع هذه الطيور في بقعة واحدة وتراسلها واحداً تلو الآخر، ولعلّ التفسير الأنجع لهذه الأمور انتظار تلك الطيور بالقرب من مصدر الماء؛

---

(1) المصدر السابق، ص360.

* الصوغ: ورد في رسالة ابن الصائغ الضوع، وهو موافق للسان العرب مادة "ضوع".

** الشبيطر: ورد في رسالة ابن الصائغ السبيطر، وهو موافق للسان العرب مادة (سبطر).

لأنّ الطـــيور تــرد المـــاء قبيل طلوع الشّمس، وهنا يستعد الرماة لصيدها وسط غبش السحر.

وفي الحقيقة أن مشاهد تلك الهواية، ووصف تلك الغياض والطيور والرُّماة تثير فـــي الــنّفس مظاهر السّعادة والسُّرور، كما تساعد النفوس المكدودة على تلمّس الحريّة والانطـــلاق، حـــيث الأجـــواء الفســـيحة، والرِّياض المقفرة، وقد جعل ابن الصائغ في ممارســـة هـــذه الرياضـــة فوائد نفسية وجسميّة أخرى مثل الشعور بالنشاط والانبساط والشجاعة فهي تعود على من يتعاطى الصّيد بالسُّرور، فــ "يحصّل عند متعاطيه نشاطاً ويـــزيده انبساطاً، ويشرح خاطره ويسرِّح ناظره، ويملأ عينه قُرَّة، وقلبه مسرَّة، يشجّع الجـــبان، ويثـــبت الجـــنان، ويقـــوّي الشهوة، ويسوّي الحظوة ويسوق الظفر، ويشوّق النظر"[1].

فكـــلّ هذه الفوائد التي ذكرها الكاتب يجنيها الرّامي من ممارسة رياضة البندق، حـــيث تسمو روحه، وتَطرب أحاسيسه، فهذه الرياضة تعلّمه الصدق والشجاعة، وحفظ العهـــد، كما تقوّي علاقة الرُّماة فيما بينهم حيث يقضون فترة الصّيد يتجاذبون الحديث والمســـامرة، فتقوى لذلك علاقاتهم، وتنمو مودّاتهم وتصفو نفوسهم، وبهذا المعنى يقول ابـــن الصائغ: "تقضي رياضات النُّفوس السامية بمعاطاة كأسه، ومصافاة ناسه؛ لِمَا فيهم مـــن الفـــتوّة وكمـــال المروّة، وصدق اللسان، وثبات الجنان، وطيب الأخلاق، وحفظ الميثاق، لا يعرفون غير الصدق وإن كانوا يميلون إلى الملق"[2].

وقـــد حفلت كما مرَّ رسالة رمي البندق بثوابت أساسيّة تمثّلت في وصف مظاهر الطبيعة، واختارت الليل إطاراً زمانيّاً لرصد تلك الطُّيور، ثمّ تعهّدت بوصف عصابات الطيـــر الجلـــيل، وأهملـــت وصف ما سواه، والعجيب ترتيب هذه الطيور، حيث اتّفقت

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 14/282-283.

(2) المصدر نفسه، 14/283.

رســالة ابن الصائغ مع رسالة الحلبيّ في ترتيب مشاهد تلك الطُيور، وهذا الترتيب لم ينشأ محض صدفة، بل لا بُدّ من تفسير أو تعليل.

كمــا اهــتمّت بوصف الرُماة من حيث حذقهم، ومهارتهم، وسموّ أخلاقهم، ونُبل مشــاعرهم، إضافة إلى الفائدة التي تعود بها هذه الرياضة على الفرد الممارس لها من النواحي النفسيّة والبدنيّة.

وعند المقارنة بين هاتين الرسالتين، نجد رسالة الحلبيّ أكثر صوراً، ومشاهد من رسالة ابن الصائغ، فقد رسم الحلبيّ مشهداً حيّاً لكل طائر من الطير الجليل، فوصف فيه لونه وصفة تحليقه وخصائص حياته وسكناه، وكيفية صيده وصرعه، بينما لم يرسم ابن الصائغ تلك اللوحات بل اكتفى بجمع هذه اللوحات في لوحة واحدة مشتركة مع الحفاظ على ترتيب الطير الجليل.

وقــد لفــت الحلبــيّ الأنظار عندما خصّص لكل طير رامياً لم يشركه فيه أحد، بيــنمــا جعل ابن الصائغ الطيور شركة بين الرُماة يعترضون الطيور دون تخصيص لكل طائر رامٍ.

وقــد اتّفق الكاتبان على وجود جماعة رماة، وهذا أدعى إلى جوّ المرح والمتعة والمــنادمة، وقد أفصح الكاتبان عن دواعي كتابة هاتين الرسالتين، فأنشأ الحلبيّ رسالته رياضــة للخاطر، ولم يكتب بها إلى أحد، ولذا جاءت رسالته مفصّلة لأغراض الرّمي بالبــندق، ومعيناً لا ينضب، يغرف منه كل من أراد وصف تلك الرياضة، بينما رسالة ابن الصائغ أُنشئت من أجل وصف رمي صلاح الدين بن المقرّ المحبوب بن فضل الله، ولــذا أخــذت شخصــيته جانــباً كبيراً من الرسالة ولم يبلغ شأو الحلبيّ في التصوير والتفصيل، فقد أخذ ابن الصائغ حيّزاً كبيراً في إنشاء خطبتها.

ومهما يكن، فإنّ الكاتبين قد اتّفقا على أهمّ أُسس رياضة الرمي بالبندق، ووصفوا مشـــاهد أحداثها، وأحوال رماتها، وأسماء طيورها تماماً كما اتفقا على الأُطر المحيطة بهذه المشاهد من الإطار المكاني والزّماني.

وعلى أيّة حال، فإنّ رياضة رمي البندق تُعدُّ من رياضات الصيد التي شغف بها المماليـك وأولعـوا بها، وعرفوا مواسمها وأماكنها، وطيورها تماماً كما اهتمّوا بصيد الحـيوان. وقد اتّخذت كرات البندق في صيد الطيور، إضافة إلى الطيور الجارحة التي تمَّ تدريبها لهذه الغاية.

وبالجملـــة، فـإنّ هـــذه الرياضات أُتّخذت من أجل الترويح عن النفس، وجلب المســـرّات، والحصـــول على الملذّات، وإخراج النفس من قيود الأسر وجبروت الحكم، فـــتجد الـنفوس في ممارسة هذه الهوايات الأُنس والبهجة والسعادة في منادمة الخلاّن، ومطـــاردة الوحـــوش، وإشـــعال الفوانيس والشموع، ودقّ المزاهر، إضافة إلى جمال الطبيعة ونضارتها.

وقـــراءة مثل هذه الرسائل يولّد في الذاكرة أمرين اثنين، حيث يكمن الأمر الأول فـــي تخفّـــي خيوط المديح خلف مظاهر ومشاهد الصيد، فالرسائل في ظاهرها رسائل صـــيد، ولكـــنّ الحقيقة الكامنة فيها تتمثّل في مدح السلاطين أو الأمراء، ففي مثل هذه الرسائل تقرّب من السلاطين والأمراء، وهذا ما يمهّد إلى القول باهتمام السلاطين بالنثر دون الشعر، فقد وجد النثر مكانة في قلوبهم ولاقى هوى في أفئدتهم، فقرّبوا أهله، وهذا الأمر شجّع الكتّاب على ممارسة هذا اللون الأدبي، وعليه فإنّ الكتّاب وجدوا في رسائل الصـــيد فرصـــة مثلما وجدوا في بعض الرسائل الديوانية من قبل في التقرّب من ذوي السلطة، فقد مدحوهم لنيل رضاهم وصلاتهم وأعطياتهم، فظاهر الرسالة وصف الصيد وباطنها يفيض بغرض المديح.

والأمــر الآخــر يتمثّل في رسميّة الرياضة، فجميع رسائل الصيد ورسائل رمي البــندق مــتعلّقة بالسلطنة والحكّام، وهذا ما قاد الكتّاب إلى العمل على وصف مثاليتها، وخلوّها من الأكدار والأخطار.

فكــل مشــهد من مشاهد هذه الرسائل أتى على قدرٍ كبيرٍ من المثالية، فمظاهر الطبــيعة الصّــامتة والصّــائتة يعــزّ وجودها في الظروف العاديّة، ولوحات الطيور والوحــوش تــندر أن تجمعهــا حدائق الحيوان والطيور، ومواكب السلاطين والأمراء يعصب على ذوي الألباب تخيلها، وخصال رماة البندق يفتقدها كثير من النّاس.

وهكــذا فكل شيء في هذه الرحلات يطفح بصفات المثالية، والكمال، وهذا يعزّز الغرض السابق الذي جعل من تلك الرسائل مديحاً للسلاطين والأُمراء وذوي النفوذ.

ومهمــا يكــن، فــإنّ رسائل الصّيد ورمي البندق من أكثر الرسائل الأدبية تعلّقاً بالطبــيعة واحــتفاءً بمظاهرها، فلا تخلو رسالة صيد من وصف الطبيعة الصّامتة التي تكوّن الدعامة الأساسيّة إلى وصف مشهد الصّيد.

وهذه الرسائل اعتنت بالوصف اعتناءً كبيراً، كما كشفت عن بعض مظاهر الطبّ النفســيّ، حــيث تعــيد مثل هذه الرياضات الثّقة إلى النّفس عند بعض الأفراد، وتقوّي العلاقة بين الممارسين لها، إضافة إلى إيجابيات كثيرة أُخرى تمّ الحديث عنها.

ثالثاً: المفاخرات ـ الأسئلة والأجوبة

اعتنـــى الكتّاب في العصر المملوكي بأدوات الحضارة وأسبابها، فأخذوا يعقدون الرســائل المطوّلة في وصفها وإبراز مظاهرها، وبيان خصائصها وكشف مواطن القوّة والضـــعف فيها، فجدّوا في عقد المقارنة بين السّيف والقلم، والسّيف والرُّمح، ومختلف العلــوم والآداب، وهــذه الرسائل تمثّل ثراءً فكرياً، حيث تعتصر فكر الأديب من أجل الأتيان بكل حجّة ونقيضتها، فتوجد من الأديب شخصيتين متناقضتين تدافع كل شخصية عن مبادئها، وتحطُّ من قيمة مبادئ الأخرى.

والمفاخـــرة لا تعدو كونها رسالة وصفيّة، إلاّ أنّها تتّخذ طابع الحوار والمناظرة والجـــدل وســـوق الأدلّـــة والبراهين، واقتحام الخصم، وافتعال الحجج ومحاولة كسب الانتصار بأي مسوّغ كان، ولو كان في ذلك شتم وهتك لحجج الآخر.

ولـــذا تُعـــدُّ هـــذه الرسالة أدخل في الرمزيّة من نظيراتها رسائل الوصف، فهي تكشف عن آراء الكتّاب بل آراء النّاس في ذلك الزّمان، فمن خلال تلك الأدوات يفصح الكاتـــب عن رأيه؛ ولذا تتحاور وتتجادل وتتبادل الاتّهام تلك الأدوات، مستخدمة نزعة عقلـــية فلسفيّة، فكل أداة بل طرف في المفاخرة يحاول إظهار كل خصلة حسنة وإخفاء كـــل ما سواها، كما يكيل خصال الذّم إلى مناظره وقبيله، وإخفاء كل خصلة حسنة في سيرته من أجل إثارة حماس الطرفين.

ومـــن الملاحـــظ أنّ كل رسالة بُنيت من طرفين أو أكثر، حيث لا بُدَّ من وجود قواسم مشتركة في استخدامها أو وظيفتها وحاجة النّاس إليها.

وقـــبل استباق الأحداث والحكم على النتائج، لا بُدّ من تصفّح بعض تلك الرسائل والاطّـــلاع علـــى مضـــامينها، ومعرفة الأساليب المتّبعة في بيان محتوياتها، وصياغة ديباجـــتها. فقد كتب الأديب جمال الدّين بن نباتة رسالة في المفاخرة بين السّيف والقلم،

حشـــد فيها كثيراً من الأدلّة والبراهين، مبيّناً بل كاشفاً عن ثقافة موسوعيّة، وبراعة في تســويغ الأحكــام، وقـــد تفنّن في كثير من المغالطات والمهاترات التي تدعم حجج كل طرف منهما.

وقد عمد كل من الخصمين إلى اتّباع أقوى الأدلّة وأعظمها أثراً في النّفس لحسم النـــزاع لصـــالحه، حـــيث قصد القلم مسلك الكتاب الحكيم في محاولة إلى كسب الرأي العـــام؛ لِمَا للقرآن الكريم من أثر في نفوس الجمهور فقال: "﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطرُون مَا أَنْــتَ بِــنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُوْنٍ﴾* الحمد لله الذي عّلم بالقلم وشرَّفه بالقسم، وخطَّ به ما قدَّر وقســم، وصـــلى الله علـــى ســـيدنا محمد الذي قال جفَّ القلم بما هو كائن وعلى آله وصحبـــه ذوي المجد المبين..."[(1)].

فالفقـــرة تلك تبيّن تحميداتها مكانة القلم، فقد وقف القلم خطيباً مبيّناً حججه وأدلّته علـــى علوّ مكانته، وحوزه قصب السبق في الأمور كلها، فجعل الكاتب من القلم خطيباً مـــوفقاً فـــي براعة الاستهلال، حين استهلّ خطبته بالأدلة النقلية القوية، فجعل من تلك المقدّمـــة دليلاً ظاهراً وحجّة باهرة على علوّ مكانته حيث أشاد به القرآن الكريم والسنّة النبويّة، فقد صرّح بالآية الكريمة بل الآيات الكثيرة التي مجّدت القلم حيث أقسم المولى بـــه وبـــيّن فضله في أُمور التعليم حين منَّ الله تعالى على خلقه بالعلم وفي هذه الآيات حجة كبيرة، ودليل قاطع على علوّ مكانة القلم، ولم يقف الحدّ عند ذلك بل نفذ القلم إلى الأحاديث والسنّة النبويّة المطهّرة التي ذكرت القلم وبيّنت فضيلته وسبقه فـــي الوجود.

وشرع القلم في بيان فضائله، معتمداً أُسلوب الإقناع والتأثير، جامعاً كل فضيلة، متّخذاً أُسلوب المنطق طريقاً، فقد بدأ بالدليل الأقوى لقطع لسان السيف وكسب عواطف الجمهـــور قـــائلاً: "فإنّ القلم منار الدين والدّنيا، ونظام الشّرف والعليا ومجاديح سحب

---

* سورة القلم، آية 1، 2.

(1) ابـــن حجّة، تقي الدين أبو بكر علي الحموي (ت837هـ/1433م): خزانة الأدب وغاية الأرب، شرح عصام شعيتو، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط2، 1991، 230/1.

الخيــر إذا احــتاجت الهمم إلى السقيا، ومفتاح باب اليمن المجرّب أعيا، وسفير الملك المحجب..."[1].

فأخذ القلم يبيّن خصاله الكريمة، ومكانته العليّة، فقد بدأ بذكر الكليات من الأُمور، حــيث يُعدّ منار الدين والدّنيا، فجمع بين الأُمور جميعها، فهو صاحب الشرف الرفيع، ومسبّب الخير العميم، ومفتاح كل خير، فضلاً عن كونه لسان الملوك وخطيبها، ويرجع الفضل إليه في إقامة سلطان الله تعالى في الأرض، حيث يحكم من خلاله بالعدل، وهو أقدر على القيام بالمهمات الصعبة والبعيدة، وهو قادر على مجابهة الأعداء في منازلهم وبلادهم.

وقــد عدل القلم عن بيان فضائله وطيب خصاله إلى مهاجمة السيف تصريحاً لا تلميحاً فقال: "لا يعاديه إلاّ من سفّه نفسه ولبس لبسه، وطبع على قلبه، وفلّ الجدال مــن غربه، وخرج في وزن المعارضة عن ضربه، وكيف يُعادى من إذا كرع في نفسه قيل ﴿إنَّــا أعْطَيْــنَاكَ الكَوْثَرَ﴾* وإذا ذكـــر شانئــة السيــــف قيــــل ﴿إنَّ شَانِئَــكَ هُــوَ الأبْتَــر﴾**"[2].

وبعد هذه الجملة من الحجج المزيّنة التي أفصح القلم عنها وبهرجها، وفصّل في جملــتها استفزّ خصمه السيف الذي لا يرى في فعله إلاّ القطع، وليس في منطقه مكان للعقــل أو المجاملة أو اللباقة، فهو لا يعرف إلاّ منطق القوّة والشدّة والقطع والبتر؛ ولذا صــوّره الكاتــب بالخطــيب المتهوّر الذي لا يعرف طريقاً للمداهنة أو الملق فقال في وصف إثارة القلم للسيف حيث وصف حركته وتوتّره، وتشنّج أعضائه "فعند ذلك نهض السيف قائماً عجلاً، وتلمّظ لسانه للقول مرتجلاً، وقال: بســم الله الرحمــن الرحيــم...

---

(1) المصدر السابق، 230/1.

* سورة الكوثر، آية 1.

** سورة الكوثر، آية 3.

(2) ابن حجّة: خزانة الأدب، ص231-232.

﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إنّ الله قـــوي عزيــز﴾* الحمد لله الذي جعل الجنّة تحت ظلال السُيوف، وشرّع حدّها في ذوي العصـــيان، فأغصتّهم الحتوف، وشيد مراتب الذين يقاتلون في سبيله صفّـــاً كأنّهم بنيان مرصوص، وعقد مرصوف ..."[1].

والنّاظــر فـــي تلك الخطبة التي أسرع في بنائها السّيف يلمح براعة الاستهلال، حيث ركّز اهتمامه في صياغة تلك الخطبة على الحجج القوية الدامغة، فقد عمد إلى ما عمـــد إلـــيه نظيـــره القلـــم فاجتهد في تحصيل ما يخدم قضيته من آي الذكر الحكيم، والأحاديث النبوية الشريفة التي جاءت في ذلك الباب.

وبهـــذا الأمر تلحظ بداية تلك المفاخرة، حيث بنيت على حشد الأدلّة والبراهين، وبـــيّن كل منهما فضائله التي يفضل بها نظيره، فهبّ السيف بعد تلك الخطبة إلى ذكر فضـــائله الســـائرة بين النّاس قائلاً: "فإنّ السيف زند الحقّ الوري، وزنده القوي، وحده الفـــارق بين الرشيد والغوي، والنجم الهادي إلى العزّ وسبيله، والثغر الباسم عن تباشير فلـــولـــه، به أظهر الله الإسلام، وقد جنح خفاء وجلى شخص الدين الحنيفي، وقد جمح جفـــــاء وأجـــرى سيوفه بالأباطح ... وحملته اليدّ الشريفة النبويّة، وحفته على الأقلام بهذه المزية..."[2].

والحقيقة أنّ السيف جدّ في طلب كل فضيلة وبيان كل مزيّة على القلم، وأحصى من الفضائل ما أثار حفيظة القلم، حيث أبدع في حجّته حين قال إنّ النبي ﷺ استخدمه ولـــم يمســـك بالقلم، فتلك فضيلة لا توازيها فضيلة، وقد اتّخذته الملوك حصناً لممالكها، وقــــد أطـــال الســـيف في ذكر خصاله، وأغاظ القلم وأثاره بوصفه بالجبن والاستكانة ملمحّـــاً تارة ومصرحاً أخرى، وهذه الحال لم ترق للقلم، وأدرك مرامي السيف، وأحسَّ

---

* سورة الحديد، آية 25.

(1) ابن حجة: خزانة الأدب، 230/1.

(2) المصدر نفسه، 232/1

باستمالة الجمهور إلى صفّ السيف، وعندئذٍ جدّ في استدراك الأمور فقال: "أيها المعتزّ بطــبعه، المغترّ بلمعه الناقض حبل الأُنس بقطعه، الناسخ بهجيره من ظلال العيش فيأ الشــراب الــذي ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآن ماءً حتّى إذا جاءهُ لم يجدهُ شيئاً﴾* الحبيس الذي طالما عــدت عليه عوائد شرّهِ الكمين الإبليس الذي لو أمر لي بالسُّجود لقال ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** أتعرّض بسبي، وتتعرّض لمكايد حربي"(1).

والطريف في تلك المحاورة استثارة الخصم وخروجه عن طور العقلانية، حيث أخــرج الكاتــب القلــم المتّــزن الحليم عن طوره، وجعله يقصد أُسلوب الشتم وإطالة اللســـــان، بما لا يليق، حيث أوجعه السيف فلم يستطع أن يتمالك نفسه، ويسيطر على ضبط أعصابه، ولذا أخذ يكيل من عبارات الشتم إلى السيف، وهذه صفة إنسانية لا شكّ فــيها، ورمزيتها واضحة، ومهما يكن من أمر فإنّ القلم استمرّ في غيّه مقارناً خصاله بخصـــال السيف قائلاً: "أتفاخرني وأنا للوصل، وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنـــا للصـــلح وأنت للضراب، وأنا للعمارة وأنت للخراب، وأنا المعمّر وأنت المدمّر، وأنت المقلّد وأنا صاحب التقليد، وأنت العابث وأنا المجوّد..."(2).

وهكذا أخذ القلم يوازن بين خصاله الحميدة وخصال ضدّه الشنيعة معتمداً أُسلوب الطــباق لإظهار فساد صفات السيف، وقد توسّع القلم في ذكر تلك المتباينات، فلم يترك مثلــباً مــن مثالب السيف إلاّ ورصدها، فوصم السيف بالعار والجبروت وعدم الحكمة والقسوة وعي الكلام، فأدخل في وصفه الصفات الجسمية والنفسية الشائنة.

وبعــد تلــك المقالة التي أصدرها القلم وسمع بها السّيف، احتدّ وتمالكه الغضب، وصـــبَّ جام غضبه على خصمه القلم، فوصفه بأقبح الصّفات، وكال له عبارات الشتم والســبّ وهــدّده بقطــع دابره، وهكذا حمي وطيس المعركة بينهما فقال السيف: "أيها

---

* سورة النور، آية 39.

** سورة ص، آية76.

(1) ابن حجة: خزانة الأدب، 234/1.

(2) المصدر نفسه، 234/1.

المـــتطاول علـــى قصـــره، والماشـــي على طريق غرره، والمعرض مني إلى الدّمار، والمتحرّش بي، فهو كما تقول العامة: (ذنبه قشٌ ويحترس بالنّار) لقد شمّرت عن ساقك حتـــى أغـــرقتك الغمـــرات، وأتعـــبت نفســـك فـــيما لا تـــدرك إلى أن أذهبها التعب حســـرات..."[1].

وهكـــذا أخـــذ السيف يبيّن ويكشف عن سقطات القلم وعثراته، وقد حوّل السيف كـــل فضـــيلة للقلم رذيلة، وكل منقبة حسنة مثلبة فاحشة، وحصل الأمر ذاته في كلام القلم، حيث حوّل كل صفة حسنة للسيف إلى صفة رذيلة، وهكذا تناول كل منهما مناقب صاحبه وأخرجها في ثوب الصغار والذلّ.

فقـــد عمـــد السيف إلى اعتبار كل فضيلة من فضائل القلم ذلاً وضعفاً واستكانة، وهبوط همّة، بينما عدَّ القلم كل فعل للسيف حماقة وقسوة وجبروت وعدم احتكام للحكمة والمنطق.

وقد أخذ الجدال بين القلم والسيف كل مأخذ، وحشد كل منهما ما بوسعه من حجج ودلائل، واستنارا بما أوتيا من فصل الخطاب، وتوقّد فكر، وحدّة ذهن، وقد اتّصف كل مـــنهما بصفات نمّت عن شخصه، وكشفت مكنون سرّه، وأظهرت ما يخفيه صدره، من الحقد والحسد.

والحقـــيقة أنّ هـــذه الرســـالة تظلم إذا ما وقفنا عند دراسة الحوار الذي دار بين الســـيف والقلم مجرّداً عن الجوّ النفسي الذي تعبق به أجواؤها، فليس من الحكمة الحكم علـــى مادتهـــا بالوصف المجرّد، والوقوف عند طرفيها السيف والقلم بالصورة الجليّة التقلـــيدية. والحـــقّ أنّ ابن نباتة قد لفت الانتباه إلى قضية حسّاسة في الدولة المملوكيّة، تكمن في المنافسة التي كانت بين طرفي الدعامة الأساسية لتلك الدولة: أرباب السيوف وأربـــاب الأقلام، فقد قامت الدولة في ذلك الزمن على هذين الحزبين، ومن تلك العلاقة

(1) المصدر السابق، ص236.

الناشـئة بيـنهما تمخّضـت الشحناء والمفاخرة، فكل منهما رأى أنّه أحقّ من صاحبه بالـتقدمة والعـناية والتقـرّب لـدى السلطان، ورأى في حزبه نصرة الدولة وعزّتها وتمكينها.

وقـد أنهى الكاتب تلك المجادلة والمشاكسة بين الطرفين بالتصالح، حيث القضية خطيـرة لا تحـتمل الحكم لأحدهما على الآخر، فكلا الطرفين مهم، وذراع قويّ للدولة والسـلطنة، ولا يمكن الاستغناء عنه، ولو كانت الرسالة مجرّد وصف وامتحان قريحة لحكم الكاتب لأحدهما على الآخر وربّما رجّح القلم على السيف كونه من أرباب الأقلام، ولكن الخطّ السياسي يحرّم ذلك ويقطع كل ذريعة تشي بإثارة الشحناء بين ذلك الحزبين.

وقـد أبدى الكاتب تعاطفه مع القلم فقد جعله البادئ بالموادعة والمصالحة حيث قـال: "فلا تشمت بنا الأضداد، ولا تسلّط بفرقتنا المفسدين في الأرض، إنّ الله لا يحبّ الفساد واغضض الآن من خيلائك بعض هذا الغضّ، ولا تشك أنّي قسيمك ولو قيل لك ﴿يـا داود إنّـا جعلناك خليفة في الأرض﴾...* فاذكر محلنا من اليدّ الشريفة السلطانية الملكية المؤيديّة ..."[1].

وأخـذ القلم في الاعتذار عن مقالته السابقة، وذكر كل ما يسوّي الخلاف بينهما حتـى استمال السيف وأرهف حدّه وجدّ في اعتذاره الملفّق بالعتاب الجارح قائلاً: "فإنّ السّيوف معروفة بالخلل ثمّ قال: أيها الضعيف الجبّار، البازغ في ليل المداد نجماً، وكم فـي النجوم غرار، لقد تظلّمت من أمر أنت البادي بظلمه، وتسوّرت إلى فتح باب أنت السـابق إلـى فـتح خـتمه، وقد فهمت الآن ما ذكرت من أمر اليد الشريفة، ونعم ما

* سورة ص، آية 26.

(1) ابن حجّة: خزانة الأدب، 239/1.

ذكـــــرت، وأحســـن بما أشرت ﴿وما أنسانيه إلاّ الشيطان أن أذكره﴾*، وقد تغافلت عن قولك الأحسن ..."[1].

وهكــذا بدأت المصالحة بين القلم والسيف من أنفسهما دون وسيط من الخارج، وفـــي ذلــك ملمح رمزي آخر، حيث إنّ الشحناء بين السلطتين: العسكرية والمدنية لا يطول مداها، وإن وشت تلك الرسالة بوجودها وتمكينها في النفوس.

وقد اعتاد الكتّاب في ذلك الزمان على جعل قسم من رسائلهم على شتّى أنواعها في مدح السلطان، فقد وجب نصيبه من تلك الرسائل، ولذا امتدح ابن نباتة السلطان في رســالته، وجعل الحزبين: أرباب السيوف وأرباب الأقلام في خدمته، بل جعلهما يديه، وعـــندئذٍ نشـــط في بيان فضائل السيف والقلم والتغاضي عن سلبياتهما؛ لأنّ المقام مقام مــدح، ولــم يحتمل القدح وذكر تلك الهنّات، وقد جعله القاضي بين السيف والقلم، ولذا رضيا بحكمه العادل، وفي ذلك إشارة سياسية إلى المساواة بين هذين الحزبين.

وقــد سطّر ابن الورديّ معاصر ابن نباتة رسالة في السيف والقلم حاكت رسالة ابن نباتة في التركيب والمعنى، فقد انطق القلم بالحجج ووصفه بالحكمة والعقلانية، فبدأ أدلّــته بآي الذكر الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة الشاهدة بفضل القلم، وقديم سلطانه حيث حاز قصب السبق في الوجود، وهذه حجّة طالما اعتدّ بها القلم وعدّها من فضائله فقال: "فإنّ للقلم قصب السباق، فالكاتب بسبعة أقلام من طبقات الكتاب في السبع الطباق، وجرى بالقضاء والقدر، وناب عن اللسان فيما نهى وأمر"[2].

وقــد أســهب القلم في سرد خصاله الكريمة، وصفاته الحميدة، فردّ عليه السيف مفضياً بالأسلوب نفسه، حيث عمد إلى الأدلّة والحجج القوية المستندة إلى القرآن الكريم والســنّة الشــريفة، فأكثر من نعت ذاته وبيان خصاله فقال: "فإنّ السيف عظيم الدولة،

* سورة الكهف، آية 63.

(1) ابن حجّة: خزانة الأدب، 239/1.

(2) ابن الورديّ: الديوان، ص79.

شـــديد الصولة، محا أسطار البلاغة، وأساغ ممنوع الإساغة، من اعتمد على غيره في قهـــر الأعداء تعب وكيف لا؟ و "في حدّه الحد بين الجدّ واللعب"*، فإن كان القلم شاهداً فالسيف قاضٍ"[1].

واستمرّ السيف في غيّه وجبروته حيث لا منطق له إلاّ منطق البطش والشدّة، ولا عقـــل إلاّ الأخـــذ بالرؤوس والنفوس، وقد أثار بحدّته سماحة القلم، وأخرجه عن طوره وأخلاقه، فأخذ يكيل له الشتم بلسانه الحاد، وفصاحته المعهودة قائلاً: "يفاخر – وهو قائم عن الشمال – الجالس على اليمين، أنا مخصوص بالرّي وأنت مخصوص بالصّدى، أنا آلـــة الحـــياة وأنـــت آلة الردى، ما لنت إلاّ بعد دخول السعير، وما حددت إلا عن ذنب كبير، وأنت تنفع في العمر ساعة وأنا أفني العمر في الطاعة..."[2].

فأخذ القلم في بيان خصاله الكريمة مقابلاً بها خصال السيف الذميمة، ومن خلال تلك المقابلة طمح القلم إلى كسب الرهان والانتصار على خصمه واستعطاف الجمهور، وسرعان ما ثار السيف قائماً مهدّداً القلم ومقلّلاً من شأنه ومحقّراً أمره، قائلاً: "وطالمـــا جعلت بعض فراخي بصددك وهي السكين، فأصبحت من النفاثات في عقدك يا مسكين، فأخلت من الحشو ختمانك وشقّت أنفك وقطعت لسانك"[3].

وقـــد أفصح ابن الورديّ عن قضية خطيرة في المفاخرة، فقد صرّح بوظيفة القلم الأساسية في الدولة المملوكية حيث ديوان الإنشاء والمحاسبة والقضاة والنقد، فقال على لســـان الســـيف: "إن كنت للديوان محاسب مهموم، أو للإنشاء فخدام لمخدوم، أو للبليغ فساحر مذموم، أو للفقيه فناقص في العلوم"[4].

---

* عجـــز البـــيت لأبـــي تمّام وصدره: السّيفُ أصدَقُ أنباءً مِنَ الكُتُبِ. أبوتمّام، حبيب بن أوس (231هـ/845م): الديوان بشرح الصولي، دراسة وتحقيق خلف رشيد نعمان، وزارة الإعلام – الجمهورية العراقية، 189/1.

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص80.

(2) المصدر نفسه، ص81.

(3) المصدر نفسه، ص81-82.

(4) المصدر نفسه، ص82.

وفـــي هـــذه الفقرة نقدٌ لاذع لأرباب الأقلام، ومهما يكن فإنّ هذه المفاخرة تثبت قضـــية المنافســـة بـــين أرباب السيوف وأراب الأقلام، فقد بحث كل منهما عن التقدمة والأسبقيّة.

وقـــد اتّفـــق الكاتبان على عنجهية السيف ورقّة الأقلام وعيّ السيوف وفصاحة الأقلام، وبطش السيوف وخداع الأقلام.

فـــالأقلام عـــادة هـــي الـــبادئة بالخطاب وذكر فضائلها وسبقها، وحيازتها لكل فضـــيلـــة، وهـــي المتّصفة بالحلم والأناة، المحتكمة لأسباب المنطق والعقل، المتمسّكة بأهـــداب الحكمة، المنعوتة بخصال الكرم وحسن السجيّة، المعروفة بالتواضع والتنازل عـــن الجـــدال فـــي مواطن الصّدام، البادئة بالمصالحة وفضّ الخصام؛ ولذا جعل ابن الـــورديّ القلم البادئ بالتنازل عن نبرة الخصام العالية قائلاً: "فلمّا رأى القلم السيف قد احتدّ ألان له من خطابه ما اشتدّ وقال: أمّا الأدب فيؤخذ عني وأمّا اللطف فيكتسب منّي، فـــإن لنتَ لنتُ، وإن أحسنتَ أحسنتُ، نحن أهل السّمع والطّاعة، ولهذا يجمع في الدواة الـــواحدة مـــنا جماعـــة، وأمّـــا أنتم فأهل الحدّة والخلاف، ولهذا لم يجمعوا سيفين في غلاف"[1].

ومـــرّة أخـــرى يفصـــح ابن الورديّ عن شفافيّة رمزيّته، فقد أشار صراحة إلى خطـــاب مباشـــر دائر بين أرباب الأقلام وأرباب السيوف، فنعت أرباب الأقلام بالسمع والطاعـــة واللطـــف، ولهذا فهم يجمعهم الديوان كما تجمع الأقلام الدواة الواحدة، بينما جعل السيوف أكثر حدّة مستخدماً التورية في صياغة عباراته ومكثراً منها.

وقـــد كشـــف ابن الورديّ عن مثالب كثيرة لكلا الطرفين، فانتقد الكتّاب والنقاد والأدبـــاء مـــن خـــلال قـــول الســـيف فـــي محاجـــة القلم: "مه فقلم البليغ بغير حظ

(1) المصدر السابق، ص83.

مغـــــزل"[1]، وهكذا استمرّ الحوار والجدال بين السيف والقلم في جوّ من الخصومة المستحكمة والبغضاء المستفحلة بينهما، وقد احتال القلم وأكثر من مقارعة السيف بلسانه الطلق، إلاّ أنّ السيف بقي صلداً أمامه، ولم يظهر جانباً من اللين أو التعاطف، لا بل زاد فـي هيجانه وعنفوانه وعنجهيته. فالقلم هدّأ من نبرة خطابه والسيف أجّجها، واستمرّت الحـال كذلك حتى نصّب الكاتب نفسه قاضياً بينهما، ولكن ليس من المؤمّل أن يصدر حكماً في القضية يقضي بترجيح أحدهما على الآخر؛ لأنّ القضية أخطر من أن يقضي لأحـدهما علـى نظيره، ويجعل أحد الحزبين أفضل من مفاخره، ولو حصل مثل هذا الحكم لأيقظ ابن الورديّ مكامن الحقد والمنافسة، وأشعل نار الفتنة، ولكنّ الكاتب أذكى مـن أن يكـون الضـحيّة، فأرجـأ الحكم للسلطان عندما أدرك أنّ كلا الطرفين محقّ بالـتقدمة، فقال: "فلمّا رأيت الحجّتين ناهضتين والبينتين بينتين متعارضتين، وعلمت أنّ لكل واحد منهما نسبة صحيحة إلى هذا المقرّ الكريم ورواية مسنده صحيحة عن حديثه القـويم لطّفـت الوسيلة ودقّقت الحيلة حتى رددت القلم كنّه، وأغمدت السيف فنام ملء جفـنه، وأخـرّت بيـنهما الترجيح، وسكتّ عمّا هو عندي الصحيح إلى أن يحكم المقرّ المشار إليه بينهما بعلمه"[2].

ومرّة أُخرى يدرك المتلقّي أنّ الرسائل أنشئت بدافع المدح إلى جانب الكشف عن سـرّ من أسرار العلاقة القائمة بين أرباب السيوف وأرباب الأقلام، فابن الورديّ يوجّه نقـداً مبطّـناً حيث لم يستطع الإفصاح عمّا في خلده ويصرّح بالحكم خوفاً من السلطة والحكم.

والحقـيقة أنّ ابن الورديّ أفصح عن الحكم تلميحاً واكتفى به عن التصريح، فقد نعـت القلم بكل خصال الأدب والسماحة والتواضع، بينما أسبغ على السيف كل خصال

---

(1) المصدر السابق، ص84.

(2) المصدر نفسه، ص85-86.

الحماقــة والســطوة وغياب العقل، في ذلك رأي صريح بالاستمالة إلى القلم والحكم له بالتقدمة.

وقـد أرجأ الكاتب الحكم العلني بينهما للمقرّ؛ لأنّ حكمه لن يكون إلاّ في صالح الطـرفين، فلا يعقل أن يقدم أحدهما على الآخر؛ لحاجته إليهما جميعاً في بناء سلطته، فليس من الحكمة أن يقدّم أحداً على الآخر.

وقد وجد في هذه المحكمة فرصة لمدح المقرّ المشار إليه، فقد نعته بالعلم والحلم والــوقار والسكينة، فقال: "ويسكن سورة غضبها الوافر ولجاجهما المديد ببسيط حلمه، ويعاملهما بما وقر في صدره من الوقار، وسكن في قلبه من السكينة"[1].

وبالجملــة فــإنّ المفاخرة بين السيف والقلم واضحة المعالم بارزة الرُسوم، فاتّبع القلــم أُســلوب الــبلاغة والفصاحة في كسر شوكة خصمه، بينما اعتمد السيف أُسلوب الــتهديد والتهوُّر والترهيب والوعيد، واتّصف القلم بالخداع وتوقّد الذهن، بينما اتّصف السيف بالحدّة وسرعة الغضب والعنجهية.

ومهما يكن، فإنّ الرمزية المختفية خلف ركام تلك المفاخرات لا شكّ أنّها ظاهرة لمــن أراد أن يكشــف عنها حجابها، فأرباب الأقلام في الدولة المملوكيّة يطمحون إلى المكانة العليا في السلطنة المملوكيّة. فالكتّاب والشعراء والنقّاد والقضاة يسعون إلى نيل الحظــوة لــدى السلطان وكفلائه، وكذلك الأمر ذاته مع أرباب السيوف، فهم يطمحون كــذلك إلى نيل الدرجة العليا والأسمى في تلك السلطنة، وقد وازن السلطان بين هاتين الطائفتين لحاجته إليهما جميعاً.

ومــن الضروري التنبيه على أنّ مثل هذه المفاخرات لا بدّ أن تفصح عن جانب من المنافسة الجارية بين الطائفتين حيث كانت هناك شحناء، وتحاسد، وتسابق إلى كسب الودّ وحيز قصب السبق إلى نفس السلطان؛ ولذا يلاحظ على الكتّاب في معظم رسائلهم

(1) المصدر السابق، ص86.

أُســلوب المــدح الظاهر أو المبطّن، فلا تخلو رسالة في الأرجح من تصيّد ودّ الحاكم وكسبه.

ولهــذا يمكن القول بأنّ رسائل المفاخرات بين السيف والقلم تكشف من قريب أو بعــيد عن علاقة أرباب السيوف وأرباب الأقلام بالقادة أو كفلائهم من جانب، وعلاقتهم مع بعضهم من جانب آخر.

والعلاقــة في الحقيقة لا تظهر بمظهر الصّفاء التّام، بل هناك شوائب تكدر صفو العلاقة، ولكن الشوائب تلك مختفية خلف جدار مصطنع يُدعى عدل السلطان ومساواته بينهما.

وقد صوّر الكتّاب تلك الخصومات بأدقّ تفاصيلها، ولكنهم لم يتمكّنوا من إصدار الحكــم صــراحة على الرغم من إصدار أحكامهم الضمنيّة القاضية بترجيح كفّة أرباب الأقلام على أرباب السيوف نظراً لمكانتهم في طبقة أرباب الأقلام.

وقد أجرى القاضي علاء الدّين بن غانم مفاخرة بين الرمح والسيف، وكلاهما من لــوازم أربــاب السيوف؛ ولذا فإنّ الرمزية فيها أدقّ وأخفى، ولكن الأمر يتكشّف عند مطالعــة مقدمة المفاخرة، حيث يقول الكاتب "بعثت إليك رسالتي وفي ذهني أنك الكمي الــذي لا يجاريــك ندٌّ، والشجاع الذي أظهر حُسن الإئتلاف لو شكّ الضد ... وها هي احتوت على المفاضلة بين الرمح والسيف ... وقد أطرقتهما حماك لتحكم بينهما بالحقّ السويّ، وتنصف بين الضعيف والقوي ..."(1).

فالناظر في تلك الفقرة، يلمح ما قصد إليه الكاتب، حيث حدّد هدفه بوضوح، فهو يــريد مــن صديقه الصفديّ الحكم بين الأداتين ليستمطر أفكاره، ويمتحن قريحته بالردّ علــى تلــك الرســالة، فهي رسالة أشبه برسائل الألغاز التي تكون في أغلبها امتحاناً للقريحة، وإثارة لأفكار الآخرين.

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 3/493-494.

ومهمـــا يكن فإنّ السيف بدأ بذكر فضائله الخاصة، حيث الرمح يشترك معه في فضـــيلة قـــتال الأعداء؛ ولذا تصيّد السيف الخصال التي مكّنته من سحق حجج خصمه الـــرمح فقـــال: "أنـــا الذي لصفحتي الغرر ولحدّي الغرار، وتحت ظلالي في سبيل الله الجـــنّة، وفـــي إطلالـــي على الأعداء النار، ولي البروق التي هي للأبصار والبصائر خاطفـــة ...فهـــل يـــتطاول الرمح إلى مفاخرتي وأنا الجوهر وهو العرض، وهو الذي يعتاض عنه بالسهام وما عني عوض"(1).

ومن هنا يلحظ التشابه بين هذه المفاخرة والمفاخرتين السابقتين من ناحية صياغة عـــبارتها وســـبك نصّها، فقد وقف الأول خطيباً ذاكراً فضائله وطيب خصاله، ثمّ ثنى عـــنانه نحو قذف الخصم وتحطيم مثله، ونقض حسناته، وإظهار زيف حقيقته؛ ولذا أخذ الســـيف يبيّن عظيم خصاله، وشدّة أسره وفتكه بالأعداء، مقدّماً نفسه على الرمح الذي نعـــته بالعـــرض الذي ليس له مكانة السيف ودرجته، وأخذ يذم الرمح ويكشف خصاله الذميمة، وصفاته الشائنة، فوصفه بالشؤم فقال: "كم حملته من يد فكانت حمالة الحطب، وكـــم فـــارس كسبه بحملاته فما أغنى عنه ما كسب، حدّه ليس من جنسه، ونفعه ليس مـــن شأن نفسه"(2).

والحقـــيقة أنّ أُسلوب المحاجّة هنا أضعف من أُسلوب المحاجّة بين السيف والقلم فـــيما سبق، فهذه المفاخرة لم تبدأ بالحجج القوية المستندة إلى القرآن الكريم التي تقوّي الحجة وتبرهن على صدقها وقوّتها.

ومهما يكن، فإنّ الكاتب جعل من السيف خطيباً منطقياً أفصح عن محاسنه وقبّح حســـنات خصـــمه، وهـــذا ديدن الكتّاب وعادتهم، فقد تعوّدوا في المفاخرات أن يحوّلوا الحقائـــق باطلاً والباطل حقيقة حسب ما تقتضيه الحجّة والدليل، وهذا الأمر كشف عن

(1) المصدر السابق، 494/3.

(2) المصدر نفسه، 494/3.

قــدرتهم في التصرّف في الأمور كلها، فلم تعجزهم حجّة أو دليل بل لديهم القدرة على تحويل تلك الحجة لصالحهم أو دحضها ونقضها ثمّ الانتصار لها ونقض كل ما يضدّها.

وبعد خطاب السيف الذي بيّن فيه سقطات الرمح وأوهن عضده، وأوهى حجّته، نطـق الـرمح مدافعاً عن نفسه، داحضاً كل حجة مدح السيف بها نفسه، واتّبع أسلوب السيف في الانتصار لنفسه، فقد أبطل حجج الخصم ودحض آرائه، مفنّداً مزاعم خصمه، ومفســداً حسناته قائلاً: "أنا الذي طُلْتُ حتى اتّخذت أسنتي الشهب، وعلوت حتى كادت الســماء تعقــد عليَّ لواء من السُحب، كم ميّل نسيم النّصر غصني وميّد، وكم وهّى بي ركــن للملحــدين، وللمــوحدين تشيّد ... فهل للسيف فخر يُطال فخري أو قدر يسامي قــدري، ولو وقف السيف عند حده لعلم أنّه القصير وإن كان ذا الحلى، وأنا الطويل ذو العلا ..."[1].

وهكــذا نقض الرمح حجج السيف، فبدأ بذكر خصاله الحسنة ومدح ذاته، ثمّ لوى عنقه تجاه السيف بالشّتم والردّ بالمثل، وكال له عبارات الذمّ والهجاء.

ومــن اللافت للنظر هنا بناء على تلك المفاخرات على أُسلوب التوبيخ والتجريح والشــتم، وهــذا الأمر يثير الدهشة، ويقود إلى القول بالعصبية المفرطة والمزاج الحادّ الــذي يغلّــف النفسيّة القائمة على التحدّي، وسحق الخصم والأنفة، فلا مجال للاستكانة والاعتراف بالتقصير، فكل طرف يرى أنّه الأحقّ بالتقدمة والأفضلية، ولذا فإنّ العقلانية فــي كثيــر من الأحيان مغيبة، والموضوعية مختفية لا سبيل لإظهارها، وربّما تكون الأحكام هنا جائرة، ولكنها في الحقيقة لا تبعد كثيراً عن جادّة الصّواب.

ومهمــا يكــن فإنّ المفاخرة بين السيف والرمح لم تبلغ شأو المفاخرة بين السيف والقلــم، والسبب راجع إلى طبيعة المنصب الذي حلّ به كل من السيف والرمح والقلم،

---

(1) المصدر السابق، 495/3.

فالسـيف والـرمح في حقيقة الأمر في زمرة واحدة تضاد زمرة القلم، ومن هنا ندرك أهمية الجديّة في المفاخرة بين السيف والقلم، وضعف المفاخرة بين السيف والرمح.

فالمفاخـرة بـين السيف والقلم امتدّت طويلاً، وكثرت الحجج والأدلّة والبراهين، وعـلا صـوت المحاجّـة والجدل والخطاب، بينما انتهت المفاخرة بين الرمح والسيف سـريعاً ممـا يـدلّ على ضآلة الشحناء بنيهما، والعكس صحيح بالنسبة للسيف والقلم، فالعـداوة مستحكمة ظاهرة، بينما البغضاء بين الرمح والسيف مفتعلة؛ ولذا لجأ الكاتب إلـى الاستعانة ببعض الصور المشرقة عند وصفه للرمح، وهذه الصور لا تنسجم وجوّ المفاخـرة القـائم علـى إبراز صفات القوة والشدّة، حيث المقام مقام حرب وخصومة وقتالٍ، وليس وصفه بالجمال والحسن.

وكمـا أسـلفنا فـإنّ تلمّس الرمز الذي قصد إليه ابن غانم – إن قصد – يصعب تحديـده، ولكـنّ الأمر المرجّح الذي يذهب إليه أكبر الظنّ القول بعدم الرمزيّة في هذه المفاخـرة، وإنّما تعلّل كما سلف بشحذ همّة ذهن الصفديّ في امتحان القريحة، والإجابة عـن تلـك المفاخرة بأخرى مماثلة، وهذا اللون من الرسائل قد شاع في رسائل الألغاز التـي قـد أشـير إلـيها في مبحث سابق، فالكاتب أراد أن يمتحن ذهن صديقه، مبدياً إعجابـه بـتلك المفاخـرة، ويعزّز هذا الفرض توجيه تلك الرسالة إلى صديقه، ولم يـوجّهها إلـى سـلطان أو أمير كما سلف في مفاخرتي السيف والقلم لابن نباتة وابن الورديّ.

فالكاتـب أنهـى رسـالته بقوله: "وقد أوردهما المملوك حماك فاحكم بينهما بما بصّرك الله وأراك"(1).

وهذا يدلّل على الغرض السابق القاضي بالردّ على تلك المفاخرة، ولكنّ الصفديّ لم يشر أنّه قد أجاب عنها.

---

(1) المصدر السابق، 495/3.

وقد أنشأ ابن حبيب الحلبيّ مفاخرة بين أقسام العام تحدّث فيها عن المفاخرة بين فصول السّنة، مُبدياً كل فصل فضله دون الإساءة لغيره من الفصول، وهذا ما كنّا نطمح إلـيه. فالمفاخرة اقتصرت على عنصر المدح وإظهار المآثر والمحاسن، ولم يكن فيها تعرّض بالشتم للآخرين، لا بلّ تآزرت تلك الآراء في إخراج مفاخرة خالية من أساليب التجريح والتوبيخ.

وقـد صـوّر الكاتب تلك المفاخرة في لوحة حيّة فقد حدثت المفاخرة في مجلس مشهود، في جوٍّ سلميّ، فقال: "حضر فصول العام مجلس الأدب في يوم بلغ منه الأديب نهايـة الأدب، بمشهد من ذوي البلاغة، ومتقني صناعة الصياغة، فقام كل منهم يُعرب عن نفسه، ويفتخر على أبناء جنسه"[1].

وهكـذا صور الكاتب تلك المفاخرة بصورة مناظرة حضرها جمهور غفير، وثلّة مـن الحكّام ليحكموا بينهم، فقدّم الكاتب الربيع على مناظريه، ونوّه بذكره، وقال مادحاً ذاته: "أنا شاب الزّمان، وروح الحيوان، وإنسان عين الإنسان، أنا حياة النفوس وزينـة عروس الغروس، ونزهة الأبصار، ومنطق الأطيار، عرف أوقاتي ناسم، وأيّامي أعياد ومواسم فيها يظهر النبات، وتنشر الأموات، وتردّ الودائع، وتتحرّك الطبائع..."[2].

وسـرد الربيع مفاخره مبيّناً طيب عرفه وعراقة أصله، ففضاله كثيرة وخصاله المحمودة لا يحصيها محصٍ، وهكذا أسهب في ذكر مناقبه التي ترتاح النفوس المكدورة إليها، حيث الخضرة والنضارة وتنوّع الورود والأزهار.

واكتفـى كما أُسلف الربيع بذكر مآثره ونضارته دون اللجوء إلى الحطّ من قدر أقرانه، ثمّ أفسح المجال أمام الصيف ليورد طائفة من محاسنه ومآثره، مقتفياً أثر الربيع فـي السلاسـة والعذوبة قائلاً: "أنا الخلّ الموافق والصديق الصّادق، والطبيب الحاذق،

---

(1) ابـن حبـيب، الحسين بن عمر: (779هـ/1377م): نسيم الصبا، تحقيق محمود فاخوري، ط1، 1314هـ/1993م، دار القلم العربي، حلب، ص35.

(2) المصدر نفسه، ص35.

أجـتهد فـي مصلحة الأصحاب، وأرفع عنهم كلفه حمل الثياب، وأخف أثقالهم، وأوفّر أموالهم، وأكفيهم المؤونة، وأجزل لهم المعونة..."[1].

ومضى الصّيف في تعداد مآثره التي كست السهل والجبل، وعمّت الغنيّ والفقير، فأخـذ يذكـر المحاسـن التي بثّها بطلعته، فالأحباب فيه يسمرون، والثياب فيه تخفّ، والطعـام فيه يكثر، والثمار فيه تنضج، وحينئذٍ أرعد قلم الكاتب وأبرق حين تحدّث عن فاكهة الصّيف وقثائه، ولم يذكر شيئاً من مثالب غيره واكتفى بذكر مناقبه ومأثره.

وعلى الشاكلة نفسها سار الخريف حيث تحدّث عن أجمل ما فيه قائلاً: "أنا سائق الغيوم، وكاسر جيش الغموم، وهازم أحزاب السموم، وحادي نجائب السحائب، وحاسر نقـاب المـناقب، أنـا أصدّ الصّدى وأجود بالندى ... في أيّامي تقطف الثمار وتصفو الأنهار ..."[2].

وهكـذا أفصح الخريف عن كل منقبة وجد فيها مفخرة على غيره، دون تقصّي عثـرات أقرانه، وأخيراً أتى الشّتاء الذي لم يجد بدّاً من متابعة نظام إخوانه، فقد التزام الطـريقة ذاتهـا فقال مادحاً نفسه: "أنا شيخ الجماعة، وربّ البضاعة، والمقابل بالسمع والطّاعـة، أجمـع شمل الأصحاب، وأسدل عليهم الحجاب وأتحفهم بالطعام والشّراب، ومـن ليس له بي طاقة أغلق من دونه البّاب ..."[3].

واسـتمرّ الشـتاء في سرد خصاله السجيّة، فأخذ من كل صفة سلبيّة فيه مظاهر الحسن منها، فأظهر نفسه مظهر الحسن والجمال.

(1) المصدر السابق، ص36.

(2) المصدر نفسه، ص36.

(3) المصدر نفسه، ص37.

وهكــذا أورد كل فصلٍ من فصولِ العام أجمل ما فيه ليظهر حُسنه على أقرانه، وفــي نهاية المطاف تصالح الجميع، وصفا الجوّ وانشرحت الصُدور، وتجاذبوا أطراف الحديث، ولكنّ الصّفاء لم يدم طويلاً، فقد: "تفرّق شمل أهله وآخر الصحبة الفراق"(1).

وهذه المفاخرة لا تعدم التفسير الرمزيّ فمهما صفا الزمان للخلاّن، وجمع شملهم وأنس وحدتهم، ولذّت به منادتهم، وصفت أحوالهم لا بُدَّ من التفرّق والتشتّت.

ومهمـــا يكــن، فإن الأُسلوب الرمزي في تلك المفاخرات لا شكَّ في وجوده، فلو عدمـــته تلــك الرسائل لأصبحت أقرب للسذاجة، فهي رسائل تكشف عن نفسية كاتبها وتبصّـــره بالأُمور، فالتيارات في زمانهم متضاربة، والطوائف متنافسة متشاحنة، فوجد الكتّاب بغيتهم في تصوير تلك الأحوال خلف ركام هذه المفاخرات، وقد استعان الكتّاب فـــي إنشــاء تلــك المفاخرات بمجموعة من الأدوات البلاغية واللغوية، فقد أكثروا من عناصـــر التشـــخيص والتجســيد، وألوان البديع والتشبيه والكنايات، فقد أطلق الكتّاب لمخيّلــتهم الفــذّة العــنان في تجسيم هذه الأدوات في مشخّصات إنسانية تحسّ وتنفعل وتتحرّك وتنطق، ويعتريها الشعور بالغضب وتتطلّع إلى التملّك(2).

وهكذا اعتمد الكتّاب على الخيال الواسع، والفكر المبدع في إجراء حوار وجدال يــنجم عــن حجج دامغة، وبراهين دالّة، وهذه الحجج والبراهين تصيّر الحقَّ باطلاً في سبيل كسب الرأي وتسويغ هزيمة الخصم.

---

(1) المصدر السابق، ص38.

(2) انظر: الدروبي، سمير محمود: الرمز في مقامات السيوطي، ط1، 1422هـ/2001م، مؤسسة الرسالـة، عمّان، ص719.

الأسئلة والأجوبة:

تبادل العلماء والأدباء بعض الرسائل التي تدور حول أسئلة تحتاج إلى إجابات، وقد تميّزت هذه الأسئلة بالإجابات غير المحدّدة، فأغلب الظنّ أنّ تلك الرسائل لم تدبّج من أجل الإجابة التقليدية، وإنما تبعث من أجل كشف اللثام عن سلامة قريحة العالم أو الأديب الذي بعثت إليه، فغرض تلك الأسئلة محاولة امتحان قريحة المرسل إليه في مجمل الأمر ولو أنّ بعضها قد يكون لحاجة المرسل إلى الإجابة، وقد ذكر القلقشندي حدّ هذه الرسائل بقوله: "قد جرت عادة مشايخ الأدب، وفضلاء الكتّاب أنهم يكتبون إلى الأفاضل بالمسائل يسألون عنها؛ إمّا على سبيل الاستفهام واستماحة ما عند المكتوب إليه في ذلك، وإمّا على سبيل الامتحان والتعجيز، ثمّ تارة يجاب عن تلك الأسئلة بأجوبة فتكتب، وتارة لا يجاب عنها بحسب ما تقتضيه الحال"[1].

والحقيقة أنّ هذه الرسائل تنمّ عن فكر متّقد، فهي تُثري الحقل الأدبيّ والعلميّ، وتحثُّ على الدأب في التحصيل والجدّ وتستنهض الهمم، وتجلب الفائدة، فمن هذه الرسائل ما بعث بها الأديب جمال الدّين بن نباتة إلى الأديب شهاب الدّين محمود الحلبيّ يشكره فيها، ويمتحن كتّاب الديوان ببعض الأسئلة عندما علم أنّهم قد نالوا منه، ونافح عنه الحلبيّ[2].

فبدأ ابن نباتة رسالته مادحاً وشاكراً ومثنياً ثناءً طويلاً تأنّق فيه، مذكّراً بمعروف الحلبيّ في الذّود عنه عندما تناولت الألسن قدحه وتجريحه، فجاء من تلك الرسالة قوله: "فأعلى الله كلمة سيدنا العلامة في الدارين، وشكر غنّى جود كرمه وكلمه الدّارّين، فهو صاحب ديوانهم، وحجّة زمانهم، فلقد وصفني بما يزيد على الجواب، وشافهني من الشّكر بما لا يتوارى من الرزق بحجابه، وأمّنني العزّ والزّمان

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 240/14.

(2) انظر المصدر نفسه، 241/14.

حـــرب، ونصـــرني والأيام سيوف تتنوّع من الضرب في كل ضرب، وأعطاني كرمه والمحل محل، وفي قلب الزّمان دخل، ونحلني شهدة إحسانه والأوقات كإبر النحل، حتى عذرني في حبّه من كان من اللائمين"[1].

وقد عرّض ابن نباتة بالنفر الذين أساءوا له في غيبته، ووجّه نقده إليهم قائلاً في شـــتمهم والحطّ من قدرهم والتقليل من شأنهم: "لا يحسن أحدهم في الكتابة غير العمامة المدرّجـــة، والعذبة المعوّجة، والعباءة الضيّقة، والأثواب المفرّجة، وتناول السلم باليمين وكتابه إن شاء الله تعالى بالشمال ... لو سئل أحدهم عن "البديع" في الكتابة لم يعـــرف مـــن الســـؤال غير الترديد، وعن "عبد الحميد" لزاد في الفكر ونقص وعبد الحميد عبد الحميد والصّاحب لقال إنّه تبرقع بمجلسي، والخوارزمي لقال سرج فرسي والفاضل لقال ها هو ذا ذيل ملبسي، فإذا كان الأمر كذلك ففيم الملام والتفنيد؟".

والناظر في هذه الفقرة يجدها تفيض بالنقد اللاذع، والاستهجان الواضح، والشتم الموجع، فليس لهم من الكتابة إلاّ التسمية وارتداء زيّها.

ومهمـــا يكن من أمر هذه الرسالة إلاّ أنّ الغرض الأساسي لها هو امتحان كتّاب الديوان، ومحاولة تعجيزهم؛ لإظهار ضعفهم والنيل منهم، فقد أفصح ابن نباتة عن هدف تلـــك الرسالة قائلاً: "وأنا أقترح عليه من مسائل الكتابة بعض ما اقترحه الفضلاء، ونبّه عليه العلماء، وإلاّ فما أنا أبو عذرته، ومالك إمرته ... فإنّه الذي نبّهني عليه وإن لم أكن ســـاهياً، وذكّرنـــي الطعن، وما كنت ناسياً، حتى رميته من هذه المسائل في مجاهل، لا يهـــتدى فيها بغير الذهن الواقد، واقتحمت به في بحار لا يعصم منها جبل الفكر الجامد، على أنّها فيما أغفلت كالثمد من البحار، واللمحة من النهار، ولولا الاختصار لأتيت منها بالجمع الجمّ"[2].

---

(1) المصدر السابق، 243/14.

(2) المصدر نفسه، 246/14-247.

والمتأمّل هذه الفقرة يدرك مدى الحنق الذي دفع ابن نباتة إلى كتابة تلك الرسالة، فالهدف كشف زيف أولئك الكتّاب الذين نالوا منه حال غيبته، فأراد أن يكيل بما كالوا، فتوعّدهم وأرهبهم، ولم ينسَ التنويه بذاته حيث لا تُعدّ هذه الأسئلة إلاّ نزراً ضئيلاً وكمّاً قلـيلاً مـن علمه ومداركه، ومع ذلك فإنّه قد وضعهم في مجاهل ومتاهات ليدلّل على سـخف عقولهم وضآلة معلوماتهم، فقد استخفّ بهم، وسامهم الخسف، وانتصر لنفسه، ومـن كبيـر دهائـه استقطاب الحلبيّ إلى صفّه، وبذلك خلت له الساحة، وطاب له أن يسرح ويمرح في ذلك الميدان بعد تحييد دور الحلبيّ.

ومـن الطريف أنّ الأسئلة الكثيرة التي أوردها في رسالته لم تبرح دائرة الكتابة والـدواوين، فجمـيع الأسئلة تخصّ باب التدوين والكتابة، وهذا ما جعل ابن نباتة يفحم أولئك النفر ويكشف زيف منصبهم، فقد تنوّعت الأسئلة في ذلك الحقل، فمنها التاريخي كقـولـه: "من كتب في الورق واستنبطه، ومن ختم الكتاب بالطين وربطه، ومن غير طـين الكـتاب بالنشـا وضـبطه، ومن قال أما بعد في كتابه، ومن جعلها في الخطب وأسقطها في ابتدائه في المكاتبة وجوابه...؟"[1].

فأكثـر ابـن نباتة من هذا النوع من الأسئلة التي اعتمدت الأوائل سبيلاً في كل أمـر، وقـد كشـفت كثرة الأسئلة من هذا اللون عن سعة مداركه وثقافته الموسوعية، وإدراكه لأهمية هذه الموضوعات في الكتابة، حيث لا بُدّ لكاتب الإنشاء أن يعرف طرفاً منها.

وقـد عـدل عن الأسئلة التي نحت منحى التاريخ إلى الأسئلة الخاصة بالبلاغة وفنونها، وكيفية التصرّف بالقول قائلاً: "وكيف جاز للكاتب أن يكتب آية من الكتاب في لفظه يحسبها من لا يحفظ أنها من عنده لا من حفظه ..."[2].

---

(1) المصدر السابق، 247/14.

(2) المصدر نفسه، 247/14-248.

وقد أكثر ابن نباتة من أسئلته التي كشفت عن فساد ملكتهم، وسوء تصرّف قرائحهم، فقال: "وما الذي يكتب عن المهزوم إلى من هزمه في معنى ركونه إلى الإحجام؟ وكيف يهنّى خليفة خلع فرجع، وغرّب عن السجع وطلع، وأسره العدو ثم تخلّص...؟ وكيف يهنّى من زوّج بعد موت أبيه أمّه؟ ويعزّى والد قتل ولده...؟"[1].

وقد بالغ ابن نباتة في الأسئلة وغالى، وأخذ من كل طرف سبباً، وسدّ المنافذ على أولئك النفر، وقطع الذرائع عليهم، وأفحمهم ولم يترك لهم مناصاً من النكوص والندم.

وقد بيّن ابن نباتة وأفصح عن هدف هذه الرسالة، فهي امتحان لأولئك النفر الذين كنّى عنهم بذلك الكاتب الذي قام بمخاطبته بهذه الأسئلة، فالجواب عنها محرجٌ وتركها دون إجابة أكثر حرجاً، ولذا جعل ابن نباتة نجاح ذلك المخاطب يكمن في الإجابة عن الأسئلة جميعها والإحاطة بتفاصيلها، فقال: "فإذا نشط هذا الكاتب من هذا العقال، وتصرّف في فنون هذا المقال، وخرج من هذه الأسئلة خروج السيف من الصقال، امتدّت كف الثّريّا في هذا النسيان بمسح جبهته، وجاء بجواب هذا النكث كما يقال: برمته وأماط لثامها، وشمّر عن أزهارها أكمامها انقطعت الأطماع دون غايته، وبسطت أيدي رسائل البلغاء لمبايعة رسالته..."[2].

ولا يخفى ما في هذه الرسالة من أسئلة محرجة لم يكن الهدف من طرحها الإجابة عنها، بل الهدف -كما قال كاتبها- واضح وبيّن، فالقصد منها تعجيز المسؤول وبيان سقطاته وحقيقة زيفه، وسخافة عقله، فهي رسالة أشبه بالهجاء منها بالأسئلة، والحقيقة أنّ ابن نباتة دبّجها لغرض إحراج تلك الثلّة الذين طعنوا في أدبه وعلمه، فأراد أن يكشف لهم عن قصور باعهم في صناعتهم التي عملوا بها، وهذا اللون من

---

(1) المصدر السابق، 248/14.

(2) المصدر نفسه، 249/14.

الامتحـان – حيث الأسئلة من جنس العمل – يبدي حرجاً أكبر، وهذا ما أراده ابن نباتة حيث جعل الأسئلة في بحر الكتابة وعلومها.

وهـذا الـنّوع من الأسئلة لا يريد الكاتب الإجابة عنه وإنّما يبحث عن التعجيز وقهـر الخصم، وإرغام أنفه، والنّيل منه من أجل ردّ اعتباره، وصدّه عن حوضه مرّة أخـرى فهـي أسـئلة تنمّ عن تكشير عن الأنياب، وكشف عن العضلات حتى لا يفكّر الخصم في الهجوم مرّة أخرى، والطعن من الخلف.

فالظاهر أنّها أسئلة لا تبحث عن إجابات، والحقيقة أنها هجوم وتكسير مجاديف، بل وعيدٌ وتهديدٌ.

وموضـوع الرسالة يشهد بذلك حيث اغتاب نفرٌ من الكتّاب ابن نباتة ونالوا من شخصـه وأدبـه وعلمه فبعث تلك الأسئلة لتقريعهم، وبيان مقدارهم، والحطّ من شأنهم وضمان عدم العودة إلى مشاكسته في المستقبل أو المثول إلى ساحته، فهو بهذه الأسئلة كشـف عـن مهارته وجودة قريحته، وبُعد نظره، وقوّة فراسته، وشدّة مراسه في علوم الكتابة وفنونها.

وقـد تـبادل صلاح الدين الصفديّ مع معاصريه هذا النوع من الرسائل، ولكنّ الهدف كان أسمى وأعلى، فقد بعث الصفديّ سؤالاً حول الآية الكريمة ﴿استطعما أهلها﴾* ، وقـد نظمـه شـعراً وبعث به إلى زين الدّين بن العوينة ونجم الدّين القحفازي وعبد الـوهاب السـبكي وهم من فضلاء عصره فكان ذلك السؤال يبحث عن إجابة تنمّ عن عميق فكر، وتوقّد ذهن، فقال الصفدي[1]:

ولكنّني في الكهف أبصرت آيـةً   بها الفكر في طول الزّمان عنانـي
وما ذاك إلاّ "استطعما أهلها" فقد   نرى "استطعماهم مثله ببيـان

* سورة الكهف، آية 77.

(1) الصفدي: أعيان العصر، 337/3.

فما الحكمة الغرّاء في وضع ظاهر   مكان ضمير إنَّ ذاك لشـــــــــانِ

والحقيقة أنّ الصفديّ أراد من هذا السؤال إظهار حذاقته ومهارته في الكشف عن وجوه البلاغة والبيان في الكلام المعجز، وقصد كذلك إلى امتحان قرائح أولئك الأدباء، فتسابقوا إلى الإجابة عن ذلك السؤال، فقال زين الدّين ابن العوينة: "سأل بعض الفضلاء عــن الحكمــة في و﴿استطعما أهلها﴾ دون "فاستطعماهم" مع أنّه أخصر؟ والجواب قلت والله الموفّق إنّه لما كانت الألفاظ تابعة للمعاني لم يتحتّم الإضمار، بل قد يكون التصريح أولــى، بل ربّما يكاد يصل إلى حدّ الوجوب، كما سنبيّن، إن شاء الله تعالى، ويدلّ على الأوليّة قول أرباب علم البيان ما هذا ملخّصه، لمّا كان للتصريح عمل ليس للكناية كان لإعــادة اللفظ من الحسن والبهجة والفخامة ما ليس لرجوع الضمير 000 فقد يُعدل إلى التصريح إمّا للتعظيم، وإمّا للتحقير، وإمّا للتشنيع والنداء بقبح الفعل، وإمّا لغيرهم..."[(1)].

وبالجملة، فإنّنا لسنا بصدد الإجابة عن ذلك السؤال وكيفية بيان مداخله ومخارجه وطــرق معالجته وتوضيح غموضه بقدر اهتمامنا بما أثاره من ردود فعل ظهر نتاجها في تلك الرسائل، فأخذ الكاتب يفنّد إجابته ويحاور ويجمع الأدلّة ويقوّي الحجج، ويبرهن بالمــنطق والأمــثلة التوضــيحيّة النقلية والعقلية، فقد أكثر من أمثلة مشابهة في القرآن الكريم، فقد بدأ بمعالجة المسألة من الناحية البيانية المعنويّة، وأشبع ذلك أمثلة من القرآن الكريم والسنّة المطهّرة والشعر وأيّام العرب، ثمّ عدل بعد ذلك إلى الناحية اللفظيّة، فقال فــي الشــقّ المعنوي: "فمن التعظيم قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾*، وقوله تعالى ﴿وبالحق أنزلناه وبالحقّ نزل﴾**، ولم يقل وبه"[(2)]، والأمثلة التي ضربها المجيب عن السؤال كثيرة لا سبيل لحشدها هنا.

(1) المصدر السابق، 338/3.

* سورة الإخلاص، الآيات 1-2.

** سورة الإسراء، آية 105.

(2) الصفدي: أعيان العصر، 338/3.

وفـــي الشقّ اللفظي قال: "وأمّا ما يتعلّق باللفظ فلما في جمع الضميرين في كلمة واحدة من استثقال؛ فلهذا كان قليلاً في القرآن المجيد"(1).

وقد حشد الكاتب أدلّة كثيرة تبرهن على سلامة فطرته ونفاذ بصيرته، فقد أدرك مـــا يرمي إليه الصفديّ؛ ولذا احتاط للأمر من جوانبه جميعها، وحاول أن يأتي بالكلام الفصل في هذه المسألة؛ ليظهر عبقرية فذّة، وقريحة سليمة، وملكة عظيمة.

ومهمـــا يكن، فقد أطال ابن العوينة هذه الإجابة حتّى شملت فنون البلاغة واللغة، وقد أظهر فيها براعة في تحليل الأُمور وتعليلها، من خلال استقراء الأمثلة التوضيحيّة والقياس على المثل، والاحتكام إلى قوانين اللغة.

وقـــد جـــاءت إجابة القحفازي عن ذلك السؤال مشابهة في كثيرٍ من الجوانب لِمَا تقدّم، حيث تناول الوجه البياني قائلاً: "وأمّا الجواب عن إعادة لفظ الأهل في قوله ﴿حتى إذا أتـــيا أهل قرية استطعما أهلها﴾*، ولم يقل "استعطماهم"، والمحل محل إضمار، وفيه الإيجاز، فقد علم أنّ البلاغة لا تختصّ بالإيجاز، وإنّما هو نوع من أنواعها، وأنّ مدار حسن الكلام، وارتفاع شأنه من القبول بإراده مطابقاً لمقتضى الحال"(2).

وقـــد فصّل القول القحفازي في الإجابة عن السؤال، وجدّ في البحث عن الإجابة الشافية، وقد وجدت تلك الإجابة من نفس الصفديّ ملجأً، فقد قال معلّقاً على تلك الإجابة "جـــواب الشيخ رحمه الله تعالى في غاية الحُسن، وهو كلام عارف بهذا الفنّ جار على القواعد"(3).

وهـــذا التعليق يقود إلى القول بأنّ الصفديّ لم يجهل الإجابة، ولكنّ هدفه امتحان قـــرائحهم، واستمطار أفكارهم، وعصر عقولهم؛ ولذا فضّل إجابة القحفازي على إجابة

---

(1) المصدر السابق، 341/3.

* سورة الكهف، آية 77.

(2) الصفديّ: أعيان العصر، 368/3.

(3) المصدر نفسه، 370/3.

ابـــن العويـــنة معلّلاً ذلك التفضيل، ممّا يدلّ على تمكّنه من تلك المسألة. والدليل الآخر الـــذي بـــيّن هدفه الامتحاني وليس المعرفي كثرة الأدباء والشيوخ الذين بعث إليهم ذلك السؤال، فقد بعثه إلى ابن العيونة والقحفازي وتقي الدّين السبكي وابن الحاجب[1]، فكثرة الأدبـــاء الذين طلب منهم الإجابة عن سؤاله تدلّ على أمر قد يفسّر بجمع تلك الإجابات وموازنـــتها وبـــيان أفضلها ليتبيّن الصفديّ من خلال ذلك مدى قوّة ملكتهم في التحليل وسلامة فطرتهم في التأليف، وتوقّد قرائحهم في الإبداع.

فهـــو ســـؤال امـــتحان ولم يرد الصفديّ منه معرفة مجرّدة ولو أنّه كان جاهلاً للإجابـــة لاكتفى بأحدهم، ولم يبعث لعدد كبيرٍ من الأدباء، ولكنّ الهدف امتحان القرائح واستمطار إبداعها.

وبالجملـــة، فمثل هذه الرسائل تُثري الجوّ الأدبي، وتزيد من علاقة الكتّاب، فهي تـــتحدّاهم وتســـتنهض هممهم للذّود عن حماهم، ولذا يلحظ على تلك الإجابات التطويل والتفصـــيل، وبيان الأدلّة القاطعة، والحجج القويّة الدامغة التي لا تدع مجالاً للتردّد أو التشكيك؛ لأنّ المجيب يريد أن يأتي بما لم يأت به غيره ليفوز بالرّهان، ويحوز قصب السبق.

وهـــذه الرســـائل لها جانبان إيجابي وسلبي، فالجانب الإيجابي يكمن كما أُسلف بإدامـــة المـــودّة، واســـتمطار الأذهان والأفكار، وتنويع المعارف، واستنهاض الهمم، والتنافس في ميدان البلاغة والعلوم، بينما يتمثّل الجانب السلبي فيما ينتج عن بعضها من تحدٍّ صارخ، وحطّ من شأن الآخرين، وتقليل من قيمتهم، كرسالة ابن نباتة السالفة التي كان دافعها التعجيز، وليس البحث عن الإجابة.

---

(1) انظر المصدر السابق، 3/370-371.

الفصل الرّابع

الدراسة الفنيّة

أولاً: بناء الرسالة، واللغة والأسلوب، والصورة والخيال

بناء الرسالة:

بلغت الرسالة الفنيّة مرتبة عالية من النضجّ الفنيّ في العصر المملوكي، وقد حظيت ببعض الأدباء الذين نظّروا لبناء تلك الرسالة، فألّفت المصنّفات في أمر بناء الرسالة وخصائصها، وهذا الاهتمام انعكس على الرسائل الفنيّة، حيث التزم الكتّاب بفنيّات معيّنة، رسمها لهم المقنّنون لذلك العلم. والحديث في هذا الجانب يخصّ الرسائل الديوانيّة التي يصدرها ديوان الإنشاء، وقد بيّنت بعض الدساتير الأُسس الفنيّة التي ينبغي أن تراعى في بناء الرسالة الديوانيّة، وقد حفلت تلك الدساتير ببناء المقدّمات والخواتيم، ولذا تميّزت تلك المكاتبات ببعض الفروقات التي حدّدت، وقعّدت في بطون تلك الدساتير.

والمتلقّي لتلك الرسائل يجد بعض التفاوت بين ما هو مدوّن وما عليه تلك الرسائل، ولعلّ السبب يكمن في مَنْ دوّن ونسخ الرسائل، حيث تمّ الاستغناء عن بعض الفنيّات التي اعتمدت في البدء والختام، وهذا الأمر لم يقتصر على الرسائل في العصر المملوكي، بل كان معروفاً قبل ذلك، فلذا أشار محمد الدروبي إلى تلك الظاهرة، فأشار إلى عبث النسّاخ القُدامى في شكل عناصر بناء الرسالة في البسملة والحمدلة والأدعية[1].

والحقيقة أنّ بناء الرسالة في العصر المملوكي أخذ صفة رسميّة، وتقاليد أساسيّة لا يصحّ تجاوزها، أو حتى مجرّد الاجتهاد في تصحيحها، فأصبحت الرّسوم الأساسيّة واضحة المعالم في البدء والختام، لا بل أخذت تتخصّص تلك الرسائل حتى وجدت

(1) انظر الدروبي: الرسائل الفنيّة في العصر العبّاسي، ص458.

الفــروق الدقــيقة بين موضوع وآخر، وقد تجاوز الأمر إلى إيجاد الفروقات كذلك في الموضــوع الواحد، حسب درجة أو رتبة الموجّه إليه، ولذا اختلفت الأقلام والورق تبعاً لذلك.

وغايــة الحــديث أن نشير إلى بناء تلك الرسائل على أُسس معلومة ومدروسة، ومقنّنة شملتها بعض الدساتير في تلك الفترة، ولم يكن هناك مجال للتغيير أو الإبداع إلاّ في محتوى الرسالة لا في شكلها البنائي.

وعند البحث في بناء الرسالة الديوانيّة في العصر المملوكي، لا يجد المرء مجالاً يتحدّث فيه عن صور البدء والختام يستحقّ أن يضيفه لِمَا أتى به القلقشندي في دستوره الــذي أطـــال فيه وأطنب حول عناصر تلك الرسائل، ومع ذلك فلا بدَّ من الحديث عن بعض صور البدء والختام لتتكوّن صورة واضحة المعالم لبناء تلك الرسائل.

فـــأول صور البدء في الرسائل الديوانيّة البسملة، حيث تكتب في مقدمة الرسالة تبــرُكاً بالابتداء، وتيمّناً بذكرها[1]، وكما أسلف في واقع الرسائل التي تمّ الاطلاع عليها في مصادرها ندر وجود البسملة، ولعلّ ذلك من عبث النسَّاخ كما أشير إليه سابقاً.

ومن الرسائل التي احتفظت بصورة البسملة، رسالة بعث بها الملك الناصر محمد ابن قلاوون إلى الملك غازان، فتوسّطت البسملة رأس الصفحة[2]. والرسائل في مجملها لا بــدَّ لهـــا وأن بــدئت بالبســملة، ولكـــن اختصار النسّاخ أخلَّ بوجودها، حيث نصَّ القلقشندي، وذكر أنّ كتّاب زمانه التزموا بذلك ولكن النسّاخ وكتّاب الوثائق جمعوا معها الحمدلة والصلاة ونحو ذلك[3].

ومهمـــا يكـــن، فإنّ البسملة من أساسيّات صور بدء الرسالة، وكما كانت البسملة رســماً أساسيّاً في الرسالة كان الأمر بالنسبة للحمدلة، وقد كان لورودها السبب ذاته في

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 222/6.

(2) انظر المصدر نفسه، 143/7.

(3) انظر المصدر نفسه، 224/6.

ورود البسملة، حيث التبرّك والتيمُن، وقد قرنوا الحمدلة بعد البسملة مباشرة تأسّياً بكتاب الله، فـــأورد القلقشندي حديثاً شريفاً مرويّاً عن أبي هريرة -رضي الله عنه- مفاده قول الرسول ﷺ: "كل أمرٍ ذي بال لا يبدأ بحمد الله فهو أجذم"[1].

وتعدّدت صيغ الحمدلة وذكر القلقشندي أصنافاً متعدّدة، وقد وردت تلك الصيغ في رسائلهم، وقد ارتبطت الحمدلة في رسائلهم بلازمة تمثلت بعبارة أمّا بعد، وصورة ذلك أمّـــا بعد الله، أو أما بعد فالحمد لله[2]، ويؤتى بها لتوكيد الخبر[3]، ويلي ذلك من صور البدء التحيّة المتمثلة في السلام، تليها الشهادتان.

ومـــن هـــنا يمكـــن القول إنّ صور بدء الرسالة التي تحدّث عنها مؤلّفو دساتير العصـــر المملوكـــي وخاصـــة القلقشـــندي كثيرة ينحصر أهمها في البسملة والحمدلة والبعديـــة والسلام والشهادتين، وقد استوفى القلقشندي الحديث عنها، وهناك أيضاً بعض صور البدء وجدت في الرسائل مثل الأدعية، وقد أصبح الدعاء في تلك الرسائل رسماً أساســـيّاً؛ لكثـــرة تداوله فيها، فمن صوره، الدعاء بإطالة العمر أو البقاء والدعاء بدوام النعمة، والدعاء بعزّ الأنصار، والدعاء بعزّ الأحكام، وينبغي للكاتب أن يراعي المقامات التي يخاطبها، فالدعاء الذي يناسب السلطان يتمثّل بإطالة العمر والبقاء ودوام السلطان، وخلـــود الملـــك، والـــذي يناســـب الأمـــراء الدعاء بالعزّ للأنصار، ومضاعفة النعمة ومداومتها، وأمّا الوزراء وأرباب الأقلام فيناسبهم الدعاء بسبوغ النعم، وتخليد السعادة، ودوام المجـــد، وأمّا القضاة والحكّام فيناسب حالهم الدعاء بعزّ الأحكام، وتأييدها، وأمّا التجّار فيناسبهم الدعاء بمزيد الإقبال، وخلود السعادة، وقد اصطلحوا على الدّعاء لأهل الكفر بطول البقاء[4].

---

(1) المصدر السابق، 6/224-225.

(2) انظر المصدر نفسه، 6/225.

(3) انظر المصدر نفسه، 6/231.

(4) انظر المصدر نفسه، 6/284-286.

وهــناك طائفة من المصطلحات اتّفق على وجودها في مقدّمات الرسائل الديوانيّة خاصة مثل: صدرت المكاتبة، أو أصدرناها، فإنّا كتبناه، فإننا اتّصل بنا، فإنا قد أرسلنا إليكم، فإنّه بلغنا.

ومــن صور البدء كذلك الألقاب، ومن اللافت للنظر طولها مع كثرتها، فقد تميّز ذلــك العصر بالتهويل والمبالغات؛ ولذا كثرت الألقاب وتعدّدت، ولهذا بالغ الكتّاب في حشوها في مقدّمات الرسائل على سبيل التقليد الرسمي الموكل إليهم، وقد أفرد القلقشندي حيّزاً كبيراً لذكر هذه الألقاب(1).

وللتدليل على طول هذه السلسلة من الألقاب والنعوت ما أورده العمريّ من ألقاب صــاحب الهــند قــائلاً: "المقــام الأشــرف العالــي، المولوي، السلطانيّ، الأعظميّ، الشاهنشاهيّ، العالميّ، العادليّ، المجاهديّ، المرابطي، المظفري، المؤيّدي، المنصوري، اســكندر الزمان، سلطان الوقت والأوان، منبع الكرم والإحسان، المعفي على ملوك آل ساســان وبقايــا أفراســياب وخاقان، ملك البسيطة سلطان الإسلام، غيّاث الأنام، أوحد الملوك والسلاطين"(2).

وهذه الألقاب والنُعوت تراعى فيها الرُتب، فيُخصّص للسلاطين والملوك ألقاباً لا تنبغــي لغيــرهم مــن الأُمــراء وكفــلاء الممالك والوزراء والقضاة وأرباب السيوف والأقــلام، بل لكل فئة ممّا ذكر ألقاب خاصة بها.

وأمّا ما يخصّ مضمون تلك الرسائل، فإنّه يحدّد بالجهة التي تكون موجّهة إليها؛ فالموضوعات كثيرة ولا سبيل لحصرها، ولكن السّمة الغالبة على تلك الرسائل الإطناب والــتطويل في أغراض المدح والثّناء والشّكر، وقد طبعت كل الرسائل بهذه الميزة، فلا تكــاد تخلــو رســالة مــن إطراء المرسل إليه، وشكره والثناء عليه، وعند النّظر إلى

---

(1) انظر المصدر السابق، 6/5-188.

(2) العمري: التعريف، ص66.

مضـــامين تلـــك الرسائل وخاصة الديوانيّة تلمس العناية الفائقة بالتنمّق بعبارات المدح والثناء.

وعلـــى الرغم من هذه، إلاّ أنّ الرسائل في العصر المملوكي اتّسمت بخاصيتين أساسيتين تمثّلتا في التنوُّع والوحدة، فتعدّدت المضامين والأغراض التي دبّجت من أجلها الرســـائل، فكانـــت منها الرسائل السياسيّة والإدارية والإخوانيّة والأدبيّة، فكان هنـــاك الهُـــدن والمـــبايعات والعهـــود والأمانـــات والتقاليد والمراسيم والمسامحات والتواقيع والمناشير إلى غير ذلك من الموضوعات.

وقـــد أدّت الظـــروف السياســـيّة والاجتماعيّة إلى مثل هذا التنوّع، وكان لديوان الإنشـــاء الدور الأكبر في هذه التعدّدية، فرسم الحدود الفاصلة بين تلك الرسائل، وجعل لكـــلٍّ صنف منها غرضاً محدّداً تعالجه لا تتعدّاه لغيره، فكانت هذه الرسائل توجّه إلى جهات مختصّة؛ ولذا فالتنوّع في تخاطبهم يوجب التنوّع في الأغراض والمخاطبات.

وقد توسّعت هذه المضامين إلى أبعد من ذلك، فقد تجاوزت الرسائل الديوانيّة إلى الإخوانـــيّة والأدبـــيّة، فكان من الإخوانيات ما يخصّ المدح أو الشكر أو الحنين، ومن الأدبـــيات مـــا التـــزام الوصف كوصف الأمطار والثلوج، أو وصف النيل، أو الغزو والحروب، أو الصيد ... .

وفي الحقيقة ينمُّ ذلك التخصّص الدقيق في تلك المضامين عن التطوّر الهائل الذي طرأ على الكتابة والتدوين، وقد أدّى اهتمام أهل العصر بالنثر إلى مثل هذه التخصّصيّة، فأخذت الرسالة الفنيّة تتبنّى المضامين المختلفة للحياة الحضارية والكوارث الطبيعية، فلم يـــبقَ بـــابٌ من أبواب الحياة الاجتماعية أو السياسية أو العلمية إلاّ وقد تكفّلت بتغطيته الرسائل الفنية؛ ولذا وجدت الرسائل الإخوانيّة والأدبيّة إلى جانب السياسيّة، كما وجدت بعض الرسائل التي تصوّر الواقع الفكري، كالمفاخرات والأسئلة والأجوبة.

ولـــم يخلُ هذا التنوّع الواسع في مضامين الرسائل الفنيّة بالمحافظة على الوحدة العضوية في الرسالة الواحدة، حيث شكّلت الوحدة العضوية أساساً قوياً في بنية الرسالة الداخلـــية، فعلى الرغم من كثرة القيود في البدء والختام، إلاّ أنّ المضامين تحت منحى التوحّد، فالرسائل على طولها والإطناب فيها إلاّ أنّ سلك الأفكار فيها ينظّمه هدف واحد فـــي كل رسالة، فالمتلقّي للرسالة يظنّها للوهلة الأولى متعدّدة المضامين عندما يجد فيها الأشـــعار والوصايا والخطب، إلاّ أنّه بعد فحصها فحصاً دقيقاً تتبيّن له فكرة المضمون الواحد.

وقـــد وجـــدت بعض الرسائل التي لم يتجاوز مضمونها العنوان كرسائل وصف أدوات الحضـــارة، كوصف السيف والقلم والسكين والبريد والقصور والحصون والقلاع وما إلى ذلك، وهذه الوحدة متحقّقة كذلك في رسائل الألغاز والتقاريض والمفاخرات.

وفـــي حقيقة الأمر، التزمت الرسائل السياسيّة والإدارية بالوحدة العضوية التامّة، فحملـــت كل رسالة مضموناً معيّناً؛ ولذا وضعت الحدود المميّزة لكل صنف منها، وقد نحت الإخونيات هذا المنحى، مع أنّ بعضها يجمع المدح إلى جانب التهنئة أو التعزية، ولكنّ الأمر في النهاية يصبُّ في بوتقة واحدة تتمثّل في الوحدة العضوية.

وعند الحديث عن خاتمة الرسالة تطالعنا مصطلحات معيّنة مخصوصة تنتهي بها رســـائل الديـــوان لا مجال للاجتهاد فيها، وهي في مجملها لا تخرج عن صورة البدء مثـــل الحمدلة، والصلاة على النبي ﷺ، والمشيئة، والدعاء. فقد ختم العمريّ عهد الملك الأفضـــل بالدعاء والميشئة فقال: "والله تعالى يمدّك –أيها الملك الأفضل– بأفضل مزيده ويحفـــظ بك ما أبقاه لك أبوك المؤيّد من تأييده والاعتماد على الخط الشريف أعلاه إن شاء الله تعالى"[1].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 187/10.

وقـد تـذيّل الرسائل ببعض الأمور كالتاريخ الذي أسقط في مجمله من الرسائل بفعل النسّاخ طلباً للاختصار وعدم إدراك أهميته.

وعند الحديث عن الرسائل الإخوانيّة والأدبيّة نجد صورة البدء والختام لا تخضع للقانـون الصـّارم الـذي تحقّق في الرسائل الصادرة عن الديوان، وإنّما هناك بعض الـتفاوت، فتبدأ عادة بالأبيات الشعرية أو القصائد ويلي تلك المقطعات الشعرية عبارة "يقـبّل الأرض"، كـذا أو ينهـي، أو المملوك، والعبودية، وكلها عبارات تحمل معنى التواضع، وإيجاد وشائج المحبّة والتواصل.

وللتدلـيل على ذلك، مطالعة الرسالة التي بعثها ابن سيّد النّاس إلى الصفديّ، فقد بدأها بقصيدة طويلة مطلعها[1]:

مننتَ بنُعمى بلّغتْ كلّ منيّة ونلتُ بِها المأمول قبل منيَّتـي

ثـم أعقب تلك الرسالة بعبارة "يقبّل كذا وينهي ورود المشرّف". فكتب الجواب الصفديّ عنها فبدأ بقصيدة ثمّ أردفها بقوله: يقبل الأرض[2].

أمّـا مضـامين تلـك الرسائل من حيث التنوّع والوحدة لا تختلف عن الرسائل الديوانيّة، أمّا خواتيم الإخوانيات، فأكثر ما تكون بالدّعاء إضافة إلى عبارة بمنّه وكرمه إن شـاء الله تعالـى، ففي رسالة ابن سيّد النّاس السابقة ختمها بقوله: "والله يحرسه في حركاته وسكناته إن شاء الله تعالى"[3]، وختمت رسالة الصفديّ بقوله: ((والله يمتّع الأنام بحياته التي هي جملة الأماني، ويديم فضائله التي لا توجد إلاّ في العقد ... بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالى"[4].

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 5/221-222.
(2) المصدر نفسه، 5/223-224.
(3) المصدر نفسه، 5/222.
(4) المصدر نفسه، 5/227.

وقد تأثّرت الرسائل الإخوانيّة ببعض مصطلحات الرسائل الديوانيّة، فمعظم الكتّاب اشتغلوا في ديوان الإنشاء، وجمعوا بين الرسائل الديوانيّة والإخوانيّة، ولهذا تسرّبت بعض المصطلحات مثل: المثال العالي، المرسوم، إضافة إلى الأدعية في المقدّمة على سبيل الجمل الاعتراضيّة.

فمن رسالة لابن سيّد النّاس "يقبّل اليد العالية الصلاحية – لا زالت صالحة الشيم، سافحة الديم ... – وينهي ورود المشرّفة"[1].

وعلى الجملة، فإنّ العبارات التي تبدأ بها الرسائل الإخوانيّة في أغلبها، يقبّل الأرض، يقبّل كذا، يقبّل اليد، ينهي ورود المشرّف، أو ما في معناه، إضافة إلى عبارات العبوديّة والمملوك، وتنتهي بالدُّعاء والمشيئة.

وقد بلغ من حرص الكتّاب في العصر المملوكي على توحيد رسوم المخاطبات الإخوانيّة كتابة نماذج لرسائل على الصورة المثال، ولم يكتب بها لأحد، بل كتبت ليحتذى بها وينسج على منوالها، وقد احتفظ القلقشندي بكمٍّ وافر في دستوره الكبير صبح الأعشى، وللمتلقّي أن ينظر في تلك النماذج في باب الإخوانيات كالتهنئة والتعزية... وقد تكرّرت هذه الطريقة في الرسائل الأدبيّة، حيث نسج الحلبيّ عدداً من رسائل الوصف، ولم يكتب بها لأحد، كرسالة وصف البندق، والخيل، وبعض رسائل الصّيد، وقد كثرت هذه النماذج في كتابه حُسن التوسُّل، إضافة إلى دستور العمريّ الذي يطفح بالنماذج الديوانيّة والأدبيّة، وهذا يدلّ على مبلغ اهتمامهم بالبناء الكليّ للرسالة التي لا يجانب الصّواب مَنْ قال بتصدُّرها السّاحة الأدبيّة متقدّمة على القصيدة الشعريّة.

اللغة والأُسلوب:

إنّ الكتّاب في العصر المملوكيّ اهتمّوا أيما اهتمام باللغة والأُسلوب في عرض رسائلهم، وعند الحديث عن اللغة يتّضح للمتلقّي أنّ الرسائل في غاية الوضوح

---

(1) المصدر السابق، 5/228-229.

والبساطة، حيث لا يجد المرء مفردات صعبة في تلك الرسائل إلاّ في القليل النادر. وقد ذكر ابن الأثير أنّ الكاتب يحتاج في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: اللفظة المفردة، فعلى الكاتب تخيّـرها، ثـمّ نظم كل مفردة مع أُختها لكي لا يكون كلامه نافراً قلقاً، يلي ذلك مراعاة الغرض المقصود من ذلك الكلام(1).

وعـند مطالعـة مجمـل رسائل العصر المملوكي يجدها في مجملها تجنح نحو البساطة والابتعاد عن التعقيد، وقد نسب محمود رزق سليم هذه الميزة إلى سهولة البيئة، ووضوح أجزائها وقلّة تعقيد تضاريسها وجوّها، إضافة إلى لون الثقافة الذي كان سائداً، حيث البُعد عن المغيبات والبحث فيما وراء الطبيعة(2).

وفـي الحقـيقة لا يمكن وصف جميع ما كتبوا بالسُهولة والوضوح، ولكنّ الخط العام يغلب عليه الوضوح والبساطة، وقد بدت هذه البساطة في رسائلهم، حيث لا يحتاج المرء إلى إعمال فكره كثيراً في تحليل أبعادها.

فقـد اتّسمت الرسائل الديوانيّة بالوضوح التّام والبُعد عن التعقيد وحوشي الكلام، وللتدلـيل علـى ذلك لا بُدّ من أخذ طائفة من تلك الرسائل لكتّاب مختلفين. فقد جاء في تقلـيد للشـهاب الحلبيّ قوله: "وبعد فإنّه لمّا آتانا الله ملك البسيطة، وجعل دعوتنا بأعنّة ممالـك الأقطـار محيطة، ومكّن لنا في الأرض، وأنهضنا من الجهاد في سبيله بالسنّة والفرض، وجعل كل يوم معرض فيه جيوشنا من أمثلة يوم العرض..."(3).

والنّاظر في تلك الفقرة يجدها في غاية الوضوح والبُعد عن التعقيد، لا بل اعتمد الكاتب ألفاظاً جزلة تُناسب تقريع متملّك سيّس. فالألفاظ في مجملها جزلة متينة، تلاقي

---

(1) انظـر ابـن الأثير، ضياء الدّين نصر الله (637هـ/1239م): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1358هـ/1939م، 142/1.

(2) انظر سليم: عصر سلاطين المماليك، 413/6.

(3) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص370.

عذوبة في الفمّ، ولذّة في السمع[1]، والحلبيّ لا تخفى عليه هذه الأمور، حيث تمرّس بهذا الفنّ وتفنّن.

ومــن تقليد لمحيي الدّين بن عبد الظاهر قوله: "وبعد فإنّ أحقّ من جدّد له شرف التقــريض، وخلّــد له إرضاء الأحكام، وإمضاء التفويض وريش جناحه، وإذا لم يكن المهيض، وفسح مجاله، وإن كان الطويل العريض، ورفع قدره على الأقدار"[2].

وهذه الفقرة تنطق بالوضوح والبساطة وتجنّب التعقيد، ووحشي الكلام، ولا يجد المتلقّي عنتاً ومشقّة في تبيّن معانيها.

ومــن كــتاب لابن نباتة تضمّن وصف هدية: "لا زالت الدّول تتفكّه في محاسن أيامها، والأمل يتوجّه إلى حلاوة النجح من تلقاء أنعامها، ولا برحت أيدي الممالك تلتقط ثمــرات الســعود من مساقط أقلامها، تقبيلاً يجتنى من ثمر الأماني، وحلاوة الأُنس بيد التهاني"[3].

وكــذلك جــاء من وصية وزير لابن فضل الله العمري قوله: "يوصى بتقوى الله تعالى، فإنّه عليه رقيب، وإليه أقرب من كل قريب، فليجعله أمامه، وليطلب منه لكل ما شــرع فــيه تمامه، وليجعل رأيه في كل ما تشد به الدولة أزرها، وتسند إليه ظهرها، وليجعل العدل أصلاً يبني عليه أسه، والعمل في أُموره كلها لسلطانه لا لنفسه"[4].

ولصلاح الدين الصفديّ من توقيع: "وتقوى الله ملاك الأُمور، فليكن طراز بروده وواســطة عقوده، المتحلّى بها في صعود سعوده، وليقابل هذه النعمة بشكر يوجب مزيد الخير المستمرّ، والحمد الذي يستقلّ بالإيادي الجزيلة ويستقر"[5].

---

(1) ابن الأثير: المثل السائر، 168/1.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 176/11.

(3) ابــن نباتة، جمال الدين (ت768هـ/1366م): تعليق الديوان لسنة أربع وأربعين، نسخة مصورة مكتبة جامعة مؤتة – الوثائق الخاصة، رقم التزويد 178755، ص28-29.

(4) العمريّ: التعريف بالمصطلح الشريف، ص123.

(5) الصفديّ: أعيان العصر، 252/5-253.

وفي هذا القدر من النصوص كفاية للتدليل على سهولة المأخذ، وفصاحة الألفاظ، حيث المعاني في متناول الإفهام دون ركاكة أو ضعف، والمعنى الفصيح ليس المقصود به التوعّر والغموض، وإنما هو ما سهل فهمه، ولم يكد الذهن في تفسير غريبه.

ومهمـــا يكن، فإنّ الرسائل الإدارية في مجملها واضحة التعبير، فصيحة الألفاظ، سهلة المأخذ، غير عصيّة على الإفهام، وقد تعهّدها كتّاب تعدّدت مواهبهم، وتمرّسوا في فنون الكتابة، وظهرت لديهم الإبداعات في جانب النثر الفنّي.

ولـــم تشذّ الرسالة الإخوانيّة أو الأدبيّة عن الديوانيّة في صفة الوضوح والبساطة في اللفظ والتركيب، ولا تعني البساطة الضعف والسفسفة، كما لا تعني الفصاحة التوعّر والغموض والغرابة.

وكمـــا اهـــتمّ الكتّاب بوضوح أساليبهم، وبُعدهم عن الغموض والغرابة والإبهام، حفلـــوا باختيار وانتقاء ألفاظهم، فجعلوا لكل مناسبة ألفاظاً تروق لها، مراعين الأحوال والمناسبات، رابطين بين الألفاظ ومدلولاتها. فقد اختاروا الألفاظ الجزلة في موضوعات تقريع الأعداء وتهديدهم، وقد علّق على ذلك ابن الأثير قائلاً: "فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك"(1).

وللتدليل على ذلك نأخذ فقرة من رسالة للشهاب الحلبيّ في وصف خور الأعداء: "وأمّـــا الجبان في القول، والقولُ يذهب في الرّياح، وقد علموا أنّهم ما أقدموا إلاّ وكان أحد سلاحهم الهرب، ولا طمعوا في النجاح، فكان لهم في غير النجاة أرب، يبالغون في الاحتشاد، والجازر لا تهولّه كثرة الغنم، ويستكثرون من السّواد ووجود من لا ينفع أشبه شـــيء بالعـــدم، فقوّتهم ووطأتهم خفيفة، وثباتهم أقصر من حلِّ العقال، وصبرهم أسرع مـــن الظلّ في الانتقال"(2).

---

(1) ابن الأثير: المثل السائر، 168/1.

(2) الحلبي: حُسن التوسّل، ص350.

ومــن اللافــت للنّظــر اختــيار الألفاظ في هذه الفقرة الدّالة على تقريع العدو والاســتخفاف به، فمن تلك الألفاظ الجزلة في الفقرة: الاحتشاد، الجازر، هول، السواد، العــدم. وفي الحقيقة أنّ جميع الألفاظ توحي بالشدّة والتّهديد. وقد تآزرت هذه المفردات فــي تشــكيل صور تثير الخوف في نفس العدو، كصورة الجازر وسط قطيع الأغنام، وصورة فرارهم من أول وهلة، إلى غير ذلك من صور أُخرى في الرسالة.

ومن رسالة لمحيّ الدين بن عبد الظّاهر في وصف مسير السلطان لفتح قيسارية، جــاء قول الكاتب يصف قوة المسلمين وهزيمة التتار: "وأمّا العدو فتقاسمت الأيدي ما يمــتطونه مــن الصواهل والصوافن، وما يصولون به من سيوف وقسي وكنائن، وما يلبســونه من خوذ ودروع وجواشن، وما يتموّلونه من جميع أصناف المعادن، فغنم ما هنالك، وتسلّم من استشهد من المسلمين رضوان، وتسلّم من قتل من الكفّار مالك"[1].

ولا تخفى هنا جزالة الألفاظ وفخامة دلالتها على الحدث، فرسم صورة من خلال تــرابط وتآلف هذه الألفاظ، توحي بعزّة المسلمين، وذلّ الكفّار، وعلى هذا السبيل تسير معظم الرسائل التي تعالج قضايا حربيّة أو جهاديّة.

وينتقي الكتّاب الألفاظ الرقيقة الرشيقة، عند الحديث عن الموضوعات التي تتناول الإخوانــيات العاطفيّة، وبعض رسائل الوصف، وذكر ابن الأثير أنّ الرقيق من الألفاظ يســتعمل فــي وصــف الأشواق، وذكر أيّام البعاد، وفي استجلاب المودّات، وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك[2].

والأمــثلة أكثــر مــن أن تحصى في هذا المجال، حيث الرسائل الإخوانيّة التي تتّصــف بالرقّة والرشاقة واستجلاب المودّات كثيرة، فمن ذلك ما جاء من رسالة عتاب من إنشاء الشهاب الحلبي: ((وينهي أنّه ما زال يتلو آيات محاسنه وحمده، ويرفع رايات إحســانه ومجده، ويتولاّه ولا يتولّى عن محبّته، ويكثر الثناء على ألمعي فطنته وجزيل

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 14/147-148.

(2) انظر ابن الأثير: المثل السائر، 1/168.

مــروءته، وقد صار يشاهد من المولى ملالاً وصدوداً وإعراضاً يغيظ به صديقاً، ويسرّ به حسوداً"(1).

والنّاظــر في هذه الفقرة يجدها تفيض بجوّ الرقّة والاستعطاف، فالألفاظ مشحونة بهـذا المعنى، وقد استعان الكاتب على إبراز هذا الجوّ المشحون بالعواطف والمفردات المناسـبة للمضـمون، والتـراكيب المؤاتية من قبيل: يتلو آيات محاسنه، يرفع رايات إحســانه، وكــذلك إكثار الثّناء، والوصف بالفطنة والمروءة، وما إلى ذلك من عبارات جلبت هذا الجو.

وشــبيه بــذلك قــول الصفديّ من رسالة شوق إلى شيخه أثير الدين أبي حيّان: "ويذكــر ولاءه الذي تسجع به في الروض الحمائم، ويسير تحت لوائه مسير الرياح بين الغمــائم، وثناؤه الذي يتضوّع كالزهر الكمائم، ويتنسّم تنسّم هامات الربا إذا لبست من الربيع ملوّنات العمائم"(2).

ولا شــكّ أنّ في هذه الفقرة كثير عذوبة ورقّة واستمالة واستعطاف، والنّاظر في الفقرة يجد جلّ ألفاظها تشي بالرقّة والعذوبة، والملاينة واستجلاب المودّات، والأمثلة في هــذا المجــال كثيرة ومتنوّعة. ويقود اهتمام الكتّاب بالجزل في مواطن القوة والنزاع، والرقة في مواطن الشوق والاستعطاف إلى القول بتمركز الرسالة الفنيّة مكان القصيدة، حــيث تناســب الألفاظ الجزلة مواطن الفخر والإقدام والتضحيات، بينما تناسب الألفاظ الرقيقة المضامين العاطفية، كالشوق والاعتذار والشكوى والاستعطاف.

ولم يكن من الحكمة أن نطلق أحكاماً عامة بالسهولة والوضوح على جميع رسائل الكــتّاب، بل لا بُدّ من التوعّر والغرابة والغموض في بعض الأحيان لدواعي معيّنة من أبرزها تصيّد السجعات، حيث يضطر الكاتب أحياناً إلى اختيار لفظة غريبة في المعنى مــن أجل وضعها في سجعته، ومن أمثلة ذلك قول ابن نباتة: "لا زالت المحامد بذكرها

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 9/197-198.

(2) الصفديّ: أعيان العصر، 5/338.

مــتوّجه، ومقــدّمات الفضل والفضائل من تلقاء شيمها منتجة، ومطالع الكرم والإكرام هاديــة إلــى حرمها من اتّجه، تقبيل مواظب الدعاء يرفعه الولاء يجمعه، والثناء يقول بضّــاع أرجــه لا ممـــا يضيّعه بل ما نضوّعه ... أولها التعلّق بحبل رجائه المحصد، وانتمائه المرصد"[1].

فالناظر في تلك السجعات يجد التكلّف واضحاً فيها، ولكنَّ هذا التكلّف لم يخرجها عــن الســهولة والوضــوح والبساطة، على الرغم ممّا في بعض مفرداتها من غرابة وغموض.

ومن ذلك قول الشيباني في رسالة وصف الفريد في وصف البريد "وكم حال دون مــرامه من أوجال أوحال، وعلق لبق، ووهق زلق يمنعه في شوقه من استرسال بأوثق شبحه وشكال"[2].

فهــناك ألفــاظ كثيرة في الفقرة غريبة يكتنفها الغموض على فصاحتها، وهناك أمـــر لافــت للنظر في استخدام بعض المصطلحات اللغوية والصرفية والنحوية، وقد شــاعت لدى بعضهم وخاصة ابن الورديّ شيوعاً كبيراً، فكان يطمح من رداء ذلك إلى الــتورية، فمــن ذلك قوله: "وينهي بعد دعائه المبني على الفتح، وثنائه المنصوب على المدح، وشوقه الذي ارتفع فاعله، وتوقه الذي لا يكف ولا يلغى عامله"[3]، وكذلك قوله: "والصــلاة على نبيّه محمد الذي شرّف البشر فزادوا به تمييزاً، وحسنوا به حالاً، وعلى آله وصحبه الذي صفاتهم مؤكّدات بالعطوف، فلهذا سمّوا أبدالاً"[4].

وقــد جــاء من رسالة له ذمَّ فيها القاضي الرياحي: "والغوا فعله المتعدّي بفعلكم الــلازم، وســكنوا حركاته العارضة، بدخول الجوازم، وأسقطوا هذه الفضلة من البين، وانصــبوه على التحذير لا على الإغراء، فشتّان بين النصبين، وعاملوا هذه اللحنة في

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 141/9.
(2) الشيباني: وصف الفريد، ص64.
(3) ابن الورديّ: الديوان، ص113.
(4) المصدر نفسه، ص187.

الـــنحو بالمـــنع مـــن التصريف، ونكّروا معرفته بنزع الولاية، فالولاية آلة التعريف، واخفضـــوا هـــذا العلم المنصوب على الذمّ، وابنوا يده على الرفع، وقلمه على الكسر، وماله على الضم، وأدخلوا أفعاله الناقصة والمقاربة في باب كان وكاد، واحذفوه فما هو عمـــدة، ولا أحـــد ركنـــي الإسناد، واصرفوه عنّا فما له على معرفته وزن فعل دليل، وركبوه من حلب تركيب سيبويه فهي مدينة الخليل"[1].

والحقـــيقة أنّ ابن الورديّ قد أكثر من تصنّع مصطلحات النحو والصرف، وهذا التصـــنّع لا شكّ يسهم في ركاكة الأُسلوب ويسلخ المفردة عن جلدها، فتكون في موقعها الجديد نافرة قلقلة.

وقد تنبّه كتّاب ذلك العصر إلى ائتلاف الأُسلوب مع المضامين والأغراض، فلكل مناسبة قول مناسب، بل سياق موات. فالسياق الذي يناسب الفخر والإقدام لا بُدَّ أن يكون مزمجراً له جلبة وغلبة، بينما السياق الذي يناسب الوصف والغزل لا بدَّ أن يكون عذباً رقيقاً سائغاً شائقاً وهكذا.

وقد نبّه محمود سليم إلى هذه الخاصيّة في أُسلوبهم مذكّراً بآراء الحلبيّ التنظيريّة في هذا المجال[2].

والحقـــيقة أنّ الحلبـــيّ وضـــع منهجاً دقيقاً في ائتلاف الأُسلوب مع الموضوع، ومـــراعاة الأحـــوال والمناســـبات، منظّراً لأبناء عصره الذين يمارسون حرفة الكتابة الرسميّة في المقام الأول.

وحتـــى يتصـــوّر ذلك المفهوم تُجمل آراؤه[3] التي طرحها بشأن ذلك الأمر على ســـبيل الاختصـــار الـــذي يفضي إلى الفهم، فقد ذكر أنّ الكاتب إذا أراد أن يكتب عن السلطان إلى أحد نوّابه وقادته وقت الحرب، فعليه الإيجاز، واختيار الألفاظ البليغة الدّالة

---

(1) المصدر السابق، ص 175-176.

(2) انظر سليم: عصر سلاطين المماليك، 6/414-415.

(3) انظر الحلبي: حُسن التوسّل، 330-343.

على القصد مع عدم التهويل لشأن العدو، ولكن إذا كتب في وقت حركات العدو محذّراً أهــل الــثغور، فعليه بسط القول، وإثارة الحميّة، وهنا يحسن بسط القول، وعند الكتابة بأمــور الفــتوحات والتهاني، فيجب شكر الله والثناء عليه، وبسط القول في ذلك، وإذا كانــت المناســبة لتقريع مَنْ والى العدو بفضل، يذكر ألواناً من أساليب التوبيخ والتهكّم والتهديد، ولكن الكاتب إذا تصدّى لوصف الخيل أو السلاح أو الجوارح أو آلات الحرب والحصــون، فعلــيه بسط القول، وكل هذه الآراء تقدّم لنظرية نقديّة في علم النثر على قرار بعض النظريات التي تخصّ القصيدة.

الصورة والخيال:

قبل الحديث عن الصورة والخيال في الرسائل الفنيّة في العصر المملوكيّ، لا بُدّ مـــن التنويه عن أمر لافت للنظر، وقد سبقت الإشارة إليه، وهو اتخاذهم الرسالة على أنّهـــا قطعـــة فنـــيّة أو قصـــيدة شعريّة، ولذا أدقّوا في رسم لوحتها، وخاصة الرسائل الإخوانـــيّة والوصفيّة، فقد أطلقوا العنان للخيال، ولهذا قال الحلبيّ، وهو من المنظّرين لهـــذا الفـــنّ: "فأمّا الكتب الإخوانيّة والكتب التي تعمل رياضة للخاطر فيما يقل وقوعه لاحـــتمال أن يقع أو فيما تمتحن به قوة القريحة، ويعتبر به تصرّف الفطنة، ويسبر به غور الذّهن، ويعلم به استعداد الفكر فإنّ الكاتب في ذلك مطلق العنان، يخلي بينه وبين قوّته فيه أو ضعفه، لكن على كل حال يراعى كل مقام بحسبه"[1].

ويكشـــف هذا النصّ عن فهم صائب لموضوع الصورة والخيال، فإطلاق العنان يعني الاهتمام باللوحات الفنيّة والصور المبتكرة، فلم يكن هدف النثر مجرّد الإبلاغ، بل أخـــذ الجانـــب الشعري الذي يهتمّ بالصورة الأدبيّة، وتسريح الخيال، وهذا الفهم لقضية الصورة والخيال لا يبتعد كثيراً عن الفهم الجديد لمعنى الخيال، فقد ذكر جابر عصفور أنّ المدلـــول اللغوي المعاصر لكلمة الخيال يشير إلى القدرة على تكوين صورة ذهنيّة لأشـــياء غابـــت عـــن متـــناول الحـــسّ[2]، فمصطلح رياضة الخاطر، وقوة القريحة، وتصـــرّف الفطنة، وغور الذهن، واستعداد الفكر، ومطلق العنان، كلها تشير إلى مفهوم الخيال وسعته.

وقـــد تنوّعت مصادر الصورة في الرسائل الفنيّة نظراً لثقافة الكتّاب الموسوعيّة، ورغبـــتهم في إخراج رسائلهم على أنّها زخارف فنيّة متباينة في الأشكال والألوان، وقد كان من بين كتّاب ذلك العصر من تعاطى مهنة الرسم كالصفديّ[3]، فانعكس ذلك على

(1) المصدر السابق، ص382-383.

(2) انظر عصفور، جابر أحمد: الصورة في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة، د.ت.، ص13.

(3) انظر ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 176/2.

نتاجه الأدبيّ، وأغلب كتّاب العصر كانوا يجمعون بين الشعر والنثر؛ ممّا أسهم في أدبيّة الرسالة.

ومهما يكن، فإنّ أهمّ مصادر الصورة والإلهام الفنيّ القرآن الكريم، وقد عدّه الكتّاب المعين الأول في جلب صورهم، نظراً لمكانته في نفوسهم والنّاس عامة، وقد كان ذلك المصدر الرافد الأكبر للصورة في الرسالة الفنيّة، فكان رافداً أساسيّاً في الرسالة الديوانيّة والإخوانيّة والأدبيّة على حدٍّ سواء، ولكن الجانب الأوضح الذي تبرز فيه الصورة بشكل أكبر يكمن في الرسائل غير الديوانيّة.

فمن الصور التي مصدرها القرآن الكريم قول الشهاب الحلبيّ يصف كاتباً: "وهذا فلان قد أتاه الله في بلاغته الحكمة، وفصل الخطاب، ومكّنه من أزمة جياد المعاني فهي ﴿تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾*، ومنحه فضيلتي العلم والعمل، فإذا كتب ﴿أخذت الأرض زخرفها وازّينت﴾**، وإذا قال ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾***"[1].

فالنّاظر في تلك الفقرة يجدها تفيض بالصور التي يسرح ويمرح بها الخيال في أجواء القصص القرآني، فقد اختار الآيات التي توفّر كمّاً كبيراً من الخيال والتصوّر، ومثيل ذلك قول الشيباني: "وقد جعل الله سبحانه وتعالى الأفلاك دائمة الحركات، وأرسل الرياح منشرات، وللسحاب مسيّرات، وبأرزاق العباد جاريات، وأقسم سبحانه وتعالى بالعاديات وبالمرسلات"[2].

ولا تخفى مواطن الصورة في هذه الفقرة، حيث تشير كل جملة إلى صورة أو جملة صور، مستمدّة من القرآن الكريم، تخدم غرض تلك الرسالة وتبرزه.

---

* سورة ص، آية 36.

** سورة يونس، آية 24.

*** سورة النمل، آية 40.

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص353.

(2) الشيباني: رصف الفريد، ص59.

ومن ذلك قول ابن نباتة: "وجهّزها على يد فلان بعد أن حمّله من وسائل الشّوق مـا إن حملنا من إحسانه لينضى عقود الأنجم لو تعدّدت ومفاتيح أبوابه لتنوء بالعصبة أولى القوة لو تجسّدت، وهو بين يديه يقدّم نجواها"[1].

ومـن ذلـك قـول الصفديّ: "ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة، وفجر هذه الليلة العاتمة، فقد بلغت القلوب الحناجر، وحزّت الغلاصم بالخناجر، وكسرت براني الصبر، وحسد من امتطى ظهر الأرض من استكن في جوانح القبر"[2].

ومـن ذلك كذلك قول ابن عبد الظاهر: "وأخذنا في اختراق غابات أشجار تُخفي الـرفيق عـن رفـيقه ...ما خرجنا منها إلاّ إلى جبال قد تمنطقت بالجداول، وتعممت بالثلوج، وعمّيت مسالكها، فلا أحد إلاّ وهو قائل: فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج"[3].

والصـور المسـتمدّة من القرآن الكريم أكثر من أن يحاط بها في رسائلهم، ولا تقـلّ الصـور المستمدّة من الحديث الشريف والسنّة النبوية أهميّة عن سابقتها، حيث أكثـر الكتّاب من تصيّد الصور المستمدّة من الحديث لسموّ مكانته في النفوس، وخصبه بالقصـص الشـريف، فمـن رسـالة للشهاب الحلبي: "إذا كان المقصود من مثلهم جدّ الحرب، فهذه صورة لعب يخرج إليها منها تارة تدعوهم إلى البروز إلى الملق وتحدوهم فـي سلوك طريقها مع من هو دونهم على ملازمة الصدق ومجانبة الملق ... وينعمون بوعثاء السفر في بلوغ الظّفر"[4]، وكذلك قوله: "ونهي وصول ما أنعم به من الخيل التي وجد الخير في نواصيها، وادّخر حصنها حصوناً يعتصم في الوغى بصياصيها"[5].

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 145/9.
(2) المصدر نفسه، 142/14.
(3) الصفدي: أعيان العصر، 86/4.
(4) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص354.
(5) المصدر نفسه، ص344.

وكذلك قول الشيباني "فكم قطع أرضاً وركب ظهراً ووجد رفقاً"[1].

وقد اهتمّوا كذلك بالصور المستمدّة من التراث الأدبي، فمن ذلك قول محيي الدّين ابن عبد الظاهر: "فبتنا بها وابتنينا، وخيلنا مبثوثة فوق الأحيدب كما نثرت فوق العروس الدراهم"[2].

وقول الصفديّ: "وتبيّن أنّ الفراق جعل القلب مملوك الجوى والعبرات جواري، وتحقّق أنّ الدهر ناقد"[3].

ومنه قول الحلبيّ يصف فرساً: "لين الإعطاف، سريع الانعطاف، يقبل كالليل، ويمرّ كجلمود صخر حطّه السيل من علِ" [4].

وقول ابن نباتة يصف خيلاً: "ما منها إلاّ من تقصر الرياح أن تسكن فجّه والبروق أن تتبع نهجه، ومن تود الثريا أن تكون لجامه، والهلال أن يكون سرجه، ومن يتمطّر كالغمام، ويركض كالسّيل"[5].

ومنها الصور المستمدة من أدوات الحضارة كقول ابن نباتة في شفاعة: "ودارِكَ بكرمه هذا السراج قبل أن يُطفى، ورعى سيرة مباشرته الحسنة الآثار، واغتنم، أدعيته وأدعية أولاده الذين هم كقطع الشطرنج صغار وكبار"[6].

والحقيقة أنّ مصادر الصورة كثيرة في رسائلهم، وقد وفّرت للكتّاب منهلاً عذباً ومسلكاً سهلاً، استطاعوا من خلاله أن يسرّحوا أذهانهم، ويطلقوا العنان لخيالهم.

والحديث عن الصورة يفضي إلى تلمّس، بل إدراك عناصرها في رسائلهم، فقد تعدّدت عناصر الصورة، واهتمّوا بتلك العناصر، فمنها الصور البصريّة التي تجمع

(1) الشيبانيّ: رصف الفريد، ص67.
(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 143/14.
(3) الصفديّ: أعيان العصر، 437/5.
(4) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص344.
(5) القلقشندي: صبح الأعشى، 105/9.
(6) المصدر نفسه، 139/9.

اللـــون والحـــركة، وقـــد أخذت هذه الصور الحيّز الأكبر في رسائلهم، فمن ذلك قول الحلبـــيّ: "ومن حبشيّ أصفر يروق العين، ويشوف القلب بمشابهته العين، كأنّ الشمس ألقـــت عليه أشعتها جلالاً، وكأنّه نظر من الدُجى فاعتنق منه عرفاً، واعتلق إحجالاً ... لـــــه مـــن البـــرق خفـــةُ وطئه وخطفه، ومن النسيم لين طروقه ولطفه، ومن الريح هزيزها"[1].

والنّاظر في هذه الفقرة يجدها تطفح بالصور المتعدّدة، فقد جمعت عناصر اللون والحركة والصوت واللمس.

ومن ذلك قوله في وصف من هزم جيشه: "وكذا فليكن قلب الجيش كالقلب يقوى بقوّته الجسد، وإذا حقّ اللقاء فلا يفرّ عن كناسه إلاّ الظبي، ولا يحمي عرينه إلاّ الأسد، وما بقي إلاّ أن تعفو الكلوم، وتثوب الحلوم، وتندمل الجراح، وتبرأ من فلول المضارب صدور الصفاح"[2].

ومن رسالة للصفديّ قوله: "فوقف المملوك منه على روض تدبّج، وكافور بعنبر الليل تسبّج، ورأى بحر فضله وهو بأمواج سطوره مدرّج"[3].

والأمـــثلة كثيرة في مجال الصورة، وتشكّل عناصرها، ولكنّ النّاظر فيها يجدها مستمدّة في مجملها من مصادر ثقافتهم المختلفة، ولم ترد صور تشذّ عن تلك الثقافة، فقد احـــتلّت الصور المرتبطة بمظاهر الطبيعة الصّامتة صفحة كبيرة من عناصر الصورة لـــديهم، فصـــورة الكواكب والنجوم والقمر والهلال وشمس الأصيل، والبرق والرعد، والضياء والظلام شغلت حيّزاً كبيراً.

وقد وردت تلك المظاهر لتبرز الصّفة التي يطمحون لإبرازها، وقد كثرت لديهم الصـــور التشخيصـــيّة، فأضـــفوا على الأمور المعنوية والجسدية صفات الإنسان، فقال

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص345.
(2) المصدر نفسه، ص386.
(3) الصفديّ: أعيان العصر، 423/5.

الصفديّ في وصف وفاء النيل: "حتّى إذا أكمل الستّة عشر ذراعاً، وأقبلت سوابق الخيرات سراعاً، وفتح أبواب الرحمة بتغليقه، وجد في طلب تخليقه، وتضرّع بمدّ ذراعيه إلينا، وسلّم عند الوفاء بأصابعه علينا، ونشر علم ستره، وطلب لكرم طباعه جبر العالم بكسره"(1).

ولا يخفى ما في هذه الفقرة من الصّفات الإنسانيّة التي أضفاها الكاتب على النّيل، حيث مدّ ذراعيه، سلم عند الوفا، أصابعه، نشر علم ستره، كرمه ... فكل هذه الأفعال من صفات الآدميين، ومثل هذه الصورة قد انتشر وكثر في نثرهم، فجاء من رسالة وصف حصن من إنشاء الحلبيّ قوله: "وتقف الرّياح حسرى إذا توقّلت في هضباته، تخاف العيون إذا رمقته سلوك ما دونه من المحاجر"(2).

والأمثلة كثيرة في هذا المجال، كما أنّهم أتوا بصور غاية في الطرافة عندما اعتمدوا سبيل إضفاء صفات المحسوسات على المعنويات، فمن ذلك قول الحلبي من الرسالة السابقة: "وطالما شحّت الأحلام أن تُخيل فتحه لمن سلف في المنام، فكم ذي جيوش قد أمات بفصه، وذي سطوات أعمل في أمره الفكر فلم يفز من نظره على البُعد بفرصه"(3).

فشخّص الحلبيّ المعنويّ، وأعطاه صفات المحسوس، فالشحّ من طبع الإنسان، ولكنّه منح المعنويّ، وهو الحلم، وهذه صورة لا شكّ في علو رتبتها.

وفي الحقيقة أضحت الرسالة الفنيّة وخاصة الوصفيّة منها لوحة فنيّة تتموّج بأطياف من الصور على اختلاف مصادرها وتنوّعها. فقد اقتربت من القصيدة البديعيّة، ومن أمثلة ذلك قول الحلبيّ يصف رحلة رمي البندق: "فبرزنا وشمس الأصيل تجود بنفسها، وتشير من الأُفق الغربي إلى جانب رمسها، وتغازل عيون النّور بمقلة أرمد،

---

(1) المصدر السابق، 624/3.
(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص349.
(3) المصدر نفسه، ص349.

وتنظــر إلــى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العوّد، فكأنّها كئيب أضحى من الفــراق علــى فرق، أو عليل يقضي بين صحبه بقايا مدّة الرمق، وقد اخضلّت عيون النّور لوداعها، وهمَّ الرّوض بخلع حلّته المموّهة بذهب شعاعها"[1].

وهذه الفقرة من الرسالة تمثّل صورة ممتدّة تنمُّ عن ذوق مرهف، وحسّ نقديّ، لا بــل تكشــف عــن ســعة الخيال، وإطلاق عنانه يسرح ويمرح في متّسع من المساحة المتخيّلة؛ ولذا جمع الكاتب عدداً من الصور في صورة كلية الحديث حولها يفسدها.

(1) المصدر السابق، ص354-355.

ثانياً: الأثر الفاضلي والفنون البديعيّة

أولى كتّاب العصر المملوكيّ الفنون البديعيّة اهتماماً كبيراً، وقد كان مثلهم الأعلى فـي ذلك المضمار القاضي الفاضل، الذي كان هاجسهم في ذلك الأمر؛ ولذا فقد كثرت الإشارات الصريحة التي وردت في رسائلهم تشيد بالقاضي وتثني عليه، وهذا الإطراء لا بُـدَّ له من مبرّر، فالمسوّغ يكمن في الطريقة التي انتهجها في رسائله، ولاقت قبولاً واسعاً لديهم، فترد تلك الإشارات التي تثني على القاضي الفاضل، وذلك من خلال مدح بعضـهم، فيجعلون الممدوح يتفوّق على القاضي الفاضل في فنّه، وهذا اعترافٌ ضمنيٌّ بإعجابهم به، فمن ذلك قول الصفديّ يمدح القاضي كمال الدّين بن ريّان: "يقبّل الأرض حـيث ابن مقلة• لتلك الكتابة شاخص، والفاضل لذلك الترسّل ناقص"[(1)]، وله كذلك من رسالة تعزية: "وغاب من الإنشاء منه كاتب ليس بينه وبين الفاضل لولا أخوه مثله"[(2)]، ولـه كذلك في مدح أحد الكتّاب: "والكاتب النّاظم الناثر شيخ أهل الترسّل، ومن سَلَكَ الطريق الفاضليّة في إنشائه"[(3)].

ففي عبارة الطريق الفاضليّة حجّة بالغة على فهمهم الدقيق لتلك الطريقة وترسمها وإدراك مفهـومها، وقـد ذكر القيراطي من تقريض له في أحد الكتّاب قوله: "والقاضي الفاضل لقام من مكانه لمعانيها القاعدة وأقعدها"[(4)].

• الحسـن بن علي بن الحسن بن مقلة، وهو المعروف بجودة الخطّ الذي يضرب به المثل، مولده سنة 278هـ/891م، ووفاته سنة 338هـ/949م. انظر ترجمته الحموي، ياقوت (ت626هـ/1229م): معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993م، بيروت.

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 77/1.

(2) المصدر نفسه، 432/1.

(3) الصفدي: الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت ريتر بفسبادن، ط2، 1381هـ/1962م، 257/17.

(4) القيراطي: مطلع النيرين، ص131.

وذكــر القلقشــندي أنّــه ضرب به المثل في الترسّل[1]، وكل هذه الأُمور تشي بــتمكّــن القاضي الفاضل من فنّ الترسّل، والإشارات كثيرة في هذا المجال ولا سبيل لحصرها.

وقــد أبــدى القلقشندي إعجاباً شديداً في ترسّل الفاضل قائلاً: "ومعاني القاضي الفاضــل هي التي ترقص لها القلوب، وتطرب لها الألباب، ويهجم قبولها على النُّفوس من غير حاجب ولا بوّاب"[2].

والــذي ينظر في رسائل القاضي الفاضل يدرك اهتمامه الشّديد بالبديع، والتفنّن فــيه، فمــن ذلك قوله الذي نال إعجاب القلقشندي حيث قال الفاضل: "يا بني أيّوب، لو ملكــتم الدهــر لامتطيتم لياليه أداهم، وقلّدتم أيامه صوارم، وأفنيتم شموسه وأقماره في الهــبات دنانيــر ودراهم، وأيّامكم أعراس، وما تمَّ فيها على الأموال مآتم، والجود في أيديكم خاتم، ونفس حاتم في نقش ذلك خاتم"[3].

فاكتفــى القلقشــندي بالتعلــيق على هذه الفقرة بقوله: "فهذا هو السحر الحلال، والمعاني التي تخضع لها شمّ الجبال، ولا يقال فيه قيل ولا قال"[4].

والنّاظر في تلك الفقرة يجدها تجمع من المحسنات البديعيّة الشيء الكثير. فالفقرة مسجوعة: أداهم//صوارم، دراهم//مآتم، خاتم//حاتم.

وإضافة إلى السجع تجد الجناس، فجانس بين ماتمّ//مآتم، وخاتم//حاتم.

وطابق بين لياليه وأيّامه، وأعراس ومآتم، ووازن بين لامتطيتم لياليه أداهم وقلّدتم أيّامــه صوارم. وورّى بخاتم حيث المعنى القريب ما يتّخذ للزينة، والمعنى البعيد الأداة التي تتّخذ لختم الأوراق والرسائل.

---

(1) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 454/1.
(2) المصدر نفسه، 198/2.
(3) المصدر نفسه، 198/2.
(4) المصدر نفسه، 198/2.

ومهما تحدّث المتحدّثون عن أصناف البديع في تلك الفقرة القصيرة لا يستطيعون إعطاءهـا حقّهـا، وهـذا دليل على تبحُّر الفاضل في هذا الميدان. ومن نثره كذلك في وصيّة بولاية عهد:

"وأمّـا العـدل وإفاضـته، والجـور وإغاضـته، والصعب ورياضته، والجدب وترويضـه، والخطـب وتقويضـه، والجهـاد ورفع علمه، والذب عن دين الله وحفظ حرمـه، والأمر بالمعروف ونشر ردائه، والنهي عن المنكر وطي اعتدائه، وإقامة الحدّ بالصُّفح والحدّ، والمساواة في الحقّ بين المولى والعبد، وبثّ دعوة الله في كل غور من الـبلاد ونجد، وأمر عباد الله إنّ عباد الله في زمنك الرغد، فذلك عهد الأئمة الراشدين، وهذا إليك من أمير المؤمنين"[1].

إنّ هـذه الفقرة من الرسالة لتؤكّد مبلغ اهتمامه بالفنون البديعيّة، فقد أقامها كاملة علـى السـجع، ولم يكتفِ بالسجع بل وازن بين الجمل، كما أنّه جانس بين الحد//الحد، وطابق بين العدل والجور، والمولى والعبد، والغور والنجد، وورّى بالصفح والحد.

والمحسّنات اللفظيّة والمعنويّة أكثر ممّا تحصى في نثره، وهكذا كان القاضي في رسـائله، ولـذا اسـتحقّ أن يترأس مدرسة تحمل اسمه، ويكون له أتباع كُثر يشيدون بترسله، ويمدحون بعضهم من خلال ذكر اسمه وفنّه.

والنّاظر في الرسائل الفنيّة في العصر المملوكي يجد الأثر الفاضلي بارزاً في كل أمـر مـن تلك الرسائل، ولمّا كان من العسير والشّاق أمر حصر فنون البديع في تلك الرسـائل، التـي كانـت ثمرة لتأثر الكتّاب بترسّل الفاضل، فإنّه لا بُدَّ من الإشارة إلى ذكـر بعضـها لأخـذ صورة مجملة عن المواطن الكبرى التي بلغ التأثر أوجه فيها كالسجع والجناس والطباق والتورية وحسن الاستهلال والخواتيم، وحتى تكتمل الصورة

(1) المصدر السابق، 384/9.

وضوحاً، لا بُدّ من تتبّع تلك الفنون بشكل منفرد، ودراستها لدى طائفة من الكتّاب لتتبيّن الملامح الكاملة لذلك التأثر.

السجع:

فـأول محسّن بديعي تأثّر به القوم، وأخذوه عن القاضي الفاضل السجع، وتجدر الإشـارة هـنا أن نتعرّف إلى حدّه وآراء النقّاد فيه. فذكر ابن الأثير أنّ السجع "تواطؤ الفواصـل في الكلام المنثور على حرف واحد"[1]، وقريب من هذا قول القزويني حيث ذكـر أنّـه "تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد"[2]، وتابعهما القلقشندي قائلاً: "وهـو المسـتقيم لاسـتقامته في الكلام واستواء أوزانه، وقيل من سجع الحمامة، وهو ترجيعها الصوت على حد واحد ... وهو تقفية مقاطع الكلام من غير وزن"[3].

وأمّـا بالنسـبة لحكم كلمات الأسجاع من حيث الوقوف عليها والتسكين، فيرى الحلبي "أنّ كلمات الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الإعجاز، موقوفاً عليها؛ لأنّ الغرض أن يجانس بين القرائن ويزاوج بينها، ولا يتمّ ذلك إلاّ بالوقوف"[4].

ويقسـم السـجع إلـى أربعـة أقسـام، فذكر الحلبيّ أنّه ينحصر في الترصيع، والمـتوازي، والمطـرف، والمتوازن[5]، ويجمع هذه الأصناف مصطلح السجع الحالي والعاطل، وهو أن تكون القرينتان متّفقتين في الروي[6].

وأعلـى الأقسـام الأربعة درجة التصريع، ويعني الاستواء في الأوزان، وتعادل الأجـزاء، أمّا المتوازي فيعني أن يختصّ التوازن بالكلمتين الأخيرتين فقط، والمطرف يعني مراعاة الاتّفاق فقط في حرف الروي، أمّا التوازن وهو ما يسمّى بالسجع العاطل،

---

(1) ابن الأثير: المثل السائر، 193/1.

(2) القزويني: الإيضاح، ص325.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 279/1-280.

(4) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص206.

(5) انظر المصدر نفسه، ص207.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى، 282/2.

ويعنـــي مـــراعاة الوزن في جميع كلمات القرينتين أو في أكثرها مع مقابلة الكلمة بما يعادلها وزناً مع اختلاف حرف الروي.

ويكمن الاختلاف في النوع الرابع في التسمية فقط، فسمّاه الحلبيّ المتوازن، بينما القلقشـــندي ســـمّاه الـــتوازن، ومهمـــا يكن فإنّ القلقشندي ذكر قولاً يؤكّد تأثّر الكتّاب بالفاضــــل عـــندما ذكـــر أنّ السجع الحالي عمل عليه أكثر الكتّاب في زمن القاضي الفاضل إلى زمان القلقشندي(1).

والنّاظر في الرسائل الفنيّة في العصر المملوكي يجدها في مجملها أسيرة السجع الحالـــي، فقـــد أغرق الكتّاب في إخراج رسائلهم مطوّقة بحلية السجع، والاختلاف بين الكتّاب يكمن في قدرتهم على صياغة عباراتهم، حيث السجع الطويل والقصير، وتنوّع الأطوال بين السجعات.

فمن النوع الأول، وهو تساوي السجعتين قول ابن نباتة:

"لا زال الدهر يقضي خدمه، ويمضي رأيه وسيفه وقلمه، ويرضي الدول الشاكرة تقديمـــه فيها وقدمه، ولا برحت الأقدار المعربة تجزم أمره، وتكسر ضدّه وترفع علمه، تقبيلاً إذا لثم الترب التثمه، وإذا أُودع القلب في ذلك الترب ختمه"(2).

والناظـــر فـــي تلـــك الفقرة يجدها مسجوعة، وإنّ الأسجاع فيها متساوية فـــي طولهـــا.

ومـــن ذلـــك قـــول الحلبيّ: "جعل الله تعالى دوره رحبة العراص، وسعادته في الازدياد وأعاديه في الانتقاص، الدعاء لإحسانه مقروناً بصدق النيّة والإخلاص"(3). ولا يخفى ما في الفقرة من تساوي سجعاتها، ومن ذلك قول محي الدّين بن عبد الظاهر:

(1) المصدر السابق، 282/2.
(2) المصدر نفسه، 14/9.
(3) المصدر نفسه، 134/9.

"وبات التتار على أجمل ترتيب لأنفسهم وأجمل منظر، وبات المسلمون على أتمّ تيقّظ وأعظم حذر، ولم يتحقّقوا قدوم مولانا السلطان في جيوش الإسلام، ولا أنّه حضر بنفسه النفسية ليقوم في نصرة دين الله هذا المقام"[1].

ومـــن نثـــر الصفديّ: "وما أقول بل انتظر إلاّ نظرة شهابيّة، ولا أترقّب إلاّ همّة عدويّـــة عمـــريّة، تنقذنـــي من نار هذه الغربة، وتعيدني إلى خير عالم وألطف تربة، وتـــتعطّف على من غدرت به أيّامه ولياليه، وأتى كما حكمت عليه الأقدار بذنب عقابه فيه"[2].

والأمثلة في هذا البّاب كثيرة، وهي تشهد بولعهم بهذه الحلية البديعيّة التي شاعت فـــي عصرهم، ووجدت أنصاراً لها وأعواناً، ولم يكن الكتّاب يقصرون أسجاعهم على المتســـاوي بل كان هناك السجع المتفاوت في الطول والقِصَر، وقد ذكره ابن الأثير[3]، وتابعه القلقشندي[4]، فمنه ما تكون السجعة الأولى أطول من الثانية، ومثاله قول الحلبيّ: "لا زال بـــرّه مطلوباً، وجوده مخطوباً"[5]، وقول ابن نباتة: "لا زال قلمها مفتاح الرزق لطالـــبه، والجـــاه لكاســـبه"[6]، وقول محي الدّين بن عبد الظاهر: "ذات بروج مشيّدة، وأركـــان مـــوطّدة"[7]، وقـــول الصـــفديّ: "وردت المشرّفة السامية بحلاها، الزاهيـــة بعُلاها"[8].

---

(1) المصدر السابق، 142/14.
(2) الصفديّ: أعيان العصر، 225/5.
(3) ابن الأثير: المثل السائر، 238/1-242.
(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 289/2.
(5) المصدر نفسه، 135/9.
(6) المصدر نفسه، 145/9.
(7) المصدر نفسه، 142/14.
(8) الصفديّ: أعيان العصر، 236/5.

أمّـــا النّوع الذي فيه السجعة الأولى أقصر من الثانية، فمثالها قول ابن نباتة: "لا زالـــت المحامـــد بذكرها متوّجه، وقدمات الفضل والفضائل من تلقاء شميها منتجة"[1]، وقول الحلبي: "فسّح الله في مدّته، وسهّل أداء ما يجب من شكر نعمته"[2].

وقد راوح الكتّاب بين هذه الأنواع الثلاثة في رسائلهم، ولم يلتزم كاتب منهم بنوع دون آخـــر، بل جاءت الألوان السابقة في نثره كما سلف من الأمثلة، ولكنّ الذي يمكن تعميمه أنّ السجع أصبح لديهم لازمة من لوازم الكتابة الفنيّة.

ونوّع الكتّاب في حروف الروي في سجعهم، ولكنّهم كانوا يميلون إلى التزوُّد من الـــروي الواحد كقول ابن نباتة: "لا زال جزيلاً سماحه، جميلاً من الحمد رباحه، جليلاً برّه الذي يشهد به طائر الخير ويمنه وطائل الخيل ونجاحه، وهذه المفاوضة تهدي إليه سلاماً يخفق جناحه"[3].

وله أيضاً "لا زالت متّصلة منن إرفاها وإرفاقها، نازلة على حكمها الأشياء حتّى الطيـــر العاقّـــة مـــن آفاقها، خافقة أعلام نصرها بالأجنحة مؤمّنة لظنون القاصدين من إخفاقهـــا، تقبـــيل مطلـــق لسان الحمد على عوائد إطلاقها، مجتنٍ لثمرات الإحسان من غصون أقلامها وغضون أوراقها"[4].

وكمـــا اعتـــنوا بتصـــيُّد الـــروي الموحّد حفلوا بالأشجاع القصيرة لعلوّ مكانتها، ودلالتها على قوّة التكمّن وإحكام الصنعة، لا سيّما القصير منها للغاية[5]. فمن ذلك قول الحلبـــيّ: "أدام الله ظلّـــه، ورفع محلّه، وشكر إنعامه وفضله، وأعزّ أنصاره، وضاعف

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 141/9.
(2) المصدر نفسه، 136/9.
(3) المصدر نفسه، 107/9.
(4) المصدر نفسه، 113/9-114.
(5) انظر المصدر نفسه، 386/2.

اقــتداره، ولا زال مــؤيّداً في حركاته، مسدّداً في سائر فعلاته، مصحوباً بالسّلامة في المهامه والقفار، مخصوصاً من الله تعالى بالأعوان والأنصار"[1].

وبالجملــة يكاد النّاظر في رسائلهم أن يطلق أحكاماً عامّة تقضي بشيوع السجع لــديهم حتّى يندر، بل يعزّ عليه أن يجد رسالة فنيّة خارجة عن قيود السجع، ولا يمكن الحكم على سجعهم بأنّه متكلّف مجلوب على حساب المعنى، بل تظهر عليه آثار البراعة والبســاطة والوضــوح في أغلب الأحيان، وليس من العدل أن يطلق الحكم على جميع الأســجاع؛ لأنّ ذلك يحتاج إلى طول فكر، وقراءة جميع ما كتبوا، ولكنّ الأعمّ الأغلب يتّسم بالعفويّة والبساطة وعدم التكلّف.

الجِناس:

لقد ولع الكتّاب بالجناس وعدّه بعضهم عمده المحسّنات البديعيّة كالصفديّ، وألّف فــي ذلــك كتاباً. وقبل الحديث عن محتوى ذلك الكتاب، لا بُدَّ من الوقوف على معنى الجــناس وأقسامه، فذكر ابن الأثير أنّ الجناس سبعة أقسام، ولكن واحداً فقط من السبعة يمــثّل حقيقة التجنيس، والأقسام الأخرى مشبّهة به، فالقسم الحقيقي ما تساوت حروف ألفاظــه فــي تركيبها ووزنها، وحدّ التجنيس عنده: اتّفاق اللفظ مع اختلاف المعنى[2]، ومعنى اتّفاق اللفظ أن تتماثل حروف الكلمة في العدد والترتيب والشكل.

وقــد عدَّ الأقسام الستّة الأخرى مشبّهة بالتجنيس، وهي ما فقدت شرطاً أو أكثر من الشروط المتوفّرة في حدّ التجنيس الحقيقي.

فالقســم الأول ما تساوت حروفه في تركيبها، واختلفت في أوزانها، ومثّل لذلك بالحــديث الشريف: "اللهم كما حسّنت خَلْقي حسِّن خُلُقي"[3]، وأمّا القسم الثاني: وهو أن تكــون الألفــاظ متســاوية في الوزن، مختلفة في التركيب بحرف واحد لا غير ومثاله

(1) المصدر السابق، 37/9.
(2) انظر ابن الأثير: المثل السائر، 246/1.
(3) المصدر نفسه، 253/1.

قـولــه تعالـــى: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة، لربِّها ناظرة﴾، والقسم الثالث: أن تكون الألفاظ مخـــتلفة في الوزن والتركيب بحرف واحد، ومثاله قوله تعالى: ﴿والتفَّت السّاق بالسّاق إلـــى ربِّـــكَ يومئذٍ المَسَاق﴾، وأمّا الرابع ويسمّى المعكوس: وهو نوعان كما يرى ابن الأثير: أحدهما عكس الألفاظ كقول بعضهم: "ادات السادات، وسادات العادات"، وثانيهما عكس الحروف، ومثاله قول الشاعر:

كيف السُّرور بإقبال وآخـــره ... إذا تأمّلْته مقلوب إقبـــــال

ويســـمّى القسم الخامس المجنّب، ذلك أن يجمع مؤلّف الكلام بين كلمتين إحداهما كالتبع للأخرى والجنيبة لها، ومثاله قول القائل[1]:

أبا العبّاس لا تحسب بأنّـــــي ... لشيء من حلى الأشعار عـــاري

فلي طبع كسلسال معيـــــن ... زلال من ذرا الأحجار جـــــاري

وهــذا الــنّوع أقرب بلزوم ما لا يلزم منه إلى الجناس كما يرى ابن الأثير، بينما يبقى الــنّوع الســـادس وهو ما يساوي وزنه تركيبه غير أنّ حروفه تتقدّم وتتأخّر كقول أبي تمام[2]:

بيض الصفائح لا سود الصحائف ... في متونهنّ جلاء الشكّ والرِّيب

والمعكـــوس والمجنّب لا شكّ في تكلفهما، ولا يوجد مبرّر لوضع هذين النوعين مع التجنيس، ومهما يكن فإنّ قضيّة التجنيس أثارت جدلاً بين الكتّاب لا سيّما بعدما ألّف الصـــفديّ كتابه جنان الجناس، فقد انتقده ابن نباتة وابن حجّة الحمويّ، فقال ابن حجة: "وكـــان الشـــيخ صلاح الدّين الصفديّ يستسمن ورمه، ويظنّه شحماً فيشبع أفكاره منه، ويمـــلأ دفاتـــره، ويأتي فيه بتراكيب تخفّ عندها جلاميد الصخور"[3]. ولا شكّ أنّ هذا الحكـــم يســـري من جهة الشعر؛ لأنّ الكتاب يخلو من الأمثلة النثرية خلوّاً تاماً، وعلى

(1) المصدر السابق، 263/1.
(2) المصدر نفسه، 263/1.
(3) ابن حجّة الحموي: خزانة الأدب، 55/1.

كـل حال، فإنّ الصفديّ بيّن أهمية تلك الحلية قائلاً: "فلمّا كان البديع في الزّمن المتأخّر أحســن بدعة، وأوضح لمعة، وأملح طلعة، وأكثر رواية واسعة ولا أقول رياء وسمعة، به تُبنى بيوت الشعر في أشرف بقعة، وتبرز أبكار الأفكار منه في خلعة بعد خلعة، وإذا كان الشعر برّاً، فهو منه أعذب جرعة، والمكاتبات حلّة مرموقة، فهو طراز كل رقعة، وخصوصــاً نوع التجنيب الذي هو ركن شريعته، وبيان شرعته، وديباجة صنائعه في صنعته وآية سجدته"[1].

وحشــد الصــفديّ فــي كتابه كثيراً من أقوال النقّاد والأدباء السابقين له في حدّ الجــناس، وفــنّد تلك الآراء رأياً رأياً بالشّرح والتوضيح والنقد، واستنتج من بينها حدّاً للجــناس اعــتقد فــيه الشموليّة عمّا وضعه السابقون فقال: "وهو الإتيان بمتماثلين في الحــرف أو فــي بعضها، أو في الصورة أو في الزيادة في إحداهما، أو بمتخالفين في الترتيب أو الحركات، أو بمماثل يرادف معناه مماثلاً آخر لفظاً"[2].

والحقــيقة أنّ هــذا الحدّ أكثر صعوبة وتعقيداً ممّا وضعه السابقون عليه، ولكنّه فصّــل القــول في تفسيره وحلّ غامضه، وأكثر من التمثيل من شعره، ولم يتطرّق إلى نثره في ذلك المؤلّف.

وقــد وردت تلك الحلية البديعيّة في معظم نثر الكتّاب، ولكنّ الصفديّ أفرط في ذلك، وقد أخذ عليه بعض النقّاد المحدثين[3] هذا الإفراط، ولكنّ هذه المآخذ مردّها إلى رأي ابن نباتة: "وذلك أنّه لما وقف على كتابه المسمّى بجنان الجناس، وقد اشتمل على

(1) الصــفديّ: جــنان الجناس (في علم البديع)، تحقيق سمير حسين حلبي، دار الكتب العلمية، بيــروت، ط1، 1407هـ/1987م، ص14-15.

(2) المصدر السابق، ص42.

(3) انظــر ضيف، شوقي: عصر الدول والإمارات، الشام، ط2، دار المعارف، د.ت، ص306؛ انظر سلاّم، محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2/479.

كثيـــر مـــن هـــذا النوع قرأه جنان الجناس"[1]، ولا شكّ أنّ النقد موجّه للكتّاب لا لنثر الصفديّ عامة، خاصة وأنّ الكتاب لم يضمّن من نثر الصفديّ شيئاً.

ومهمـــا يكـــن، فـــإنّ القضية ليست كامنة في كتاب الصفديّ وناقديه، بل جاءت حلـــيـــة الجناس في نثر أولئك النفر بشكل موسّع لا يصل إلى حدّ التكلّف في كثير من أحواله، فمن الأمثلة على ذلك قول الحلبي من رسالة في وصف الخيل: "ومن كميت نهد كـــأنّ راكـــبه في مهد، عندمي الإهاب شمألي الذهاب، يزلُ الغلام الخف عن صهواته، وكأن نغم الغريض ومعبد في لهواته، قصير المطا، فسيح الخطا، وإن ركب الصيد قيد الأوابد وأعجل عن الوثوب الوحش اللوابد"[2].

فجـــانس الحلبيّ بين نهد ومهد، وبين الإهاب والذهاب، وبين صهواته ولهواته، وبـــين الأوابـــد واللـــوابد، وقد سارت الرسالة في مجملها على هذا النحو من التجنيس الناشئ عن السجع. ومن نثره كذلك في وصف من هزم جيشه: "وزاد العدد على الجلد فلم يفد الإقدام على الأوحال مع قدوم الآجال، وأملي للكافرين بما قدّر لهم من الإنظار، وحصـــل لهـــم مـــن الاســـتظهار"[3]، فجـــانس بـــين الأوحال والآجال، وبين الإنظار والاســـتظهار، وهو كثير في نثره، ومن هذه الحليّة في نثر ابن نباتة من تهنئة: "فالحمد لله علـــى أن أقـــرّ العيون بمعاودة ظلّه الوريف، وعلى أن شفى الصدور بقربه وأولها وأولاها صدر السرّ الشريف"[4]، فجانس بين الوريف والشريف، وبين الصدر والصدر، وبين أولها وأولاها.

ومن نثره كذلك في رسالة السيف والقلم: "أمّا بعد فإنّ السيف زند الحقّ الوري، وزنده القوي، وحدّه الفارق بين الرشيد والغوي، والنجم الهادي إلى العزّ وسبيله، والثّغر

---

(1) ابن حجّة الحمويّ: خزانة الأدب، 56/1.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص345.

(3) المصدر نفسه، ص385.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 37/9.

الباســم عــن تباشــير فلوله، به الله أظهر الإسلام وقد جنح خفاء، وجلى شخص الدين الحنيفي وقد جمح جفاء"[1].

فجــانس بن زند وزنده، وبين الوري والقوي والغوي، وبين سبيله وفلوله، وبين جنح وجمح، وبين خفاء وجفاء، وهذه الجناسات الكثيرة في تلك الفقرة والتي تسير عليها الرســالة بــتمامها تــدلّ علــى ولوع ابن نباتة بالجناس، وهنا يمكن تفسير ذمّه لكتاب الصــفديّ علــى أنّه اعتراض على ما حشد فيه الصفديّ من ألوان الجناس، خاصة في الشــعر ولــيس فــي النثر، فلو ذمَّ ابن نباتة الجناس في النثر لما أتى به بهذه الكثرة، وربّمــا يفسّر ذمّه لذلك الكتاب من باب التنافس بين الأدباء والتحاسد.

ومــن نثر الصفديّ في وصف الأمطار: "العجيب سؤال مولانا عن الملوك كيف حاله، وعنده علم هذا العناء الذي نصب على الأين والنصب تمييزه وحاله"[2]، فجانــس بين حاله وحاله، وبين نصب والنصب، نُصب ونَصَب.

ومن الرسالة ذاتها: "أكلُّ هذا تشريع تشرين، وشره شرّه الذي نتجرّع من أمــره الأمــرّين، وشــهرة شــهره، فيا أيام كانون إذا جئت ماذا تبيعين وتشرين، أمّا المساكن فأهلهــا مســاكين، وأفــواههم من الحزن مطبقة فما تفتحها السكاكين، قد انتبذ كل منهم زاوية من داره، وتداخل بعض في بعض لتضمّه بقعة على مقداره، هرباً من توقيع أكف الوكف"[3].

فجــانس الصــفديّ بــين تشــريع وتشــرين، وبين شره وشرّه، وبين المساكن ومســاكيــن وسكاكين، وبين من داره ومقداره، وبين أكف والوكف، وعلى هذه الشاكلة تتواصل الرسالة.

---

(1) ابن حجّة الحموي: خزانة الأدب، 232/1.
(2) الصفديّ: أعيان العصر، 221/2.
(3) المصدر نفسه، 222/2.

ولـــــه مـــن رســـالة أخرى في وصف النيل: "وتبدي إلى العلم الكريم أنّه ورد ركابـــنـــا الشريف إلى محل ملكه، ومجرّة ملكه ومجرى فلكه، فوجدنا النيل المبارك قد جعل الأرض لجّة وأرخى نقاب تياره على وجه كل محجّة"[1]، فجانس بين فَلَكه ومُلْكَه وفُلْكه، وبين لجّه ومحجّة.

ومـــن منشور له: "فهم أبطال تغرف الأسود الغلب من وثباتها وثباتها، وفرسان قـــوائم خيلهم صوالج تعلب من رؤوس العدى بكراتها في كرّاتها، وشجعان ألفوا مقاعد الخيل فكأنّهم ولدوا على صهواتها، وأمراء زانوا مواكبنا السعيدة التي لا تخرج الأقمار إلاّ من هالاتها، وقد احتكم إلى يمينه السيف والقلم، وانطوى على نشر العِلْم والعَلَم"[2].

فجـــانس بين وثباتها وثباتها، وبين ألفوا وولدوا، وبين صهواتها وهالاتها، وبين العِلْم والعَلَم.

والمتتـــبّع لنثر الصفديّ يجده يفيض بالجناس، ويظهر تفوّقه في هذا الباب على أقـــرانه، فالجـــناس هـــو حليته المفضّلة، ولذا عاب عليه ابن حجّة الحمويّ كما أسلف، والحقيقة أنّ في تجنيسه إبداعاً وزخرفة فنيّة، وربما يفسّر ذلك بذوقه الفني كونه رسّاماً.

ومـــن كلام العمريّ في وصف المنجنيق: "ونصبنا عليها من المجانيق ما سامى قلاعها، وسام اقتلاعها، وهدم سورها، وهتم ثغورها، وفجّر حجارتها بالأنهار، وأضجر ســـيارتها ومـــا غـــاب نهار، وأتت على البلد ومن فيه، ووانت على ما نطق به لسانها مـــــلء فيه، وما هان أمرها وهو عتيد، ولا لان قلبها وهو حديد، ولا قصر باعها وهو طويل ... مفتولة الساعد، مقبولة المساعد"[3].

فأكثـــر العمـــريّ من الألفاظ التي جانس بينها في هذه الفقرة، فجانس بين سامى وســـام، وبـــين اقـــتلاعها وقلاعها، وبين هدم وهتم، وبين سورها وثغورها، وبين فجّر

---

(1) المصدر السابق، 330/4.

(2) المصدر نفسه، 386/4-387.

(3) العمريّ: التعريف، ص304.

وأضجر، وبين حجارتها وسيارتها، وبين بالأنهار وغاب النهار، وبين أنت وواتت، وبيم مـــلء فـــيه ومن فيه، وبين هان ولان، وبين عتيد وحديد، وبين مفتولة ومقبولة، وبين الساعد والمساعد.

والنّاظـــر فـــي تلك الفقرة يجد جلّ ألفاظها على شاكلة واحدة من الجناس، وهذا يسري على الرسالة كاملة.

ومهمـــا يكن من كثرة هذه الأمثلة، فإنّ حلية الجناس لا تكاد تخلو منها فقرة من فقـــرات رسائلهم، وهذا دليل على ولوعهم بها، وليس الصفديّ وحده، ولا يتّسع المجال لأكثـــر من هذه الأمثلة، والحقيقة أنّ هذه الحلية لها وقع خاص في السّمع، لا بل تساهم في الإيقاع وموسيقى النصّ النثريّ، خاصة وإنّ الرسالة الفنيّة ارتقت في عصرهم إلى منافسة القصيدة، وحاولت التفوّق عليها.

الطِباق:

يُعدُّ الطِبَاق من المحسّنات المعنويّة التي تضيف إلى الكلام الوضوح والإفصاح، حيث المعنى يستبين عند ذكر ضدّه، ويستقرّ في الذّهن، وقد ذكر ابن الأثير أنّ المطابقة -وقـــد عنـــى بها الطباق- في الكلام هي الجمع بين الشيء وضدّه، كالسواد والبياض، والليـــل والـــنهار[1]، وقد اتّفق معه الحلبيّ حيث أشار إلى أنّ المطابقة أن تجمع ضدّين مختلفـــين كالإيـــراد والإصـــدار، والليل والنهار، والسواد والبياض[2]، وذكر معاصره القزوينـــي أنّ المطابقـــة تعني الطباق والتضاد، وهي الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلـــين في الجملة[3]، وذكر ابن حجّة أنّ الطباق الجمع بين الضدّين في كلام أو بيت شعر كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، والبياض والسواد[4].

(1) ابن الأثير: المثل السائر، 279/2.
(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص199.
(3) القزويني: الإيضاح، ص287.
(4) ابن حجّة الحمويّ: خزانة الأدب، 156/1.

ومهما يكن من أمر هذه الآراء، إلاّ أنّها أجمعت على مفهوم واحد يكمن في المعنى وضدّه، وقد بلغ الاتفاق أن اتّفق على الأمثلة ذاتها في توضيحهم للمعنى.

وقد كثر الطباق في نثر الكتّاب، ولا بدّ من تفسير لهذه الكثرة، والحقيقة أنّ الطباق يفضي إلى توضيح المعنى واستقراره في الذهن، حيث الضدّ يظهر حسنه الضدّ. فمن الأمثلة التي لا بدّ من إيرادها قول ابن نباتة من رسالة مفاخرة بين السّيف والقلم:

"أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضراب، وأنا للعمارة وأنت للخراب، وأنا المعمّر وأنت المدمّر، وأنت المقلّد وأنا صاحب التقليد، وأنت العابث وأنا المجوّد"(1).

فطابق الكاتب بين الوصل والقط، وبين العطاء والمنع، وبين الصلح والضراب، وبين العمارة والخراب، وبين المعمّر والمدمّر، وبين العابث والمجوّد.

ولا شكّ أنّ في هذه الطباقات إبرازاً للمعنى وتوضيحاً للفكرة، ومن رسالة له أخرى في الشوق:

"وقد جهّزها على يدّ فلان، وحمّله من رسائل الشّوق أوفى وأوفر من رسائل الصّفا، وسأل الإصغاء والملاحظة من مولى كجاره النيل، معروف المنافع والوفا، ولآمال المملوك بمشرفاته وأوامره جمال حين يريح وحين يسرح، وحين يقتصر على مقترحات الأيّام حين يشرح، فيُنعم مولانا بمواصلتها على هذه المقدّمة، ويجعل ذلك من إدرارات صلاته المنجّمة، والله تعالى لا يعدم المملوك في حال كرمه، إمّا أن يفيض في القرب بحره، وإمّا أن يبعث على البعد ديمه"(2). فطابق بين يريح ويسرح، وبين القُرب والبُعد.

---

(1) المصدر نفسه، 234/1.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 146/9.

ولــــه أيضاً من رسالة إجابة عن عيادة: "شكر الله مننها التي إذا أبدت أعادت، وإذا جادت أجادت، وإذا كررت الافتقاد حلا، وإذا تصدّت لمودّات القلوب صادت، تقبيل مخلص في ولائه وابتهاله على حجة العهد والحمد في صحّته واعتلاله"[1]. فطابق بيــن أبدت وأعادت، وبين صحّته واعتلاله.

ومــن نثــر الحلبــي قوله من رسالة وصف حصن: "قد تقرّط بالنّجوم وتقرطق بالغــيوم، وســما فرعه إلى السماء ورسا أصله في التُّخوم"[2]. فطابق بين سما ورسا، وبين فرعه وأصله، وبين السماء والتخوم، وهناك مطابقة في التركيب عامة.

ومن نثره من رسالة في وصف رمي البندق:

"وتــارة تدعــوهم إلى البروز إلى الملق وتحدوهم في سلوك طريقها مع من هو دونهــم على ملازمة الصّدق، ومجانة الملق، فيعتسفون إليها الدجى إذا سجا، ويقتحمون فــي بلــوغها جــرف الــنهار إذا انهــار، ويتــنعّمون بوعثاء السفر في بلوغ الظفر، ويستصغرون ركوب الخطر في إدراك الوطر، ويؤثرون السهر على النوم، والليلة على اليوم، والبندق على السهام، والوحدة على الالتئام"[3].

فطابــق الكاتب بين ألفاظ كثيرة لإبراز المعاني وتوضيحها، فمن ذلك طابق بين الملــق والصــدق، وبين الدجى والنهار، وبين السهر والنوم، وبين الليلة واليوم، وبين البندق والسهام، وبين الوحدة والالتئام.

ومن نثره في وصف ذلّ العدو وخوره من تقليد:

"وحــين تمادى المذكور في غيّه، وحمله غروره على ركوب جواد بغيه، أمرنا جيوشــنا المنصورة فجاست خلال تلك الممالك، وداست حوافر خيلها ما هنالك وسادت فــي عمــوم القتل والأسر بين العبد والحرّ، والمملوك والمالك، وألحقت رواسي جبالهم

(1) المصدر السابق، 214/9.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص349.

(3) المصدر نفسه، ص354.

بالصـــعيد، وجعلـــت حمـــاتهم كزرع فلاتهم منها قائم وحصيد، فأسلمهم الشيطان ومرَّ، وتـــركهم وفـــرَّ، وماكرهم وما كرَّ"[1]. فطابق بين العبد والحرّ، وبين الجبال والصعيد، وبين قائم وحصيد، وبين أسلم ومرَّ، وبين كرَّ وفرَّ، وبين المملوك والمالك.

ومن نثر العمريّ في وصف الحمارة العتّابيّة:

"وقد تساوى الليل والنهار، واعتدل البياض والسّواد بمقدار، واستقامت خطوطها، وتـــدفّقت فيها أنهار قدرها شطوطها، فشمخت إعجاباً، وجمعت شيباً وشباباً"[2]. فطابق بين الليل والنهار، وبين البياض والسواد، وبين الشّيب والشّباب.

ومن نثره أيضاً في وصف النرد:

"وفصوصـــه تجـــيء مـــثل القضاء والقدر في تصريف الدهر، وخصاله سبعة كالجمعـــة، وبيضه وسوده مثل الليالي والأيام، وكلّه نقص ويطلب فيه التمام))[3]. فتجده طابق بين البيض والسود، وبين الليالي والأيام، وين النقص والتمام.

ومن نثر محيي الدّين بن عبد الظاهر من تقليد بقضاة الشافعيّة:

"فكم أرضى بني الأنام عن الأيّام، وكم أغضى حياءً مع قدرته على الانتقام، وكم أمضـــى لله حكماً لانفصال لعروته ولا انفصام، وكم قضى بالجور في ماله وبالعدل في الأيـــتام، فلو استعداه الليل على النهار لأنصفه من تعدّيه، ولم يواجه لما ستره عليه من تعدّيه في دياجيه، فهو الصادع بما أمر الله به ولو على نفسه، والمستردّ الحقوق الذاهبة مـــن غيـــر محاباة حتى لغده من يومه، ويومه من أمسه"[4]. فطابق بين الجور والعدل، وبين الليل والنهار، وبين استعداه وأنصفه، وبين غده ويومه وأمسه.

---

(1) المصدر السابق، ص371.

(2) العمريّ: التعريف، ص337.

(3) المصدر نفسه، ص323-324.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، 11/176-177.

ولـــــه مـــن توقيع بتدريس: "فهو الأصل ومن سواه الفروع، وهم الأثماد وهو الينبوع"[1]، فطابق بين الأصل والفروع، وين الأثماد والينبوع، ومن الرسالة ذاتها: "هو منتهـــى رغـــبة الراغب، ومشتهى منية الطالب، ومن إذا أضاءت ليالي النفوس بأقمار فـــتاويه قـــيل بياض العطايا في سواد المطالب، ومن تتّفق الآراء على أنه لسنّ الكهولة شـــيخ المذاهب"[2]، فطابق بين بياض وسواد، وبين العطايا والمطالب، وفي ذلك مقابلة أيضاً، وطابق بين الكهولة والشيخ.

ومن نثر ابن الورديّ في مفاخرة بين السّيف والقلم:

"يفاخـــر – وهـــو قائم عن الشمال – الجالس على اليمين، أنا مخصوص بالري، وأنـــت مخصـــوص بالصـــدى، أنا آلة الحياة، وأنت آلة الردى، ما لنت إلاّ بعد دخول الســـعير، وما حدّدت إلاّ عن ذنب كبير000 أنت للرهب وأنا للرغب، إذا كان بصرك اليوم حديداً، فبصري ماء ذهب، أين تقليدك من اجتهادي؟ وأين نجاسة دمك من طهارة مـــدادي؟"[3]، فطابق بين الرّي والصدى، وبين الحياة والردى، وبين الرهب والرغب، وبين نجاسة وطهارة، إضافة إلى مقابلة قائم عن الشمال، الجالس على اليمين.

وقد أكثر الصفديّ في نثره من هذه الحلية، فقال من رسالة في وصف النيل:

"ويعمّه بكل وارد يقص عليه حديثاً، جعل البرّ بحراً، وملأ البحر برّاً، أصدرناها إلـــى مقامـــه الكريم تجدّد رعي عهوده، وتفضّ سلاماً يتردّد إليه تردّد أفواج البحر في انحـــداره وصـــعوده"[4]، فطابـــق بـــين البحر والبر، وبين تجدّد وتفضّ، وبين انحداره وصـــعوده. ومـــن الرســـالة ذاتهـــا: "فبيـــنا هو في أقصى الجنوب إذا هو في أقصى الشمال"[5]، فطابق بين الجنوب والشمال.

---

(1) المصدر السابق، 233/11.

(2) المصدر نفسه، 233/11.

(3) ابن الورديّ: الديوان، ص81.

(4) الصفديّ: أعيان العصر، 330/4.

(5) المصدر نفسه، 330/4.

ومن منشور له: "شهادة ترغم معاطى الكفر والضّلال ونعلي بها كلمة الإيمان بصدور البيض البتر وكعوب السمر الطوال، ونطلع بها في ليل العجاج الظلم أسنة الذوابل تتّقد كالذبال"[1]، فالناظر في الفقرة يجده يطابق بين البيض والسمر، وبين البتر والطوال، وبين الصدور والكعوب. وهناك مقابلة في "بصدور البيض البتر وكعوب السمر الطوال.

ومن توقيع بالحسبة: "فتمّم نقصها بكمالك، ومشِّ النّاس فيها على أقوم المسالك، وأقم المهابة؛ فإنّها ترعى هؤلاء الرعاع، وما لك فيها إلاّ مذهب مالك، وأفعل ما تقتضيه معرفتك من احتكار ومنع، وانخفاض سعر ورفع، وتحرير ما يخرج من دار الضرب من النقود، وتصحيح المعيار ... وقد يتغطّى الزين بالرين، ويشبه الشيء الحسن بالشين"[2].

فطابق بين النقص والكمال، وبين انخفاض ورفع، وبين الشين والحسن، وله من رسالة شوق:

"ويهزّ الواقف على معانيه بالطرب من قرنه إلى قدمه، ويتحيّر الناظر فيه لتردّده بين روض وأفق، ويتخيّر الماهر من لفظه تاجاً لفرق أو قلادة لعنق"[3]. فطابق بين قرنه وقدمه، وبين روض وأُفق.

والأمثلة كثيرة على الطباق في نثرهم، والنّاظر فيه لا يجده متكلّفاً ومصطنعاً في الأغلب، بل يجده مساهماً في توضيح المعاني وكشف غوامضها، إضافة إلى ذلك يكمن حسنه في جمع الضدّين في العبارة الواحدة، فعند ذكر المعنى وضدّه في السياق الواحد تجتمع أطراف المعاني، وتكتمل الصورة في الخيال.

---

(1) المصدر السابق، 648/4.

(2) المصدر نفسه، 648/4.

(3) المصدر نفسه، 226/5.

التورية:

تُعـدُ الـتورية أو المغالطة المعنويّة من المحسّنات البديعيّة التي تخصّ الجانب المعنوي، وحقيقتها أن يذكر معنى من المعاني له مثل في شيء آخر ونقيض، والنقيض أحسن موقعاً وألطف مأخذاً[1]، وذكر الحلبيّ أنّ "الإيهام ويقال له التورية والتخييل، وهو أن تذكـر ألفاظـاً لها معانٍ قريبة وبعيدة، فإذا سمعها الإنسان سبق إلى فهمه القريب، ومراد المتكلّم البعيد"[2]، وفي المعنى ذاته قال القزويني: "وتسمّى الإيهام، وهي أن يطلق لفظ له معنيان قريب وبعيد، ويراد به البعيد منهما"[3]. وذكر الصفديّ عدّة آراء وردت عـند سـابقيه في حدّ التورية حشدها في كتابه فضّ الختام عن التورية والاستخدام[4]، وبـيّن ابـن حجّة الحمويّ حدّها قائلاً: "التورية: أن يذكر المتكلّم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقـيان أو حقيقة ومجاز أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفيّة، فيريد المتكلّم المعنى البعيد ويورّي عنه بالمعنى القريب"[5].

والحقيقة أنّ هذه الآراء جميعها تصبّ في بوتقة واحدة، وتعبّر عن فكرة واحدة، وهـي استخدام كلمة في الشعر أو النثر تحتمل معنيين، فيقصد الكاتب إلى أبعدهما عن الـذهن ليـتوهّم السـامع أنّ المعنى المراد القريب لفهمه الأولي، وقد كثر تداول هذه الحليـة في العصر المملوكي، وزاد إعجاب الأدباء بها، وربّما كان سرّ ذلك الإعجاب يكمن في التعبير عن الواقع بطرق أكثر تستّراً وخفاءً، ولكنّ هذا التفسير لا يبرّر كثرة انتشارها وشهرتها بين الأدباء، وحينئذٍ لا بُدّ من القول هنا بإظهار البراعة والتسابق في حيـز قصب السبق والظّفر. فالأدباء يتنافسون فيما بينهم في الإكثار منها لبيان براعتهم وقدرتهم على الإتيان بها.

(1) انظر ابن الأثير: المثل السائر، 215/2.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص249.

(3) القزويني: الإيضاح، ص299.

(4) انظـر الصفديّ: فضّ الختام عن التورية والاستخدام، دراسة وتحقيق المحمدي عبد العزيز الحناوي، ط1، 1399هـ/1979م، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ص152-174.

(5) ابن حجّة الحمويّ: خزانة الأدب، 39/2.

وقد اهتمّ الأدباء بالتورية أكثر من غيرها، فذكر ابن الأثير -وهو سابق عليهم- جماليات تلك الحلية قائلاً: "وهذا النّوع من أحلى ما استعمل من الكلام وألطفه لِمَا فيه من التورية"[1]. وقد ذهب الصفديّ إلى أبعد من ذلك عندما عدّها من عيون البديع قائلاً: "ومن البديع ما هو موجود ومفقود، ومقبول ومردود، فهو يوجد أحياناً ويعدم أخرى، ويعطي إنساناً جزعاً، وآخر درّاً، ومنه ما هو نادر الوقوع ملحق بالمستحيل الممنوع، وهو نوع التورية والاستخدام الذي تزلّ فيه أقدام الورود والأقدام، وتقف الأفهام حسرى دون غايته عن مرامي المرام"[2].

وممّا دلّ على ولع القوم به ما ذكره الصفديّ وعناه بقوله: "وقد حافظ على التورية كثير من المتأخّرين، وسلك سبيلها جماعة من النّاظمين والنّاثرين، وأظن القاضي الفاضل -رحمه الله- ممّن ذلّل صعابها، ومهّد بالأمن مخاوفها وشعابها، وأنزل النّاس ساحتها ورحابها حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره"[3].

وفي المعنى ذاته وبكامل التأييد نهج ابن حجّة الحمويّ الذي كان بالأمس في الجناس يذمّه فقال: "ولهذا وقع الإجماع على أنّ المتأخّرين هم الذين سموا إلى أُفق التورية وأطلعوا شموسها، ومازجوا بها أهل الذّوق السليم، لمّا أرادوا كؤوسها، وقيل إنّ الفاضل هو الذي عصر سلافة التورية لأهل عصره، وتقدّم على المتقدّمين بما أودع منها في نظمه ونثره، فإنّه رحمه الله تعالى كشف بعد طول التحجّب ستر حجابها، وأنزل النّاس بعد تمهيدها بساحتها ورحابها"[4].

ومن خلال هذه الآراء التي أبدت إعجاباً كبيراً بالتورية وعدّتها من أنفس المحسّنات البديعيّة لِمَا فيها من اعتبارات معنويّة وفكريّة وسياسيّة واجتماعيّة لِمَا في التورية من غموض وتمويه؛ ولذا فإنّ الصفديّ وابن حجّة عدّا التورية من مفاخر

(1) ابن الأثير: المثل السائر، 215/2.

(2) الصفديّ: فضّ الختام، ص119-120.

(3) المصدر نفسه، ص124.

(4) ابن حجّة الحمويّ: خزانة الأدب، 43/2.

المتأخّـــرين، ومـــن الإيجابيات التي تحسب من حُسن صنيعهم؛ ولذا أثنيا على القاضي الفاضل الذي اعتصر سلافتها، ومهّد سبيلها لمن جاء بعده، وهذا يؤكّد من جديد سلوكهم السبيل الذي انتهجه الفاضل في ترسّله.

ومهمـــا يكـــن مـــن إعجـــابهم بهذه الحلية، فإنّهم تنافسوا في تصيّدها وتضمينها منظومهم ومنثورهم، فمن قول لابن نباتة في رسالة استماحة حوائج:

"وينهـــي ورود مشـــرّفة مـــولانا القـــديم فضلها، الكريم وصلها وأصلها، فوقف المملوك عليها، وأصغى بجملته إليها، وعلم ما رسم به مولانا، وأشار إليه تبياناً، وكذلك بلّغه مملوكه الولد فلان المشافهة الكريمة، فحبّذا من صاحب السرّ إسراراً وإعلاناً"[1].

فأنـــت ترى التورية في: جملته، ورسم، وصاحب السرّ، فهذه المفردات لها معانٍ بعيدة وقريبة.

ومن نثره أيضاً في رسالة شوق:

"وقـــد جهّـــزنا علـــى يدّ فلان وحمّله من رسائل الشّوق أوفى وأوفر من رسائل الصّفا، وسأل الإصغاء والملاحظة من مولى كجاره النيل، معروف المنافع والوفا"[2].

فالنّاظـــر يـــرى أنّ في رسائل الصّفا، وفي الوفا تورية، فلو أجريت الأول لكان لمعنى رسائل الصّفا معنيان: القريب المودّة والشّوق والبعيد إخوان الصّفا، بينما المعنى الأول القريب للوفا ضدّ الغدر، والمعنى البعيد وفاء النيل وبلوغ المقياس.

ومن نثره كذلك من رسالة عيادة:

"وتناول كأس ألفاظه الصريحة، وإذا بقانون المزاج قد همَّ اعتداله، وكتاب الشفاء والـــنجاة قد تسنّت فوائد إقباله، فتميّز حال الصحّة من المرض، واستعمل جوهر الألفاظ فعـــزم علـــى زوالـــه العرض، وبلّغ الولد فلان المشافهة، وكل مولانا مبتدأة ومبتدعة،

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 182/9.

(2) المصدر نفسه، 146/9.

والمملوك جوابها، وكل أجوبته منوّلة منوّعة، شكر الله عوارف مولانا المتّصلة، ورُسل افــتقاده التي منها العائد ومنها الصلّة"(1). فتجد أنّ الكاتب أكثر من التوريات هنا، حيث وردت ألفاظ كثيرة يمكن أن تدلّ على معنيين مثل: قانون، كتاب الشفاء، العائد، الصلّة. فالقانون وكتاب الشفاء من كتب الطبّ، والعائدة الصلة من مصطلحات النحو.

ومن نثر الحلبيّ في وصف حصن:

"لا يعلوه من مسمّى الطّير غير نسر الفلك ومرزمه، ولا يرمق متبرّجات بروجه غيــر عــين شــمّه يتهيّب عقاب الجوّ قطع عقابه، وتقف الرّياح حسرى إذا توقّلت في هضباته، تخاف العيون إذا رمقته سلوك ما دونه من المحاجر"(2). فالنّاظر في الفقرة يجد بعــض التوريات: كنسر الفلك والمرزمة والمحاجر، ومن نثره كذلك في رسالة وصف صيد:

"ومعنا غلمة نحن بسهامهم منها أوثق، وهم بإصابة شواكل المراد من كل ما ذكر يحــذق، إذا أخذ كل منهم حنينته أرانا القمر في القوس، وإن نظم رميته قيل هذا حبيب، وإن لم يكن ابن أوس فما لاح طائر إلاّ وله السهام أجل"(3)، فإنّ القارئ يجد التورية في حبيب وأجل.

ومن نثر ابن الورديّ في تعزية:

"وينهــي أنّه بلغ المملوك انهداد الطود الشّامخ، وزوال الجبل الباذخ، الذي بكته السماء والأرض، وقابلت فيه المكروه بالندب، وذلك فرض ... وساواه في حزنه الوارد والصــادر"(4). فالقــارئ يلحــظ أنّ ابــن الورديّ ورّى بألفاظ الفقه: المكروه والندب والغرض، إضافة إلى مصطلحات ديوان الإنشاء: الصادر والوارد.

---

(1) المصدر السابق، 214/9.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص349.

(3) المصدر نفسه، ص348.

(4) ابن الورديّ: الديوان، ص104.

ومن نثره أيضاً في منح إجازة:

"ويقــول الزجاجــيّ أيّهــا الشّاب، قد أخملت جواهرك قوارير صرحي الممرّد، ويــنادي ابن الحديد: يا ويلتي حتى الحديد سطا عليه لسانك والمبرد ... ويرفرف عليه ابــن عصفور بجناحيه، ويحلف أنّه الخليفة من بعده، بتعمّق يرهف حروف الحروف، وينصف حتى لا يعدو ثعلب ولا أكبر منه على خروف"(1).

فالناظــر فــي الفقــرة يجد ابن الورديّ قد تلاعب في هذه الإجازة بأعلام النحو واللغــة علــى سبيل التورية، فتجد: الزجاجي، والمبرِّد، وابن عصفور، وابن خاروف، وثعلــب، وكل هذه الأسماء لها معنى قريب ومعنى بعيد، فالتورية حاصلة على ضعفها في السياق.

ومن نثر محي الدّين بن عبد الظاهر قوله من توقيع بتدريس:

"والله تعالــى يعمر بسيادته معالم الدّين وأكنافه، ويزيّن بفضله المتين أوساط كل مصــر وأطــرافه، ويضيف إليه من المستفيدين مَنْ بإرفاقه وإشفاقه يكون عيشه خفضاً بــتلك الإضــافة، ويجعله لا يخصّص صنوّه بمعهد دون معهد ولا بمسافة دون مسافة ويبقيه ومنفعته إلى سارية سارية الإطافة واللطافة وألطافه بهذه الولاية تقول لكل طالب في القرافة: ألق رافه"(2). فتجد من التوريات: كل مصر وأطرافه، حيث مصر تدلّ على أي بلد أو قطر مصر، خفض، الإضافة، سارية، ألق رافه.

ومن نثر العمريّ في وصف المقصّ:

"وذكر هنا تبعاً، وهو الذي طالما واصله المرء فقطع، وجهد فلم يقع في كل يدّ له غير درهم فاقتنع، روحان في جسد، واثنان بقلب واحد خلا من حسد، كم صاح فأصبح

---

(1) المصدر السابق، ص101.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 234/11.

كل ذي شقّة بعيدة به صاعقاً، وجثا بين القوم على ركبتيه ثمّ قصّ قصّاً صادقاً"[1]، فتجد التورية في قصٍّ قصّاً صادقاً.

ومن نثر الصفدي – صاحب فض الختام عن التورية والاستخدام الذي لم يضمّنه مـــن نثره قليلاً ولا كثيراً– ما جاء في رسالة مدح: "يقبّل الأرض، وينهي ورود المثال الكريم، الذي فضح كماله القمر وسلب بسحره الألباب وقمر، وأحيا رسم البلاغة، فساد بما شاد وعمر، وعمى غمام فضله وسقى رياض الفصاحة وهمر"[2].

فـــورّى الصفدي في هذه الفقرة بلفظتين: قمر وشاد، ومن نثره أيضاً ما جاء من توقـــيع بنظر: "فضلاً عمَّن يتنقل في المباشرات من البشر، وكم كانت الأموال جمادى فأعادهـــا ربيعاً، غرّد به طائر الإقبال في الجهات وصفر"[3]، فأجرى التورية في أسماء الأشهر مثل: جمادى وربيع وصفر.

وله من رسالة استجازة:

"المتكلّم الذي ذهلت بصائر أولي المنطق نحوه، وأنتجت مقدّماته المطلوب عنوة، ووقـــف الســـيف عـــند حدّه، فما للآمدي في مداه حظوة، وحاز رتب النهاية، فما لأبي المعالـــي بعـــدها خطـــوة، فهـــو الـــرازي علـــى الرازي؛ لأنّ قطب علوه من مصره ومحصولـــه ذهب دخل أوانه وعصره، والفقيه الذي رفع لصاحب الموطأ أعلام مذهبه مُذهـــبة، فمالـــك عـــنه رضوان"[4]. فهناك من الألفاظ محتملة التورية: حدّه، المعالي، الرازي، مصره، عصره، مالك، رضوان.

ومهمـــا يكن من أمر التورية، فإنّ الكتّاب قد ولعوا بها، ولم نأت هنا إلاّ بالنزر القليل، والنّاظر في رسائلهم يجد هذه الحلية تفصح عن أمرٍ ذا بال، وهو إظهار حذاقتهم

---

(1) العمري: التعريف، ص321.

(2) الصفدي: أعيان العصر، 406/4.

(3) المصدر نفسه، 664/2.

(4) المصدر نفسه، 155/5.

وبراعتهم في تصيّد فرائد تلك التوريات؛ لأنّها تعدّ لديهم من حلي الكتابة والترسّل، وفي الحقـيقة لا يقـنع كثيـراً تفسير كثرة استخدام تلك الحلية بالهروب من مباشرة الساسة والأوضاع السائدة في زمانهم، وإنّما تعلّل هذه الظاهرة بإعجابهم بكل ما أتى به القاضي الفاضل.

ولـم يـتوقّف القـول عند هذه الفنون، بل هناك ألوانٌ كثيرة من الحلى البديعيّة، بعضـها سـيتم الوقـوف عليه في مبحث التناص كالاقتباس والتضمين وحلّ المنظوم، وإضافة لما تمّ الحديث عنه، نوجز القول في حسن البدء والختام.

إنّ المقصـود بحسن الاستهلال أن يجمل الكاتب الغرض الأساسي في استهلاله؛ لأنّ ذلك أول ما يقرع السمع، فمن ذلك قول ابن نباتة في شفاعة:

"وينهـي بعد ولاء يحكم على القلوب شافع جماله، وثناء يجرّ على أكمام الزهر فضـل أذيالـه: أنّ العلوم الكريمة محيطة بإيجاب حقّ من هاجر إلى بابها، وشكا غُلّة الفاقة إلى مَنْهل مُنهلٍ سحابها"[1].

فلا شكّ أنّ ابن نباتة أفصح عن الغرض في بداية الأمر، حيث أشار إلى الغرض من خلال حديثه عن الشفاعة والكرم والسّخاء.

ومن كلام الحلبيّ أيضاً من شفاعة في خلاص مسجون: "فسّح الله في مدّته وسهّل أداء ما يجب من شكر نعمته، وألزم الألسنة بحمده، والقلوب بمحبّته، وجعله مفرِّجاً كل كـرب، ومسـهِّلاً مـن المقاصد كل صعب"[2]، ففي هذا الاستهلال دقة متناهية وحسن اختيار للألفاظ، فكل الجمل التي اعتمدها تشي بالشّفاعة.

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 138/9.

(2) المصدر نفسه، 136/9.

أمّا حُسن الختام، فهو على الشاكلة نفسها، إلاّ أنّ الاهتمام يبرز بالخاتمة، حيث إنّ آخـر مـا يقرع الأسماع ما يكون نهاية الكلام؛ ولذا سعوا إلى حُسن اختياره ومناسبته للموضوع.

فمن ذلك قول الصفديّ من رسالة في وصف وفاء النيل:

"ومـرّ كالسّـهم في خليجة من قسي قناطره، وخنق المحل بعبراته في محاجره، وبشّـر أنّ آلاف الأمـوال أضعاف ما فيه من الأمواج، وخبّرت رقاعه أنّه لم يبقَ فيها محتال ولا محتاج فأكمل الستة عشرة ذراعاً"[1].

فقـد ألمـح الكاتـب إلى النهاية بعبارة تشي بالغرض، وهي البشارة بوفاء النّيل والخير العميم.

ومن كلام العمريّ في وصف الشّتاء والثّلوج:

"وجعل حظّ مولانا من لوافحه ما يذكيه ذهنه من ضرامه، ومن سوافحه ما يولّده فكـره مـن توأمه، وعوّضنا إياه بالصّيف، والله يتقبّل، وأراحنا من هذا الشّتاء، ومشي غمامه المتبختر بكمّه المُسْبَل بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى"[2].

فقـد أشـعر العمـريّ بالخـتام، وأوجـز وأجمل في اختيار خاتمته، حيث أتى بالغـرض الأساسي وهو شدّة المعاناة من مقاساة البرد الشّديد.

والقـول فـي البديع واهتمامهم به لا يصفه واصف، فقد أغرق القوم به، وحفلوا بأسـبابه، وتباروا في قطف أزهاره؛ ولذا أرجعوا الفضل إلى الفاضل، وترسّموا أثره، وعدّوه رائداً لهم وملهماً لأقلامهم في هذا البّاب.

(1) الصفديّ: أعيان العصر، 330/4.

(2) المصدر نفسه، 428/1.

ثالثاً: التّناص

إنّ قضية تعالق النصوص أو تقاطعها لم تكن وليدة العصر الحديث، لا بل لم تكن مسـرحاً فقـط لـنقّاد وأدباء هذا العصر ، بل كانت مسألة ذات أهميّة بالغة في أذهان القـدماء، فهذه القضية لا تغادر أذهان المبدعين أو النقّاد في أي عصر، فمسألة الإبداع أرّقت المبدعين والنقّاد على حدّ سواء.

ولمّا كان الفضل دائماً للمتقدّم، شغلت النقّاد والمفكرين قضية المعنى البكر، فقُدِّم كثيـر مـن الأدبـاء بسبب أعمالهم التي لم يسبقهم إليها أحد، فقد قُدِّم امرؤ القيس على الشعراء لاعتقاد النقّاد بأنّه قد سبق الشعراء إلى كثير من الصور والتقاليد الفنيّة.

ومـن هـنا فقضية التعالق أو التقاطع أو النصيّة برزت منذ فجر تاريخ الآداب، حتـى إنّـه يمكن القول أو الاستئناس إلى القول بعدم وجود نصّ بكر صافٍ لم تكدره شوائب النصوص الأخرى، والسبب في ذلك يعود إلى طبيعة النفس البشرية التي تتشابه فـي حالاتها جميعها في التعامل مع الأشياء، فهناك قضايا إنسانيّة كبرى تنضوي تحتها الذّات الفرديّة. ولمّا كان النصّ جزءاً من نفس مبدعه، فلا بدّ أن يكون النصّ معبراً عن حاجـات إنسـانيّة كبرى كامنة في مضمونه، ويمكن أن تطفو على سطح النصّ الذّات الفرديّة التي قد تحمل الفِكَر الإنسانيّة الكبرى.

والمسألة الأهمّ في هذه القضية وسيلة حمل الأفكار وهي اللغة، فاللغة أداة لحمل المعاني والمضامين، وبها يعبّر الفرد عن حاجاته ورغباته، فأي معنى إنساني عبّر عنه أديـب أو مـبدع ما لا بدّ له من شكل ما يؤدّيه به، وهذا المعنى إذا أراد أن يعبّر عنه أديب آخر، فلا بدّ أن يتقاطع مع المعنى الأول في بعض نسيجه، لا بلّ قد يعمد الأديب التالي إلى نقل لغة الأديب الأوّل لزيادة التأثير في النفس، وخاصة إذا كان النصّ الأوّل قمّة لا تطاول.

وبناءً على ما تقدّم، فإنّ التناص ظاهرة نقديّة تعدّ غربيّة المولد والمنشأ وإن كان لها أرهاصاتها في النقد الأدبي العربي القديم، إلاّ أنّها ظلّت مهملة مختفية تحت مسميات قريبة منه مثل الاقتباس والاستشهاد والتضمين والسرقة وحل منظوم الشعر.

ومع تطوّر الدراسات التي اجتاحت عالم الأدب في القرن العشرين تعدّدت النظريات والمناهج النقدية التي عُنيت بالدراسات النقدية وكان من نتاج هذا التطوّر ظهور مفاهيم نقدية حديثة كثيرة.

وجاء التناص في بدايته عاماً تنقصه الدقّة في تحديد ملامحه، شأنه في ذلك شأن معظم المصطلحات النقدية الرياديّة، كالأسلوبية والشاعرية والبنيوية،[1] وهو نقل لتعبيرات سابقة أو متزامنة أو اقتطاع أو تحويل كما ترى جوليا كرستيفا[2]. فهو يندرج في إشكالية الإنتاجية النصيّة التي تتبلور كعمل النص، وبذا يكون التناص هو ذلك التقاطع داخل النص لتعبير مأخوذ من نصوص أخرى وإنّه النقل لتعبيرات سابقة أو متزامنة[3].

ومن وجهة نظر الشكلانيين يرى (تودروف) أنّ كل ظاهرة أسلوبية تنبثق من نصّ ما هي قضية وجود وحضور في كل أسلوب جديد، فتنشأ داخلياً كجدليّة تقويضية للنص الآخر، أو أنّها معارضة أسلوبية مخفية للأسلوب الآخر[4].

فالقضية عنده قضية صراع وتشاحن وبقاء ووجود، فكل نص يجتاح النص السابق عليه لإثبات وجوده ومخالفته أو إخفاء الآخر، وهذا الصراع والاجتياح يعتمد على الآلية التي يستخدمها المبدع لنصّه الحدث، فكما يشير رولان بارت فإنّ النصوص الغائبة التي تشكّل التناص يتفاوت إنعكاسها في النص الجديد حسب ثقافة

---

(1) انظر الزعبي، أحمد: مقالات في الأدب والنقد، مكتبة الكتاني، 1993، ص77.

(2) انظر المغيض، تركي: التناص في معارضات البارودي، مجلة أبحاث اليرموك، مجلد 9، عدد2، 1991، ص86.

(3) المرجع نفسه، ص87.

(4) المرجع نفسه، ص88.

المتلقّي "فالنصوص الأخرى تنعكس فيه بمستويات مختلفة ومتفاوتة بأنماط ليست عسيرة الفهم بطريقة أو بأخرى، إذ نتعرّف فيها نصوص الثقافة السالفة والحالية"[1].

فهذه العلاقات التي شكّلت هذا النص، والتي كانت متشابكة ومتضافرة تقود ذهن المتلقّي إلى تفكيك النص وتشريحه كي تمنحه وجوده ومعناه، فالنصّ الواحد قد يكون نصوصاً كثيرة حسب المتلقّي الذي يوجّه تلك التناصات حسب فهمه وتحليله لها. فالنصّ ما هو إلاّ نسيج من نصوص أخرى سابقة للحظة إبداعه.

ولهذا يعرّف جيني التناص بأنّه النص الذي يتشرّب تعدّدية من النصوص مع بقائه ممركزاً بمعنى خاص به[2].

وقد تناول هذا المصطلح عدد من النقّاد العرب بالبحث والتمحيص وتحديد مفهومه، فتحدّثوا عن حدّه النظريّ وتطبيقه على النصوص الأدبية من شعر أو نثر، فقد تشابهت رؤيتهم في تحديد أُطره.

فاستخلص محمد مفتاح حدّ التناص من خلال دراسة آراء كثير من النقاد الغربيين مع تنبيهه على أنّهم لم يصوغوا تعريفاً جامعاً له، إلاّ أنّه توصّل إلى أنّ التناص هو "تعالق (الدخول في علاقة) نصوص مع نصّ حدث بكيفيّات مختلفة"[3].

وقد أشار محمد بنيّس إلى أنّ صياغة جديدة تمّت للتناص فسمّاه النصّ الغائب، ويرى أنّ النصّ الشعري بنية لغوية متميّزة ليست منفصلة عن العلاقات الخارجية. فالنصوص الأخرى وهذه النصوص هي ما يسمّيها بالنصّ الغائب، وينظر إلى النصّ الشعري على أنّه عبارة عن شبكة تلتقي فيها عدّة نصوص لا تقف عند حدّ النص الشعري بالضرورة؛ لأنّه يعدّها حصيلة من النصوص يصعب تحديدها فهي متداخلة

---

(1) المرجع السابق، ص88.

(2) انظر جهاد، كاظم: أدونيس منتحلاً، مكتبة مدبولي، 1993، ص34.

(3) مفتاح، محمد: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1985، ص121.

ومتمازجة إلى درجة كبيرة، إذ يختلط الحديث بالقديم والعلمي بالأدبي واليومي بالخاص والذاتي بالموضوعي(1).

وإذا مـا تمّـت مـوازنة ما قاله بارث وما يراه بنيّس يجد الاقتراب في المأخذ، فكلاهمـا يـنصّ علـى أنّ النصّ نسيج من نصوص أخرى متداخلة ومتجاورة يصعب تحديـدها أو حتى فصلها، فيختلط فيها الخطاب الحديث بالقديم. فالنصّ الجديد محصلة لنصوص سابقة، وهذا ما يراه معظم من تحدّثوا عن التناص.

ويـبّن صـبري حافظ أنّ العمل الشعري يتفاعل تناصياً مع كل المعطيات، أي معطـيات التـراث النصـيّ أو الخبرات التناصية في الواقع الذي ينبثق منه، ويتفاعل معـه، ويـؤكّد أنّـه لا يـوجد نصّ من فراغ ولا ينشأ في فراغ، بل في عالم مليء بالنصوص، ومن ثمّة يحاول الحلول محل هذه النصوص أو إزاحتها من مكانها، وخلال عملـية الإحـلال أو الإزاحـة هذه قد يقع النص في ظل نصّ أو نصوص أخرى، وقد يتصارع مع بعضها، وقد يتمكّن من الإجهاز على بعضها الاخر(2).

فالـنصّ عـنده ينطوي على مستويات متباينة مختلفة ترسّبت فيه تناصياً الواحد عقـب الآخـر، دون وعي منه أو من مؤلّفه، وبتحويل هذه الترسّبات يصعب إرجاعه إلـى مصادره التي تشكّل منها، فقد ذابت هذه المصادر كليّة في الأنا التي تتعامل مع النص(3). فالنصّ لديه يلفت اهتمام المتلقّي إلى نصوص غائبة وسابقة، وإلى التخلّي عن أغلوطة استقلالية النص؛ لأنّ أي نص يكتسب ما يحقّقه من معنى بقوة كل ما كتب قبله مـن نصوص(4). ولكن النصوص السابقة لا سبيل لإخفائها نهائياً بل لا بُدّ من أن يكون لهـا حضور "فالنصوص المتناصة مع نص بعينه تمتلك حضوراً لا يمكن تحاشيه، ولا يمكـن نفـيه، فتلك المداخلات النصيّة تتكشّف على سطح النصّ ولكنها – على حسب

(1) انظر بنيّس، محمد: ظاهر الشعر العربي المعاصر في المغرب، ط2، 1985، دار التنوير، بيروت، ص251.
(2) انظر حافظ، صبري: أفق الخطاب النقدي (دراسات نظرية وقراءات تطبيقية)، ط1، 1986، دار الشرقيات، القاهرة، ص58.
(3) انظر المرجع نفسه، ص58.
(4) انظر المرجع نفسه، ص58.

منشئه- لا تظلّ منفصلة وسائبة، وإنما تخضع لتحوّلات ومتحولات يتمثّلها النصّ والذي هو جملة توزيعات ملفوظة سابقة عليه أو معايشة له"[1].

والتناص كما يذكر جعفر العلاق لا يقصر حركة النصّ على النصوص الأخرى فقط، بل يتجاوزها إلى مظاهر غير نصيّة كثيرة، فقد يكون التناص إيماءة مباشرة أو غائمة إلى عمل كامل أو مجتزأ، وقد يكون كذلك تلميحاً إلى شخصية أو مكان أو حادثة[2].

والكاتب أو المبدع لا يقوم باصطياد تلك النصوص بإحضارها أمامه وإخفائها في نصّه، بل يكون قد اختزل تلك النصوص أثناء تكوينه الثقافي، وتمثّله لتلك النصوص، فعندما ينشئ نصّه تتداخل النصوص وتتفاعل فيما بينها، وينفي بعضها الآخر حتى يخرج النصّ الجديد[3].

ويعزو المختار حسني التناص إلى الاستحضار، حيث تكون هناك علاقة تزامنيّة بين النصوص، فعن طريق الاستحضار وغالباً بالحضور الفعّال لنصّ داخل آخر بشكله الأكثر جلاءً وحرفية، وهي طريقة القدماء في الاستشهاد بالتوثيق أو بدونه، وعلى هذا تكون أقرب للسرقات الأدبية[4].

ومهما يكن من أمر التناص، فالمديني يقرّبه من النحت والابتكار للعديد من المصطلحات التي يصعب العثور على مصدرها، مثل إطار القراءة، ونحو التعرف وهو سلطة الامتصاص للمفاهيم وإعادة توزيعها ومركزتها، وهذا يأتي من الانسجام والتلاقي في لحظة الإبداع لعدد من الأبحاث المتفرّقة. فمفهوم التناص في رأيه يتّجه للاقتران

---

(1) عيد، رجاء: النص والتناص، علامات في النقد، مجلد 5، الجزء 18، 1995، ص179.

(2) انظر العلاق، جعفر: الشعر والتلقي (دراسات نقدية)، ط1، 1997، دار الشروق، ص132.

(3) انظر اصطيف، عبد النبي: التناص ظاهرة قديمة، راية مؤتة، مجلد 2، عدد2، 1992، ص50-54.

(4) حسني، المختار: من التناص إلى الإطراس، علامات في النقد، مجلد 7، جزء 25، 1997، ص180.

بمفهـوم الحقـل بوصـفه معارضـة سجالية لمفهوم البنية، حيث تعترض على أفكار الإدمـاج والاقتران والجدوليّة ووقائع الانقطاع، والهامش والتناقض والتمايز"[1].

والتـناص فـي أبسط صوره عند أحمد الزعبي "يعني أن يتضمّن نصّ أدبي ما نصوصـاً أو أفكـاراً أخرى سابقة عليه عن طريق الاقتباس أو التضمين أو التلميح أو الإشارة أو ما شابه ذلك من المقروء الثقافي لدى الأديب، بحيث تندمج هذه النصوص أو الأفكار مع النصّ الأصلي، وتندغم فيه لتشكّل نصّاً جديداً واحداً متكاملاً"[2].

ويرى الزعبي أنّ التناص ليس جديداً وإنّما هو موضوع له جذوره في الدراسات الـنقدية شـرقاً وغـرباً، ولكـن تحت مسمّيات ومصطلحات أخرى عديدة، فالاقتباس والتضـمين والاستشـهاد والقـرينة والتشبيه والمجاز والمعنى وما شابه ذلك في النقد العربي القديم تدخل في مفهوم التناص بصوره الحديثة[3].

وبمـا أنّ النثـر الفنـي فـي العصـر المملوكي كثر فيه الاقتباس والاستشهاد والتضـمين، وحـلّ المنظوم، يرى الباحث أن يدرس ذلك النثر دراسة نصيّة علماً أنّ تناصهم يندرج تحت ما يسمّى بالتناص المباشر، إذ يقتبسون النصّ بلغته التي ورد فيها مثل الآيات والأحاديث والأشعار والقصص[4]، إلاّ أنّ النثر في مجمله لا يخلو من بعض الإشارات إلى التناص غير المباشر الذي يعتمد الأفكار والإشارات الخفيّة.

تناص القرآن الكريم:

أكثـر الكتّاب في العصر المملوكيّ من الاتّكاء على القرآن الكريم؛ لأنّه يمثّل في أذهانهم قمّة البيان العربي، فهم يعدّونه المثل الأعلى في البيان وقمّة لا تطاول، فيأخذون منه ما يزيد كلامهم حُسناً وطلاوة، فضلاً على أنّ بعض قصص القرآن يمكن أن تُكَثَّف

(1) المديني، أحمد: في أصول الخطاب النقدي الجديد، ط2، 1989، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ص113.
(2) الزعبي: التناص نظرياً وتطبيقياً، ط1، 1995، مكتب الكتاني، إربد – الأردن، ص9.
(3) المرجع نفسه، ص15.
(4) المرجع نفسه، ص16.

في كلمة أو عبارة، فالكاتب قد يلجأ للتناص القرآني من أجل أن يضفي على نثره شيئاً مـــن القداسة والخلود. ولا شكّ أنّ الكاتب في الثقافة الإسلامية يتسرّب إلى وعيه بعض الأثر القرآني عند نسجه لنصّه النثري.

وتـــناص القرآن الكريم عند جلّ الكتّاب واضح جداً، إلاّ أنّه يدخل تحت ما يسمّى بالتناص المباشر الذي يعني الاقتباس والتضمين والاستشهاد وحلّ المنظوم.

ولهذا عرّف الحلبيّ أحد كتّاب ذلك العصر الاقتباس بأنه: "تضمين الكلام شيئاً من القــرآن الكـــريم والحـــديث الشـــريف، ولا ينبّه عليه للعلم به"(1)، ويعلّل الحلبيّ كثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم عند الكتّاب بقطع النزاع وإقامة الحجّة حيث قال: "ومن شرف الاستشهاد بالكتاب العزيز إقامة الحجّة وقطع النزاع وإذعان الخصم"(2).

ومهمـــا يكن، فإنّ التطرّق للآلية التي استخدموها عند تناصهم مع القرآن الكريم ستتوضّـــح من خلال تلك التناصات، فمثلاً من رسالة للحلبيّ في وصف هزيمة الأعداء "وحملنا عليهم حملة ألجأهم طوفانها إلى ذلك الجبل، وهل يعصم من أمر الله جبل"(3).

فـــي تلـــك الفقـــرة مـــن الرسالة تناص من الآية الكريمة ﴿قال سئاوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم﴾*، فقد تناص الكتاب مع الآيـــة الكـــريمة، فوظّف تلك الآية في سياق آخر ليزيد المشهد الدرامي حركة ونشاطاً وتصويراً، فالأعداء قد أحاط بهم جُند المسلمين من كل جانب حتى أصبحوا محصورين بـــين طوفان تلك الجموع؛ ولمّا كانت قد سُدّت عليهم الخناق، وتقطّعت بهم السُبل تبادر إلـــى ذهـــنه صورة طوفان نوح وصورة ابنه وقد صعد جبلاً يريد النجاة، ولمّا أنّ ذلك الجـــبل لم يأوه من ذلك الطوفان، فكذلك الحال في اعتصام الأعداء بذلك الجبل لا يقيهم

---

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص323.

(2) المصدر نفسه، ص75.

(3) انظر القلقشندي: صبح الأعشى، 191/I.

* سورة هود، آية43.

ومـــن توقيع أنشأه العمريّ بنظر الحسبة: "وفيك من الألمعيّة نور باهر، وكوكب زاهر، فلا حاجة إلى أن تلقى الوصايا أقلامها أيها يكفلك، ولا تنبّهك على زينة العفاف فيها وهي حُلَلُك"(1).

ففـــي هذا الجزء من التوقيع تناص من الآية الكريمة: ﴿وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهـــم أيهم يكفل مريم﴾*، فوظّف العمريّ معنى الآية في سياق الوصايا، ولكنّ الأمر مغايـــر تماماً، حيث تنافس النّاس في كفالة ووصاية تلك الفتاة القاصرة، التي في أمسّ الحاجـــة إلـــى المســـاعدة، ولكن الكاتب أعلى من شأن ممدوحه، حيث لا حاجة لكفالته وإحاطته بتلك الوصايا التي تنير الطريق له الذي يسلكه في تلك الوظيفة التي ألقيت على عاتقـــه، وإنّـــك لتشعر أنّ العمريّ وظّف هذه الآية لتدلّ على أنّ ممدوحه أعلى وأرفع مـــن أن تكـــتب له الوصايا، وفي ذلك خروج عن المعنى العام الذي تحمله الآية، بل هناك تضاد مطلق من النقيض إلى النقيض، فأراد من إدراج هذا التناص جلاء الفكرة. فالضـــدّ يظهـــر حسنه الضد، ومهما يكن فإنّ الكاتب لم يتناص بشكل مباشر، بل حذف كثيـــراً من مفردات الآية، وعكس المعنى لكن المفردات التي أشارت إلى الآية امتصّت المعنى العام الدّال على الوصاية والكفالة، وهذا اللون من التناص ما تصفه وداد القاضي بالتناقضات المتناظرة، أي مطّ التناقض إلى حدّ القلب أو العكس(2).

ومـــن توقيع بالزكاة من إنشاء ابن نباتة قوله: "علماً بأنّه الكافي إذا شدّ سدّ، وإذا قصر رأيه على الصنع الجميل مدّ، والخبير إذا جمع مالاً وعدّده كان مشكوراً"(3).

فقد تناص ابن نباتة مع الآية الكريمة ﴿الذي جمع مالاً وعدّده﴾*، فالتناص واضح، فقد جرّه الحديث عن جمع مال الزكاة وعدّه، والتدقيق في أموره إلى استحضار صورة

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 64/12.

* سورة آل عمران، آية 44.

(2) انظر القاضي، وداد: بشر بن أبي كبار البلوي، ط1، 1405هـ/1985م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص118.

(3) القلقشندي: صبح الأعشى، 305/12.

* سورة الهمزة، آية 2.

ذلـــك اللعين الوليد بن المغيرة الذي ذمّه الله تعالى ذاكراً صفّة الحرص من جمع المال وعـــدّه، فكـــلا الطـــرفين قامـــا بجمع المال ولكن الأول مذموم، والثاني مشكورٌ، ومن الطـــريف التناص مع تلك الآية، فالسياق الذي جاء به الكاتب يختلف تماماً عن السياق الـــذي نظـــم هـــذه الآيـــة، لا بل يناقضه، وهذا التناقض يخرج الآية عن حدّ الاقتباس المعروف ويجعلها أقرب إلى التناصية الحديثة، فضلاً من أنّ الكاتب لم يأتِ بالآية نصّاً، بـــل حـــوّر وحذف وزاد من ألفاظه حتى أصبحت من سياق كلامه، وقد نقل الآية من سياق الذمّ إلى سياق المدح، وهذا ما يُدعى بقلب الدلالة.

ولا يجـــد المتلقّي عنتاً في كشف خيوط ذلك التناصات حيث تخضع في معظمها إلـــى ما يسمّى بالتناص المباشر، ولا ينفي ذلك وجود بعض التناصات غير المباشرة، وتناص الآيات لا يتعدّى قضية الحذف أو التحوير والتبديل بما يناسب المعنى والسجع.

تناص الحديث الشريف:

لا يختلف تناص الحديث الشريف عند الكتّاب عن تناص آيات الذكر الحكيم؛ إلاّ أنّ تناصهم للحديث الشريف لا يصل إلى الكثرة التي وجدت في الآيات الكريمة، وربّما يعود الأمر لقداسة النصّ القرآني.

ومن ذلك ما كتبه الحلبيّ في رسالة يصف الخيل: "وينهي وصول ما أنعم به من الخيل التي وجد الخير في نواصيها، وتتّخذ صهواتها حصوناً يعتصم في الوغى بصياصيها"(1).

يلحظ في هذا الجزء من الرسالة تناص من الحديث الشريف "الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغنم"*، وقد ظهر الحديث جليّاً في هذه الفقرة على الرغم من حلّ ألفاظه، وتقدّم وتأخّر مفرداته، فالحلبيّ عمد إلى بعض مفردات ذلك الحديث ووظفها في نصّه ليشحنه بفكرة الحديث التي تعلي من شأن الخيل، وخاصة في ساحة الوغى، فهو يرمي إلى زيادة الاهتمام بالخيل كونها وسيلة التفوّق على الأعداء، فلما كانت الخيل هي أداة الحرب، فلا بدّ من الإشارة لتلك الحديث إبرازاً لأهميتها ووجوب رعايتها، وقد بقي الحديث واضحاً على الرغم من تعمّد الكاتب إخفاء معالمه في نصّه الجديد.

ومن رسالة له أيضاً في وصف رمي البندق: "ويتنعمون بوعثاء السفر في بلوغ الظفر، ويستصغرون ركوب الخطر في إدراك الوطر"(2)، فقد تناص الحلبيّ مع الحديث الشريف الخاص بدعاء السفر، فاستعار من الحديث مفردتين مع قلب دلالتيهما، فقد استعاذ -النبي صلى الله عليه وسلم- من وعثاء السفر؛ لِمَا فيه من المشقّة والتعب وتقلّب

---

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص344.

* البخاري، محمد بن إسماعيل (ت256هـ/869م): صحيح البخاري، نقد أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1958، المجلد الثاني، جزء4، ص34.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص354.

الأمور، ولكنّ الكاتب تمتّع بوعثاء السفر؛ لأنّ السفر هنا يختلف عن السفر المنصوص عليه في الحديث الشريف*. فالسفر في رسالة الحلبيّ جاء طلباً للرّاحة والاستجمام، وصفاء الرّوح، فهو سفر لطلب الصّيد، ولذا فهو يجلب الطمأنينة للنّفس والمتعة، فكلّما تعب الشخص في السفر صائداً، فقد اكتسب شيئاً من راحة النّفس وسلوّها.

وهنا يمكن القول بأنّ الحلبيّ قلب دلالة الحديث كي تتناسب مع الجوّ العام في سياق رسالته، وهذه الآلية إحدى وسائل الكتّاب، وهي أكثر شيوعاً في التناص، وخصوصاً في المحاكاة الساخرة؛ لِمَا فيه من عمل للتضاد يذهب بعكس الخطاب الأصلي المستدخل في علاقة تناصية(1).

ومن تهنئة بالحجّ من إنشاء ابن الورديّ:

"فقد طافت كعبة الجود بكعبة الوجود، وسعى ذو الصّفا والمروّة، بين الصّفا والمرْوة، وكان وادي محسِّر مفتوح السّين لرؤياه، فتأرّج بالذكيين من قلبه وريّاه، وأصبح أعداؤه محصرين، وأمسى إلى العلى من المحلّقين، وحسّاده من المقصّرين"(2).

لا شكّ أنّ ابن الورديّ تناص مع الحديث الشريف "اللهم ارحم المحلّقين ... (قالها ثلاثاً) والمقصّرين"** على الرغم ممّا في الرسالة من تورية في لفظتي المحلّقين والمقصّرين، فقد وظّف الكاتب اللفظتين في سياق رسالته ليشحن سياقه بمعنى الحديث الشريف الذي تجسّد في تلك المفردتين، فقد عبّر عن تفوّق ممدوحه بلفظة المحلّقين التي تحمل المعنى الأكثر إيجابيّة كما يرشد إليه السياق في الحديث، وجعل لفظة المقصّرين ذات المعنى الأقل إيجابيّة لحسّاد ممدوحه، وهنا التزم الكاتب السياق العام للحديث، حيث لم يقلب الدلالة، إلاّ أنّه تلاعب في السياق من حيث استخدامه للتورية، فالمعنى البعيد

---

* النوويّ، يحيى بن شرف (ت676هـ/1277م): رياض الصالحين من كلام سيّد المرسلين، أوضح معانيه مصطفى محمد عمارة، دار القلم، حلب، 1994، ص395-396.

(1) انظر جواد: أدونيس منتحلاً، ص55.

(2) ابن الورديّ: الديوان، ص62.

** البخاري: صحيح البخاري، 188/2.

الـذي قصـد إليه غير المعنى الذي يحمله سياق الحديث، فالمعنى الذي قصده الارتفاع والسـموّ، وكـذلك التقصـير عـن بلوغ الغاية والمرام. ومهما يكن، فإنّ ابن الوردي استحضر الحديث وتناص معه سواء قصد التورية أم لم يقصدها.

والملاحـظ علـى الكاتب تحوير الحديث وحذف معظم ألفاظه واختيار اللفظتين اللتـين شـحنتا بمعنى الحديث كاملاً، وقد أبقى الكاتب على السياق نفسه حيث لم يقلب دلالـة الألفـاظ بـل شحن النص بدلالة الحديث فالحلق أفضل من التقصير، ولذا منح ممدوحه فضيلة الحلق.

ومن توقيع بنقابة الأشراف من إنشاء الصفديّ قوله:

"ومـن كـان حازمـاً فليقسُ أحياناً على من يرحم، فقد دوّن أهل الباطل مقالات ابتدعوها وزخارف (لا يكب النّاس على مناخرهم في النّار إلاّ حصائد ألسنتهم) من تلك العقائد التي زرعوها"(1).

فيلحظ المتلقّي في هذه الفقرة تناص من الحديث الشريف الذي رواه معاذ بن جبل -رضـي الله عـنه- حيث قال: "قلت يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلّم به، فقال: ثكلتك أمّك! وهل يُكِبُّ النّاسَ على وجوههم إلاّ حصائدُ ألسنتهم"*.

والحقـيقة أنّ الصفديّ كان يتحدّث عن البدع والمقالات التي يذيعها النّاس حول سـيرة بعض الصحابة ومحاولات الطعن فيهم، فلم يجد الصفديّ أفضل من أن يوظّف ذلـك الحـديث، حيث اقتصر الأخذ على ما يخدم سياقه الذي يتحدّث فيه عن تلك البدع والمقالات. ولمّا كانت هذه البدع والمقالات من فعل اللسان والظنّ السيئ، استحضر ذلك الجوّ الذي قيل فيه ذلك الحديث، وقد أبقى الصفديّ على السياق العام للحديث ووظّفه في سـياقه الزاجر عن النميمة والغيبة والطعن والتجسّس، دون إحداث أي تغيير أو تحوير

(1) الصفدي: أعيان العصر، 354/3.

* النوويّ: رياض الصالحين، ص333.

فـــي المعنـــى واكتفى بآلية الحذف، مبقياً ما يخدم قضيته، ولم ينبّه على أنّه حديث بل أدرجه في سياق كلامه.

تناص الشعر:

أكثــر الكتّاب في العصر المملوكيّ من تناص الشعر الذي عُرِف في زمنهم بحلّ المنظوم؛ لرواجه في عصرهم، وقد نصَّ الحلبيّ على ذلك صراحة بقوله: "وكيفيّة الحلّ أن تتوخّى هدم البيت المنظوم، وحل فرائده من سلكه، ثمّ يرتّب تلك الفرائد وما شابهها تريب متمكّن، لم يحصره الوزن، ولا اضطرته القافية، ويبرزها في أحسن سلك، وأجمل قالــب، وأصــحّ ســبك، ويكملهـــا بما يناسبها من أنواع البديع، إذا أمكن ذلك من غير كلفة"[1].

والحلبــيّ مــن خلال نصّه السابق يبيّن كيفيّة توظيف الشعر في السياق النثري، فالعملــية ليســت يسيرة يتقنها جميع الكتّاب، بل تحتاج إلى مهارة وحذق، فهي صناعة وإعادة بناء من جديد، وقد ينتج معنى جديد يحتاج إلى سياق آخر مغاير للسياق الأول. ويشير الحلبيّ إلى ذلك بقوله:

"ويتخيّر لها القرائن، وإذا تمَّ معه المعنى المحلول في قرينة واحدة، فيغرم له من حاصــل فكــره، ومن ذخيرة حفظه ما يناسبه، وله أن ينقل المعنى إذا لم يفسده إلى ما شـــاء، فإن كان نسيباً وتأتّى له أن يجعله مديحاً فليفعل، وكذلك غيره من الأنواع، وإذا أراد الحلّ بالمعنى، فلتكن ألفاظه مناسبة لألفاظ البيت المحلول، غير قاصرة عنه، فمتى قصــرت ولــو بلفظـــة واحدة فسد ذلك الحلّ، وعُدَّ عيباً، وإذا حلَّ باللفظ فلا يتصرّف بـــتقديـــم وتأخير، ولا تبديل إلاّ مع مراعاة نظام الفصاحة في ذلك، واجتناب ما ينقص

---

(1) الحلبي: حُسن التوسّل، ص325.

المعنى، أو يحطّ رتبته، وهذا الباب لا تنحصر المقاصد فيه، ولا حَجْر على المتصرّف فيه"[1].

والحقيقة أنّ الحلبيّ يقنّن عملية توظيف الشعر في النثر، فلكل تناص من الشعر آلية، وقد لفت الأنظار إلى مسألة اللفظ والمعنى، فالتناص عندهم لم يكن عشوائياً لا تضبطه قواعد، بل ناتج عن قصديّة ووعي تام، ومن تناصات الحلبيّ للشعر ما جاء في رسالة أنشأها في وصف الليل رياضة للخاطر:

"كأنّ امتزاج لونه بشفق الكواكب خليط مسكٍ وصندلٍ، وكأنّ ثرياه لامتداده معلّقة بأمراس كتّان إلى صمّ جندل"[2]. ففي هذا الجزء من الرسالة تناص من بيت امرئ القيس[3]:

كأنَّ الثُّريّا عُلِّقَت في مَصَامِها   بأمراسِ كتّانٍ إلى صمٍّ جَنْدَلِ

فهنا يصف الحلبي الليل بجمال سحره أثناء عودتهم من رحلة الصّيد، مستمتعين بجماله وأنوار كواكبه، وضوء نجومه، ولمعان ثريّاه، وقد قادته الصورة التي رسمها للثريّا والكواكب إلى تخيّل ليل امرئ القيس، فتناص مع بيته السابق ذكره، ولكن من المفارقة اللطيفة نقل البيت المذكور من جوّ الهمّ والسهر وطول الليل لتراكم الهموم، وثبات نجومه للإحساس بطول الزّمن إلى جوّ انفعالي يكشف عن مدى سروره، وجذله ومتعته. فالثّريا التي طالما أرّقت العاشق بعدم تحركها وثباتها ثبات الجبال، قد امتعت الحلبيّ العائد من رحلة الصيد، ولعلّ الفائدة التي جناها الحلبي من النّور والإضاءة لطريقه، وهو عائد إلى بلده ومربعه هي التي حبّبت إليه التمتّع بها؛ بينما نجدها عينها هي سبب قلق امرئ القيس، لحجزها إيّاه عن وصل حبيبته.

---

(1) المصدر السابق، ص326.

(2) المصدر نفسه، ص355..

(3) امرؤ القيس، جندح بن حجر الكنديّ (ت540م): الديوان، تحقيق محمد الشوابكة وأنور أبو سويلم، دار عمّار، ط1، 1998، 243/1.

وقد قلب الحلبيّ دلالة البيت، فنقل المعنى من الهمّ والأحزان والشّعور بالزمن، إلى معنــى آخــر مضاد للمعنى الأول، وهدم الحلبي البيت وأبقى على معظم ألفاظه، ولكنّه أعاد ترتيبه ليناسب وقع سجعاته.

ومن رسالة أنشأها الحلبيّ في ذمّ المهزوم: "وخلّى لهم خزائن سلاحه التي أعدّهــا لقتالهم، فأصبحت معدّة لقتاله، فنجا منجى الحارث بن هشام"[1].

وفــي تلــك الرسالة ذمَّ الحلبيّ ذلك القائد الذي لم يصبر على سود الوقائع، وبذلك مكّــن أعداءه من رقاب جنده، وملّكهم ذخائره وسلاحه، واكتفى بالفرار والنجاة بنفسه، ولم يرعَ حقَّ جنده ورعيته، فآثر البقاء مع زوال هيبته، وأمام تلك الصورة ذات الأبعاد الدرامــيّة، خطــر على قلب الحلبيّ صورة الحارث بن هاشم، الذي فرَّ يوم الزحف في غزوة بدر تاركاً صناديد قومه أسرى وصرعى؛ ولمّا كانت مناسبة قول حسان بن ثابت -رضي الله عنه- ذلك البيت[2]:

إنْ كنتِ كاذبة الذي حدَّثتني فنجوتِ منجى الحارثِ بن هشامِ

فــي معرض الهجاء كانت مناسبة تناصه وحلّه الهجاء أيضاً، فحافظ الحلبيّ على السـياق نفســه في نقل المعنى، حيث تشابهت حالا الحارث بن هشام الذي ولّى هارباً، تاركــاً قومه، مؤثراً الحياة على التضحية، وحال القائد المهزوم الذي اكتفى بالتولّي يوم الــزّحف، ممكِّــناً أعداءه من قتل جنده وأسرهم، ومملّكاً إياهم ذخائره وعدّته، فبدل أن تكــون فــي نصرة جنده أضحت في يد عدوّه، ولمّا تشابهت الحالان أبقى الحلبيّ على معنــى النصّ الغائب، وقد استخدم ذلك التوظيف؛ لأنّ في ذلك معنى كبيراً داخل إطار ضيّق، فالعبارة الشعرية تحمل مضموناً مشحوناً بالانفعالات والعواطف، وهذا المعنى لا تستطيع عبارة ناثر أن تؤديه بانفعالاته؛ فلذا نجد الحلبيّ يحلُّ منظوم ذلك البيت، ويكتفي بالتلميح عن ذلك المعنى الذي تحته.

---

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص388.

(2) حسان بن ثابت (50هـ/670م): الديوان، طبعه وصحّحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت، ص417.

وللحلبــيّ كذلك من رسالة وصف للخيل: "لين الإعطاف، سريع الانعطاف، يقبل كالللــيل، ويمــرّ كجلمــود صخر حطّه السيل، يكاد يسبق ظله ... قصير المطا، فسيح الخطـــا، إن ركب لصيد قيّد الأوباد، وأعجل عن الوثوب الوحش اللوابد، وإن جُنب إلى حرب لم يزورّ من وقع القنا بلبانه، ولم يشكّ لو علم الكلام بلسانه"(1).

ففي هذه الجزء القصير من تلك الرسالة الطويلة حشد الحلبي كثيراً من النصوص الغائبة، فمن أهمّها تناصه مع قول امرئ القيس(2):

مكرّ مفرّ مقبلٌ مدبرٌ معاً　　　كجلمود صخر حطّه السّيل من علِ

لقــد أطــنب الحلبي في وصف الخيل، وذِكْرِ خصالها المرغوبة، وهذا الأمر قاده إلى اســتعراض مــا قــيل في وصفها، فقفزت إلى ذهنه صورة حصان امرئ القيس الذي يمــثّــل الفرس المثال، والغاية في بلوغ الكمال، والحلبيّ لم يرضَ لحصانه الكرّ والفرّ كمــا فعل امرؤ القيس، بل أصرَّ على الكرّ وحده، فهو مقبل كالليل، ومارٌّ لا يثنيه عن عدوّه ثانٍ.

ولمّا أصرَّ الحلبيّ على إقبال حصانه لا فراره، أراد له أن يكون سريعاً، فاستعار له سرعة حصان امرئ القيس، ولكنّه في مشهد آخر يتمثّل بقول امرئ القيس(3):

وقد اغتدي والطّيرُ في وَكَنَاتِها　　　بِمُنجَرِدٍ قيدِ الأوابدِ هيكــــلِ

وقــد جـــاء سياق الحلبي في مدح الخيل كونها أداة الحرب والنزال، ولكنّ سياق امرئ القيس جاء وصفاً لحالة الصّيد في وقت الأمن والسّلم، فلما كانت صورة الحصان

(1) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص345.
(2) امرؤ القيس: الديوان، 247/1.
(3) المصدر نفسه، 245/1.

فـــي حـــال الأمن لا تفي بالغرض الذي يريده الحلبيّ، عدل به فكره إلى وصف عنترة لحصانه في ساحة الوغى من خلال قوله(1):

فأزورَّ من وقع القنا بلبانـــــــــه وشكا إليَّ بعبرةٍ وتحمحـــــــمِ

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلِّـــــــمِ

ومـــن اللافـــت للنّظر أنّ حصان عنترة يشكو ويتألّم ونفد صبره، ولكنّ حصان الحلبـــيّ أبدى جلداً وصبراً، فلم يزورُّ بلبانه من وقع القنا، كما فعل حصان عنترة، ولم يحاول الشكوى والتذمّر على الرغم من شدّة الحرب.

وقلـــب الحلبـــي دلالـــة السياق كي يمنح حصانه ميزة أعلى وأفضل من سمات حصـــان عنتـــرة، وهذا التناص يقترب من التناصات الشعرية الحديثة، من حيث تغيير وجهة الدلالة لتعطي معنى آخر نقيض، يخدم قضية المبدع الذي يريدها.

ومن توقيع بولاية نابلس من إنشاء ابن نباتة:

"ليباشر هذه الولاية المباركة بعزم يوضّح بشرها، وينجح أمرها، ويقيم في خطبة علاه عذرها، وحزم يثمّر مالها وغلالها، وينقع غلّتها ويضع أغلالها، وبأس يدع المفسد مـــن ســـيفه أو قـــيده فـــي طـــوق أو حجل، ويذر السّارق يشير بلا كفٍ، ويسعى بلا رجـــل"(2).

إنّ هذا الجزء من التوقيع يتولّى رسم السياسة التي ينبغي على المولّى نهجها في مكافحـــة الفساد، وقطع سبله، واجتثاث بؤرته، ولذا لا بدّ من الحزم وإعمال السيف في إقامـــة الحدود، وأمام صورة من أقيم عليه حدّ السرقة أو الحرابة وقطع الطريق بعد فقد يده ورجله، قفزت إلى ذاكرته صورة الموت التي رسمها المتنبّي حيث تناصّ معه(3):

---

(1) عنترة (ت614م): ديوان عنترة، شرح الخطيب التبريزي، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد، دار الكتاب العربـــي، ط1، 1992، ص183.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 12/323-324.

(3) المتنبّي: الديوان، 3/48.

وما الموت إلاّ سارقٌ دقَّ شخصه   يصول بلا كفٍّ ويسعى بلا رجلِ

فقد عمد ابن نباتة إلى هدم ذلك البيت، وتغيير بعض ألفاظه لتناسب السياق الجديد، ولكنّ الصورة العامة بقيت حيّة في السياق، فقد نقل البيت من وصف الموت إلى وصف مرتكبي الجرائم. فالموت سارق ليس له أعضاء أصلاً، بينما مجرموا ابن نباتة بُترت أطرافهم بسبب جرائمهم.

وقد وظّف ابن نباتة ذلك التناص ليرسم صورة منفّرة لأولئك الذين أُقيم عليهم حدّ السرقة والحرابة، فالموت تنفر منه النفوس والسارق كذلك، والموت يسعى بين الناس دون أطراف يستعين بها، وكذلك السارق أو قاطع الطريق يسعى بالفساد حتى تقطع أطرافه، فيبقى من دونها كالموت ولكن لا يستطيع السعي والصولة ويكتفي بالإشارة كما أشار الكاتب. ولمّا رسم صورة ذلك المجرم وقد فقد أطرافه تخيّل صورة الموت كما رسمها المتنبي في بيته السابق، ولا شكّ أن تناصه مع ذلك البيت شحن السياق بطاقات تعبيرية هائلة ومكثّفة، قد لا يستطيع أن يأتي بها دون توظيف شحنات ذلك البيت.

ومن الملاحظ أنّ الكتّاب حشدوا كثيراً من التناصات الشعرية، ولكنها في مجملها تنطوي تحت ما يسمّى بالتناص المباشر، أي عدم إخفاء النص الغائب تماماً في السياق الجديد، بل يبقى النص الغائب يملك سلطته في النصّ الجديد.

ومهما يكن فإنّ الكتاب جنحوا في تناصاتهم إلى أشعار الفحول من الجاهليين والإسلاميين حتى عصر المتنبّي، وهذا الأمر يقود إلى الزعم بأنّهم يرمون من وراء ذلك لاتخاذهم قدوة ومثلاً أعلى في البيان العربي.

تناص الأمثال:

لقــد أولى الكتّاب في العصر المملوكي تناص الأمثال اهتماماً كبيراً، لا يقلّ أمراً عن اهتمامهم بالتناص الديني والشعري، وقد استخدموا الآلية نفسها التي استخدموها في توظيف القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر، المتمثّلة في الحذف والتقديم والتأخير، مـــع بقـــاء النصّ الغائب حاضراً ذا سلطة في النصّ الجديد، لا بل يحافظ الكاتب على ألفـــاظ المـــثل عـــند حلّه قدر المستطاع، فالمثل لا يجوز حلّه إلاّ بألفاظه عينها؛ وذلك لشيوعه بين النّاس، وندرة تردّده في الكلام(1).

ومن الملاحظ أنّ معظم الأمثال التي ترد في رسائلهم تكثر في الرسائل الديوانيّة، وتتركّـــز فـــي قسم الوصايا؛ لأنّ المثل يحمل شحنة مكثّفة من المعاني على قلّة ألفاظه، فتوظيف الكاتب له في نصّه يغنيه عن كثير الوصايا، ويزيد كلامه حكمة وعقلانية؛ لأنّ المـــثل يشكّل عصارة الفكر الإنساني، ولا يتأتّى لكل شخص إنتاجه، كما تمنح الأمثال المعنى قوّة، وتزيد السياق تماسكاً، وتشحنه بالأفكار المكثّفة.

ومن ذلك قول ابن فضل الله من مرسوم بإمرة:

"وســـبيل كل واقف على تقليدنا هذا أن ينيب إلى نصوصه، ويؤوب إلى عمومه وخصوصه، والحذر من الخروج عنه بقول أو عمل، فالسيف أسبق من العذل"(2).

ففـــي هذا الجزء من المرسوم يلحظ المتلقّي مثلاً تصرف الكاتب في بنيته الكلية، حـــيث غيّـــر ترتيب ألفاظه، فتناص الكاتب مع المثل المشهور "سبق السيف العذل"(3)، فوظّـــف ابن فضل الله هذا المثل في معرض حديثه عن تحذير المارقين على القانون، وتحدّي أمر الدولة، وعصيان طاعة الأمير، فهذا المقطع من الرسالة يرشد إلى الطريقة

---

(1) انظر ابن الأثير: الوشي المرقوم في حلّ المنظوم، تحقيق جميل سعيد، مطبعة المجمع العراقي (1409هـ/1989م)، ص59.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 135/12.

(3) الميدانـــي، أبـــو الفضـــل أحمد النيسابوري (ت518هـ/1124م): مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – لبنان، 1413هـ/1993م، ج1، ص328.

المثلى في اتّباع الأوامر، والسلوك في سلك الطاعة، وتجنّب كل ما يؤدّي إلى خلع الطاعة، والخروج على أمر الجماعة، فوجد الكاتب في ذلك المثل الوسيلة الأنجع في تهديد أولئك النفر.

وقد تصرّف الكاتب في بنية المثل الأساسيّة بالتقديم والتأخير، وقد أحدث هذا التغيير مدلولات جديدة، فنقل المثل من الجملة الفعلية إلى الاسميّة. ومن المعروف أنّ الجملة الاسميّة تدل دلالة ثابتة قطعية، وهذا ما أراده الكاتب في ترهيب المارقين بشكل دائم، وثابت ثبات الجملة الاسمية، وأحدث تقديم السيف على الفعل سبق زيادة في الحزم والشدّة لِمَا في لفظة السيف من الرهبة والخوف.

وعلى الرغم من ذلك التصرّف في التقديم والتأخير، إلاّ أنّ الألفاظ الأساسيّة في المثل لم تتغيّر، وبقيت مشحونة بمعاني المثل الأساسية، وقد زادت هذه الشحنة المكثّفة سياق الكاتب وضوحاً وحزماً.

وعلى الرغم من المعاني المستحدثة، إلاّ أنّ المثل بقي ذا سلطة ظاهرة، ومؤثّرة في النصّ الجديد، فلم يستطع النصّ الجديد إلغاء سلطة المثل، وكبحه تحت جناحه.

ومن مرسوم بإمرة من إنشاء الشهاب محمود الحلبيّ قوله:

"وأمّا ما يتعلّق بهذه الرتبة من وصايا قد أُلفت من خلاله، وعرفت من كماله، فهو ابن بجدتها، وفارس نجدتها، وجهينة أخبارها، وحلبة غايتها ومضمارها، فيفعل في ذلك كلّه ما شكر من سيرته، وحمد من إعلانه وسريرته"(1).

ففي هذه الفقرة من المرسوم، وهي خاصة بالوصايا، يلحظ المتلقّي تناصاً من المثل العربي "عند جهينة الخبر اليقين"(2)، فقد وظّف الحلبي هذا المثل ليدلّ على سعة اطّلاع ذلك المقلّد، وطول تجربته للأُمور، فهو خبير بأمور تلك الإمرة، لا يحتاج إلى

---

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 123/12.

(2) الميداني: مجمع الأمثال: ج2، ص3.

كثير وصايا لدرايته بالأمور؛ ولمّا كان حاله كذلك، استعاض الحلبيّ عن كثرة الكلام في الوصايا بذلك المثل الذي كثّف معنى كبيراً في ألفاظ قليلة.

وقد حلّ الكاتب المثل وحذف بعض ألفاظه ليتناسب ونصّه الجديد، فعلى الرغم من حذفه لبعض ألفاظ المثل إلاّ أنّ المعنى بقي مسيطراً، والواضح أنّ الحذف وتحوير بعض البنى الصرفيّة جاء لخدمة السجع في النص الذي نظم عقد رسائلهم عامّة.

ومن رسالة في الغزو من إنشاء محي الدّين بن عبد الظاهر:

"ولمّا خفّت البرور*، ولم يبقَ إلى المرور، ركب فرسه، وعبر الماء، والألسنة له داعية، وعليه من الله واقية باقية، فنزل في وادٍ هناك به مرعىً ولا كالسعدان، ومرأى ولا كشعب بوّان"(1).

وصفت تلك الرسالة الغزوة التي قام به السلطان الملك الظّاهر إلى مدينة قيسارية، وانتزاعها من التتار، وقد أطال ابن عبد الظاهر في سرد أحداث تلك الغزوة، فوصف رحيل السلطان ونزوله، كما وصف أحداثها، وبعد تحقيق النصر وصف قفوله منتصراً، فنزل السلطان وجنوده وادياً معشباً، كثير الأشجار، فأثار ذلك المشهد ذهن الكاتب فتذكّر المثل "مرعى ولا كالسعدان"**، حيث يُعدُّ السعدان من أفضل أنواع العشب التي تقتات عليه الإبل، ويزيد من خصوبة إنتاجها، فضلاً عن كون الغرض الذي يفضي إليه المثل تفضيل الممدوح على أقرانه، فكلا المعنيين وارد في النص: جمال ذلك الوادي، ومدح ذلك السلطان، ولم يكتف الكاتب بوصف الوادي بذلك المثل بل تعدّاه إلى استدعاء صورة شعب بوّان الذي ورد في قول المتنبي(2):

مغاني الشِّعب طيباً في المغاني   بمنزلة الرَّبيع من الزَّمانِ

---

* البَرُّ: ضد البحر، وهي القفار. انظر الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (1205هـ/1790م): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق إبراهيم الترزي، مطبعة حكومة الكويت، 1392هـ/1972م، 154/10 (برر).

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 161/14.

** الميداني: مجمع الأمثال، ج2، ص275.

(2) المتنبّي: الديوان، 251/4.

ومـــن الملاحظ أنّ محي الدّين قد وظّف المثل دون إحداث تحوير أو تغيير، بل سلكه في حديثه، ونظمه في سياقه، فقد واءم بين الضمائر ليندرج المثل في السياق دون إخفائـــه، إلاّ أنّ المـــثل في هذه الرسالة لم يأت به الكاتب ليبرهن على صحّة حجّة أو دليل، بل استدعاه ذلك المشهد.

وفـــي الحقيقة لم يضف المثل معنىً جديداً كما سبق للأمثال التي جاءت في باب الوصايا والنصح التي طمح الكتّاب من ورائها إلى تكثيف المعاني الجامعة.

ومن رسالة في وصف السيف والقلم لابن الورديّ قوله:

"قـــال الســـيف: أأنف في الماء واست في السماء•، أو مثلك يعيّر مثلي بالدماء، وطالمـــا جعلت بعض فراخي بصددك، وهي السكين، فأصبحت من النفاثات في عقدك يـــا مسكين"(1).

إنّ ابن الورديّ في تلك المفاخرة جعل كل طرف يطمح إلى كسب الحجّة، وسحق خصمه، فوجد في توظيف ذلك المثل حجّة قوية بيد السيف يقهر بها خصمه القلم، فالمثل يضرب لمن يعجب بنفسه مع انحطاط قدره، وهذا التناص لا يصدق على القلم بالمعنى المجـــرّد، وإنما تصوّر الكاتب هيئة القلم منكوساً فتخيّل ذلك المثل المضروب للبشر لا الجمـــاد، ولكن إذا ما رُجع إلى رمز القلم، حيث يشير إلى فئة أرباب الأقلام في ديوان الإنشـــاء المملوكيّ كما تقدّم في مبحث المفاخرات، تجلّى لنا هدف ابن الورديّ من ذلك التناص.

ومهمـــا يكـــن من تناص الأمثال، فإنّه لا يختلف عن تناص الأشعار. فالطاقات المشـــحونة بهـــا الأمـــثال تشبه إلى حدٍّ بعيد الطّاقات المكثّفة في النصّ الشعري، وهذه

• نـــص المـــثل "أأنف في السماء واست في الماء". الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت850هـ/1446م): المستطرف في كل فنٍّ مستظرف، طبعة جديدة منقحة، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت، 1414هـ/1994م، ج1، ص45.

(1) ابن الورديّ: الديوان، ص81.

الطّاقات تزيد السياق النثري قوةً وتماسكاً ووضوحاً، والمعاني المتضمّنة في تلك الأمثال أو الأشعار يشحن بها ذلك السياق.

وهـناك أمـرٌ آخر يتمثّل في تلك التناصات يشير إلى سعة ثقافة الكتّاب، وكثرة محفوظهم الديني والأدبي والتراثي.

شعريّة الرسالة:

لا شـكّ أنّه من خلال دراسة الرسالة من الناحية الشكليّة، حيث اللغة والأسلوب، والصـور والخيال، والمضامين الدينية والأدبية والتراثية، إضافة إلى العناصر البديعية تبـيّن أنّها تخضع إلى حدّ ما من قوانين الأدبية أي الشعرية، وقبل بيان تلك المظاهر لا بُدَّ من وقفة قصيرة مع مفهوم الشعرية.

يرى جون كوين أنّ الشعرية علم موضوعه الشعر[1]، ويكاد يكون هذا الحدّ أبسط مفاهـيم الشـعرية، والجامع الأساسي لشتات مفهوماتها، والشعرية عند عبد الله إبراهيم تعنـى باسـتنباط القوانـين الداخلـيّة للأجناس الأدبيّة، واستخراج النّظم التي تحكمها، والقواعد التي توجّه أبنيتها، وتحدّد خصائصها وسماتها[2]. بينما يصفها عبد الله الغذامي بأنّهـا تعنـي مصطلحاً جامعاً يصف اللغة الأدبية في النثر والشعر[3]. ومهما يكن فإنّ الشـعرية تعنـى بالقوانـين التي تحكم اللغة الأدبيّة، وتمايز بينها وبين الكلام اليومي المألوف، أي أنها ترافق الأعمال التي يراد لها الخلود، فلم تكن اللغة الشعرية محصورة في كلام شخص دون آخر، وإنّما توجد في ثنايا الأعمال الأدبية بدرجات متفاوتة، فكلما ارتفع النتاج الأدبي عن الكلام اليومي زادت أدبيته والعكس صحيح.

---

(1) كـوين، جـون: النظـرية الشـعرية (بناء لغة الشعر)، ترجمة وتقديم وتعليق أحمد درويش، ط4، 2000، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ج29/1.

(2) إبـراهيم، عـبدالله: السردية العربية (بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي)، ط1، 1992، المركز الثقافي العربي، بيروت، 9.

(3) الغذامي، عبدالله: الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريحية)، ط1، 1405هـ/1985م، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، ص19.

والحقـــيقة أنّ مصـــطلح الشعرية أخذ أبعاداً كثيرة، فكثر القول في قوانين العمل الأدبي: الشعري والنثري، والشعرية في اشتقاقها اللغوي تعود إلى جذر الشعر الذي بهر العقول قديماً وحديثاً. فقد وقفت الأفهام حسرى أمام فهم كنهه، ولا يخفى على أحد كثرة الخــوض فــي مســألة تفســير الإبداع، التي أشغلت تفكير النقّاد والعلماء منذ عصر اليونـــان، فلخصوصيّة الشعر، وانزياح لغته عن اليومي المألوف أخذت الشعرية معناها ودلالتها.

فالشعريّة تطلق على كل موضوع يعالج بطريقة فنيّة راقية، ويمكن أن يثير هذا اللـــون من المشاعر(1). والجديد في هذا المصطلح إضفاء خواص الشعر على النثر، بل صـــبغة العمل النثري بأصباغ العمل الشعري، فعندما تحلّ بعض قوانين العمل الشعري في ميدان العمل النثري تطبعه بطابع الشعر وتقرّبه منه، وحينئذٍ تظهر على النثر سمة الشعرية.

وقـــد وجد في هذا المضمار سؤال كبير يبحث عن إجابة مفاده: هل الشعريّة علم الشـــعر أم علم الأدب؟ فانتهت المعالجة إلى أنّ الشعرية علم الأدب، بوصفها تبحث عن قوانـــين الخطاب الأدبي في كل من الشعر والنثر(2). ومن خلال هذه المداخلة تبيّن أنّ الشـــعرية تعنـــي كـــلّ ما يجعل الإنتاج الفكري القولي (الشعر والنثر) بعيداً عن الكلام العادي اليومي، فكلما ارتقى النثر عن اليومي المألوف نحو شقيقه الشعر أصبح في كنف الشـــعرية، ذلك المصطلح الذي اتّسع ليشمل إضافة إلى الشعر الفنون النثرية، ومن هنا أصـــبحت الشعرية تطلق على كل أمر لافت للنظر من الناحية الجماليّة، حتى لو تجاوز الأمر فنّي الشعر والنثر.

ومهمـــا يكـــن، فإنّ ثمّة قواسم مشتركة بين الشعر والنثر، فتأتي اللغة من أوسع أبواب تلك القواسم، فاللغة تنبثق عنها المفردات التي تكون في العادة مأسورة في إطاري

---

(1) كوين: النظرية الشعرية، 29/1.

(2) ناظم، حسن: مفاهيم الشعرية، ط1، 1994، المركز الثقافي العربي – بيروت، ص83.

المعنى المعجمي المجرّد والمعنى الطارئ المتحول، الذي يجاري السياق الذي توجد فيه تلك المفردة، فهي غالباً خارج السياق غير المفردة التي تكون في أسر السياق، ومن هنا فــإنّ اللغــة الشــعرية تنبثق عن المفردات اللغوية المنزاحة قليلاً عن معناها المعجمي المجــرّد، فهي تأخذ شعريتها من الموقع الذي تحتلّه في السياق الأدبي. فشاعرية اللغة ليســت سمات ثابتة في القول اللغوي نفسه، بل هي سمات مرتبطة بوظائف تسود فيها الوظيفية الجماليّة ذات التوجيه الذاتي[1].

ولذا فإنّ السياق اللغوي الذي يمنح المفردة تلك الشاعرية يحتّم على تلك المفردات بعــض القوانــين الجديــدة القسرية، فقد يقدّم أو يؤخّر أو يحذف أو يقابل أو يطابق أو يجــانس، إلى غير ذلك من قوانين، وعندئذٍ فإنّ اللغة تشكّل العصب الأساسي للشعريّة، فالــتحكّم فــي مســار المفردات من حيث التقديم والتأخير والحذف والتقابل والمطابقة والجــناس يــؤدّي إلــى انــزياح تلك المفردات عن دلالتها المعجمية الأولى لتدلّ على مفهــومات جديدة ما دامت في فلك السياق الأدبي الجديد، وتكمن شاعرية تلك المفردات في الموقع الذي تتمركز فيه، وتسبح في فلكه.

وقد تنشأ الشعرية عن المستوى الصوتي أو التلفّظي أو الدلالي[2] للمفردة، حيث تكشف المفردة عن جماليتها من خلال جرسها الصوتي، أو من حيث دلالتها المرسومة في المخيّلة، فيظهر من خلال تركيبها في السياق طاقات تخيّليّة كامنة في بنيتها اللغوية.

ولــم يقتصــر التعبيــر الشــعري على المفردات من حيث المعنى أو الدلالة أو الصــوت، بــل يتعدّى ذلك إلى الإيقاع الموسيقي، الذي يكمن في عناصر الموائمة بين الجمــل والتــراكيب. ففــي الرســالة النثرية يسهم السجع في التشكيل الموسيقي الكلي للرســالة، بينما يسهم الجناس في الإيقاع الداخلي للنصّ، وهذه الأمور من القوانين التي تقرّب العمل النثري من الشعر، "فالخطاب يمكن أن يبقى شعرياً مع عدم المحافظة على

---

(1) موكاروفسكي، يان: اللغة المعيارية واللغة الشعرية، فصول، المجلد الخامس، العدد الأول، 1984م، ص37-46.

(2) انظر كاظم: مفاهيم الشعرية، ص85.

الـــوزن"[1]، وفـــي ظلّ الإيقاع الداخلي يمكن الاستغناء عن الإيقاع الخارجي المألوف المتمـــثّل فـــي القافية كما هو الشأن في قصيدة التفعيلة. فالسجع في الرسالة يقوم بتلك المهمّة، بل يشكّل التنويع الموسيقي من خلال تنوّع قوافي السجع في الرسالة.

ويكمن أن يشكّل التكرار نوعاً من الشعرية في النصّ النثري، كما هو الحال في النصّ الشعري، فتكرار بعض الحروف أو المفردات أو التراكيب أو الجمل يشكّل حسّاً موســيقياً نفسياً، فترديد بعض الأصوات يسهم في بناء الإيقاع الداخلي والخارجي معاً، فضلاً عن كونه وسيلة تؤكّد أموراً تمليها نفس المبدع.

ولا ينحصـــر أثـــر الشـــعرية فـــيما سلف من أُمور، بل يكمن كذلك في عنصر البلاغة، فالصور الأدبية في النصّ النثري ما هي إلاّ صور شعرية، تنزاح بالسياق إلى فضاءات جديدة، وهذه الفضاءات لم يكن لها أن تحصل في الكلام اليومي العادي، فكلّما كثرت الصور الأدبية كان النصّ أدخل في الشعرية، والحقيقة أنّ الصور الأدبية تتآزر فيما بينها لتشكّل صور مركّبة يسهم في بنائها التشبيه والاستعارات والمجازات المرسلة والكنايات.

وذكـــر ابن خلدون أنّ المتأخّرين استعملوا أساليب الشعر وموازينه في المنثور، مـــن كثـــرة الأســـجاع والتزام التقفية، وتقديم النسيب بين يدي الأغراض، وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنّه، ولم يفترقا إلاّ في الوزن[2]، وعليه فإنّ الرسالة الفنـــية فـــي العصـــر المملوكيّ أخذت حظاً وافراً من قوانين الأدبية، فمال الكتّاب إلى الأســـلوب الشـــعري إيمانـــاً منهم بأنّ الرسالة ليست موقوفة على هدف الإخبار، وإنّما تجـــاوزت ذلـــك إلـــى مظاهر جمالية وأدبية جعلتها تزاحم القصيدة في تلك الحقبة من الزمن.

---

(1) المرجع السابق، ص85.

(2) ابن خلدون: مقدّمة ابن خلدون، دار الجيل، بيروت، ص628.

وقــد أســهم فــي أدبيّة الرسالة آنذاك شاعرية الكتّاب، حيث كان معظم الكتّاب يــنظمون الشــعر، فهــذه السمة طبعت رسائلهم بمظاهر القصيدة الشعرية، وأخضعتها لقوانــين الشعر، ولذا فارقت الرسالة اللغة اليومية القائمة على التراكيب المألوفة، التي تــؤمن بالبســاطة المفضية إلى وظيفة الإخبار، ولهذا اعتمدت الرسالة الجمل المكثّفة، وبعــض الظواهــر التي تسهم في منح التركيب الشعري خصوصيّته الجمالية كالحذف والاعتــراض والــتقديم والتأخير والمحسنات المعنوية واللفظية والتكرار ورد الأعجاز علــى الصــدور وغير ذلك من مظاهر الخطاب الإبداعي[1]. وقد تمثّلت جملة من تلك الخصائص في الرسالة الفنية في العصر المملوكي، جعلت منها مسرحاً لقوانين الشعرية بمفهــومها الحــديث، وليس من اليسير حصر تلك المظاهر في عجالة استكشافية هدفها الوقــوف على بعض تلك المظاهر؛ لتكون شاهداً على شعريّة الرسالة الفنية في العصر المملوكيّ، لا دراسة الشعرية من جميع جوانبها.

فأوّل ما يطالع النّاظر في الرسائل المملوكيّة شعرية الجمل الدعائية الاعتراضية، فقــد شكّلت هذه الجمل خرقاً حقيقياً لقانون المسند والمسند إليه في نظام الجملة العربية، وهــذا الاختــراق يذهب بالذهن كل مذهب، ويكسر التوقّع المألوف، ويزيد الشوق إلى معــرفة الركن المتأخّر من الجملة، فكلّما طالت جملة الاعتراض أو جمل الاعتراض، زاد شــوق المتلقّــي إلى طرف الجملة الآخر، فمن ذلك قول الحلبيّ في رسالة وصــف لرمي البندق:

"الرياضــة -أطال الله بقاء الجناب العالي، وجعل حبّه كقلب عدوّه واجباً، وسعده كوصــف عــبده للمســار جالــباً، وللمضمار حاجباً- تبعث النفس على مجانبة الدعة والسكون"[2].

(1) انظــر الحســين، أحمد جاسم: الشعرية (قراءة في تجربة ابن المعتز العباسي)، ط1، 2000، الأوائل للنشــر والتوزيع، دمشق، ص157.

(2) الحلبي: حُسن التوسّل، ص353.

فالناظـــر فـــي تلـــك الفقرة من الرسالة يجد الكاتب كسر التوقّع، واخترق النظام اللغوي من خلال إيجاد عددٍ من الجمل الاعتراضية التي حالت بين المبتدأ والخبر، فكان لهذه الجمل أثر واضح في تحويل السياق من وظيفة الإخبار العادي اليومي إلى الانزياح نحـــو الشعرية. فجمل الاعتراض التي أتى بها الكاتب زادت من عنصر التشويق، كما أســـهمت في بناء حاجز قويٍّ، فصل بين المسند إليه والمسند، وهذا الفصل شكّل أجواءً من فضاءات التوقّع والتخيّل والانتظار، فأصبح المتلقّي في لحظة ما أسير أفكارٍ كثيرة، وتـــوقّعات متعدّدة، فهو أشبه بمن أمسك بخيط ولا يعرف ما نهايته، أو كمن ينظر إلى ســـارية فـــي البحر ولا يدري أنذير هي أم بشير؟ وهكذا فإنّ الجمل الاعتراضية تشكّل عنصـــراً أساسياً في بناء اللغة الشعرية. وليس من سداد الرأي أن يعبّر عنها بالفضلات كما نُظر إليها من ناحية التركيب الآلي الإسنادي لنظام الجملة بنوعيه.

ومن هنا فإنّ الجمل الاعتراضية تؤدّي معنى في النصّ الأدبي ورسالته الأدبية، لـــم يكـــن ليوجد لولا تلك الآلية، وهذا الأمر واضح، حيث مدح الكاتب الحاكم دون أن يحـــتاج إلـــى جزءٍ مستقلٍّ في الرسالة، بل أدخل ذلك المدح في سياق الجملة الأساسيّة، والغرض الأساسي وهو وصف الرياضة.

وكما استُخْدِمتْ الجمل الدعائية لكسر التوقّع، وجدت سمة أخرى في الرسائل، بل في أغلبها، تتمثّل في خاصيّة التصوير المبني على ضروب من البلاغة، ممّا شكّل نصّاً أقرب للشعر من النثر، فقال الحلبي من الرسالة ذاتها وفي وصف شمس الأصيل:

"فبـــرزنا –وشـــمس الأصـــيل تجود بنفسها، وتشير من الأفق الغربي إلى جانب رمسها، وتغازل عيون النور بمقلة أرمد، وتنظر إلى صفحات الورد نظر المريض إلى وجوه العوّد، فكأنّها كئيب أضحى من الفراق على فرق، أو عليل يقضي بين صحبه بقايا

مدة الرمق، وقد أخضلّت عيون النور لوداعها، وهمَّ الروض بخلع حلّته المموّهه بذهب شعاعها ... – إلى حدائق ملتفة"[1].

فالحقيقة أنّ هذه الفقرة تعبّر تعبيراً صادقاً عن مدى تغلغل الشعرية وقوانينها في الرسالة الفنيّة في العصر المملوكيّ، فقد أسهمت كثرة العناصر البلاغية في انزياح اللغة من اللغة العادية إلى اللغة الشعرية، فأخذت الرسالة تقترب شيئاً فشيئاً من لغة الشعر، لغة التصوير المكثّف والخيال المتعقّل الخلاق[2].

فقد أسدل الكاتب على الشّمس عدّة صور، فصوّرها بالشخص الذي يحتضر، ثمّ بالشخص الذي يوصي بمكان دفنه، ثم انتقل ليصورها بعين الأرمد، ثمّ صوّرها بالمريض الذي ينظر شوقاً إلى المعافين، وكذلك بالكئيب والعليل، وعند النظر إلى تلك الصور تجدها: تمثّل صورة شخص محتضر يعيّن مكان قبره، وإنساناً أرمد، ومريضاً وعليلاً وكئيباً، وكل هذه الصور يجمعها عنصر الفناء والخوف من المجهول المنتظر. إنّ مشهد الأصيل يبعث السّرور والفرح الغامر، ويشعل النشوة بسحر ذلك الوقت، إلاّ أنّ الكاتب كسر ذلك التوقّع المعتاد، وانزاح عن المعنى والدلالة المعتادة، فالشّمس تجود بنفسها، وهذه نهاية المطاف، ولا يتوقّع أن تأتي صور أُخرى لها، لكن الكاتب يأتي بصور أخرى على عكس ما هو متوقّع، فليس بعد الموت من مشاهد محسوسة، يدركها حسّ الإنسان إلاّ المغيّبات، ولكن الكاتب انتقل من الصورة النهائية إلى صور أقل خطورة، فلم يكن الأرمد أسوأ حالاً من المحتضر، وكذلك لم يكن الكئيب أسوأ حالاً من المريض، فالمتوقّع أن يصفها أولاً بالكئيب الذي أفضى به حزنه وكمده إلى الرمد ثمّ أصبح مريضاً، واشتدّ مرضه فأصبح عليلاً، وعندئذٍ أوصى بمكان دفنه عندما حان دنوّ أجله.

(1) المصدر السابق، ص354-356.

(2) انظر الرباعي، عبد القادر: طاقة اللغة وتشكيل المعنى في قصيدة الربيع لأبي تمام: دراسة نصيّة، فصول، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني، صيف 1995م، ص105.

ومهمــا يكــن فإنّ الكاتب استخدم لغة شعريّة تمثّلت في صوره الأدبية المتعدّدة، التـــي شـــكّلت ســـيلاً متدفّقاً غيّر مجرى دلالة الألفاظ، وانزاح بها إلى معانٍ أدخل في الأسلوب الأدبي، والتعبير الجمالي، وهذا الأسلوب يحصل بالتصوير باللفظ عن طريق تتابع التشبيهات والاستعارات[1].

وقد ألفى الكتّاب في الإيقاع الموسيقي حاجة في نفوسهم، فحرصوا على السجع – كما تقدم في مكانه– أيما حرص؛ لِمَا فيه من الإيقاع الذي يجذب سمع المتلقّي، ويقرّب المنثور من المنظوم، فبالغ الكتّاب في الإتيان بالأسجاع لإقامة الوزن، وتشنيف الأسماع، فقــال الكاتب: "ومعهم قسي كالغصون في لطافتها ولينها، والأهلة في نحافتها وتكوينها، والأزاهر في ترافتها وتلوينها"[2].

فــلا يخفــى مــا في ذلك التسجيع من وزن يقرّب الرسالة من القصيدة فتآزرت المفردات ذات الطاقة الإيقاعية، وشكّلت تعبيراً شعرياً إيقاعياً. والحقيقة أنّ هذه الأسجاع توفّــر شحنات من النبر الشعري، حيث "من الممكن خلق نظام إيقاعي يقوم على تنظيم مواقــع النبر على الكلمات المفردة في اللغة في أنساق تحقّق انتظاماً معيّناً يمكن تسميته تشكّلاً إيقاعياً أو بحراً"[3]، وهذا يوفّره عنصر السجع في الرسالة الفنيّة.

ولــم يكــتفِ الكــتّاب بالإيقــاع الخارجي المتمثّل في السجع، بل حرصوا على الإيقـــاع الداخلي الناشئ عن الجناس. فالألفاظ المتماثلة في الصوت، أو المتقاربة في اللفظ تشكّل جرساً موسيقياً داخلياً، فمن ذلك قول الكاتب:

"وكأنّ صوّاف الطّير المبيّضة بتلك الملق خيام، أو ظباء بأعلى الرقمتين قيام، أو أباريق من فضّة رؤوسها لها فدام، ومناقيرها المحمّرة أوائل ما انسكب من المدام"[4].

---

(1) انظــر عبّاس، إحسان: عبد الحميد بن يحيى الكاتب (وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء)، ط1، 1988، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ص175.

(2) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص357.

(3) أبو ديب، كمال: في البنية الإيقاعية للشعر العربي، ط3، 1987، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص315.

(4) الحلبيّ: حُسن التوسّل، ص357.

فالناظـــر فـــي هـــذه الفقـــرة يجدها تفيض بالموسيقى الداخليّة، وتتموّج بالإيقاع المـــرقّص، فـــتآزرت الجناســـات فيما بينها، إضافة إلى بعض الحروف ذات الجرس الموســـيقي، كحـــروف الإطـــباق: الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، وحرف القلقلة القاف، والمكـــرور الـــراء، فهذه الحروف ساهمت في إنشاء جرس إيقاعي داخلي، شكّل تياراً موسيقياً داخليّاً ينبعث من المفردات داخل السياق.

أمّـــا شعريّة التناص، فالرسالة الفنيّة غنيّة جداً بهذا اللون من الشعرية، وقد تقدّم الحديث عن التناص الديني والأدبي والتراثي، وتجنّباً للتكرار نكتفي بالإرشاد إليه.

ومـــن مظاهر الشعرية كذلك في الرسالة الفنية طغيانها على الأغراض الشعرية التقليدية كالمدح والرثاء والوصف ... وكذلك جمعها بين الشعر والنثر، وهذه سمة عامة في ذلك العصر.

وبالجملـــة، فإنّ الرسالة الفنيّة في العصر المملوكي طمحت لأنّ تنافس القصيدة الشـــعرية وتطاولها؛ ولذا حرص الكتّاب على إخراجها مخرج القصائد الشعرية، فكسوا الرسائل بحلى تلك القصائد، وهو ما يدعى اليوم بقوانين الأدبيّة أو الشعرية.

الخاتمة

يمكن الاطمئنان إلى القول بأنّ هذه الدراسة طمحت إلى رسم خطوط عريضة لمسيرة الرسالة الفنيّة في العصر المملوكي الأول، ووضعت بعض النقاط على الحروف في مسألة أغراضها تبعاً لأهدافها، كما كشفت عن طائفة من الكتّاب الذين كرّسوا جهودهم للنهوض بها لتوازي القصيدة وتحتلّ مكانتها، وقبل الخوض في غمار هذه النتائج لا بدَّ من الوقوف قليلاً لتوضيح صورة العصر الذي نشأت في أحضانه.

فبعد أن انتهى حكم الأيوبيين في مصر وأحكم السلاطين المماليك قبضتهم على مقاليد الأمور نشأت طبقات اجتماعيّة متفاوتة كان أبرزها طبقتي الخاصّة والعامّة، وكان لكل طبقة منهما ظروف خاصة، وقفت حاجزاً دون التقاء هاتين الطبقتين، كما عصفت بدولة المماليك الفتيّة أحداث خارجيّة أسهمت في تشكيل بنيتها إضافة إلى الطبقيّة السائدة. فقد تعرّض مشرق العالم الإسلامي والعربي إلى غزو التتار، بينما استمرّ زحف الغوط في تضييق الخناق على أهل الأندلس، فرحل النّاس إلى حاضرة الإسلام الجديدة القاهرة، كما أسهم في رفع درجتها رحيل الخلافة الإسلاميّة إليها على يد الظاهر بيبرس سنة (659هـ/1260م)، فأدّى نزوح العلماء إلى القاهرة إلى النهوض بها فكريّاً وعلميّاً، فأصبحت حاضرة العالم ردحاً من الزّمان، وكل تلك الظروف مجتمعة ساعدت على نضوج الرسالة الفنيّة في ذلك العصر حتى أضحت تلك الرسالة تزاحم القصيدة الشعريّة، ولا أكون مجانباً للصّواب إذا ما قلت بتجاوزها للقصيدة، وقد مهّد لنجاح تلك الرسالة وجود نفر من الكتّاب مهروا في فنّها وأجادوا.

وقد تنوّعت الرسالة الفنيّة وتعدّدت أغراضها، ونهضت بأعباء جِسام ورسالة خالدة، فقد تكفّلت الرسالة السياسيّة ببيان سياسة الحكم من خلال رسائل المبايعات والعهود والأمانات والهُدن، فشكّلت هذه الرسائل وثائق ذات أهميّة في سياسة الدولة

المملوكـيّة فـي ذلـك الـوقت، كما أسهمت الرسائل الإدارية في الكشف عن سياسة السلاطين وكفلاء الملك في الأمور الإداريّة الداخليّة.

فكـان مـن تلـك الرسائل التقاليد التي يتمّ بها تعيين كبار الموظفين في الدولة، والتواقـيع التـي تكـون لصغار الموظفين، والمراسيم التي ترسم سياسة الحكم للحكام الإداريـين فـي المناصـب المختلفة، والمناشير التي تحدّد مدى إقطاع كل موظف في الدولة، والمسامحات التي تفصح عن مدى تسامح الدولة في بعض الأمور المالية خاصة مع كبار التجّار تشجيعاً لهم، والبشارات والتهاني التي تكفّلت بذيوع الأخبار السّارة في طبقتي الخاصّة والعامّة وفي الأقطار الإسلاميّة كافة.

وقـد اعتنت الرسالة الفنيّة كذلك برسم السياسة الخارجيّة التي انتهجها السلاطين المماليك مع الدول والممالك الإسلاميّة لمسلمي القفجاق والحجاز واليمن وشمال أفريقيا والأندلس وكذلك الدول غير الإسلاميّة كالتتار في بداية أمرهم والدولة البيزنطيّة والنوبة والحبشة والممالك الأوروبيّة والصليبيّة، وقد عُدَّت تلك الرسائل وثائق ذات قيمة تاريخيّة كبيرة، وعلى قدر من الأهمية.

وكما نهضت الرسالة الفنيّة بالأمور الرسميّة عالجت أيضاً جانباً مهماً من مظاهر الحـياة الاجتماعيّة والإخوانيّة والنظم التعليميّة، فأسهمت الرسالة الفنيّة في إظهار مدى عمـق العلاقـات الاجتماعـيّة وبُعدها الاجتماعي، فكانت رسائل التهنئة تنبع بالأفراح والمسرّات في مناسبات كثيرة وعديدة، بينما كفلت رسائل التعزية بحفظ مشاعر الأخوّة، وزرع روح الأمـل لدى المعزّى، وإرشاده إلى الصّبر والتأسّي بما قد سلف والسلوّ بما جُعِـل لـه في العوض، وشكّلت رسائل الإهداء والشُكر صفحة رائعة في صورة الحياة الاجتماعيّة، كما بيّنت رسائل المدح والهجاء حيويّة المجتمع ومدى تفاعله مع الأحداث، ووضّـحت رسـائل العـنايات والشفاعات مدى روح التكافل الاجتماعي وتقديم العون والمساعدة للمحتاج في أي أمر، وكشفت رسائل الصدقات عن مدى البذخ الذي تنعم به

طـبقة الخاصّة في أعراسها، فتدبّج رسائل الصدقات عند عقد قرانهم لإظهاره بالمظهر اللائق بتلك الطبقة.

وأبـدت الرسـالة الفنـيّة اهـتماماً ملحوظاً بالعلاقات الشخصيّة بين فئة الأدباء وخاصـة الكـتّاب، فـتكفّلت بحمـل مشاعرهم وأحاسيسهم وعواطفهم، فحملت رسائل الشّـوق والحنين أساهم وأحزانهم وشوقهم، كما شكّلت رسائل العتاب والاعتذار صفحة رائعة في تاريخ صداقاتهم، بينما حملت رسائل الشكوى همومهم وآلامهم، وفزعوا إليها كلّما ألمّ بأحدهم خطب.

ونظّمت الرسالة الفنيّة العلاقات التعليميّة، فتعدّدت رسائل الإجازات والاستجازات والتقاريض وحلّ الألغاز، فكانت الإجازة في غاية الدقّة حيث تمكّن صاحبها من ممارسة حقّـه في الغرض الذي دبّجت من أجله، فمنها الإجازة بالفتيا والتدريس، ومنها الإجازة بالمـرويّات ومنها الإجازة بالعراضات، كما اهتمّ الطلبة بطلب تلك الإجازات، فدبّجوا لـذلك رسـائل الاستجازات في الفنون التي يطمحون في الحصول عليها، وقد أسهمت رسـائل التقاريض في نهضة الحياة العلميّة من خلال تقريض القصائد والمصنّفات ذات القـيمة العلمـيّة والأدبيّة، ولا تقلّ أهميّة عن ذلك رسالة الألغاز في النهضة العلميّة لِمَا فيها من حفزٍ على التفكير وامتحان القريحة.

ولمعـت الرسـالة الفنيّة في الموضوعات الأدبيّة والتعبيريّة، وكشفت عن طاقة هائلـة كامـنة في قدرة تعبيريّة فائقة حظي بها كتّاب تلك الحقبة، فكانت الموضوعات الوصـفيّة مسـرحاً لأحلامهم فوصفوا القادة والجيوش في حالتي النّصر والهزيمة، كما وصـفوا القلاع والحصون التي اتّخذت لبيان عزّة المسلمين وتمكينهم، ووصفوا الخيل، وأدقّـوا في نعتها؛ لِمَا لها من أهميّة في حياتهم في ظروف السّلم والحرب، وقد أعربوا عـن قـرائح مبتكـرة من خلال وصفهم لأدوات الحضارة كأدوات الحرب والأطعمة والأشربة والألبسة وأنظمة البريد وغير ذلك من أمور حضاريّة.

ولـــم يكـــتفوا بذلك بل عبّروا عن مدى فرحهم بالبشارات بوصف فيضان النيل وكسر خليجه، فتباروا في تدبيج تلك الرسائل لتلامس سمع السلطان.

ووصفوا مظاهر الطبيعة الصّامتة، فرصدوا مشاهد أيّام الشّتاء من خلال وصف الأمطـــار والبرد والثّلوج، فتبادل بعض الكتّاب تلك الرسائل، فكانت هذه الموضوعات متـــبادلة بشـــكلٍ كبيرٍ بين العمريّ والصفديّ وبدر الدّين الغزّيّ، وهذا شكّل فنّاً خالصاً عُرف بالشتويّات، تكفّل برسم صورة واضحة لمظاهر الشّتاء وعبثه وإفساده على النّاس بعض أمورهم، وهدمه للمنازل والجدران وما إلى ذلك من صور رسموها.

ولم تُنْسِ الكتّاب شدّة أهوال الكوارث الطبيعيّة من أمراض سارية فتّاكة، وهزّات وزلازل مـــن وصـــفها، فوصفوا الأمراض وقوافل الموتى، كما وصفوا الآثار المترتّبة على الهزّات الأرضيّة التي ألحقت الأذى والدّمار بالمباني والحصون والقلاع.

وسجّلت الرسالة الفنيّة مذكّرات السلاطين وقادتهم في رحلات صيدهم، فوصفت رحيل السلطان إلى مكان الصيد، ورسمت مشهداً نهارياً وآخر ليليّاً، كما أعطت تفصيلاً دقيقاً عن طبيعة رمي البندق وعدّة الطير الجليل ورماته، ومكان وجوده، ووقت صيده.

بينما ساهمت رسائل المفاخرات والأسئلة والأجوبة في كشف قوّة الإبداع وسوق الأدلـــة والبـــراهين والمحاججـــة العقليّة وامتحان القرائح، وإظهار البراعة والابتكار، وشكّلت صفحة مشرقة في تاريخ الرسالة الفنيّة.

ومن خلال دراسة تلك الأنواع تبيّن أنها في مجملها تحمل بناءً مطاطاً، لكنّه أكثر ثـــباتاً في الرسالة الرسميّة التي كان مصدرها ديوان الإنشاء، حيث وضع المقنّنون لها الدســـاتير التـــي كفلـــت رسم بنيتها الكليّة من المقدمات والتنوّع والخواتيم، بينما بقيت الرســـالة الإخوانـــيّة والتعبيريّة في حيّز من أمرها إلاّ أنّ الرسالة التعبيريّة كانت أكثر انطلاقاً من الإخوانية.

وقــد ســلكت الرسالة أُسلوباً في مجمله واضحاً بعيداً عن التعقيد والغموض مع تفــاوتٍ فــي بعض الأحيان بين الكتّاب، فكانت لغتهم سلسة سهلة يتخلّلها أحياناً بعض الركالة عند استخدام بعض مصطلحات اللغة والنحو خاصة في نثر ابن الورديّ.

ونــوّع الكتّاب في صورهم، فتعدّدت مصادرها، فمنها المستمدّ من القرآن الكريم وقصصـــه، وبعضها من الحديث الشريف إضافة إلى الكمّ الهائل المتكئ على المصادر الأدبيّة والتراثيّة.

وشــكّلت المدرســة الفاضليّة هاجساً حقيقيّاً في أذهانهم، فولعوا بأُسلوب القاضي الفاضل، وترسّموا خطاه في فنون البديع، وحلّوا بها رسائلهم، فكثر السجع حتى لا تخلو رســالة مــنه، وكــذلك اهــتمّوا بالجناس والطباق والتورية وبراعة الاستهلال وحُسن الخواتيم، وغير ذلك من فنون بديعيّة.

وتلمّست الدراسة بذور بعض المناهج النقديّة الحديثة؛ كالتّناص وقوانين الأدبيّة، فرصـــدت بعــض النتائج التي تؤكّد وجود جذور هذا المنهج في رسائلهم، ولكنّه تحت مســمّيات عصرهم؛ كالاقتباس والاستشهاد والتضمين وحلّ المنظوم، فتصدّت الرسالة لبعض الأمثلة بالوصف والتحليل.

كمــا كشفت الخلاصة القصيرة في مبحث الشعرية عن اهتمامهم بقوانين الأدبيّة في رسائلهم الفنيّة، فولعوا بإضفاء مظاهر القصيدة على الرسالة، فاقتربت تلك الرسالة كثيــراً مــن القصيدة، وانزاحت اللغة من وظيفة الإخبار إلى الأدبيّة، وهذا يؤكّد مدى وعيهم بقوانين الأدبيّة السائدة في هذا العصر.

ثبت المصادر والمراجع والدوريات

آل محمــود، أحمــد محمود. (د.ت). البيعة في الإسلام (تاريخها وأقسامها بين النظرية والتطبيق). دار البيارق، البحرين.

آل ياسين، الشيخ محمد حسن. (1946). معجم النبات والزراعة. (الطبعة الثانية). مكتبة الهلال، بيروت.

الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد. (850هـ/1446م). (1994). المستطرف في كـل فـن مسـتظرف. طـبعة جديدة منقّحة، منشورات دار ومكتبة الحياة – بيروت.

ابـن الأثير، ضياء الدين نصر الله (637هـ/1239م). (1939)، المثل السائر في أدب الكاتـب والشاعر. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصـر.

ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله (637هـ/1239م). (1989). الوشي المرقوم في حلّ المنظوم. تحقيق جميل سعيد، مطبعة المجمع العراقي.

الإسـكافي، أبو عبد الله محمد (421هـ/1030م). (1997). كتاب مبادئ اللغة. حقّقه يحيى عبابنة وعبد القادر الخليل، (الطبعة الأولى). وزارة الثقافة، عمّان.

إقبال، عبّاس. (2000). تاريخ المغول. ترجمة عبد الوهاب علّوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي.

أمين، فوزي. (1982). المجتمع المصري في العصر المملوكي الأول. دار المعارف، القاهرة.

اصطيف، عبد النبي. (1992). التناص ظاهرة قديمة. راية مؤتة، مجلد 2، عدد 2.

ابن حجّة، تقيّ الدين أبو بكر علي الحموي (837هـ/1433م). (1991). خزانة الأدب وغايـة الأرب. شـرح عصام شعيتو، (الطبعة الثانية). دار ومكتبة الهلال، بيروت.

ابـن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني (852هـ/1448م). (1966). الدُرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. تحقيق محمد سيّد جاد الحقّ، (الطبعة الثانية). مطبعة المدني، القاهرة.

الحجّي، حياة ناصر. (1986). أحوال العامّة في حكم المماليك. (الطبعة الأولى). شركة كاظمة للنشر والتوزيع، الكويت.

الحجّي، حياة ناصر. (1995). أنماط من الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في سلطنة المماليك في القرنين الثامن والتاسع الهجريين. ذات السلاسل، الكويت.

الحجّـي، حـياة ناصر. (1983). السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده. (الطبعة الأولى). مكتبة الفلاح، الكويت.

الحجّـي، حـياة ناصر. (1980). العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية في القـرنين الـثامن والتاسع الهجري، الرابع والخامس عشر الميلادي، دراسة وثائقية. (الطبعة الأولى)، الكويت.

الحداد، محمد حمزة إسماعيل. (1993). السلطان المنصور قلاوون. (الطبعة الأولى). مكتبة مدبولي، القاهرة.

حسني، المختار. (1997). من التناص إلى الإطراس. علامات في النقد، مجلد 7، عدد 25، جدّة.

حسين، أحمد جاسم. (2000). الشعرية (قراءة في تجربة ابن المعتز العباسي). (الطبعة الأولى). الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق.

الحلبــي، الشــهاب محمــود (725هـ/1324م). (1980). حُسن التوسُّل إلى صناعة الترسُّــل. تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية.

حمــادة، محمد ماهر: (1983). الوثائق السياسيّة والإدارية للعصر المملوكي. (الطبعة الثانية). مؤسسة الرسالة، بيروت.

ابــن حمــوي، ياقوت (626هـ/1229م). (1993). معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معــرفة الأديــب). تحقــيق إحســان عــبّاس، (الطبعة الأولى). دار الغرب الإسلامي، بيروت.

ابــن خلدون، عبد الرحمن (808هـ/1405م). (د.ت). تاريخ ابن خلدون. ضبط خليل شحادة، دار الفكر.

ابــن خلدون، عبد الرحمن (808هـ/1405م). (د.ت). مقدمة ابن خلدون. دار الجيل، بيروت.

داعــي الــدعاة، المؤيّد في الدين (470هـ/1077م). (1949). الديوان. تقديم وتحقيق محمد كامل حسين، (الطبعة الأولى). دار الكتــاب المصــري.

داعي الدعاة، المؤيّد في الدين (470هـ/1077م). (1974). المجالس المؤيّديّة. تحقيق وتقديم مصطفى غالب، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت.

الدروبــي، ســمير محمــود. (2002). حــركة الترجمة والتعريب في ديوان الإنشاء المملوكي. مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، سنة 26، عدد 62.

الدروبــي، سمير محمود. (1984). رسائل الإمام النووي إلى الظاهر بيبرس. المجلة الثقافيّة، تصدر عن الجامعة الأردنية، العدد الثالث.

الدروبـــي، ســمير محمـــود. (2001). الرمز في مقامات السيوطي. (الطبعة الأولى). مؤسسة الرسالة، عمّان.

الدروبـــي، سمير محمود. (1999). ظاهرة التعدّد والكثرة في مؤلّفات السيوطي. مجلة المنارة، جامعة آل البيت، مجلد 4، عدد 3، 1420هـ/1999م.

الدروبي، محمد محمود. (1999). الرسائل الفنيّة في العصر العباسي حتى نهاية القرن الـثالث الهجـري. (الطـبعة الأولى). دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن.

الدميـري، كمـال الدين محمد بن موسى (808هـ/1405م). (1978). حياة الحيوان الكبـرى. (الطـبعة الخامسة). شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

أبـو ديـب، كمال. (1987). في البنية الإيقاعيّة للشعر العربي. (الطبعة الثالثة). دار الشؤون الثقافيّة العامة، بغداد.

الرباعي، عبد القادر. (1995). طاقة اللغة وتشكيل المعنى في قصيدة الربيع لأبي تمّام دراسة نصيّة. فصول، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني، صيف.

الـزبيدي، محمـد مرتضى الحسيني (1205هـ/1790م). (1972). تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق إبراهيم الترزي، مطبعة حكومة الكويت.

الزعبـي، أحمـد. (1995). التناص نظرياً وتطبيقياً. (الطبعة الأولى). مكتبة الكتاني، إربد.

الزعبي، أحمد. (1993). مقالات في الأدب والنقد، مكتبة الكتاني، إربد.

زقلمة، أنور. (1995). المماليك في مصر. (الطبعة الأولى). مكتبة مدبولي، القاهرة.

أبـــو زهـــرة، محمـــد. (1992). الدعوة إلى الإسلام. طبعة جديدة، دار الفكر العربي، القاهـــرة.

الســـبكي، تـــاج الدين عبد الوهاب (771هـ/1369م). طبقات الشافعيّة الكبرى. تحقيق محمـــود محمـــد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

الســـبكي، تـــاج الدين عبد الوهاب (771هـ/1369م). (د.ت). معيد النعم ومبيد النقم (الإصلاح السياسي والإداري في الدولة العربية الإسلاميّة). دار الحداثة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت.

ســـلاّم، محمـــد زغلـــول. (د.ت). الأدب فـــي العصـــر المملوكـــي. منشأة المعارف، الإسكندرية.

سلاّم، محمد زغلول. (1979). الأدب في العصر المملوكي (الدولة الأولى "648-783 هـ"). دار المعارف، القاهرة.

ســـليم، محمود رزق. (1955). عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي. مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـ/1505م). (1985). الأشباه والنظائر في النحو. تحقيق عـــبد العال سالم مكرّم، (الطبعة الأولى). مؤسسة الرسالة، بيروت.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـ/1505م). (د.ت). تاريخ الخلفاء. تحقيق محي الدين عبد الحميد.

الســـيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـ/1505م). (د.ت). الجامع الصغير في أحاديث البشر النذير. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911هـ/1505م). (1968). حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، (الطبعة الأولى)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1387هـ/1968م.

شبولير، بيرتولد. (1989). المغول في التاريخ. ترجمة يوسف شلب الشام، (الطبعة الأولى)، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

الشيباني، أحمد بن أبي الفتح (708هـ/1302م). (2002). رصف الفريد في وصف البريد. دراسة وتحقيق سمير الدروبي، (الطبعة الأولى)، مؤسسة الرسالة، عمان.

شيخ الربوة الدمشقي، شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري (727هـ/1327م). (1965). نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. طبع في مدينة بطربورغ في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية.

الشيزري، أمين الدين مسلم بن محمود توفي بعد (622هـ/1225م) ظناً. الفلاحة. مخطوط، جامعة مؤتة، الوثائق الخاصة، رقم التزويد 110088.

الصالحي، عبّاس مصطفى. (1981). الصيد والطرد في الشعر العربي حتى نهاية القرن الثامن الهجري. (الطبعة الأولى). المؤسسة الجامعيّة، بيروت.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/1362م). (1998). أعيان العصر وأعوان النصر. تحقيق علي أبي زيد وآخرين، (الطبعة الأولى)، دار الفكر، دمشق.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/1362م). ألحان السواجع بين البادي والمراجع. مخطوط، جامعة مؤتة، الوثائق الخاصة، رقم التزويد 107421.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/1362م). (1987). جنان الجناس (في علم البديع). تحقيق سمير حسين حلبي، (الطبعة الأولى)، دار الكتب العلمية، بيروت.

الصـــفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/1362م). (1979). فضّ الختام عن الـــتورية والاستخدام. دراسة وتحقيق المحمدي عبد العزيز الحناوي، (الطبعة الأولى)، دار الطباعة المحمديّة، القاهرة.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (764هـ/1362م). (1962). الوافي بالوفيات. اعتناء هلموت ريتر، (الطبعة الثانية)، بفسبـــادن.

ضـــيف، شـــوقي. (د.ت). عصـــر الـــدول والإمارات – الشام. (الطبعة الثانية)، دار المعارف، القاهرة.

عاشور، سعيد عبد الفتاح:

ضـــيف، شـــوقي. (1976). العصر المماليكي في مصر والشام. (اطبعة الثانية)، دار النهضة العربية، القاهرة.

ضـــيف، شـــوقي. (1962). المجـــتمع المصري في عصر سلاطين المماليك. (الطبعة الأولى)، دار النهضة، القاهرة.

عاشور، فايد:

ضـــيف، شـــوقي. (1995). الجهـــاد الإســـلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي. (الطبعة الأولى)، جرّوس برس، طرابلس، لبنان.

ضيف، شوقي. (1975). العلاقات السياسيّة بين المماليك والمغول في الدولة المملوكيّة الأولى. دار المعارف، القاهرة.

عــبّاس، إحسان. (1988). عبد الحميد بن يحيي الكاتب (وما تبقّي من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء). (الطبعة الأولى)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان.

عبد الجواد، ليلى. (1986). علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحريـــة (659-784هـ/1261-1382م)، مجلة كلية الآداب، القاهرة، العدد 46، 47.

عــبد الــدايم، عبد العزيز محمود. (1996). مصر في عصري المماليك والعثمانيين. مكتبة نهضة الشرق. القاهرة.

عــبد الظاهر، محيي الدين (692هـ/1292م). (1961). تشريف الأيّام والعصور في ســيرة الملك المنصور. تحقيق مراد كامل، (الطبعة الأولى)، الناشر الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة.

بد الظاهر، محيي الدين (692هـ/1292م). (1976). الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر. تحقيق عبد العزيز الخويطر، (الطبعة الأولى)، الرياض.

عصــفور، جابــر أحمد. (د.ت). الصورة في التراث النقدي والبلاغي. دار المعارف، القاهرة.

العــلاّق، جعفر علي. (1997). الشعر والتلقّي (دراسات نقديّة). (الطبعة الأولى)، دار الشروق، عمّان.

ابــن العماد، عبد الحي الحنبلي (1089هـ/1678م). (د.ت). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. طبعة جديدة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

العمــري، أحمد بن يحيى (749هـ/1348م). (1993). التعريف بالمصطلح الشريف. تحقيق ودراسة سمير الدروبي، (الطبعة الأولى)، منشورات جامعة مؤتة.

عنتــرة (614م). (1992). الديوان بشرح الخطيب التبريزي. قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه مجيد طراد، (الطبعة الأولى)، دار الكتاب العربي.

ابـن العوّام، أبو زكريا الإشبيلي (580هـ/968م). (1988). كتاب الفلاحة. عربي – فرنسي، مدريد.

عيد، رجاء. (1995). النص والتناص، علامات في النقد، مجلد 5، عدد 18، جـدّة.

العينـي، بـدر الدين محمد (855هـ/1451م). (1987). عقد الجمان في تاريخ أهل الزّمان. تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصريـة العامة للكتاب.

الغذّامـي، عبد الله. (1985). الخطيئة والتكفير (من البنيوية إلى التشريحية). (الطبعة الأولى)، النادي الأدبي الثقافي، جدّة.

غـرس الـدّين الظاهري، خليل بن شاهين (873هـ/1468م). (1894). زبدة كشف الممالـك وبـيان الطـرق والمسالك. صحّحه بولس راويس، طبع في مدينة باريس.

ف. هايـد. (1991). تـاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى. ترجمة أحمـد رضـا محمـد رضا، مراجعة عزّ الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتـاب.

أبـو الفـداء، الملك المؤيّد إسماعيل بن علي (732هـ/1331م). (1997). تاريخ أبي الفـداء المسمّى المختصر في أخبار البشر. علّق عليه ووضع حواشيه محمد ديّوب، (الطبعة الأولى)، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (807هـ/1405م). (1942). تاريخ ابن الفرات. تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت.

قاضي، وداد. (1985). بشر أبي كبار البلوي. (الطبعة الأولى)، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن (739هـ/1338م). (1991). الإيضـــاح فـــي علوم البلاغة. قدّم له وبوّبه وشرحه علي بو ملحم، (الطبعة الثانية)، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

القلقشـــندي، أحمـــد بن علي (821هـ/1418م). (1963). صبح الأعشى في صناعة الإنشـــا. نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميريّة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.

القلقشندي، أحمد بن علي (821هـ/1418م). (1964). مآثر الإنافة في معالم الخلافة. تحقيق عبد الستّار أحمد فرج، (الطبعة الأولى)، عالم الكتب، بيروت.

القلقشندي، أحمد بن علي (821هـ/1418م). (1980). نهاية الأرب في معرفة أنساب العـــرب. تحقـــيق إبراهيم الأبياري، (الطبعة الثانية)، دار الكتاب المصري، القاهرة.

القيراطـــي، بـــرهان الدين إبراهيم (781هـ/1379م). مطلع النيّرين، نسخة مخطوط، جامعة مؤتة، الوثائق الخاصة، رقم التزويد 102304.

القيسي، فايز عبد النبي. (د.ت). أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري. (الطبعة الأولى)، دار البشير للنشر والتوزيع، عمّان، د.ت.

الكاتـــب، علـــي بـــن خلف (عاش في منتصف القرن الخامس الهجري). (د.ت). مواد البـــيان. معهـــد تـــاريخ العلوم العربية والإسلاميّة، فرانكفورت، إصدار فؤاد سزكين.

الكاندهلـــوي، محمـــد يوســـف. (1995). حياة الصحابة. (الطبعة الأولى)، دار قتيبة، بيروت.

المغـيض، تركي. (1991). التناص في معارضات البارودي، مجلة أبحاث اليرموك، مجلد 9، عدد 2.

مفـتاح، محمـد: (1985). تحلـيل الخطـاب الشعري (استراتيجيّة التناص). (الطبعة الأولى)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

المقريـزي، أحمـد بن علي (845هـ/1441م). (1940). إغاثة الأمّة بكشف الغمّة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

المقريـزي، أحمد بن علي (845هـ/1441م). (1986). السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية.

المقريزي، أحمد بن علي (845هـ/1441م). (د.ت). المواعظ والاعتبار بذكر الخطط المقريزيّة. طبعة جديدة بالأوفست، دار صادر، بيروت.

المنصـوري، ركن الدين بيبرس (725هـ/1325م). (1998). زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. تحقيق دونالد س. ريتشاردز، (الطبعة الأولى)، بيروت.

ابـن مـنظور، جمـال الدين (711هـ/1311م). (د.ت). لسان العرب. دار صادر، بيروت.

منكلـي، محمد (784هـ/1382م). (1991). أنس الملا بوحش الفلا. دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحيّة، (الطبعة الأولى)، مؤسسـة الرسالة، عمّان.

موركاروفسـكي، يـان. (1984). اللغـة المعـيارية واللغة الشعرية. فصول، المجلد الخامس، العدد الأول، 1404هـ/1984م.

موليـر، السير وليم. (1995). تاريخ دولة المماليك في مصر. ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، (الطبعة الأولى)، مكتبة مدبولي، القاهرة.

الميدانـــي، أبو الفضل أحمد النيسابوري (518هـ/1124م). (1993). مجمع الأمثال. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.

ناجي، هلال. (2002). سمات العطاء الأدبي والفكري في القرن الثامن الهجري، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد 63، السنة 26، 1423هـ/2002م.

نـــاظم، حســـن. (1994). مفاهيم الشعرية. (الطبعة الأولى)، المركز الثقافي العربي، بيروت.

ابـــن نباتة، جمال الدين (768هـ/1366م). تعليق الديوان لسنة أربعة وأربعين. نسخة مخطوط، مكتبة جامعة مؤتة، الوثائق الخاصة، رقم التزويد 178755.

النووي، يحيى بن شرف (676هـ/1277م). (1992). رياض الصالحين من كلام سيّد المرسلين. أوضح معانيه مصطفى محمد عمارة، دار القلم العربي، حلب.

هســـي، ج.م. (1984). العـــالم البيزنطـــي. ترجمة وتقديم وتعليق رأفت عبد الحميد، (الطبعة الثالثة)، دار المعارف، القاهرة.

ابـــن الـــوردي، زين الدين عمر بن المظفّر (749هـ/1348م). (1996). تاريخ ابن الوردي. (الطبعة الأولى)، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن المظفّر (749هـ/1348م).(1986). الديوان. تحقيق أحمد فوزي الهيب، (الطبعة الأولى)، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت.